مروج الذهب

ومعادن الجوهر

تصنيف الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي

المتوفى في عام ٣٤٦ من الهجرة

الجزء الثالث

مؤسسة دار الهجرة

مروج الذهب

ومعادن الجوهر

تصنيف الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي
المتوفى في عام ٣٤٦ من الهجرة

الجزء الثالث

طبعة جديدة منقحة ، وتمتاز بالفهارس
العلمية الدقيقة المنوعة

من منشورات دار الهجرة
ايران قم

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب :	مروج الذهب
المؤلف :	المسعودی
الناشر :	مؤسسة دارالهجرة
الطبعة :	الثانية في ايران
المطبعة :	مطبعة الصدر
العدد :	۱۰۰۰ نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

۱۴۰۹ ﻫ

ذكر خلافة

معاوية بن أبي سفيان

وبويع معاوية في شوال سنة إحدى وأربعين ، ببيت المقدس، فكانت أيامه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وتوفي في رجب سنة إحدى وستين ، وله ثمانون سنة ، ودفن بدمشق بباب الصغير ، وقبره يُزار إلى هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – وعليه بيت مبني يفتح كل يوم اثنين وخميس .

ذكر لمع من أخباره

وسيره ونوادر من بعض أفعاله

مقتل حجر الكندي : وفي سنة ثلاث وخمسين قَتَلَ معاوية حُجْرَ بن عدي الكندي ، وهو أول من قتل صبراً في الاسلام : حمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها فلما صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أنشأت ابنته تقول ولا عقب له من غيرها :

ترفَّعْ أيها القمر المنـــير	لعلك أن ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب	ليقتله ، كذا زعم الأمـــير
ويَصْلبه على بابَيْ دمشق	وتأكل من محاسنه النســور
تخيرت الخبائر بعد حُجْرٍ	وطاب لها الخورنق والسدير
ألا يا حجر حجر بني عدي	تلقتـــك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أرْدَى عليا	وشيخا في دمشق له زئير

ألا يا ليت حجراً مات موتاً ... ولم ينحر كما نحر البعير
فإن تهلك فكل عميد قوم ... إلى هلك من الدنيا يصير

ولما صار إلى مرج عذراء على اثني عشر ميلاً من دمشق تقدم البريد بأخبارهم إلى معاوية ، فبعث برجل أعور ، فلما أشرف على حجر وأصحابه قال رجل منهم : إن صدق الزَّجر فإنه سيقتل منا النصف وينجو الباقون ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : أما ترون الرجل المقبل مُصَاباً بإحدى عينيه ، فلما وصل إليهم قال لحجر : إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لأبي تراب وقتل أصحابك ، إلا أن ترجعوا عن كفركم ، وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه ، فقال حجر وجماعة ممن كان معه : إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه ، ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب الينا من دخول النار ، وأجاب نصف من كان معه الى البراءة من علي ، فلما قدم حجر ليقتل قال : دعوني أصلي ركعتين ، فجعل يطول في صلاته ، فقيل له : أَجَزَعاً من الموت فقال : لا ، ولكني ما تطهرت للصلاة قط إلا صليت وما صليت قط أخف من هذه ، وكيف لا أجزع ، وإني لأرى قبراً محفوراً ، وسيفاً مشهورا ، وكفناً منشوراً ، ثم تقدم فنحر ، وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه ، وقيل : إن قتلهم كان في سنة خمسين .

عدي بن حاتم ومعاوية : وذكر أن عدي بن حاتم الطائي دخل على معاوية ، فقال له معاوية : ما فعلت الطرفات ؟ يعني أولاده ، قال : قتلوا مع علي ، قال : ما انصفك عَلِيّ قتل أودلاك ويقي أولاده ، فقال عدي : ما أنصفت علياً ، اذ قتل وبقيتَ بعده ، فقال معاوية : أما إنه قد بقيت قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلا دم شريف من أشراف اليمن ، فقال عدي : والله إن قلوبنا التي أبغضناك بها لفي

صدورنا ، وان أسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن أدنيت الينا من الغدر فتراً لندنينّ إليك من الشر شبراً ، وإن حزّ الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي ، فسلم السيف يا معاوية لباعث السيف ، فقـال معاوية : هذه كلمات حكم فاكتبوها ، وأقبل على عدي محادثاً له كأنه ما خاطبه بشيء .

بين عمرو بن عثمان وأسامة عند معاوية : وذكر أن معاوية بن أبي سفيان تنازع إليه عمرو بن عثمان بن عفان وأسامة بن زيـد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض ، فقال عمرو لأسامة : كأنك تنكرني ، فقال أسامة : ما يسرني نسبك بولائي ، فقام مروان بن الحكم فجلس الى جانب عمرو بن عثمان ، وقـام الحسن فجلس الى جانب أسامة ، فقام سعيد بن العاص فجلس الى جانب مروان ، فقام الحسين فجلس الى جانب الحسن ، وقام عبد الله بن عامر فجلس الى جانب سعيد ، فقام عبد الله بن جعفر فجلس الى جانب الحسين ، وقام عبد الرحمن ابن الحكم فجلس الى جانب ابن عامر ، فقام عبدالله بن العباس فجلس الى جانـب ابن جعفر ، فلما رأى ذلك معاوية قال : لا تعجلوا ، أنا كنت شاهداً إذ أقطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة ، فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين ، وأقبل الأمويون عليه فقالوا : ألا كنت أصلحت بيننا ، قـال : دعوني فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لبس علي عقلي ، وإن الحرب أولها نجوى ، وأوسطها شكوى ، وآخرها بلوى ، وتمثل بأبيات امرىء القيس المتقدمة في هذا الكتاب في أخبار عمر رضي الله عنه ؛ وأولها :

الحرب أول ما تكون فتية   تدنو بزينتها لكل جهول

ثم قال : ما في القلوب يشب الحروب ، والأمر الكبير يدفعه الأمر الصغير وتمثل :

قد يلحق الصغير بالجليل وإنما القَرْمُ من الأفيل
وتسحق النخل من الفسيل

الحاق زياد بأبي سفيان : قال المسعودي : ولما هم معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان أبيه — وذلك في سنة ٤١ م وأربعين — شهد عنده زياد ابن أسماء الحرمازي، ومالك بن ربيعة السلولي والمنذر ابن الزبير بن العوام أن أبا سفيان أخبر أنه ابنه ، وأن أبا سفيان قال لعلي عليه السلام حين ذكر زياد عند عمر بن الخطاب :

أما والله لولا خوف شخص يراني يا عليُّ من الأعادي
لبين امره صخرُ بن حرب ولم يكن الجمجم عن زياد
ولكني اخاف صروف كف لها نقم ونفيٌ عن بلادي
فقد طالت محاولتي ثقيفاً وتركي فيهمُ ثمر الفؤاد

ثم زاده يقيناً الى ذلك شهادة أبي مريم السلولي ، وكان اخبر الناس ببدء الامر وذلك انه جمع بين أبي سفيان وسُمَيّة ام زياد في الجاهلية على زنا ، وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدي الضريبة الى الحارث بن كلدة ، كانت تنزل بالمرضع الذي تنزل فيه البغايا بالطائف خارجاً عن الحضر في محلة يقال لها حارة البغايا .

وكان سبب ادعاء معاوية له فيما ذكر ابو عبيدة مَعْمَر بن المثنى ان علياً كان ولاه فارس حين اخرج منها سهل بن حنيف ، فضرب زياد ببعضهم بعضاً حتى غلب عليها ، وما زال يتنقل في كوَرها حتى صلح امر فارس ، ثم ولاه على اصطخر ، وكان معاوية يتهدده ، ثم اخذ بُسْر بن أرطاة عبيد الله وسالماً ولديه وكتب اليه يقسم ليقتلنهما إن لم يراجع ويدخل في طاعة معاوية ، وكتب معاوية الى بُسْر ألا يعرض لابني زياد ، وكتب الى زياد ان يدخل في طاعته

ويردّه الى عمله ، فقدم زياد على معاوية فصالحه على مال وحلي ، ودعاه معاوية الى ان يستحلفه ، فأبى زياد ذلك ، وكان المغيرة بن شعبة قال لزياد قبل قدومه على معاوية : ارم بالغرض الأقصى ، ودع عنك الفضول ، فإن هذا الأمر لا يمد اليه أحد يداً الا الحسن بن علي وقد بايع لمعاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطين ، فقال زياد : فأشر علي قال : أرى ان تنقل اصلك الى اصله ، وتصلَ حبلك بحبله ، وأن تعير الناس منك اذناً صماء ، فقال زياد : يا ابن شعبة ، أأغرس عوداً في غير منبته ولا مَدَرَة فتحييه ولا عرق فيسقيه ؟ ثم ان زياداً عزم على قبول الدعوى وأخذ برأي ابن شعبة ، وأرسلت اليه جويرية بنت أبي سفيان عن أمر أخيها معاوية ، فأتاها فأذنت له وكشفت عن شعرها بين يديه ، وقالت : انت اخي اخبرني بذلك أبو مريم ، ثم اخرجه معاوية الى المسجد ، وجمع الناس ، فقام أبو مريم السلولي فقال : أشهد أن ابا سفيان قدم علينا بالطائف وأنا خمّار في الجاهلية فقال : ابغني بغياً ، فأتيته وقلت له : لم أجد الا جارية الحارث بن كلدة سمية ، فقال : ائتني بها على ذفرها وقذرها ، فقال له زياد : مهلاً يا أبا مريم ، إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً ، فقال أبو مريم : لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلي ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها وأغلقت الباب عليها وقعدت دهشاناً ، فلم ألبث أن خرج علي يمسح جبينه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا مريم ، لولا استرخاء من ثديها وذفر من فيها ، فقام زياد فقال : ايها الناس ، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم ، ولست أدري حق ذلك من باطله ، وإنما كان عبيد ربيباً مبروراً أو ولياً مشكوراً ، والشهود أعلم بما قالوا فقام يونس بن عبيد أخو صفية بنت عبيد بن أسد بن علاج الثقفي — وكانت صفية مولاة

سمية — فقال : يا معاوية ، قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر وقضيت أنت أن الولد للعاهر وأن الحجر للفراش ، مخالفة لكتاب الله تعالى ، وانصرافاً عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان ، فقال معاوية : والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئاً وقوعها ، فقال يونس : هل إلا الى الله ثم أقع ؟ قال : نعم وأستغفر الله ، فقال عبد الرحمن بن أم الحكم في ذلك ويقال : إنه ليزيد بن مفرغ الحميري :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلةً عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال : أبوك عفٌ وترضى أن يقال : أبوك زاني ؟
فاشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

وفي زياد إخوته يقول خالد النجاري :

إن زياداً ونافعاً وأبا بكرةَ عندي من أعجب العجب
ان رجالا ثلاثة خلقوا من رحم أنثى مخالفي النسب
ذا قرشي فيما يقول ، وذا مولًى ، وهذا بزعمه عربي

ولما قتل علي كرم الله وجهه كان في نفس معاوية من يوم صفين على هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال وولده عبدالله بن هاشم إحَنٌ ، فلما استعمل معاوية زيادا على العراق كتب إليه ، أما بعد : فانظر عبدالله بن هاشم بن عتبة ، فشدّ يده إلى عنقه ، ثم ابعث به إلي ، فحمله زياد من البصرة مقيداً مغلولا إلى دمشق وقد كان زياد طرقه بالليل في منزله بالبصرة ، فأدخل إلى معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمرو بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صفين :

إني شَرَيْتُ النفس لما اعتلا ... وأكثَرَ اللوم وما أقلا
أعور يبغي أهله محلا ... قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد أن يفلّ أو يُفَلا ... أشلّهم بذي الكعوب شلا
لا خير عندي في كريم ولى .

فقال عمرو متمثلا :

وقد ينبتُ المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا

دونك يا أمير المؤمنين الضب المضب فاشخب أوداجه على أسباجه ، ولا تردّه الى أهل العراق ، فإنه لا يصبر على النفاق ، وهم أهل غدر وشقاق ، وحزب إبليس ليوم هيجاء ، وأن له هوى سيرديه ، ورأياً سيطغيه ، وبطانة ستقويه ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فقال عبدالله : يا عمرو ، إن أقتل فرجلٌ أسلمه قومه ، وأدركه يومه ، أفلا كان هذا منك اذ تحيد عن القتال ، ونحن ندعوك الى النزال ، وأنت تلوذ بسمال النطاف ، وعقائق الرصاف ، كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء ، لا تدفع يد لامس ، فقال عمرو : أما والله لقد وقعت في لهاذم شذقم للأقران ذي لبد ، ولا أحسبك منفلتاً من مخاليب أمير المؤمنين ، فقال عبدالله : أما والله يا ابن العاص انك لبطر في الرخاء ، جبان عند اللقاء ، غشوم اذا وليت ، هيابة اذا لقيت ، تهدر كما يهدر العَوْد المنكوس المقيد بين مجرى الشول لا يستعجل في المدة ، ولا يرتجى في الشدة ، أفلا كان هذا منك اذا غمرك أقوام لم يعنفوا صغاراً ، ولم يمزقوا كباراً ، لهم أيدٍ شداد ، وألسنة حداد ، يدعمون العوج ، ويذهبون الحرج ، يكثرون القليل ، ويشفون الغليل ، ويعزون الذليل ، فقال عمرو : أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق أحشاؤه ، وتبق امعاؤه ، وتضطرب اطلاؤه ، كأنما انطبق عليه صمد ، فقال عبدالله : يا عمرو ، إنا قد بلوناك ومقالتك فوجدنا لسانك كذوباً

غادراً ، خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجند لا يسامونك ، ولو رمت المنطق في غير اهل الشام لجحظ اليك عقلك ، ولتلجلج لسانك ، ولاضطرب فخذاك اضطراب القَعود الذي اثقله حمله ، فقال معاوية : ايهاً عنكما ، وأمر باطلاق عبدالله ، فقال عمرو لمعاوية :

أمرتك أمراً حـــازماً فعصيتني ... وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه يا معاوية الذي ... أعان علياً يوم حزّ الغَلاصم
فلم ينثني حتى جرت من دمائنا ... بصفين أمثال البحور الخضارم
وهذا ابنه والمرء يُشبه شيخه ... ويوشك أن تقرع به سن نادم

فقال عبد الله يجيبه :

معاوي إن المرء عمراً أبت له ... ضغينةُ صدرٍ غِشُّها غير نائم
يرى لك قتلي يا ابن هند ، وإنما ... يرى ما يرى عمرو ملوك الأعاجم
على أنهم لا يقتلون أسيرهم ... إذا منعت عنه عهود المسالم
وقــد كان منا يوم صِفّين نفرة ... عليك جنـاها هاشم وابن هاشم
قضى ما انقضى منها وليس الذي مضى
ولا مـــا جرى إلا كأضغاث حالم
فإن تعفُ عني تعف عن ذي قرابة
وإن تر قتلي تستحل محـــارمي

فقال معاوية :

أرى العفو عن عُليا قريش وسيلة ... إلى الله في يوم العصيب القماطر
ولست أرى قتلي الغداة ابن هاشم ... بإدراك ثأري في لؤي وعامر
بل العفو عنه بعد ما بان جُرمهُ ... وزلت به إحدى الجدود العواثر
فكان أبوه يوم صفين جمرة ... علينا فأردته رمـــاحُ نهابر

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :

من يخبرني عن الجود والنجدة والمروءة ؟ فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ، أما الجود فابتذال المال ، والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجراءة على الأقوام ، والصبر عند ازورار الأقدام ، وأما المروءه فالصلاح في الدين ، والإصلاح للمال ، والمحاماة عن الجار .

ولما صرف علي رضي الله عنه قيس بن سعد بن عُبادة عن مصر وجه مكانه محمد بن أبي بكر ، فلما وصل اليها كتب الى معاوية كتاباً فيه : من محمد بن أبي بكر ، إلى الغاوي معاوية بن صخر ، أما بعد ، فإن الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عبَثٍ منه ، ولا ضعف في قوته ، ولا حاجة به الى خلقهم ، ولكنه خلقهم عبيداً ، وجعل منهم غوياً ورشيداً ، وشقياً وسعيداً ، ثم اختار على علم واصطفى وانتخب منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فانتخبه بعلمه ، واصطفاه برسالته ، وائتمنه على وحيه ، وبعثه رسولا ومبشراً ونذيراً ووكيلا ، فكان أول من أجاب وأناب وآمن وصدق وأسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب : صدقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كل حميم ، ووقاه بنفسه كل هول ، وحارب حربه ، وسالم سلمه ، فلم يبرح مبتذلاً لنفسه في ساعات الليل والنهار والخوف والجوع والخضوع حتى برز سابقاً لا نظير له فيمن اتبعه ، ولا مقارب له في فعله ، وقد رأيتك تساميه وأنت أنت ، وهو هو ، أصدق الناس نية ، وأفضل الناس ذرية ، وخير الناس زوجة ، وأفضل الناس ابن عم : أخوه الشاري بنفسه يوم مؤتة ، وعمه سيد الشهداء يوم أحد ، وأبوه الذابّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حوزته ، وانت اللعين ابن اللعين لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الغوائل ، وتجهدان في إطفاء نور الله ، تجمعان على ذلك الجموع ، وتبذلان فيه المال ، وتؤلّبان عليه القبائل ، وعلى ذلك مات أبوك ، وعليه خلفتَه ، والشهيد عليك من تدنى ويلجأ

إليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق ، والشاهد لعلي — مع فضله المبين القديم — أنصاره ، الذين معه وهم الذين ذكرهم الله بفضلهم ، وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ، وهم معه كتائب وعصائب ، يَرَوْنَ الحق في اتباعه والشقاء في خلافه ، فكيف — يا لك الويل ! — تعدِلُ نفسك بعليّ وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ووصيه وأبو ولده : أول الناس له أتباعاً ، وأقربهم به عهداً ، يخبره بسره ، ويطلعه على أمره ، وأنت عدوه وابن عدوه ، فتمتع في دنياك ما استطعت بباطلك ، وليمددك ابن العاص في غوايتك ، فكأن أجلك قد انقضى وكيدك قد وَهَى ، ثم يتبين لك لمن تكون العاقبة العليا ، واعلم أنك إنما تكايد ربك الذي أمنتَ كَيْده ، ويئست من رَوْحه ؛ فهو لك بالمرصاد ، وأنت منه في غرور ، والسلام على من اتبع الهدى .

فكتب إليه معاوية : من معاوية بن صخر ، إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر . أما بعد : فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في عظمته وقدرته وسلطانه ، وما اصطفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، مع كلام كثير لك فيه تضعيف ، ولأبيك فيه تعنيف ، ذكرت فيه فضل ابن أبي طالب ، وقديم سوابقه ، وقرابته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومُوَاساته إياه في كل هَوْل وخوف ، فكان احتجاجك عليّ وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك ، فاحمد رباً صرف هذا الفضل عنك ، وجعله لغيرك ، فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحَقّه لازماً لنا مبروراً علينا ، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده ، وأتم له ما وعده ، وأظهر دعوته ، وأبلج حجته ، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه ، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حَقّه ، وخالفه على أمره ،

على ذلك اتفقا واتسقا ، ثم إنهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما ، وتلكأ عليهما ، فهما به الهموم ، وأرادا به العظيم ، ثم إنه بايع لهما وسلم لهما ، وأقاما لا يشركانه في أمرهما ، ولا يطلعانه على سرهما ، حتى قبضهما الله ، ثم قام ثالثهما عثمان فهدي بهديهما وسار بسيرهما ، فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهـل المعاصي ، فطلبتما له الغوائل ، وأظهرتما عداوتكما فيه حتى بلغتما فيه مُناكما ، فخذ حذرك يا ابن أبي بكر ، وقس شبرك بفترك ، يقصر عن أن توازي أو تساوي مَنْ يزن الجبال بحلمه ، لا يلين عن قسر قناته ، ولا يدرك ذو مقال أناته أبوك مهد مهاده ، وبنى لملكه وساده ، فإن يك ما نحن فيه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ، ولسلّمنا إليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله ، فعب أباك بما بدا لك أو دَعْ ذلك ، والسلام على من أناب .

كتاب معاوية الى علي : ومما كتب به معاوية إلى عليّ : أما بعد ، فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نرمّ به ما مضى ، ونصلح به ما بقي ، وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمني لك طاعة ، وأنا أدعوك اليوم الى ما دعوتك إليه أمس ، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف ، وقد والله رقّت الأجناد ، وذهبت الرجـال ، ونحن بنو عبد مناف ، وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ، ويسترق به حر ، والسلام .

جواب علي لمعاوية : فكتب إليه عليّ كرم الله وجهه : من علي ابن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد : فقـد جاءني

كتابك تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضُنا على بعض، وأنا وإياك نلتمس منها غاية لم نبلغها بعد، فأما طلبك مني الشام فإني لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا في الخوف والرجاء فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام على الدنيا بأحْرَصَ من أهل العراق على الآخرة، وأما قولك نحن بنو عبد مناف فكذلك نحن، وليس أمية كهاشم، ولا حَرْب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا الطليق كالمهاجر، ولا المبطل كالمحقّ، وفي أيدينا فضل النبوة التي قَتَلْنَا بها العزيز، وبعنا بها الحر، والسلام.

بين سعد ومعاوية: وحدث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، عن محمد بن حميد الرازي، عن أبي مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، قال: لما حج معاوية طاف بالبيت ومعه سعد، فلما فرغ انصرف معاوية الى دار النَّدْوَة، فأجلسه معه على سريره، ووقع معاوية في علي وشرع في سَبِّه، فزحف سعد ثم قال: أجلستني معك على سريرك ثم شرعت في سب علي، والله لأن يكون فيّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب الي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس: والله لأن أكون صهراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لي من الولد ما لعلي أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ما قاله يوم خيبر: «لأعطينّ الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، ليس بفرّار يفتح الله على يديه» أحبُّ الي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ما قال له في غزوة تبوك: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»

أحبُّ الي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، وأيم الله لا دخلت لك داراً ما بقيت ؛ ثم نهض .

ووجدت في وجه آخر من الروايات ، وذلك في كتاب علي بن محمد بن سليمان النوفلي في الأخبار ، عن ابن عائشة وغيره ، أن سعداً لما قال هذه المقالة لمعاوية ونهض ليقوم ضَرَطَ له معاوية ، وقال له : اقعد حتى تسمع جواب ما قلت ، ما كُنْتَ عندي قط ألأم منك الآن ؛ فهلا نصرته ، ولم قعدت عن بيعته ؟ فإني لو سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم مثل الذي سمعت فيه لكنت خادماً لعلي ما عشت ، فقال سعد : والله إني لأحق بموضعك منك ، فقال معاوية : يأبى عليك ذلك بنو عذرة ، وكان سعد فيما يقال لرجل من بني عذرة ، قال النوفلي : وفي ذلك يقول السيد بن محمد الحميري :

سائل قريشا بها إن كنت ذا عَمَهٍ ... من كان أثْبَتَها في الدين أوتادا
من كان أقدمها سلما ، وأكثرها ... علما ، وأطهرها أهلا وأولادا
من وحّد الله إذ كانت مكذبة ... تدعو مع الله أوثانا وأندادا
من كان يُقْدِمُ في الهيجاء إن نكلوا ... عنها، وإن بخلوا في أزمة جادا
من كان أعدلها حكماً وأقسطها ... حلماً ، وأصدقها وعداً وإيعادا
إن يَصْدُقوك فلم يَعْدُوا أبا حسن ... إن أنت لم تلق للأبرار حسادا
إن أنت لم تلق من تيم أخا صَلَفٍ ... ومن عدي لحق الله جُحّادا
أو من بني عامر ، أو من بني أسد ... رَهْطِ العبيد ذوي جهل وأوغادا
أو رهط سعد، وسعد كان قد علموا ... عن مستقيم صراط الله صَدّادا
قوم تَدَاعَوْا زنيا ثم سادهُمُ ... لولا خمول بني زهر لما سادا

وكان سعد وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة ممن قعد عن علي بن أبي طالب ، وأبوا أن يبايعوه هم وغيرهم ممن ذكرنا من القُعّاد عن بيعته وذلك أنهم قالوا : إنها فتنة ، ومنهم من

قال لعلي : أعطنا سيوفاً نقاتل بها معك فإذا ضربنا بها المؤمنين لم تعمل فيهم ونبَت عن أجسامهم ، وإذا ضربنا بها الكافرين سرَت في أبدانهم ، فاعرض عنهم عليّ ، وقال : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى وغيره من الأخباريين أن الأمر لما أفضى إلى معاوية أتاه أبو الطفيل الكناني فقال له معاوية : كيف وجْدُكَ على خليلك أبي الحسن ؟ قال : كوجد أم موسى على موسى ، وأشكو إلى الله التقصير ، فقال معاوية : اكنت فيمن حضر قتل عثمان ؟ قال : لا ، ولكني فيمن حضر فلم ينصره ، قال : فما منعك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة ؟ قال : منعني ما منعك إذ تربّصُ به ريْبَ المنون وأنت بالشام ، قال : أو ما ترى طلبي بدمه نصرة له ؟ قال : بلى ، ولكنك وإياه كما قال الجعدي :

لا ألفينَّكَ بعد الموت تندُبني وفي حياتيَ ما زودتني زادا

ودخل على معاوية ضرار بن الخطاب فقال له : كيف حزنك على أبي الحسن ؟ قال : حزن من ذُبح ولدها على صدرها فما ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها .

ومما جرى بين معاوية وبين قيس بن سعد بن عبادة حين كان عاملاً لعليّ على مصر ، فكتب اليه معاوية : أما بعد ، فإنك يهودي ابن يهودي ، إن ظفر أحب الفريقين اليك عزلك واستبدل بك ، وإن ظفر أبغضهما اليك نكل بك وقتلك ، وقد كان أبوك أوتر قوسه ، ورمى غرضه ، فأكثر الحز وأخطأ المفصلَ ، فخذله قومه ، وأدركه يومه ، ثم مات بحوران طريداً .

فكتب اليه قيس بن سعد : أما بعد ، فإنما أنت وثني ابن وثني ، دخلت في الإسلام كرهاً ، وخرجت منه طوعا ، لم يقدم إيمانك ، ولم

يحدث نفاقك ، وقد كان أبي أوتر قوسه ، ورمى غرضه ، فشغب به من لم يبلغ عقبه ، ولا شق غباره ، ونحن أنصار الدين الذي منه خرجت ، وأعداء الدين الذي فيه دخلت .

ودخل قيس بن سعد بعد وفاة علي ووقوع الصلح في جماعة من الأنصار على معاوية ، فقال لهم معاوية : يا معشر الأنصار ، بم تطلبون ما قبلي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي كثيراً عليّ ، ولفللتم حدّي يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظّى في أسلتكم ، وهجوتموني في أسلافي بأشد من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله قلتم : ارعَ فينا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هيهات يأبى الحقين العذرة ، فقال قيس : نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما تمتُّ به اليك الأحزاب ، وأما عداوتنا لك فلو شئت كففتها عنك ، وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ويثبت حقه ، وأما استقامة الأمر فعلى كره كان منا ، وأما فلُّنا حدك يوم صفين فإنا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة ، وأما وصية رسول الله بنا فمن آمن به رعاه بعده ، وأما قولك يأبى الحقين العذرة فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية ، فقال معاوية يموه : ارفعوا حوائجكم .

وقد كان قيس بن سعد من الزهد والديانة والميل الى عليّ بالموضع العظيم ، وبلغ من خوفه الله وطاعته إياه أنه كان يصلي فلما أهوى للسجود إذا في موضع سجوده ثعبان عظيم مطوّق ، فمال عن الثعبان برأسه ، وسجد الى جانبه ، فتطوق الثعبان برقبته ، فلم يقصر من صلاته ولا نقص منها شيئاً ، حتى فرغ ، ثم أخذ الثعبان فرمى به ، كذلك ذكر الحسن بن علي بن عبد الله بن المغيرة عن معمر بن خلاد عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية ذات يوم : قد أعياني أن أعلم أجبان أنت أم شجاع ، لأني أراك تتقدم حتى أقول : أراد القتال ، ثم تتأخر حتى أقول أراد الفرار ، فقال له معاوية : والله ما أتقدم حتى أرى التقدم غنماً ، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزماً ، كما قال القطامي :

شجاعٌ إذا ما امكنتني فرصة وإلا تكن لي فرصة فجبان

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى عن أبي الأعز التيمي ، قال : بينا أنا واقف بصفين إذ مر بي العباس بن ربيعة مغفراً بالسلاح ، وعيناه تبصان من تحت المغفر كأنهما شعلتا نار أو عينا أرقم ، وبيده صفيحة له يمانية يقلبها ، والمنـــايا تلوح في شَفْرتها ، وهو على فرس صَعْب ، فبينا هو يبعثه ويمنعه ويلين من عريكته إذ هتف بــه هاتف يقال له عرار بن أدهم من أهــل الشام : يا عباس ، هلم إلى النزال قال : فالنزول اذاً ، فإنه إياس من الحياة ، فنزل إليه الشامي وهو يقول :

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلوا فإنا معشر نُزُلُ

وثنى العباس وركه وهو يقول :

الله يعلم أنا لا نحبكُــمُ ولا نلومكُمُ أن لا تحبونا

ثم عصر فضلات درعه في حزمه يريد منطقته ودفع فرسه إلى غلام له اسود كأني والله أنظر إلى فلافل شعره ، ثم زحف كل واحد منهما إلى صاحبه ، وكف الفريقان أعنة الخيول ينظرون ما يكون من الرجلين ، فتكافحا بسيفيهما ملياً من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته ، إلى أن لحظ العباس وهناً في درع الشامي فأهوى إليه بيده وهتكه إلى ثندوته ، ثم عاد لمجاولته ، وقد أفرج له مفتق الدرع ، فضربه العباس ضربة انتظم بها جوا

صدره ، فخر الشامي لوجهه ، فكبر الناس تكبيرة ارتجّت لها الأرض من تحتهم ، وانساب العباس في الناس ، فإذا قائل يقول من ورائي : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويُخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين - الآية) فالتفت فإذا بعلي رضي الله عنه ، فقال : يا ابن الأعز ، من المبارز لعدونا ؟ قلت : ابن اخيكم العباس بن ربيعة ، قال : وإنه لهو العباس ؟ قلت : نعم ، فقال : يا عباس ، ألم أنهك وعبد الله بن العباس أن تحلا بمركز أو تبارزا أحداً ؟ قال : إن ذلك كما قلت ، قال علي : فما عدا مما بدا ؟ قال : افأدعى إلى البراز فلا أجيب ؟ قال : طاعة إمامك أولى بك من إجابة عدوك ، وتغيظ واستطار ، ثم تطامن وسكن ورفع يديه مبتهلا ، فقال : اللهم اشكر للعباس مقامه ، واغفر ذنبه ، اللهم إني قد غفرت له فاغفر له ، وتأسف معاوية على عرار بن أدهم ، وقال : متى ينطق فحل بمثله أيطل دمه ! لاها الله ، ألا رجل يشري نفسه يطلب بدم عرار ، فانتدب له رجلان من لخم من أهل البأس ومن صناديد الشام ، فقال : اذهبا فأيكما قتل العباس فله مائة أوقية من التبر ومثلها من اللُّجين وبعددهما من برود اليمن ، فأتياه فدعواه إلى البراز ، وصاحا بين الصفين : يا عباس يا عباس ، ابرز إلى الداعي ، فقال : ان لي سيداً أريد أن أؤامره ، فأتى علياً وهو في جناح الميمنة يحرض الناس ، فأخبره الخبر ، فقال علي : والله لودّ معاوية أنه ما بقي من بني هاشم نافخ ضرمة إلا طعن في بطنه إطفاء لنور الله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) أما والله ليملكنهم منا رجال ورجال يسومونهم سوم الخسف حتى تعفو الآثار ، ثم قال : يا عباس ، ناقلني سلاحك بسلاحي ، فناقله ، ووثب على فرس العباس ، وقصد

اللخميين ، فلم يشكا أنه العباس ، فقالا له : أذن لك صاحبك ؟ فتحرج أن يقوله نعم ، فقال : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير) وكان العباس أشبه الناس في جسمه وركوبه بعلي ، فبرز له أحدهما فما أخطأه ، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول ، ثم أقبل وهو يقول (الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ثم قال : يا عباس ، خذ سلاحك وهات سلاحي ، فإن عاد لك أحد فعد لي ، ونما الخبر إلى معاوية فقال : قبح الله اللجاج إنه لعقور ما ركبته قط إلا خذلت ، فقال عمرو بن العاص : المخذول والله اللخميان ، والمغرور من غررته ، لا أنت المخذول ، قال : اسكت أيها الرجل فليس هذا من شأنك ، قال : وإن لم يكن ، رحم الله اللخميين ، ولا أراه يفعل ، قال : ذلك والله أضيق لحجتك وأخسر لصفقتك ، قال : قد علمت ذلك ، ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها ، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده ، فقال معاوية : مصر والله أعمتك ، ولولا مصر لألفيتك بصيراً ، ثم ضحك معاوية ضحكاً ذهب به كل مذهب ، قال : مم تضحك يا أمير المؤمنين ، أضحك الله سنك ؟ قال : أضحك من حضور ذهنك يوم بارزت علياً ، وإبدائك سوأتك ، أما والله يا عمرو لقد واقعت المنايا ، ورأيت الموت عياناً ، ولو شاء لقتلك ، ولكن أبى ابن أبي طالب في قتلك إلا تكرماً ، فقال عمرو : أما والله إني لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فاحولّت عيناك وبدا سحرك وبدا منك ما أكره ذكره لك ، فمن نفسك فاضحك أودع .

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن معاوية برز في بعض أيام صفين أمام الناس وكر على ميسرة علي ، وكان علياً فيها في ذلك الوقت يعبي

الناس ، فغير علي لأمته وجواده ، وخرج بلأمة بعض أصحابه ، وصَمَدَ له معاوية ، فلما تدانيا أثْبَتَه معاوية فغمز برجليه على جواده وعلي وراءه ، حتى فاته ودخل في مصافّ أهل الشام ، فأصاب عليٌّ رجلا من مصافهم دونه ، ثم رجع وهو يقول :

يا لهفَ نفسي فَاتَتْنِي معاويه فوق طِمِرٍّ كالعقاب الضاريه

وقدم عمرو بن العاص من مصر على معاوية في بعض الأيام ، فلما رآه معاويةُ قال :

يموتُ الصالحونَ وأنتَ حيٌّ تخطّاكَ المنـــايا لا تموتُ

فأجابه عمرو :

فلستُ بميتٍ ما دمت حيّاً ولســـت بميت حتى تموت

وذكر أن معاوية لما نظر إلى عسكر أهل العراق – وقد أشرفت وأخذت الرجال مراتبها من الصفوف – ونظر إلى علي على فرس أشقر حاسر الرأس يرتب الصفوف كأنه يغرسهم في الأرض غرساً فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص ، قال لعمرو : يا أبا عبد الله ، أمـــا تنظر إلى ابن أبي طالب وما هو عليه ؟ فقال له عمرو : من طلب عظيما خاطر بعظيم .

وقد كان معاوية في سنة أربعين بعث بُسْرَ بن أرطاة في ثلاثة آلاف حتى قَدِم المدينة وعليها أبو أيوب الأنصاري فتنحى ، وجاء بسر حتى صعد المنبر وتهدد أهل المدينة بالقتل ، فأجابوه إلى بيعة معاوية ، وبلغ الخبر علياً فأنفذ حارثة بن قدامة السعدي في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين ، ومضى بسر إلى مكة ، ثم سار إلى اليمن ، وكان عبيد الله بن العباس بها ، فخرج عنهـــا ولحق بعلي واستخلف عليها عبد الله بن عبد المدان الحارثي ، وخلف ابنيـــه

عبد الرحمن وقُثَم عند أمهما جويرية بنت قارظ الكناني ، فقتلهما بسر وقتل معهما خالاً لهما من ثقيف وقد كان بسر بن أرطأة العامري – عامر بن لؤي بن غالب – قَتَلَ بالمدينة وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرهم ، وكذلك بالجرف قتل بها خلقاً كثيراً من رجال هَمْدان ، وقتل بصنعاء خلقاً كثيراً من الأبناء ، ولم يبلغه عن أحد أنه يمالىء علياً أو يهواه إلا قتله ، ونما إليه خبر حارثة بن قدامة السعدي فهرب ، وظفر حارثة بابن أخي بسر مع أربعين من أهل بيته ، فقتلهم ، وكانت جويرية أم ابني عبيد الله بن العباس اللذين قتلهما بُسْرٌ تدور حول البيت ناشرة شَعْرها وهي من أجمل النساء وهي تقول ترثيهما :

هامن أحَسَّ من ابنيَّ اللذين هما ... كالدرتين تَشَظّى عنهما الصدف
هامن أحَسَّ من ابنيَّ اللذين هما ... سمعي وقلبي، فعقلي اليوم مختطف
هامن أحَسَّ من ابنيَّ اللذين هما ... مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
نبئتُ بسراً، وما صدقت مازعموا ... من قولهم ومن الإفك الذي وصفوا
أنحي على وَدجَيْ ابنيَّ مرهفة ... مشحوذة ، وكذاك الإثم يقترف

بين معاوية وعمرو بن العاص ووردان : وذكر الواقدي قال : دخل عمرو بن العاص يوماً على معاوية بعدما كبر ودق ومعه مولاه ورْدَان ، فأخذا في الحديث ، وليس عندهما غير وردان ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، ما بقي مما تستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا أربَ لي فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدي فما أدري أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدري أيها ألذ وأطيب ، وأما الطيب فقد دخل خياشيمي منه حتى ما أدري أيه أطيب ، فما شيء ألذ عندي من شراب بارد

في يوم صائف ، ومن أن أنظر الى بني وبني بني يدورون حولي فما بقي منك يا عمرو ؟ قال : مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلّته ، فالتفت معاوية الى وردان فقال : ما بقي منك يا وردان ؟ قال : صنيعة كريمة سنية أعلّقها في أعناق قوم ذوي فضل وأخطار لا يكافئونني بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعقبي في أعقابهم بعدي ، فقال معاوية : تبّاً لمجلسنا سائر هذا اليوم ، إن هذا العبد غلبني وغلبك.

وفاة عمرو بن العاص : وفي سنة ثلاث وأربعين مات عمرو بن العاص بن وائل بن سهم بن سعيد بن سعد بمصر ، وله تسعون سنة ، وكانت ولايته مصر عشر سنين وأربعة أشهر ، ولما حضرته الوفاة قال : اللهم لا براءة لي فاعتذر ، ولا قوة لي فانتصر ، أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فركبنا ، اللهم هذه يدي الى ذقني ، ثم قال : خُدُّوا لي في الارض خدّاً ، وسُنّوا على التراب سناً ، ثم وضع أصبعه في فيه حتى مات ، وصلى عليه ابنه عبد الله يوم الفطر ، فبدأ بالصلاة عليه قبل صلاة العيد ، ثم صلى بالناس بعد ذلك صلاة العيد ، وكان أبوه من المستهزئين ، وفيه نزلت (إن شانئك هو الابتر) .

وولى معاوية ابنه عبد الله بن عمرو ما كان لأبيه .

وخلف عمرو من العَيْنِ ثلثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار ، ومن الورق ألف درهم وغلة مائتي ألف دينار بمصر وضيعته المعروفة بمصر بالوهط قيمتها عشرة آلاف ألف درهم .

وفيه يقول ابن الزبير الاسدي الشاعر من أبيات :

ألم تر أن الدهر أخنت صروفه على عمرو السهمي تُجبى له مصر
فلم يُغْنِ عنه حزمه واحتياله ولا جمعه لمّا أتيح له الدهر
وأمسى مقيماً بالعراء وضللت مكايده عنه وأمواله الدُّثْرُ

وفي سنة خمس وأربعين ولّى معاوية زياد بن أبيه البصرة وأعمالها ، وقال لما دخلها :

ألا ربّ مسرور بنا لا نسره — وآخر محزون بنا لا نضره

وقد كان معاوية أغزى في هذه السنة سفيان بن عوف العامري ، وأمره أن يبلغ الطوانة فأصيب معه خلق من الناس ، فعم الناسَ الحزنُ بمن أصيب بأرض الروم ، وبلغ معاوية أنّ يزيد ابنه لما بلغه خبرهم وهو على شرابه مع ندمائه قال :

أهونْ عليّ بما لاقت جموعهمُ — يوم الطوانة من حُمّى ومن مُوم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً — بدير مُرّانَ عندي أم كلثوم

أبو أيوب الانصاري : فحلف عليه ليغزونّ ، وأردف به سفيان ، فسميت هذه الغزاة غزاة الرادفة ، وبلغ الناسُ فيها إلى القسطنطينية ، وفيها مات أبو أيوب الأنصاري ، ودفن هناك على باب القسطنطينية ، واسم أبي أيوب خالد بن زيد ، وقد قيل : إن أبا أيوب مات في سنة إحدى وخمسين غازيا مع يزيد ، وقد أتينا على خبر هذه الغزاة وما كان من يزيد فيها في الكتاب الاوسط .

المغيرة بن شعبة : وفي سنة تسع وأربعين كان الطاعون بالكوفة فهرب منها المغيرة بن شعبة وكان واليها ، ثم عاد اليها فطعن فمات ، فمر أعرابي عليه وهو يدفن فقال :

أرَسْمَ ديارٍ للمغيرة تعرف — عليها دَوِيُّ الإنس والجن تعزف

فإن كنت قد لاقيت هامان بعدنا — وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصف

وذكر أن المغيرة ركب الى هند بنت النعمان بن المنذر ، وهي في دير لها في الحيرة مترهبة ، وهو أمير الكوفة يومئذ ، وقد كانت هند عميت ، فلما جاء الدير استأذن عليها ، فأتتها جاريتها فقالت : هذا المغيرة يستأذن عليك ، فقالت للجارية : ألقي اليه أثاثا ، فألقت اليه

وسادة من شعر ، فلما دخل قعد عليها ، وقال : أنا المغيرة ، فقالت له : قد عرفتك عامل المدرّة ، فما جاء بك ؟ قال : أتيتك خاطباً اليك نفسك ، قالت : أما والصليب لو أردتني لدين أو جمال ما رجعت إلا بحاجتك ، ولكني أخبرك الذي أردت ذلك له ، قال : وما هو ؟ قالت : أردت ان تتزوجني حتى تقوم في الموسم في العرب فتقول : تزوجت ابنة النعمان ، قال : ذلك أردت ، ولكن اخبريني ما كان أبوك يقول في هذا الحي من ثقيف ، قالت : كان ينسبهم في إياد ، وقد افتخر عنده رجلان من ثقيف أحدهما من بني سالم والآخر من بني يسار ، فسألها عن أنسابها ، فانتسب أحدهما إلى هوازن والآخر الى إياد ، فقال أبي : ما لحي معد على إياد فضل ، فخرجا وأبي يقول :

إن ثقيفاً لم تكن هوازنا ولم تناسب عامراً ومازنا
إلا حديثاً وافق المحاسنا

فقال المغيرة : أما نحن فمن هوازن وأبوك أعلم ، قال : فاخبريني أي العرب كان أحب إلى أبيك ، قالت : أطوعهم له ، قال : ومن أولئك ؟ قالت : بكر بن وائل ، قال : فأين بنو تميم ؟ قالت : ما استعنتهم في طاعة ، قال : فقيس ؟ قالت : ما اقتربوا اليه بما يحب إلا استعقبوه بما يكره ، قال : فكيف أطاع فارس ؟ قالت : كانت طاعته إياهم فيما يهوى ، فانصرف المغيرة .

ولما هلك المغيرة ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جمع له ولاية العراقين البصرة والكوفة .

وفي سنة ثمان وأربعين قبض معاوية فدك من مروان بن الحكم ، وقد كان وهبها له قبل ذلك ، فاستردّها .

وقد كان معاوية حجّ في سنة خمسين وأمر بحمل منبر النبي

صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى الشام ، فلما حمل كسفت الشمس ورؤيت الكواكب بالنهار ، فجزع من ذلك وأعظمه ، ورده إلى موضعه ، وزاد فيه ست مراقي .

موت زياد : وفي سنة ثلاث وخمسين هلك زياد بن أبيه بالكوفة في شهر رمضان ، وكان يكنى أبا المغيرة ، وقد كان كتب إلى معاوية أنه قد ضبط العراق بيمينه ، وشماله فارغة فجمع له الحجاز مع العراقين ، واتصلت ولايته بأهـــل المدينة ، فاجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجوا إلى الله ولاذوا بقبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثـــة أيام ؛ لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعسف ، فخرجت في كفه بثـــرة ثم حكها ثم سرت واسودت فصارت آكلة سوداء ، فهلك بذلك وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وقيـــل : اثنتين وخمسين ، ودفن بالثوية من أرض الكوفة .

وقد كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرضهم على لعن علي ، فمن أبى ذلك عرضه على السيف : فذكر عبد الرحمن بن السائب قال : حضرت فصرت إلى الرحبة ومعي جماعة من الانصار ، فرأيت شيئاً في منامي وأنا جالس في الجماعة ، وقد خفقت ، وهو أني رأيت شيئاً طويلا قد أقبل ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أنا النقاد ذو الرقبة ، بعثت إلى صاحب هـــذا القصر ، فانتبهت فزعا ، فمـــا كان إلا مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر فقال : انصرفوا فإن الأمير عنكم مشغول ، وإذا به قد أصابه ما ذكرنا من البلاء ، وفي ذلك يقول عبد الله بن السائب من أبيات :

ما كان منتهياً عما أراد بنا ... حتى تأتّى له النقاد ذو الرقبه
فأسقط الشق منه ضربة ثبتت ... لما تناول ظلماً صاحب الرحبه

يعني بصاحب الرحبة علي بن ابي طالب رضي الله عنه ا .وقد

ذهب جماعة إلى أن علياً دفن في القصر بالكوفة ؛ ويقال إن زياداً طُعِن في يده ، وإنه شاور شريحاً في قطعها ، فقال له : لك رزق مقسوم ، وأجل معلوم ، وإني أكره إن كانت لك مدة أن تعيش أجذم ، وإن حم أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد فإذا سألك لم قطعتها ؟ قلت : بغضاً للقائك ، وفراراً من قضائك ، فلام الناس شريحاً ، فقال لهم : إنه استشارني والمستشار مؤتمن ، ولولا أمانة المشورة لوددت أن الله قطع يده يوماً ، ورجله يوماً ، وسائر جسده يوماً .

البيعة ليزيد : وفي سنة تسع وخمسين وفد على معاوية وفد الامصار من العراق وغيرها ، فكان ممن وفد من أهل العراق الأحنف ابن قيس في آخرين من وجوه الناس ، فقال معاوية للضحاك بن قيس : إني جالس من غد للناس فأتكلم بما شاء الله ، فإذا فرغت من كلامي فقل في يزيد الذي يحق عليك ، وادْعُ إلى بيعته ، فإني قد أمرت عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن عضاة الاشعري وثور بن مَعْن السلمي أن يصدقوك في كلامك ، وأن يجيبوك إلى الذي دعوتهم إليه ، فلما كان من الغد قعد معاوية فأعلم الناس بما رأى من حسن رعَيّة يزيد ابنه وهديه وأن ذاك دعاه إلى أن يوليه عهده ، ثم قام الضحاك بن قيس فأجابه إلى ذلك ، وحَضّ الناس على البيعة ليزيد ، وقال لمعاوية : اعزم على ما أردت ، ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن عضاة الأشعري وثور بن معن فصدقوا قوله ، ثم قال معاوية : أين الاحنف بن قيس ؟ فقام الأحنف فقال : إن الناس قد أمسَوْا في منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان يؤتنف ، ويزيد حبيب قريب ، فإن تولّه عهدك فعن غير كبر مُفْنٍ ، أو مرض

مُضن ، وقد حلبت الدهور ، وجربت الأمور ، فاعرف من تسند إليه عهدك ، ومن تولّيه الأمر من بعدك ، واعص رأي من يأمرك ولا يقدر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، فقام الضحاك بن قيس مُغْضَباً فذكر أهل العراق بالشقاق والنفاق ، وقال : اردد رأيهم في نحورهم ، وقام عبد الرحمن بن عثمان فتكلم بنحو كلام الضحاك ، ثم قام رجل من الازد ، فأشار إلى معاوية وقال : أنت أمير المؤمنين ، فإذا مُتّ فأمير المؤمنين يزيد ، فمن أبى هذا فهذا ، وأخذ بقائم سيفه فسلّه ، فقال له معاوية : اقعد فأنت من أخطب الناس ، فكان معاوية أول من بايع ليزيد ابنه بولاية العهد وفي ذلك يقولُ عبد الرحمن بن همام السلولي :

فإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى تعدُّ ، ثلاثة ُمتَنَاسقينا
فيا لهفا لو ّان لنا أنوفا ولكن لا نعود كما عنينا
إذاً لضربتمُ حتى تعودوا بمكة تلعقون بها السَّخينا
خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما َروينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا

وأنفذت الكتب ببيعة يزيد إلى الأمصار ، وكتب معاوية إلى مروان بن الحكم – وكان عامله على المدينة – يعلمه باختياره يزيد ، ومبايعته إياه بولاية العهد ، ويأمره بمبايعته ، وأخذ البيعة له على من قبله ، فلما قرأ مروان ذلك خرج مغضباً في أهل بيته وأخواله من بني كنانة ، حتى أتى دمشق فنزلها ، ودخل على معاوية يمشي بين السّماطين ، حتى إذا كان منه بقدر ما ُيسْمعه صوّته سلم ، وتكلم بكلام كثير يوبخ به معاوية ، منه : أقم الأمور يا ابن أبي سفيان ،

واعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك من قومك نظراء ، وأن لك على مناوأتهم وزراء ، فقال له معاوية : أنت نظير أمير المؤمنين وعدته في كل شديدة ، وعضده ، والثاني بعد ولي عهده ، وجعله ولي عهد يزيد ، ورده إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف لمروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد بن معاوية .

ذكر

جمل من اخلاقه وسياسته وطرائف من عيون اخباره

قد ذكرنا فيما تقدم جملا من اخبار معاوية وسيره ، فلنذكر الآن في هذا الباب جملا من اخلاقه وسياساته وأخباره ، وغير ذلك مما لحق هذا المعنى الى وفاته .

من أخلاق معاوية وعاداته : كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات : كان اذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه ، ثم يدخل الى منزله فيأمر وينهي ، ثم يصلي أربع ركعات ، ثم يخرج الى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم الى العشي ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر — وهو فضلة عشائه من جدي بارد أو فرخ او ما يشبهه — ثم يتحدث طويلا ، ثم يدخل منزله لما اراد ثم يخرج فيقول : يا غلام اخرج الكرسي ، فيخرج الى المسجد فيوضع فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي ، ويقوم الأحراس فيتقدم اليه الضعيف والأعرابي الوصي والمرأة ومن لا احد له ، فيقول ظلمت ، فيقول : أعزوه ،

ويقول : عُديَ علي ، فيقول : ابعثوا معه ، ويقول : صنع بي ، فيقول: انظروا في أمره ، حتى اذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلني احد عن رد السلام ، فيقال : كيف اصبح أمير المؤمنين، اطال الله بقاءه ؟ فيقول : بنعمة من الله ، فإذا استووا جلوساً ، قال : يا هؤلاء ، إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا ، فيقوم الرجل فيقول : استشهد فلان ، فيقول : افرضوا لولده ، ويقول آخر : غاب فلان عن اهله ، فيقول : تعاهدوهم ، اعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم ، ثم يؤتى بالغداء ، ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمد يده فيأكل لقمتين او ثلاثاً والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمره فيقال: يا عبدالله اعقب ، فيقوم ويتقدم آخر ، حتى يأتي على اصحاب الحوائج كلهم ، وربما قدم عليه من اصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ، ثم يرفع الغداء ويقال للناس : أجيزوا ، فينصرفون فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع ، حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلي أربع ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة ، فإن كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكنانج والأقراص المعجونة باللبن والسكر ودقيق السميذ والكعك المسمن والفواكه اليابسة والذاذجوج وان كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل اليه وزراؤه فيؤامرونه فيا احتاجوا اليه بقية يومهم ، ويجلس الى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصر ، ثم يدخل الى منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى اذا كان في آخر اوقات العصر خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادي بالمغرب ، ولا ينادى له أصحاب الحوائج ، ثم يرفع العشاء وينادي

بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلي بعدها اربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت اخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلي ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما ارادوا صدراً من ليلتهم ، ويستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسيَر ملوك الامم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم .

وقد كان ثَمَّ بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ، ولا إتقانه للسياسة ، ولا التأتي للامور ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم على طبقاتهم .

من دهاء معاوية : وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي ، أخذت مني بصفين ، فارتفع أمرهما الى معاوية ، وأقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته ، فقضى معاوية على الكوفي ، وأمره بتسليم البعير اليه ، فقال الكوفي : أصلحك الله ! إنه جمل وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حكم قد مضى ، ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره ، وسأله عن ثمن بعيره ، فدفع اليه

ضعفه ، وبرّه ، وأحسن اليه ، وقال له : أبلغ علياً أني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ، وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها ، وركنوا الى قول عمرو بن العاص : إن علياً هو الذي قتل عمّار بن ياسر حين أخرجه لنصرته ، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته الى أن جعلوا لَعْنَ علي سُنّة ، ينشأ عليها الصغير ، ويهلك عليها الكبير .

من غفلة أهل الشام والعراق : قال المسعودي : وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم : مَنْ أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر ؟ قال : أراه لصاً من لصوص الفتن .

وحكى الجاحظ قال : سمعت رجلاً من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيت يقول : إذا أتيته مَنْ يكلمني منه ؟ وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمد صلى الله عليه وسلم : ما تقول في محمد هذا ؟ أربنا هو ؟

وذكر ثمامة بن أشرس قال : كنت ماراً في السوق ببغداد ، فإذا أنا برجل عليه الناس مجتمعون ، فنزلت عن بغلتي وقلت : لشيء ما هذا الاجتماع ، ودخلت بين الناس ، وإذا برجل يصف كحلا معه أنه ينجح من كل داء يصيب العين ، فنظرت إليه فإذا عينه الواحدة برْشاء والأخرى مأسوكة ، فقلت له : يا هذا ، لو كان كحلك كما تقول نفع عينيك !! فقال لي : يا جاهل أهاهنا اشتكت عيناي ؟ إنما اشتكتا بمصر ، فقال كلهم : صدق ، وذكر أنه ما انفلت من نعالهم إلا بعد كد .

وذكر لي بعض إخواني أن رجلا من العامة بمدينة السلام رفع

الى بعض الولاة الطالبين لأصحاب الكلام على جار له أنه يتزندق ، فسأله الوالي عن مذهب الرجل ، فقال : إنه مرجىء قدري ناصبي رافضي ، فلما قصه عن ذلك قال : إنه يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل على بن العاص ، فقال له الوالي : ما أدري على أي شيء أحسدك : على علمك بالمقالات ، أو على بصرك بالأنساب ؟

وأخبرني رجل من إخواننا من أهل العلم ، قال : كنا نقعد نتناظر في أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية ، ونذكر ما يذكره أهل العلم ، وكان قوم من العامة يأتون فيستمعون منا ، فقال لي ذات يوم بعضهم وكان من أعقلهم وأكبرهم لحية : كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان ؟ فقلت له : فما تقول أنت في ذلك ؟ قال : من تريد ؟ قلت علي ، ما تقول فيه ؟ قال: أليس هو أبو فاطمة ؟ قلت: ومَنْ كانت فاطمة ؟ قال : امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية ، قلت : فما كانت قصة علي ؟ قال : قتل في غزاة حنين مع النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان الى الشام وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر ، ونزل عبد الله بن علي الشام ، ووجه الى أبي العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة من سائر أجناد الشام فحلفوا لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة ، فقال في ذلك إبراهيم بن المهاجر البجلي :

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجباً زاد على كل العجب
عجباً من عبد شمس ؛ إنهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبد المطلب

كذبوا والله ما نعلمه يحرز الميراث إلا من قرب

متطبب في عهد الرشيد : وقد كان ببغداد رجل في أيام هرون الرشيد متطبب ، يطبب العامة بصفاته ، وكان دهرياً يظهر أنه من أهل السنة والجماعة ويلعن أهل البدع ، ويعرف بالسني ، تنقاد إليه العامة ؛ فكان يجتمع إليه في كل يوم بقوارير الماء خلق من الناس ، فإذا اجتمعوا وثب قائماً على قدميه فقال لهم : معاشر المسلمين ، قلتم لا ضار ولا نافع إلا الله فلأي شيء مصيركم إلي تسألونني عن مضاركم ومنافعكم ؟ الجأوا إلى ربكم وتوكلوا على بارئكم حتى يكون فعلكم مثل قولكم ، فيقبل بعضهم على بعض فيقولون : إي والله قد صدقنا ، فكم من مريض لم يعالج حتى مات ، ومنهم من كان يتركه حتى يسكن ثم يريه الماء فيصف له الدواء ، فيقول : إيمانك ضعيف ، ولولا ذلك لتوكلت على الله كما أمرضك فهو يبرئك ، فكان يقتل بقوله هذا خلقاً كثيراً لتزهيده إياهم في معالجة مرضاهم .

من اخلاق العامة : ومن أخلاق العامة أن يسودوا غير السيد ، ويفضلوا غير الفاضل ، ويقولوا بعلم غير العالم ، وهم أتباع من سَبَقَ إليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول ، والفضل والنقصان ، ولا معرفة للحق من الباطل عندهم ، ثم انظر هل ترى إذا اعتبرت ما ذكرنا ونظرت في مجالس العلماء هل تشاهدها إلا مشحونة بالخاصة من أولي التمييز والمروءة والحجا ، وتفقد العامة في احتشادها وجموعها ، فلا تراهم الدهر إلا مُرْقِلين إلى قائد دب ، وضارب بدف على سياسة قرد ، أو متشوقين إلى اللهو واللعب ، أو مختلفين إلى مشعبذ متنمس مخرق ، أو مستمعين إلى قاص كذاب ، أو مجتمعين حول مضروب ، أو وقوفاً عند مصلوب : يُنعَق بهم فيتبعون ، ويصاح بهم فلا يرتدعون ، لا ينكرون منكراً ، ولا يعرفون معروفاً ، ولا يبالون أن يلحقوا

البارّ بالفاجر ، والمؤمن بالكافر ، وقد بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم حيث يقول : « الناس اثنان : عالم ، ومتعلم ، وما عدا ذلك همجٌ رعاع لا يعبأ الله بهم » وكذلك ذكر عن علي وقد سئل عن العامة فقال : همج رَعَاع أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، وأجمع الناس في تسميتهم على أنهم غَوْغَاء ، وهم الذين إذا اجتمعوا غلبوا ، وإذا تفرقوا لم يعرفوا ، ثم تدبر تفرقهم في أحوالهم ومذاهبهم ، فانظر إلى إجماع مَلَئِهِمْ ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام يدعو الخلق إلى الله اثنتين وعشرين سنة وهو ينزل عليه الوحي ويمليه على أصحابه فيكتبونه ويدونونه ويلتقطونه لفظة لفظة ، وكان معاوية في هذه المدة بحيث علم الله ، ثم كتب له صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بشهور ، فأشادوا بذكره ، ورفعوا من منزلته : بأن جعلوه كاتباً للوحي ، وعظّموه بهذه الكلمة ، وأضافوه إليها ، وسلبوها عن غيره ، وأسقطوا ذكر سواه ، وأصل ذلك العادة والإلْفُ ، وما ولدوا عليه ، وما نشئوا فيه ، فألفوا وقت التحصيل والبلوغ ، وقد عملت العادة عملها ، وبلغت مبالغها ، وفي العادة قالت الشعراء وتكلم أهل الدراية والأدباء ، قال الشاعر :

لا تُهنّي بعد إذ أكرمتني فشديدٌ عادةٌ منتزعه

وقال آخر معاتباً لصاحبه :

ولكنْ فِطَامُ النفس أثقَلُ محملا
من الصخرة الصماء حين ترومها

وقد قالت حكماء العرب : العادة أملك بالأرب ، وقالت حكماء العجم : العادة هي الطبيعة الثانية ، وقد صنف أبو عقال الكاتب

كتاباً في أخلاق العوام يصف فيه أخلاقهم وشيمهم ومخاطباتهم، وسماه بالمُلهِي، ولولا أني أكره التطويل والخروج عما قصدنا إليه في هذا الكتاب من الإيجاز لشرحت من نوادر العامة وأخلاقها، وظرائف أفعالها عجائبَ، ولذكرت مراتب الناس في أخلاقهم، وتصرفهم في أحوالهم.

فلنرجع الآن إلى أخبار معاوية وسياسته، وما أوسع الناس من أخلاقه، وما أفاض عليهم من بره وعطائه، وشملهم من إحسانه: مما اجتذب به القلوب، واستدعى به النفوس، حتى آثروه على الأهل والقرابات.

عقيل بن أبي طالب ومعاوية: من ذلك أنه وفد عليه عَقيلُ ابن أبي طالب منتجعاً وزائراً، فرحّبَ به معاوية، وسُرَّ بوروده، لاختياره إياه على أخيه، وأوسعه حلماً واحتمالاً، فقال له: يا أبا يزيد، كيف تركت علياً؟ فقال: تركته على ما يحبُّ الله ورسوله وألفيتك على ما يكره الله ورسوله، فقال له معاوية: لولا أنك زائر منتجع جنابَنا لرددت عليك أبا يزيد جواباً تألم منه، ثم أحَبَّ معاوية أن يقطع كلامه مخافة أن يأتي بشيء يخفضه، فوثب عن مجلسه، وأمر له بنزل، وحمل إليه مالاً عظيماً، فلما كان من غد جلس وأرسل إليه فأتاه، فقال له: يا أبا يزيد، كيف تركت علياً أخاك؟ قال: تركته خيراً لنفسه منك، وأنت خير لي منه، فقال له معاوية: أنت والله كما قال الشاعر:

وإذا عددت فخار آل محرق فالمجد منهم في بني عَتّابِ

فمحل المجد من بني هاشم منُوطٌ فيك يا أبا يزيد ما تغيرك الأيام والليالي، فقال عقيل:

اصبر لحرب أنت جانيها لا بد أن تصلى بحاميها

وأنت والله يا ابن أبي سفيان كما قال الآخر :

وإذا هوازن أقبلت بفخارها يومـاً فخرتهم بآل مجاشـع
بالحاملين على الموالي غُرْمَهم والضاربين الهـام يوم الفازع

وصف بني صوحان : ولكن أنت يا معاوية إذا افتخرت بنو أمية فبمن تفخر ؟ فقال معاوية : عزمت عليك أبا يزيد لما أمسكتَ ، فإني لم أجلس لهذا ، وإنما أردت أن أسألك عن أصحاب عليٍّ فإنك ذو معرفة بهم ، فقال عَقيل : سَلْ عما بدا لك ، فقال : ميز لي أصحاب علي ، وابدأ بآل صَوْحَان فإنهم مخاريق الكلام ، قال : أما صعصعة فعظيم الشأن ، عضب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ، يرتق مـا فتق ، ويفتق ما رتق ، قليل النظير ، وأمـا زيد وعبد الله فإنهما نهران جاريان ، يصب فيهما الخلجان ، ويغاث بهما البلدان ، رجلاً جدٍّ لا لعب معه ، وبنو صوحان كما قال الشاعر :

إذا نزل العدوُّ فإن عندي أسوداً تخلس الأسْدَ النفوسا

من صعصعة الى عقيل : فاتصل كلام عقيل بصعصعة فكتب إليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، ذكر الله أكبر ، وبه يستفتح المستفتحون ، وأنتم مفاتيح الدنيا والآخرة ؛ أما بعد ، فقد بلغ مولاك كلامُكَ لعدو الله وعدو رسوله ، فحمدت الله على ذلك ، وسألته أن يفيء بك إلى الدرجة العليا ، والقضيب الأحمر ، والعمود الأسود ، فإنه عمود من فارقه فارق الدين الأزهر ، ولئن نزعَتْ بك نفسك إلى معاوية طلباً لماله إنك لذو علم بجميع خصاله ، فاحذر أن تعلق بك ناره فيضلك عن الحجة ، فإن الله قد رفع عنكم أهل البيت ما وضعه في غيركم ، فما كان من فضل أو إحسان فبكم وصل إلينا ، فأجَلَّ الله أقداركم ، وحمى أخطاركم ، وكتب آثاركم ،

فإن أقداركم مرضية ، وأخطاركم محمية ، وآثاركم بدرية ، وأنتم سلم الله إلى خلقه ، ووسيلته إلى طرقه ، أيدٍ علية ، ووجوه جلية ، وأنتم كما قال الشاعر :

فما كان من خير أتوه فإنما توارثه اباء آبائهم قبلُ
وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل

بين علي ووجوه أصحابه : وحدث الهيثم عن أبي سفيان عمرو بن يزيد ، عن البراء بن يزيد ، عن محمد بن عبد الله بن الحارث الطائي ثم أحد بني عفان ، قال : لما انصرف علي من الجمل قال لآذنه : مَنْ بالباب من وجوه العرب ؟ قال : محمد بن عمير ابن عطارد التميمي والأحنف بن قيس وصعصعة بن صوحان العبدي ، في رجال سماهم ، فقال : ائذن لهم ، فدخلوا فسلموا عليه بالخلافة ، فقال لهم : أنتم وجوه العرب عندي ، ورؤساء أصحابي ، فأشيروا عليّ في أمر هذا الغلام المترف — يعني معاوية — فافتنت بهم المشورة عليه ، فقال صعصعة : إن معاوية أترفَهُ الهوى ، وحببت إليه الدنيا ، فهانت عليه مصارع الرجال ، وابتاع آخرته بدنياهم ، فإن تعمل فيه برأي ترشد وتُصِبْ ، إن شاء الله ، والتوفيق بالله وبرسوله وبك يا أمير المؤمنين ، والرأي أن ترسل له عيناً من عيونك وثقة من ثقاتك ، بكتاب تدعوه إلى بيعتك ، فإن أجاب وأناب كان له ما لك وعليه ما عليك ، وإلا جاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين ، فقال علي : عزمت عليك يا صعصعة إلا كتبت الكتاب بيديك ، وتوجهت به إلى معاوية ، واجعل صدر الكتاب تحذيراً وتخويفاً ، وعجزه استتابة واستنابة ، وليكن فاتحة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية : سلام عليك ، أما بعد ، ثم اكتب ما

أشَرْتَ به علي ، واجعل عنوان الكتـــاب « ألا إلى الله تصير الأمور » ، قال : أعفِنِي من ذلك ، قال : عزمت عليك لتفعلن ، قال : أفعل ، فخرج بالكتاب وتجهز وسار حتى ورد دمشق ، فأتى باب معاوية فقال لآذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وبالباب أزْفَلَة من بني أمية ، فأخذته الأيدي والنعال لقوله وهو يقول « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله » ، وكثرت الجلبة واللغط ، فاتصل ذلك بمعاوية فوجه من يكشف الناس عنه ، فكشفوا ، ثم أذن لهم فدخلوا ، فقال لهم : من هذا الرجل ؟ فقالوا : رجل من العرب يقال له صعصعة بن صوحان معه كتاب من علي ، فقال : والله لقد بلغني أمره ، هذا أحد سهام علي وخُطَّباء العرب ، ولقد كنت إلى لقائه شَيِّقاً ، ائذن له ياغلام فدخل عليه فقال : السلام عليك يا ابن أبي سفيان ، هذا كتابُ أمير المؤمنين ، فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تقتل في جاهلية أو إســـلام لقتلتك ، ثم اعترضه معاوية في الكلامُ ، وأراد أن يستخرجه ليعرف قريحته أطبعاً أم تكلفاً فقال : ممن الرجل ؟ قال : من نزار ؟ قال : وما كان نزار ؟ قال كان إذا غزا نكَّس ، وإذا لقي افترس ، وإذا انصرف احترس ، قال فمن أي أولاده أنت ؟ قال : من ربيعة ، قال : وما كان ربيعة ؟ قال : كان يطيل النِّجاد ، ويَعُول العباد ، ويضرب ببقاع الأرض العماد ، قـــال : فمن أي أولاده أنت ؟ قال : من جديلة ، قال : ومـا كان جديلة ؟ قال : كان في الحـــرب سيفاً قاطعاً ، وفي المكرمات غيثاً نافعاً ، وفي اللقاء لهباً ساطعاً ، قال : فمن أي أولاده أنت؟ قال : من عبد القيس ، قال : وما كان عبد القيس ؟ قال : كان خصيباً خضرماً أبيض وهاباً لضيفه ما يجد ، ولا يسأل عما فقـــد ، كثير

المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء ، قال : ويحك يا ابن صوحان إنما تركت لهذا الحي من قريش مجداً ولا فخراً ، قال : بلى والله يا ابن أبي سفيان ، تركت لهم ما لا يصلح الا بهم ، ولهم تركت الأبيض والأحمر ، والأصفر والاشقر ، والسرير والمنبر ، والملك الى المحشر ، وأنّى لا يكون ذلك كذلك وهم منارُ الله في الأرض ونجومه في السماء ؟ ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها ، فقال : صدقت يا ابن صوحان ، إن ذلك لكذلك ، فعرف صعصعة ما أراد ، فقال : ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد ، بعدتم عن أُنُفِ المرعى وعلوتم عن عذب الماء ، قال : فلم ذلك ويلك يا ابن صوحان ؟! قال : الويل لأهل النار ، ذلك لبني هاشم ، قال : قم ، فأخرجوه ، فقال صعصعة : الصدق ينبىء عنك لا الوعيد ، من أراد المشاجرة قبل المحاورة ، فقال معاوية : لشيء ما سوّده قومه ، وددت والله أني من صلبه ، ثم التفت الى بني أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال .

معاوية وجماعة من أصحاب علي : وحدث منصور بن وحشي ، عن أبي الفياض عبد الله بن محمد الهاشمي ، عن الوليد بن البختري العبسي ، عن الحارث بن مسمار البهراني ، قال : حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدي وعبد الله بن الكوّاء اليشكري ورجالا من أصحاب علي مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً فقال : نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً ، أيّ الخلفاء رأيتموني ؟ فقال ابن الكوّاء : لولا أنك عزمت علينا ما قلنا لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله في قتل الأخيار ، ولكنا نقول : إنك ما علمنا واسع الدنيا ، ضيق الآخرة ، قريب الثرى ، بعيد المرعى ، تجعل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات ، فقال معاوية : إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذّابينَ عن بيضته ،

التاركين لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله ، والمحلين ما حرم الله ، والمحرمين ما أحل الله ، فقال عبد الله بن الكواء : يا ابن أبي سفيان ، إن لكل كلام جواباً ، ونحن نخاف جبروتك ، فإن كنت تطلق ألسنتنا ذَبّينا عن أهل العراق بألسنة حداد لا تأخذها في الله لومة لائم ، وإلا فإنا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه ، قال : والله لا يطلق لك لسان ، ثم تكلم صعصعة فقال : تكلمت يا ابن أبي سفيان فأبلغت ، ولم تقصر عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أنّى يكون الخليفة مَن ملك الناس قهراً ، ودانهم كبراً ، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً ؟ أما والله ما لك في يوم بدر مضرب ولا مرمى ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لا حلي ولا سيري » ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممن أجلَبَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أنت طليق ابن طليق ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنّى تصلح الخلافة لطليق ، فقال معاوية : لولا أني أرجع إلى قول أبي طالب حيث يقول :

قابلت جهلهمُ حلماً ومغفرة والعفو عن قدرةٍ ضربٌ من الكرم

لقتلتكم .

صعصعة بن صوحان عند معاوية يصف له أهل البلاد : وحدث أبو جعفر محمد بن حبيب ، قال : أخبرنا ابو الهيثم يزيد بن رجاء الغنوي ، قال : أخبرنا الوليد بن البختري ، عن أبيه ، عن ابن مردوع الكلبي قال : دخل صعصعة بن صوحان العبدي على معاوية فقال له : يا ابن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرني عن أهل البصرة ، وإياك والحمل على قوم لقوم ، قال ، : البصرة واسطة العرب ، ومنتهى الشرف والسؤدد ، وهم أهل الخطط في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سَرَوات العرب كدوران الرحا على قطبها ، قال :

فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : قبة الاسلام ، وذروة الكلام ومظان ذوي الاعلام ، إلا أن بها اجلافاً تمنع ذوي الأمر الطاعة ، وتخرجهم عن الجماعة ، وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة ، قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأضعفهم عنها ، وأقلهم غناء فيها ، غير ان لهم ثباتاً في الدين ، وتمسكاً بعروة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخلعون الفسقة الفجار ؛ فقال معاوية : من البررة والفسقة ؟ فقال : يا ابن أبي سفيان ، ترك الخداع من كشف القناع ، علي وأصحابه من الأئمة الأبرار ، وأنت واصحابك من اولئك ، ثم أحب معاوية ان يمضي صعصعة في كلامه بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن القبة الحمراء في ديار مضر ، قال : أسد مضر بسلان بين غيلين ، إذا ارسلتها افترست ، واذا تركتها احترست ، فقال معاوية : هنالك يا ابن صوحان العز الراسي ، فهل في قومك مثل هذا ؟ قال : هذا لأهله دونك يا ابن أبي سفيان ، ومن أحب قوماً حشر معهم . قال : فأخبرني عن ديار ربيعة ولا يستخفنك الجهل وسابقة الحمية بالتعصب لقومك . قال : والله ما انا عنهم براض ، ولكني أقول فيهم وعليهم : هم والله اعلام الليل ، وأذناب في الدين والميل لن تغلب رايتها اذا رسخت ، خوارج الدين ، برازخ اليقين ، من نصروه فلج ومن خذلوه زلج ، قال : فأخبرني عن مضر ، قال : كنانة العرب ، ومعدن العز والحسب ، يقذف البحر بها آذيه ، والبر رديه ، ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سل يا معاوية والا اخبرتك بما تحيد عنه ، قال : وما ذاك يا ابن صوحان ؟ قال : أهل الشام ، قال : فأخبرني عنهم ، قال : اطوع الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق ، عصاة الجبار ، وخلفة الأشرار ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار ، فقال معاوية : والله يا ابن صوحان انك لحامل مديتك منذ أزمان ، إلا أن حلم ابن أبي سفيان يرد عنك ، فقال

صعصعة : بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كان قدراً مقدوراً .

صعصعة ايضاً : وحدث ابو الهيثم قال : حدثني ابو البشير محمد بن بشر الفزاري ، عن ابراهيم بن عقيل البصري ، قال : قال معاوية يوماً ـ وعنده صعصعة وكان قدم عليه بكتاب علي وعنده وجوه الناس ـ : الأرض لله ، وانا خليفة الله ، فما آخذ من مال الله فهو لي ، وما تركت منه كان جائزاً لي ، فقال صعصعة :

تُمَنّيكَ نفسك ما لا يكو ن جهلا معاوي لا تأثم

فقال معاوية : يا صعصعة ، تعلمت الكلام ، قال : العلم بالتعلم ، ومن لا يعلم يجهل ، قال معاوية : ما أحوجك إلى أن أذيقك وبالَ أمرك ! قال : ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفساً اذا جاء أجلها ، قال : ومن يحول بيني وبينك ؟ قال : الذي يحول بين المرء وقلبه ، قال معاوية : اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير ، قال : اتسع بطن مَنْ لا يشبع ، ودعا عليه من لا يجمع .

من اخبار صعصعة : قال المسعودي : ولصعصعة بن صوحان أخبار حسان ، وكلام في نهاية البلاغة والفصاحة والايضاح عن المعاني ، على ايجاز واختصار .

ومن ذلك خبره مع عبدالله بن العباس ، وهو ما حدث به المدائني عن زيد بن طليح الذهلي الشيباني ، قال : أخبرني أبي ، عن مصقلة ابن هبيرة الشيباني ، قال ، سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن عباس : ما السؤدد فيكم ؟ فقال : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، وبذل النوال ، وكف المرء نفسه عن السؤال ، والتودد للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شرعاً ، قال : فما المروءة ؟ قال : اخوان اجتمعا فإن لقيا قهرا حازسها قليل ، وصاحبها جليل ، يحتاجان إلى صيانة مع

نزاهة وديانة ، قال : فهل تحفظ في ذلك شعراً ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول مرة بن ذهل بن شيبان حيث يقول :

إن السيادة والمروءة عُلّقا حيث السماء من السماك الأعزل
وإذا تقابل مُجريانِ لغاية عثر الهجين وأسلمته الأرجل
ويجي الصريح مع العتاق معوداً قرب الجياد فلم يخنه الأفكل

في أبيات ، فقال له ابن عباس : لو أن رجلا ضرب آباط إبله مشرقاً ومغرباً لفائدة. هذه الأبيات ما عنفته ، إنا منك يا ابن صوحان لعلى علم وحكم واستنباط ما قد عفا من أخبار العرب ، فمن الحكيم فيكم ؟ قال : مَن ملك غضبه فلم يعجل ، وسعى اليه بحق أو باطل فلم يقبل ، ووجد قاتل أبيه وأخيه فصفح ولم يقتل ، ذلك الحكيم يا ابن عباس ، قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : ولا قليلا ، وإنما وصفت لك أقواماً لا تجدهم إلا خاشعين راهبين لله مريدين ينيلون ولا ينالون ، فأما الآخرون فإنهم سبق جهلهم حلمهم ، ولا يبالي أحدهم إذا ظفر ببغيته حين الحفيظة ما كان بعد أن يدرك زعمه ويقضي بغيته ، ولو وتره أبوه لقتل أباه ، أو أخوه لقتل أخاه ، أما سمعت إلى قول زبان بن عمرو بن زبان ، وذلك أن عمراً أباه قتله مالك بن كومة ، فأقام زبان زماناً ، ثم غزا مالكا ، فأتاه في مائتي فارس صباحاً وهو في أربعين بيتاً فقتله ، وقتل أصحابه وقتل عمه فيمن قتل ، ويقال : بل كان أخاه ، وذلك أنه كان جاورهم ، فقيل لزبان في ذلك : قتلت صاحبنا ، فقال :

فلو أمي ثقفتُ بحيث كانوا لبلّ ثيابها عَلَقٌ صبيب
ولو كانت مية أخت عمرو بهذا الماء ظلّ لها نحيب
شهرت السيف في الأدنَيْن مني ولم تعطف أواصرنا قلوب

فقال له ابن عباس : فمن الفارس فيكم ؟ حُدّ لي حدا أسمعه منك فانك تضع الأشياء مواضعها يا ابن صوحان ، قال : الفارس من قصر أجله في نفسه ، وضغم على أمله بضرسه ، وكانت الحرب أهون عليه من أمسه ، ذلك الفارس إذا وقدت الحروب ، واشتدت بالأنفس الكروب ، وتداعوا للنزال ، وتزاحفوا للقتال ، وتخالسوا المهج ، واقتحموا بالسيوف اللجج ، قال : أحسنت والله يا ابن صوحان ، إنك لسليل أقوام كرام خطباء فصحاء ، ما ورثت هذا عن كلالة ، زدني قال : نعم ، الفارس كثير الحذر ، مدير النظر ، يلتفت بقلبه ، ولا يدير خرزات صلبه ، قال : أحسنت والله يا ابن صوحان الوصف ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، لزهير بن جنّاب الكلبي يرثي ابنه عمراً حيث يقول :

فارس تكلأ الصحابة منه بحسام يمر مر الحريق
لا تراه لدى الوغى في مجال يغفل الطرف، لا ، ولا في مضيق
من يراه يخله في الحرب يوماً أنه أخرق مضل الطريق

في أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يا ابن صوحان ؟ صِفهُما لأعرف وزنكم ، قال : أما زيد فكما قال أخو غنيّ :

فتى لا يبالي أن يكون بوجهه إذا سدّ خلات الكرام شحوب
إذا ما تراآه الرجال تحفّظوا فلم ينطقوا العوراء وهو قريب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه إليه ويدعوه الندى فيجيب
يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعه إذا لم يكن في المنقيات حلوب
كأن بيوت الحي ما لم يكن بها بسابس ما يلفى بهن عريب

في أبيات ، كان والله يا ابن عباس عظيم المروءة ، شريف الأخوة ، جليل الخطر ، بعيد الأثر ، كميش العروة ، أليف البدوة ، سليم جوانح

الصدر ، قليل وساوس الدهر ، ذاكر الله طرفَيِ النهار وزلفاً من الليل ، الجوع والشبع عنده سيان ، لا ينافس في الدنيا ، وأقل أصحابه من ينافس فيها ، يطيل السكوت ، ويحفظ الكلام ، وإن نطق نطق بمُقَام ، يهرب منه الدعار والأشرار ، ويألفه الأحرار الأخيار ، فقال ابن عباس : ما ظنك برجل من أهل الجنة ، رحم الله زيداً ! فأين كان عبد الله منه ؟ قال : كان عبد الله سيداً شجاعاً ، مألفاً مطاعاً ، خيره وساع ، وشره دفاع ، قَلْبِي النحيزة ، أحوزي الغريزة ، لا ينهنهه منهنِهٌ عما أراده ، ولا يركب من الأمر إلا عتاده ، سمام عدي ، وباذل قري ، صعب المقادة ، جزل الرفادة ، أخو إخوان ، وفتى فتيان ، وهو كما قال البرجمي عامر بن سنان :

سِمامُ عدي ، بالنبل يقتل من رمى ... وبالسيف والرمح الرديني مشغب

مهيب مفيد للنوال مُعَوَّدٌ ... بفعل الندى والمكرمات مجرب

في أبيات ، فقال له ابن عباس : أنت يا ابن صوحان باقر علم العرب .

ومن أخبار صعصعة ما حدث به أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي ، عن أبي الهيثم يزيد بن رجاء الغنوي ، قال : أخبرني رجل من بني فزارة ثم من بني عدي ، قال : وقف رجل من بني فزارة على صعصعة ، فأسمعه كلاماً منه : بسطت لسانك يا ابن صوحان على الناس فتهيبوك ، أما لئن شِئْتَ لأكونن لك لصاقاً ، فلا تنطق إلا حَدَدْتُ لسانك بأذْرَبَ من ظُبَةِ السيف ، بعضب قوي ، ولسان علي ، ثم لا يكون لك في ذلك حل ولا ترحال ، فقال صعصعة : لو أجد غرضاً منك لرميت ، بل أرى شبحاً ولا أرى مثالاً ، إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، أما لو كنت

كفؤاً لرميت حصائلك بأذرَبَ من ذلك السنان ، ولرشقتك بنبال تردعك عن النضال ، ولخطمتك بخطام يخزم منك موضع الزمام ، فاتصل الكلام بابن عباس فاستضحك من الفزاري ، وقال : أما لو كلف أخو فزارة نفسه نقل الصخور من جبال شمام إلى الهضاب ، لكان أهون عليه من منازعة أخي عبد القيس ، خاب أبوه ، مـا أجهله ! يستجهل أخا عبد القيس ، وقواه المريرة ، ثم تمثل :

صُبَّتْ عليك ولم تنصبْ من أمم   إن الشقاء على الأشقَيْنَ مصبوب

ابو أيوب وصعصعة : وحدث المبرد ، عن الرياشي ، عن ربيعة بن عبد الله النميري ، قال : أخبرني رجل من الأزد ، قال : نظرت الى أبي أيوب الأنصاري ، في يوم النهروان ، وقد علا عبد الله بن وهب الراسبي ، فضربه ضربة على كتفه ، فأبان يده وقال : بُؤ بهـا الى النار يا مارق ، فقال عبد الله : ستعلم أينا أولى بهـا صليا ، قال : وأبيك إني لأعلم ، إذ أقبل صعصعة بن صوحان فوقف وقال : أولى بها والله صلياً من ضلّ في الدنيا عميا ، وصار إلى الآخرة شقيا ، أبعدك الله ! وأترحك ! أما والله : لقد أنذرتك هذه الصرعة بالأمس ، فأبيت إلا نكوصا على عقبيك ، فذق يا مارق وبال أمرك ، وشَرَكَ أبا أيوب في قتله : ضربه ضربة بالسيف أبان بها رجله ، وأدركه بأخرى في بطنه ، وقال : لقد صرت الى نار لا تطفأ ، ولا يبوخ سعيرها ، ثم احتزا رأسه ، وأتيا به عليا ، فقالا : هذا رأس الفاسق الناكث ، المارق : عبد الله بن وهب ، فنظر إليـه فقطّب ، وقال : شاه هذا الوجه ! حتى خيل إلينا أنه يبكي ، ثم قال : قد كان أخو راسب حافظا لكتاب الله ، تاركاً لحدود الله ، ثم قال لهما : اطلبا لي ذا الثُّدَيَّة ، فطلب فلم يوجد ، فرجعا إليه وقالا : ما أصبنا شيئاً ، فقال : والله لقد قتل في يومه هذا ، وما كَذَبَني رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، ولا كذبت عليه ، قوموا بجمعكم فاطلبوه ، فقامت جماعة من أصحابه ، فتفرقوا في القتلى ، فأصابوه في دهاس من الأرض ، فوقه زهاء مائة قتيل ، فأخرجوه يجر برجله ، ثم أتى به علي ، فقال : اشهدوا انه ذو الثدية ، وقد ذكرنا اخبار ذي الثدية فيما سلف من هذا الكتاب .

من قول علي في ربيعة : ولعلي في ربيعة كلام كثير يمدحهم فيه ، ويرثيهم شعراً ومنثوراً ، وقد كانوا أنصاره واعوانه ، والركن المنيع من أركانه ، فمن بعض ذلك قوله يوم صفين :

لمن راية سوداء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حُضَينُ تقدما
فيوردها في الصف حتى يعلها ... حياض المنايا تقطر الموت والدما
جزى الله قوماً قاتلوا في لقائه ... لدى الموت قدماً ما أعز وأكرما
وأطيب اخباراً ، وأكرم شيمة ، ... إذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعة أعني ، إنهم اهل نجدة ... وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما

معاوية وجميل بن كعب : وذكر المدائني أن معاوية أسر جميل بن كعب الثعلبي — وكان من سادات ربيعة وشيعة علي وأنصاره — فلما وقف بين يديه قال : الحمد لله الذي أمكنني منك ، ألست القائل يوم الجمل :

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والملك مجموع غداً لمن غلب
قد قلت قولاً صادقاً غير كذب ... إن غداً تهلك أعلام العرب

قال لا تقل ذلك فانها مصيبة ، قال معاوية : وأي نعمة أكبر من أن يكون الله قد أظفرني برجل قد قتل في ساعة واحدة عدة من حماة أصحابي ؟ اضربوا عنقه ، فقال : اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك ، ولا لأنك ترضى قتلي ، ولكن قتلني على حطام الدنيا ، فان

فعل فافعل به بما هو أهله ، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله ؛ فقال معاوية : قاتلك الله ! لقد سببت فابلغت في السب ، ودعوت فبالغت في الدعاء ، ثم أمر به فأطلق ، وتمثل معاوية بأبيات للنعمان بن المنذر ، لم يقل النعمان غيرها ، فيما ذكر ابن الكلبي ، وهي :

تعفو الملوك عن الجليـــل من الأمور بفضلها
ولقد تعاقب في اليســير ، وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلهـــا ويخاف شدة نكلها

معاوية عند موته : وذكر لوط بن يحيى وابن دأب والهيثم بن عدي وغيرهم من نقلة الأخبار ان معاوية لما احتضر تمثل :

هو الموت ، لا منجى من الموت ، والذي
تحـــاذر بعـد الموت أدهى وأفظع

ثم قال : اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وجُد بحلمك على جهل من لم يرج غيرك ، ولم يثق إلا بك ، فانك واسع المغفرة ، وليس لذي خطيئة مهرب ؛ فبلغ ذلك سعيد بن المسيب ، فقال : لقد رغب الى من لا مرغوب اليه مثله وإني لأرجو ان لا يعذبه الله .

وذكر محمد بن إسحاق وغيره من نقلة الآثار أن معاوية دخل الحمام في بدء علته التي كانت وفاته فيها ، فرأى نحول جسمه ، فبكى لفنائه وما قد اشرف عليه من الدثور الواقع بالخليقة ، وقال متمثلاً :

أرى الليالي اسرعت في نقضي أخذن بعضي وتركن بعضي
حنين طولي وحنين عرضي أقعدنني من بعد طول نهضي

ولما أزف أمره ، وحان فراقه ، واشتدت علته ، وأيس من برئه ، أنشأ يقول :

فياليتني لم أعن في الملك ساعة ولم أك في اللذات أعشو النواظر
وكنت كذي طمرين عاش ببُلغَة من الدهر حتى زار اهل المقابر

قال المسعودي : ولمعاوية أخبار كثيرة مع علي وغيره ، وقد أتينا على الغرر من أخباره ، وما كان في أيامه في كتابينا ، « أخبار الزمان » والأوسط ، وغيرهما من كتبنا ، مما أفرد للآثار ، وهذا باب كبير ، والكلام فيه وفي غيره مما تقدم وتأخر في هذا الكتاب كثير ، ومَنْ ضَمِنَ الاختصار لم يَجُزْ له الإكثار .

وإنما نذكر في كل باب من هذا الكتاب طُرَفاً من كل نوع من العلوم والأخبار ، وما انتخبناه من طرائف الآثار ؛ ليستدل الناظر فيه بما ذكرنا على المراد ، مما تركنا ذكره ، وقد تقدم وصفه وبسطه ، فيما سلف من كتبنا .

وإذ قد تقدم ما ذكرنا ، فلنذكر الآن جملا من فضل الصحابة وغيرهم ، عليهم السلام ؛ إذ كانوا حجة على من بعدهم ، وقدوة لمن تأخر عنهم ، وبالله التأييد .

ذكر
الصحابة ومدحهم
وعليّ ، والعباس ، وفضلهما

معاوية وعبد الله بن العباس : دخل عبد الله بن العباس على معاوية وعنده وُجُوه قريش ، فلما سلم وجلس قال له معاوية : إني أريد أن أسألك عن مسائل ؟ قال : سَلْ عما بدا لك .

وصف أبي بكر : قال : ما تقول في أبي بكر ؟ قال : رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً وعن المنكرات ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله

خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ، وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاقَ أصحابه ورَعاً وكفافا ، وسادهم زهداً وعفافاً ، فغضب الله على مَنْ أبغضه وطعن عليه .

وصف عمر : قال معاوية : إيهاً يا ابن عباس ، فما تقول في عمر بن الخطاب ؟ .

قال رحم الله أبا حفص عمر ، كان والله حليف الإسلام ، ومأوى الأيتام ، ومنتهى الإحسان ، ومحل الإيمان ، وكهف الضعفاء ، ومَعْقِلَ الحنفاء ، قام بحق الله عز وجل صابراً محتسباً ، حتى أوضح الدين ، وفتح البلاد ، وأمن العباد ، فأعقب الله على مَنْ تنقّصه اللعنة إلى يوم الدين .

قال : فما تقول في عثمان ؟.

وصف عثمان : قال : رحم الله أبا عمرو ، كان والله أكرم الحفَدَة ، وأفضل البررة ، هجّاداً بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهّاضاً عند كل مكرمة ، سبّاقاً إلى كل منحة ، حيياً أبيا وفيا ، صاحب جيش العُسرَة ، ختَنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين .

قال : فما تقول في علي ؟ .

وصف علي : قال : رضي الله عن أبي الحسن ، كان والله عَلَم الهدى ، وكهف التقى ، ومحل الحجا ، وبحر الندى ، وطَوْد النهى ، وكهف العلا للورى ، داعياً إلى المحجة العظمى ، متمسكا بالعروة الوُثْقى ، خير مَنْ آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتدى ، وأبر من انتعل وسعى ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى ، سوى الأنبياء والنبي المصطفى ، صاحب القبلتين فهل

يوازيه أحد ؟ وهو أبو السبطين فهل يقارنه بشر ؟ وزوج خير النساء فهل يفوقه قاطن بلد ؟ للاسود قتال وفي الحروب ختال ، لم تر عيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد إلى يوم التناد .

قال : إيهاً يا ابن عباس ، لقد أكثرت في ابن عمك ، فما تقول في أبيك العباس ؟ .

وصف العباس : قال : رحم الله العباس أبا الفضل ، كان صنو نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقرة عين صفي الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آبائه الأجواد ، وأحلام أجداده الأمجاد ، تباعدت الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسقاية ، والمشاعر والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك وقد ساسه أكرم من دب ؟ .

فقال معاوية : يا ابن عباس ، أنا أعلم أنك كلماني في أهل بيتك .

قال : ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » ؟ .

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام :

وصف الصحابة عامة : يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، خص نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بصحابة آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : (رحماء بينهم) الآية ، قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقه ، وقويت أسبابه وظهرت آلاء الله ، واستقر دينه ، ووضحت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رؤوسه ومحا دعائمه ، وصارت كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد

الموت أحياء ، وكانوا لعباد الله نصحاء ، رحلوا الى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بَعْدُ فيها .

فقَطَع عليه معاوية الكلام ، وقال : إيهاً يا ابن عباس ، حديثاً في غير هذا .

ذكر

أيام يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

موجز : وبويع يزيد بن معاوية ، فكانت أيامه ثلاث سنين وثمانية أشهر الا ثماني ليال ، وأخذ يزيد لابنه معاوية بن يزيد البيعة على الناس قبل موته ، ففي ذلك يقول عبد الله بن هَمّام السَّلولي :

تَلَقَّفَها يزيدُ عن أبيـــه فخذها يا مُعاوي عن يزيدا
لقد علقت بكم فتلقّفوهـــا ولا ترموا بها الغرض البعيدا

وهلك يزيد بحوارينَ من أرض دمشق لسبع عشرة ليلة خلت من صفر سنة أربع وستين ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وفي ذلك يقول رجل من عنزة :

يا أيها القـــبر بحوّارينـــا ضممت شرَّ النـاس أجمعينـا

وقد رثاه الأخطل النصراني ، فقال من قصيدة :

لعمري لقد دلّى إلى اللحد خالد جنازة لا نِكْس الفؤاد ولا غمر
مقيم بحوّارينَ ليس يَرِيمُها سقته الغوادي من ثَوِيٍّ ومن قبر

في أبيات .

ذكر

مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام

ومن قتل معه من أهل بيته وشيعته

أهل الكوفة يدعون الحسين : ولما مات معاوية أرسل أهل الكوفة إلى الحسين بن علي : إنا قد حبسنا أنفسنا على بيعتك ، ونحن نموت دونك ، ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك .

وطولب الحسين بالبيعة ليزيد بالمدينة فسام التأخير ، وخرج يتهادى بين مواليه ويقول :

لا ذَعَرْتُ السوام في فلق الصبـح مغيراً ولا دعيت يزيدا

يوم أعطى مخافة الموت ضيما والمنايا ترصدنني أن أحيدا

مسلم بن عقيل يتقدم الحسين الى الكوفة : ولحق بمكة ، فأرسل بابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة ، وقال له : سر الى أهل الكوفة فإن كان حقاً ما كتبوا به عرفني حتى ألحق بك ، فخرج مسلم من مكة في النصف من شهر رمضان ، حتى قدم الكوفة لخمس خلون من شوال ، والأمير عليها النعمان بن بشير الأنصاري ، فنزل على رجل يقال له عَوْسَجة مستتراً ، فلما ذاع خبر قدومه بايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل ، وقيل : ثمانية عشر ألفاً ، فكتب بالخبر إلى الحسين ، وسأله القدوم إليه .

ابن عباس ينصح الحسين : فلما هم الحسين بالخروج إلى العراق أتاه ابن العباس ، فقال له : يا ابن عم ، قد بلغني أنك تريد العراق ، وإنهم أهلُ غَدر ، وإنما يدعونك للحرب ، فلا تعجل ، وإن أبيت إلا محاربة هذا الجبار وكرهت المقام بمكة فاشْخَصْ إلى اليمن ،

فانها في عُزلة ، ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وبُثّ دعاتك ، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق فيخرجوا أميرهم ، فان قووا على ذلك ونفوه عنها ، ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم ، وما أنا لغدرهم بآمن ، وإن لم يفعلوا أقمت بمكانك إلى أن يأتي الله بأمره فإن فيها حصوناً وشعاباً ، فقال الحسين : يا بن عم ، إني لأعلم أنك لي ناصح وعليّ شفيق ، ولكن مسلم بن عقيل كتب إلي باجتماع أهل المصر على بيعتي ونُصرتي ، وقد أجمعت على المسير إليهم ، قال : إنهم من خَبَرتَ وجربت ، وهم أصحاب أبيك وأخيك وقتلتك غداً مع أميرهم ، إنك لو قد خرجت فبلغ ابن زياد خروجك استنفرهم إليك وكان الذين كتبوا اليك أشدّ من عدوك ، فان عصيتني وأبيت إلا الخروج إلى الكوفة فلا تخرجن نساءك وولدك معك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه ، فكان الذي رد عليه : لأن أقتَلَ والله بمكان كذا أحبُّ إلي من أن أستحل بمكة ، فيئس ابن عباس منه ، وخرج من عنده ، فمر بعبد الله بن الزبير فقال : قرت عينك يا ابن الزبير ، وأنشد :

يا لك من قُبّرةٍ بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

هذا حسين يخرج الى العراق ويخليك والحجاز .

الحسين وابن الزبير : وبلغ ابن الزبير أنه يريد الخروج الى الكوفة وهو أثقل الناس عليه ، وقد غمه مكانه بمكة ؛ لأن الناس ما كانوا يعدلونه بالحسين ، فلم يكن شيءٌ يُؤْتاه أحب اليه من شخوص الحسين عن مكة ، فأتاه فقال : أبا عبد الله ما عندك ؟ فوالله لقد خفت الله في ترك جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد

الله ، فقال حسين : قد عزمْتُ على إتيان الكوفة ، فقال : وفقك الله ! أما لو أن لي بها مثل أنصارك ما عدلْتُ عنها ، ثم خاف أن يتهمه فقال ولو أقمت بمكانك فدعوتنا وأهل الحجاز الى بيعتك أجبناك وكنا اليك سِراعا ، وكنت أحق بذلك من يزيد وأبي يزيد

نصيحة ابي بكر بن هشام : ودخل أبو بكر بن الحارث بن هشام على الحسين فقال : يا ابن عم ، إن الرحم يُظائرني عليك ، ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك ، فقال : يا أبا بكر ما انت ممن يستغش ولا يُتهم ، فقل ، فقال أبو بكر : كان أبوك أقدم سابقة ، وأحسن في الاسلام أثراً ، وأشد بأسا ، والناس له أرجى ، ومنه أسمع وعليه أجمع ، فسار الى معاوية والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام وهو أعز منه ، فخذلوه ، وتثاقلوا عنه ، حرصاً على الدنيا ، وضناً بها ، فجرَّعوه الغيظ ، وخالفوه حتى صار الى ما صار اليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ، وقد شهدْتَ ذلك كله ورأيته ، ثم أنت تريد ان تسير الى اللذين عَدَوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ومن هو أعد منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك اليهم لاستطغوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك مَنْ وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب اليه ممن ينصره ، فاذكر الله في نفسك ، فقال الحسين : جزاك الله خيراً يا ابن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض الله يكن ، فقال : إنا لله وعند الله نحتسب يا أبا عبدالله ، ثم دخل على الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي والي مكة وهو يقول :

كم نرى ناصحاً يقول فيُعْصى وظنين المغيب يُلْفى نصيحاً

فقال: وما ذاك؟فأخبره بما قال للحسين، فقال: نصحت له ورب الكعبة.

يزيد يستعد : واتصل الخبر بيزيد ، فكتب الى عبيد الله بن زياد بتولية الكوفة ؛ فخرج من البصرة مسرعاً حتى قدم الكوفة على الظهر ، فدخلها في أهله وحشمه وعليه عمامة سوداء قد تَلَثَّم بها ، وهو راكب بغلة والناس يتوقعون قدوم الحسين فجعل بن زياد يسلم على الناس فيقولون : وعليك السلام يا ابن رسول الله ! قدمْتَ خير مَقْدَمٍ ، حتى انتهى الى القصر وفيه النعمان بن بشير ، فتحصَّن فيه ، ثم اشرف عليه ، فقال : يا ابن رسول الله ما لي وما لك ؟ وما حملك على قصد بلدي من بين البلدان ؟ فقال ابن زياد : لقد طال نومك يا نعيم ، وَحَسَرَ اللثام عن فيه ، فعرفه ، ففتح له ، وتنادى الناس : ابن مَرْجانة ، وَحَصَبوه بالحصباء ، ففاتهم ودخل القصر ، ولما اتصل خبر ابن زياد بمسلم تحول الى هانيء بن عروة المرادي ، ووضع ابن زياد الرَّصَدَ على مسلم حتى علم بموضعه ، فوجه محمد بن الاشعث ابن قيس الى هانيء ، فجاءه فسأله عن مسلم ، فأنكره فأغلظ له ابن زياد القول ، فقال هانيء : إن لزياد أبيك عندي بلاء حسناً ، وأنا احبُّ مكافأته به ، فهل لك في خير ؟ قال ابن زياد : وما هو ؟ قال تشخص الى أهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم ، فإنه قد جاء حق مَنْ هو أحق من حقك وحق صاحبك ، فقال ابن زياد : أدنوه مني ، فأدنوه منه ، فضرب وجهه بقضيب كان في يده حتى كسر انفه وشق حاجبه ، ونثر لحم وجنته ، وكسر القضيب على وجهه ورأسه ، وضرب هانيء بيده الى قائم سيف شرطي من تلك الشرط ، فجاذبه الرجل ، ومنعه السيف ، وصاح أصحاب هانيء بالباب : قتل صاحبنا ، فخافهم ابن زياد ، وأمر بحبسه في بيت الى جانب مجلسه ، وأخرج اليهم ابن زياد شريحاً القاضي ، فشهد عندهم أنه حي لم يقتل ، فانصرفوا ، ولما بلغ مسلماً ما فعل ابن زياد

يهانيء ، أمـر منادياً فنادى « يا منصور » وكانت شعارهم ، فتنادى أهل الكوفة بها ، فاجتمع اليه في وقت واحـد ثمانية عشر ألف رجل ، فسار الى ابن زياد ، فتحصن منه ، فحصروه في القصر فلم يُمْسِ مسلم ومعه غير مائة رجل ، فلما نظر الى الناس يتفرقون عنه سار نحو أبواب كندة ، فما بلغ الباب إلا ومعه منهم ثلاثة ، ثم خرج من الباب فاذا ليس معه منهم أحد ، فبقي حائراً لا يدري أين يذهب ، ولا يجد أحداً يدله على الطريق فنزل عن فرسه ومشى متلدداً في أزقة الكوفة لا يدري أين يتوجه ، حتى انتهى الى باب مولاة للاشعث بن قيس ، فاستسقاها ماء فسقته ، ثم سألته عن حاله ، فأعلمها بقضيته ، فرقت له وآوته ، وجاء ابنها فعلم بموضعه ، فلما أصبح غدا الى محمد بن الاشعث فأعلمه ، فمضى ابن الاشعث الى ابن زياد فأعلمه ، فقال : انطلق فأتني به ، ووجه معه عبد الله بن العباس السلمي في سبعين رجلا ، فاقتحموا على مسلم الدار ، فثار عليهم بسيفه ، وشد عليهم فأخرجهم من الدار ، ثم حملوا عليه الثانية ، فشد عليهم وأخرجهم أيضاً ، فلما رأوا ذلك علوا ظهر البيوت فرموه بالحجارة ، وجعلوا يلهبون النار بأطراف القصب ، ثم يلقونهـا عليه من فوق البيوت ، فلما رأى ذلك قال : اكل ما أرى من الأحلاب لقتل مسلم ابن عقيل ؟ يا نفس اخرجي الى الموت الذي ليس عنـه محيص ، فخرج اليهم مُصلتاً سيفه الى السكة ، فقاتلهم ، واختلف هو وبكير ابن حمران الأحمري ضربتين : فضرب بكير فمَّ مسلم فقطع السيف شفته العليا وشرع في السفلى ، وضربه مسلم ضربة منكرة في رأسه ، ثم ضربه أخرى على حبل العاتـق فكاد يصل الى جوفه ، وهو يرتجز ويقول :

أقسم لا أقتلُ إلا حرّا وإن رأيت الموت شيئاً مرا

كل امرىء يوماً ملاقٍ شرا أخاف أن اكذب أو اغرا

فلما رأوا ذلك منه تقدم اليه محمد بن الأشعث فقال له : فإنك لا تكذب ولا تغر ، واعطاه الأمان ، فأمكنهم من نفسه ، وحملوه على بغلة واتوا به ابن زياد وقد سلبه ابن الأشعث حين اعطاه الأمان سيفه وسلاحه ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء في كلمة يهجو فيها ابن الأشعث :

وتركت عمك أن تقاتل دونه فشلاً ، ولولا انت كان منيعاً

وقتلت وافد آل بيت محمد وسلبت أسيافاً له ودروعا

مقتل هانيء بن عروة : فلما صار مسلم الى باب القصر نظر الى قلة مبردة ، فاستسقاهم منها ، فمنعهم مسلم بن عمرو الباهلي ـ وهو أبو قتيبة بن مسلم ـ أن يسقوه ، فوجه عمرو بن حريث فأتاه بماء في قدح ، فلما رفعه الى فيه امتلأ القدح دماً ، فصبه وملأه له الثانية ، فلما رفعه الى فيه سقطت ثناياه فيه وامتلأ دماً ، فقال : الحمد لله ، لو كان من الرزق المقسوم لشربته ، ثم أدخل الى ابن زياد ، فلما انقضى كلامه ومسلم يغلظ له في الجواب امر به فاصعد الى اعلى القصر ، ثم دعا الأحمري الذي ضربه مسلم فقال : كن انت الذي تضرب عنقه لتأخذ بثأرك من ضربته ، فأصعدوه الى أعلى القصر ، فضرب بكير الأحمري عنقه ، فأهوى رأسه الى الأرض ، ثم أتبعوا رأسه جسده ، ثم امر بهانيء ابن عروة فأخرج الى السوق فضرب عنقه صبراً ، وهو يصيح : يا آل مراد ، وهو شيخها وزعيمها ، وهو يومئذ يركب في اربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ، وإذا اجابتها احلافها من كندة وغيرها كان في ثلاثين ألف دارع ، فلم يجد زعيمهم منهم أحداً فشلاً وخذلاناً ، فقال الشاعر وهو يرثي هانيء بن عروة ومسلم بن عقيل ويذكر ما نالهما :

إذا كنتِ لاتدْرين ما الموت فانظري   إلى هانيء في السوق وابن عقيل
إلى بطلٍ قد هشم السيفُ وجهه   واخر يهوي في طمار قتيــــل
أصابهما امرُ الأمير فأصبحا   أحاديثَ من يسعى بكل سبيل
ترّى جسداً قد غيرّ الموتُ لونه   ونضحَ دم قد سال كل مسيل
أيترك اسماء المهايج آمنــــاً   وقد طلبته مَذْحِج بذحُول
فتى هو أحيى من فتاة حَيِيَّةٍ   وأقطع من ذي شفرّتين صقيل

ثم دعا ابن زياد ببكير بن حمران الذي ضرب عنق مسلم فقال : أقتلته ؟ قال : نعم ، قال : فما كان يقول وأنتم تصعدون به لتقتلوه ؟ قال : كان يكبر ويسبح الله ويهلل ويستغفر الله ، فلما ادنيناه لنضرب عنقه قال : اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وكذبونا ثم خذلونا وقتلونا ، فقلت : الحمد لله الذي اقادني منكَ ، وضربته ضربة لم تعمل شيئاً ، فقال لي : أو ما يكفيك وفي خدش مني وفاء بدمك أيها العبد ، قال ابن زياد : اوَ فخراً عند الموت ؟ قال : وضربته الثانية فقتلته ، ثم اتبعنا رأسه جسده .

وكان ظهور مسلم بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان ليال مضين من ذي الحجة سنة ستين ، وهو اليوم الذي ارتحل فيه الحسين من مكة الى الكوفة ، وقيل : يوم الأربعاء يوم عرفة لتسع ماضين من ذي الحجة سنة ستين .

ثم امر ابن زياد بجثة مسلم فصلبت ، وحمل رأسه الى دمشق ، وهذا اول قتيل صلبت جثته من بني هاشم ، وأول رأس حمل من رؤوسهم الى دمشق .

الحسين يقاتل جيش ابن زياد : فلما بلغ الحسين القادسية لقيه الحر ابن يزيد التميمي فقال له : اين تريد يا ابن رسول الله ؟ قال : اريد هذا المصر ، فعرّفه بقتل مسلم وما كان من خبره ، ثم قال : ارجع فإني لم أدع خلفي خيراً ارجوه لك ، فهَمَّ بالرجوع فقال له إخوة

مسلم : والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا او نقتل كلنا ، فقال الحسين : لا خير في الحياة بعدكم ، ثم سار حتى لقي خيل عبيد الله بن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبي وقاص ، فعدل الى كربلاء – وهو في مقدار خمسمائة فارس من اهل بيته واصحابه ونحو مائة راجل – فلما كثرت العساكر على الحسين أيقن أنه لا محيص له فقال : اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا ثم هم يقتلوننا ، فلم يزل يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه ، وكان الذي تولى قتله رجل من مَذحج واحتز رأسه ، وانطلق به الى ابن زياد وهو يرتجز :

أوقرْ ركابي فضة وذهبا ... أنا قتلتُ الملك المحجبا
قتلتُ خيرَ الناس أماً وأبا ... وخيرهم إذ يُنسبون نسبا

فبعث به ابن زياد الى يزيد بن معاوية ومعه الرأس ، فدخل الى يزيد وعنده ابو برزة الأسلمي فوضع الرأس بين يديه ، فأقبل ينكت القضيب في فيه ، ويقول :

نُفَلِّقُ هاماً من رجال أحبةٍ ... علينا ، وهم كانوا أعقّ وأظلما

فقال له أبو برزة : ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه ، وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر وحاربه وتولى قتله من أهل الكوفة خاصة ، لم يحضرهم شامي ، وكان جميع من قتل مع الحسين في يوم عاشوراء بكربلاء سبعة وثمانين ، منهم ابنه علي بن الحسين الأكبر ، وكان يرتجز ويقول :

أنا عليُّ بن الحسين بن علي ... نحن وبيتَ الله أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدّعي

وقتل من ولد أخيه الحسن بن علي : عبد الله بن الحسن ، والقاسم

ابن الحسن وأبو بكر بن الحسن ، ومن إخوته العباس بن علي ، وعبد الله بن علي ، وجعفر بن علي ، وعثمان بن علي ، ومحمد بن علي ؛ ومن ولد جعفر بن أبي طالب : محمد بن عبد الله بن جعفر ، وعون بن عبد الله بن جعفر ؛ ومن ولد عقيل بن أبي طالب : عبد الله بن عقيل ، وعبد الله بن مسلم بن عقيل ، وذلك لعشر خلون من المحرم سنة إحدى وستين .

وقتل الحسين وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وقيل : ابن تسع وخمسين سنة وقيل غير ذلك .

ووجد بالحسين يوم قتل ثلاث وثلاثون طعنة ؛ وأربع وثلاثون ضربة ، ضَرَبَ زرعة بن شريك التميمي كفه اليسرى ، وطعنه سنان ابن أنس النخعي ، ثم نزل فاحتز رأسه ، وفي ذلك يقول الشاعر :

وأيُّ رَزِيَّة عدَلَت حُسيناً غداة تبيرُه كفَّا سنان ؟!

وقتل معه من الأنصار أربعة ، وباقي من قتل معه من أصحابه ـ على ما قدمنا من العِدَّة ـ من سائر العرب ، وفي ذلك يقول مسلم بن قتيبة مولى بني هاشم :

عَيْنُ جودي بعبرة وعويل واندبي إن ندبت آل الرسول
واندبي تسعة لصُلْب علي قد أصيبوا ، وخمسة لعقيل
وابْنَ عَمِّ النبي عوناً أخاهم ليس فيما يَنُوب بالمخذول
وسَمِيُّ النبي غودر فيهم قد عَلَوْه بصارم مصقول
واندبي كهلَهُمْ فليس إذا ما عُدَّ في الخير كهلهم كالكهول
لَعَنَ الله حيث كان زياداً وابنه والعجوزَ ذات البُعُول

وأمر عمرو بن سعد أصحابه أن يوطئوا خيلهم الحسين ، فانتدب لذلك إسحاق بن حيوة الحضرمي في نفر معه ، فوطئوه بخيلهم ،

ودفن أهل الغاضرية – وهم قوم من بني غاضر من بني أسد – الحسين وأصحابه بعد قتلهم بيوم ، وكان عدة من قتل من أصحاب عمرو بن سعد في حرب الحسين عليه السلام ثمانية وثمانين رجلا .

ذكر
أسماء ولد علي بن أبي طالب
رضي الله عنه !

أسماء ولد علي وأمهاتهم : الحسن ، والحسين ، ومُحَسِّن ، وأم كلثوم الكبرى ، وزينب الكبرى ، أمهم فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحمد وأمه خَوْلَة بنت إياس الحنفية ، وقيل : ابنة جعفر بن قيس بن مَسْلَمة الحنفي ، وعبيد الله ، وأبو بكر وأمهما ليلى بنت مسعود النهشلي ، وعمر ، ورقية أمهما تغلبية ، ويحيى وأمه أسماء بنت عُمَيْس الخثعمية ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن جعفرا الطيار استشهد وخلف عليها عَوْنا ومحمداً وعبد الله ، وان عقب جعفر منها من عبد الله بن جعفر ، وأن أبا بكر الصديق تزوجها بعده ، وخلف عليها محمدا ، ثم تزوجها علي فخلف عليها يحيى ، وانها ابنة العجوز الجرشية التي كانت أكْرَمَ الناس أصهاراً ، وقد تقدم فيما سلف من هذا الكتاب تسمية أصهار العجوز الجرشية ، وأن أولهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعفر والعباس وعبد الله أمهم أم البنين بنت حرام الوحيدية ، ورَمْلَة وأم الحسن أمهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي ، وأم كلثوم الصغرى ، وزينب الصغرى ، وجُمَانة وميمونة ، وخديجة ، وفاطمة ، وأم الكرام ، ونفيسة ، وأم سلمة ، وأم أبيها .

وقد أتينا على أنساب آل أبي طالب ، ومَنْ أعقب منهم ومصارعهم ، وغير ذلك من أخبارهم في كتابنا « أخبار الزمان » .

ذو العقب من أولاد علي : والعقب لعلي من خمسة : الحسن ، والحسين ، ومحمد ، وعمر ، والعباس ، وقد استقصى أنسابهم ، وأتى على ذكر من لا عقب له منهم ومن له العقب ، وأنساب غيرهم من قريش من بني هاشم ، وغيرهم الزبيرُ بن بَكار في كتابه في « أنساب قريش » وأحسن من هذا الكتاب في أنساب آل أبي طالب الكتابُ الذي سمع من طاهر بن يحيى العلوي الحسيني بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد صنف في أنساب آل أبي طالب كتب كثيرة : منها كتاب العباس من ولد العباس بن علي ، وكتاب أبي علي الجعفري ، وكتاب المهلوس العلوي من ولد موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بْنْ علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

رثاء قتيل الطف : وفي قتيل الطف يقول سليمان بن قتة يرثيه على ما ذكره الزبير بن بكار في كتاب « أنساب قريش » من أبيات :

فإن قتيلَ الطَّفِّ من آل هاشم أذلَّ رقاباً من قريش فَذَلَّتِ
فإن يُتْبعوه عائذ البيت يُصْبحوا كعادٍ تعمت عن هداها فضلت
ألم تر أن الأرض أضحت مريضة بقتل حسين والبلاد اقشعرت
فلا يُبعد الله الديار وأهلها وإن أصبحت منهم برغمي تخلت

ذكـــر

لمع من أخبار يزيد، وسيره

ونوادر من بعض أفعاله

خروج يزيد لوفود العرب : ولما أفضى الأمر إلى يزيد بن معاوية دخل منزله، فلم يظهر للناس ثلاثاً، فاجتمع ببابه أشرافُ العرب ووفود البلدان وأمراء الأجناد لتعزيته بأبيه وتهنئته بالأمر، فلما كان في اليوم الرابع خرج أشعَثَ أغبَرَ فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : إن معاوية كان حَبْلاً من حبال الله مَدَّه الله ما شاء أن يمده، ثم قطعه حين شاء ان يقطعه، وكان دون من كان قبله، وخير من بعده، إن يغفر الله له فهو أهله، وإن يعذبه فبذنبه، وقد وليتُ الأمر بعده، ولست أعتذر من جهل، ولا أشتغل بطلب علم، فعلى رسلكم فإن الله لو أراد شيئاً كان، اذكروا الله واستغفروه، ثم نزل، ودخل منزله، ثم أذن للناس.

فدخلوا عليه لا يدرون أيهنئونه أم يعزونه، فقام عاصم بن أبي صيفي، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أصبحت قد رُزِئْتَ خليفة الله وأعطيت خلافة الله، ومنحت هبة الله، قضى معاوية نحبه، فغفر الله له ذنبه، وأعطيت بعده الرياسة؛ فاحتسب عند الله أعظم الرزية، واحمده على أفضل العطية، فقال يزيد : ادن مني يا ابن أبي صيفي، فدنا حتى جلس قريبا منه.

ثم قام عبد الله بن مازن فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين،

رزئت خير الآباء ، وسميت خير الأسماء ، ومنحت أفضل الأشياء ، فهنأك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحَتْ قريش مفجوعة بعد ساستها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ، والعُقبى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد الملحدون عَوْقَهَا
عنك فيأبى الله إلا سَوْقَهَا إليك حتى قلّدوك طَوْقَهَا

فقال له يزيد : ادن مني يا ابن مازن ، فدنا حتى جلس قريباً منه .

ثم قام عبد الله بن همام فقال : آجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزية ، وصبرك على المصيبة ، وبارك لك في العطية ، ومنحك محبة الرعية ، مضى معاوية لسبيله غفر الله له ، وأورده موارد السرور ، ووفقك بعده لصالح الأمور ، فقد رزئت جليلا ، وأعطيت جزيلا ، جئت بعده للرياسة ، ووليت السياسة ، أصبت بأعظم المصائب ، ومنحت أفضل الرغائب ، فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، واشكره على أفضل العطية ، وأحدث لخالقك حمداً ، والله يمتعنا بك ويحفظك ، ويحفظ بك وعليك ، وأنشأ يقول :

اصْبِرْ يزيد فقد فارقتَ ذا مقة واشكر حِباءَ الذي بالملك أصفاكا
أصبحْتَ لا رزء في الأقوام نعلمه كما رُزِئت ولا عقبى كعقباكا
أعطيتَ طاعة خلق الله كلهم وأنت ترعاهم والله يرعاكا
وفي معاويةَ الباقي لنا خلفٌ إما نُعِيتَ ولا نسمع بمنعاكا

فقال يزيد : ادن مني يا ابن همام ، فدنى حتى جلس قريباً منه .

ثم قام الناس يعزونه ويهنئونه بالخلافة ، فلما ارتفع عن مجلسه أمر لكل واحد منهم بمال على مقداره في نفسه ، ومحله في قومه ، وزاد في عطائهم ، ورفع مراتبهم ، وقد أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » على ما كان من خبر يزيد وغيبته في حال وفاة أبيه

معاوية ، ومسيره من ناحية حمص حين بلغه ما بأبيه من العلة ، ووروده على ثنية العقاب من أرض دمشق ، فأغنى ذلك عن إعادة هذا الخبر في هذا الكتاب .

بين يزيد وعبد الملك : وذكر عدة من الأخباريين وأهل السير أن عبد الملك بن مروان دخل على يزيد ، فقال : أُرَيْضَة لك إلى جانب أرض لي ، ولي فيها سعة ، فأقطعنيها ، فقال : يا عبد الملك ، إنه لا يتعاظمني كبير ، ولا أجزع من صغير ، فأخبرني عنها وإلا سألت غيرك ، فقال : ما بالحجاز أعظم منها قدراً ، قال : قد أقطعتك، فشكره عبد الملك ودعا له ، فلما ولَّى قال يزيد : إن الناس يزعمون أن هذا يصير خليفة ، فإن صدقوا فقد صانعناه . وإن كذبوا فقد وصلناه .

فسوق يزيد وعماله : وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد ، وذلك بعد قتل الحسين ، فأقبل على ساقيه فقال :

اسْقِنِي شَرْبَةً تَرْوِّي مُشَاشِي ثم مِلْ فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السرّ والأمانة عِندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنوا به .

وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته ، ويطرح له متكأ ، وكان قرداً خبيثاً وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء في بعض الأيام سابقاً ، فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبي قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشمر ،

وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق ، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان ، فقال في ذلك بعض شعراء الشام في ذلك اليوم :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها فليس عليها ان سقطت ضمان
ألا مَنْ رأى القرد الذي سبقت به جياد أمير المؤمنين أتان

وفي يزيد وتملكه وتجبره وانقياد الناس الى ملكه يقول الأحوص :

ملك تدين له الملوك مُبارك كادت لهيبته الجبالُ تزولُ
تُجبى له بَلْخٌ ودِجْلَةُ كلها وله الفرات وما سَقَى والنيلُ

وقيل : إن الأحوَص قال هذا في معاوية بعد وفاته يرثيه .

ما قيل في مقتل الحسين : ولما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكربلاء وحمل رأسه ابن زياد الى يزيد خرجت بنت عقيل بن أبي طالب في نساء من قومها حواسر حائرات ، لما قد ورد عليهن من قتل السادات ، وهي تقول :

ماذا تقولون إنْ قال النبيُّ لكم : ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟
بعِترَتي وبأهلي بعد مُفتَقَدي نِصفٌ أسارى ونِصفٌ ضُرِّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصَحتُ لكم أن تخلفوني بشر في ذوي رَحِمي

وفي فعل ابن زياد بالحسين يقول أبو الأسود الدؤلي من قصيدة :

أقولُ وذاك من جَزَعٍ وَوَجْدٍ أزالَ الله مُلكَ بني زيادِ
وأبعَدَهُمْ ، بما غَدَرُوا وخانوا كما بَعُدَتْ ثمودُ وقومُ عاد

اهل المدينة وعمال يزيد : ولما شمل الناس جورُ يزيد وعماله ، وعمهم ظلمه ، وما ظهر من فسقه : من قتله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصاره ، وما أظهر من شرب الخمور وسيره سيرة فرعون ، بل كان فرعون أعدل منه في رعيته ، وأنصف منه لخاصته

وعامله : أخرج أهلُ المدينة عامله عليهم – وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان – ومروان بن الحكم ، وسائر بني أمية ، وذلك عند تنسك ابن الزبير وتألّهه ، وإظهار الدعوة لنفسه ، وذلك في سنة ثلاث وستين ، وكان إخراجهم لما ذكرنا من بني أمية وعامل يزيد عن إذن ابن الزبير ، فاغتنمها مروان منهم ، إذ لم يقبضوا عليهم ويحملوهم الى ابن الزبير ، فحثّوا السير نحو الشام ، ونمى فعل أهل المدينة ببني أمية وعامل يزيد إلى يزيد ، فسيَّرَ إليهم بالجيوش من أهل الشام عليهم مسلم بن عقبة المري الذي أخاف المدينة ونهبها ، وقتل أهلها ، وبايعه أهلها على أنهم عبيد ليزيد ، وسماها نتنة ، وقد سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبة ، وقال : « مَنْ أخاف المدينة أخافه الله » فسمى مسلم هذا لعنه الله بمجرم ومسرف ؛ لما كان من فعله ، ويقال : إن يزيد حين جرد هـذا الجيش وعرض عليه أنشأ يقول :

أبْلغْ أبا بكر اذا الأمرُ انبرى وأشْرَفَ القومُ على وادي القرى
أجمع السكران منْ قوم تَرَى

يريد بهذا القول عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله يكنى بأبي بكر ، وكان يُسَمّى يزيد السكران الخمير ، وكتب إلى ابن الزبير :

أدعو إلهك في السماء فإنني أدعو عليك رجال عكٍّ وأشْعر
كيف النجاة أبا خُبيْبٍ منهمُ فاحتلْ لنفسك قبل أتْيِ العسكر

وقعة الحرة : ولما انتهى الجيش من المدينة الى الموضع المعروف بالحرّة وعليهم مُسرف خرج إلى حربه أهلها عليهم عبد الله بن مطيع العدوي وعبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري ، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس من بني هاشم وسائر قريش

والأنصار وغيرهم من سائر الناس ؛ فممن قتل من آل أبي طالب اثنان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وجعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب ؛ ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب الفضل ابن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وحمزة بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب ، وبضع وتسعون رجلا من سائر قريش ومثلهم من الأنصار ، وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الإحصاء ، دون من لم يعرف .

وبايع الناس على أنهم عبيدٌ ليزيد ، ومَنْ أبى ذلك أمره مُسْرِف على السيف غير علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب السَّجاد ، وعلي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وفي وقعة الحرة يقول محمد بن أسلم :

فإن تقتلونا يومَ حَرَّة واقمٍ فنحنُ على الإسلام أوَّل من قتل
ونحن تركناكم ببدرٍ أذلةً وأبنا بأسيافٍ لنا منكم تفل

ونظر الناس إلى علي بن الحسين السجاد وقد لاذ بالقبر وهو يدعو ، فأتى به إلى مُسْرِف وهو مغتاظ عليه ، فتبرأ منه ومن آبائه ، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد ، وقام له ، وأقعده إلى جانبه ، وقال له : سَلْنِي حوائجك ، فلم يسأله في أحد ممن قدم إلى السيف إلا شفَّعه فيه ، ثم انصرف عنه ، فقيل لعلي : رأيناك تحرك شفتيك ، فما الذي قلت ؟ قال : قلت : اللهم ربَّ السموات السبع وما أظللن ، والأرضين السبع وما أقللن ، ربَّ العرش العظيم ، ربَّ محمد وآله الطاهرين ، أعوذ بك من شره ، وأدرأ بك في نَحْره ، أسألك أن تؤتيني خيره ، وتكفيني شره ، وقيل لمسلم : رأيناك تسبُّ هذا الغلام وسَلَفه ، فلما أتى به إليك رفعت منزلته ، فقال : ما

كان ذلك لرأي مني ، لقد ملئ قلبي منه رعباً .

وأما علي بن عبد الله بن العباس فإن أخواله من كندة منعوه منه ، وأناس من ربيعة كانوا في جيشه ، فقال علي في ذلك :

أبي العباسُ قرمُ بني لؤي ... وأخوالي الملوكُ بَنُو وليعه
هُمُ منعوا ذِماري يوم جاءت ... كتائبُ مُسْرِفٍ وبني اللَّكِيعه
أرادَنِيَ التي لا عزَّ فيها ... فحالت دونه أيدي ربيعه

ولما نزل بأهل المدينة ما وصفنا من القتل والنهب والرق والسبي وغير ذلك مما عنه أعرضنا من مُسْرِفٍ خرج عنها يريد مكة في جيوشه من أهل الشام . ليوقع بابن الزبير وأهل مكة ، بأمر يزيد ، وذلك في سنة أربع وستين .

فلما انتهى الى الموضع المعروف بقديد مات مُسْرِف لعنه الله ! واستخلف على الجيش الحصينُ بن نمير ، فسار الحصين حتى أتى مكة وأحاط بها ، وعاذ ابن الزبير بالبيت الحرام ، وكان قد سمى نفسه العائذَ بالبيتِ ، وشُهِر بهذا حتى ذكرته الشعراء في أشعارها ، من ذلك ما قدمنا من قول سليمان بن قتة :

فإن تُتْبِعُوه عائذ البيت تُصْبِحُوا ... كعادٍ تعمَّتْ عن هُداها فضلَّتِ

رمي الكعبة بالمجانيق : ونصب الحصين فيمن معه من أهل الشام المجانيقَ والعرادات على مكة والمسجد من الجبال والفجاج ، وابنُ الزبير في المسجد ، ومعه المختار بن أبي عبيد الثقفي داخلا في جملته ، منضافاً إلى بيعته ، منقاداً إلى إمامته ، على شرائط شرطها عليه لا يخالف له رأياً ولا يعصى له أمراً ، فتواردت أحجار المجانيق والعراداتِ على البيت ، ورمى مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحروقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية ،

ووقعت صاعقة فأحرقت من أصحاب المجانيق أَحَدَ عَشَرَ رجلا ، وقيل أكثر من ذلك وذلك يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، قبل وفاة يزيد بأحد عشر يوماً ، واشتد الأمر على أهل مكة وابن الزبير ، واتصل الأذى بالأحجار والنار والسيف : ففي ذلك يقول أبو وَجْزَةَ المدني :

ابنُ نُمَيْرٍ بِئْسَ مـا تَوَلّى قد أحْرَقَ المقام والمُصلَّى

وليزيد وغيره أخبار عجيبة ، ومثالب كثيرة : من شرب الخمر ، وقتل ابن بنت الرسول ، ولعْن الوصي ، وهدم البيت وإحراقـه ، وسفك الدماء ، والفسق والفجور ، وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه ، كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله ، وقد أتينا على الغرر من ذلك فيما تقدم وسلف من كتبنا . والله ولي التوفيق .

ذكر
أيام معاوية بن يزيد بن معاوية ، ومروان بن الحكم
والمختار بن أبي عبيد ، وعبد الله بن الزبير
ولمع من أخبارهم وسيرهم ، وبعض ما كان في أيامهم

موجز عن معاوية بن يزيد : قال المسعودي : ومَلَكَ معاوية بن يزيد بن معاوية بعد أبيه ، فكانت أيامه أربعين يوماً إلى أن مات ، وقيل شهرين ، وقيل غير ذلك ، وكان يكنى بأبي يزيد ، وكني حين ولي الخلافة بأبي ليلى ، وكانت هذه الكنية للمستضعف من العرب ، وفيه يقول الشاعر :

إني أرى فِتْنَةً هاجَتْ مَرَاجِلُها والملكُ بعد أبي ليلى لمن غلبا

ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له : اعْهَدْ الى من رأيت من أهل بيتك ، فقال : والله ما ذُقتُ حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وِزْرَها ؟ وتتعجلون أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ، اللهم إني بريء منها ، مُتخلٍّ عنها ، اللهم إني لا أجد نفراً كأهل الشورى فأجعلها إليهم ينصبون لها من يرونه أهلاً لها ، فقالت له أمه : ليت أني خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام ، فقال لها : وليتني يا أماه خرقة حيض ولم أتقلد هذا الأمر ، أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء بوزرها ومنعها أهلها ؟ كلا ! إني لبريء منها .

وقد تنوزع في سبب وفاته ، فمنهم من رأى أنه سقي شربة ، ومنهم من رأى أنه مات حَتْفَ أنفه ، ومنهم من رأى أنه طعن ، وقبض وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، ودفن بدمشق ، وصلى عليه الوليدُ بن عتبة بن أبي سفيان ، وليكون الأمر له من بعده ، فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتاً قبل تمام الصلاة ، فقدمْ عثمان بن عتبة ابن أبي سفيان ، فقالوا : نبايعك ؟ قال : على أن لا أحارب ولا أباشر قتلا ، فأبوا ذلك عليه ، فصار إلى مكة ، ودخل في جملة ابن الزبير .

وزال الأمر عن آل حرْب ، فلم يكنْ فيهم من يرومها ، ولا يتشوف نحوها ، ولا يرتجي أحد منهم لها .

وبايع أهل العراق عبد الله بن الزبير ، فاستعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع العدوي .

المختار في الكوفة : فقال المختار بن أبي عبيد الثقفي لابن الزبير : إني لأعرف قوماً لو أن لهم رجلا له رفق وعلم بما يأتي لاستخرج لك منهم جنداً تغلب أهل الشام ، فقال : من هم ؟ قال : شيعة بني هاشم بالكوفة قال: كن أنت ذلك الرجل ؛ فبعثه إلى الكوفة ، فنزل ناحية منها ، وجعل يُظْهِر البكاء على الطالبيين وشيعتهم ، ويظهر الحنين والجزع لهم ،

ويحث على أخذ الثأر لهم والمطالبة بدمائهم ، فمالت الشيعة إليه ، وانضافوا إلى جملته ، وسار إلى قصر الإمارة فأخرج ابن مطيع منه ، وغلب على الكوفة ، وابتنى لنفسه داراً ، واتخذ بستاناً أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال ، وفرق الأموال على الناس بها تفرقه واسعة ، وكتب الى ابن الزبير يعلمه أنه إنما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها ، ويسوم ابن الزبير أن يحسب له بما أنفقه من بيت المال ، فأبى ابن الزبير ذلك عليه فخلع المختار طاعته ، وجحد بيعته ، وكتب المختار كتاباً إلى علي بن الحسين السجاد يريده على أن يبايع له ، ويقول بإمامته ، ويظهر دعوته ، وأنفذ إليه مالا كثيراً ، فأبى عليٌّ أن يقبل ذلك منه أو يجيبه عن كتابه ، وسبّه على رؤوس الملأ في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، واظهر كذبه وفجوره ، ودخوله على الناس باظهار الميل إلى آل أبي طالب ، فلما يئس المختار من علي بن الحسين كتب الى عمه محمد بن الحنفية يريده على مثل ذلك ، فأشار عليه علي بن الحسين أن لا يجيبه إلى شيء من ذلك ، فإن الذي يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم ، وتقربه إليهم بمحبتهم ، وباطنُهُ مخالف لظاهره في الميل إليهم والتولّي لهم والبراءة من أعدائهم ، بل هو من اعدائهم لا من أوليائهم ، والواجب عليه أن يشهر أمره ، ويظهر كذبه ، على حسب ما فعل هو وأظهر من القول في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى ابن الحنفية ابن عباس فأخبره بذلك ، فقال له ابن عباس : لا تفعل ، فإنك لا تدري ما أنتَ عليهِ من ابن الزبير ، فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار .

واشتد أمر المختار بالكوفة ، وكثر رجاله ، ومال النـاس إليه ، وأقبل يدعو النـاس على طبقاتهم ومقاديرهم في أنفسهم وعقولهـم ، فمنهم من يخاطبه بإمامة محمد بن الحنفية ، ومنهم من يدفعه عن هذا فيخاطبه بأن الملكَ يأتيه بالوحي ويخبره بالغيب ، وتتبّع قتلة

الحسين فقتلهم : قتل عمرو بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، وهو الذي تولى حرب الحسين يوم كربلاء وقتله ومن معه ، فزاد ميل أهل الكوفة إليه ومحبتهم له .

حال ابن الزبير : وأظهر ابن الزبير الزهد في الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة ، وقال : إنما بطني شبر ، فما عسى ان يسع ذلك من الدنيا ، وانا العائذ بالبيت ، والمستجير بالرب ، وكانت أذيّتُه لبني هاشم مع شُحّه بالدنيا على سائر الناس ، ففي ذلك يقول أبو حرة مولى الزبير :

إنّ الموالي أمست وهي عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحرَبَا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا أي الملوك على ما حولنا غلبا ؟

وفيه يقول بعد مفارقته إياه :

ما زال في سُورَةِ الأعراف يقرؤها حتى فؤاديَ مثل الخزّ في اللين
لوكان بطنك شبراً قد شبعت وقد أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين
إن امرأ كنت مَولاهُ فضيعني يرجو الفلاح لعمري حقّ مغبُونِ

وفيه يقول ايضاً :

فيا راكباً إما عرضتَ فبلغنْ كبير بني العوّام إن قيل:من تعني
تخبرْ من لاقيت انك عائذ وتكثر قتلا بين زمزَم والرُكن

وفيه يقول ايضاً الضحاك بن فيروز الديلمي :

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضةٌ وبطنُك شبراً أو اقل من الشبر
وانت إذا ما نلت شيئاً قضمته كماقضمت نارُ الغضى حطب السّدر
فلو كنت تجزي إذ تبيت بنعمة قريباً لردّتكَ العطوف على عمرو

ابن الزبير واخوه عمرو : وذلك ان يزيد بن معاوية كان قد ولّى الوليد بن عتبة بن ابي سفيان المدينة فسرح منها جيشاً الى

مكة لحرب ابن الزبير ، عليه عمرو بن الزبير أخوه ، وكان عمرو منحرفاً عن عبدالله ، فلما تصافّ القوم انهزم رجال عمرو وأسلموه ، فظفر به أخوه عبدالله ، فأقامه للناس بباب المسجد الحرام مجرّداً ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات .

ابن الزبير وعبدالله بن محمد بن الحنفية : وحبس عبدالله بن الزبير الحسن بن محمد بن الحنفية في الحبس المعروف بحبس عارم ، وهو حبس موحش مظلم ، وأراد قتله ، فعمل الحيلة حتى تخلص من السجن ، وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى منى وبها ابوه محمد بن الحنفية ففي ذلك يقول كثير :

تخبرُ من لاقيت انك عائذٌ بل العائذ المظلوم في سجن عارم
ومن يرى هذا الشيخ بالخيف من منى من الناس يعلم أنه غيرُ ظالم
سميّ نبيّ الله وابن وصيّه وفكّاك أغلال وقاضي مغارم

وقد كان ابن الزبير عمد الى من بمكة من بني هاشم فحصرهم في الشعب ، وجمع لهم حطباً عظيماً لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت احد ، وفي القوم محمد بن الحنفية .

ابن الزبير وآل بيت الرسول : وحدث النوفلي علي بن سليمان ، عن فضيل بن عبد الوهاب الكوفي ، عن ابي عمران الرازي ، عن فطر بن خليفة ، عن الديال بن حرملة ، قال : كنت فيمن استنفرد أبو عبدالله الجدلي من أهل الكوفة من قبل المختار ، فنفرنا معه في أربعة آلاف فارس ، فقال ابو عبدالله : هذه خيل عظيمة ، وأخاف أن يبلغ ابن الزبير الخبر فيعجل على بني هـــاشم ، فيأتي عليهم ، فانتدبوا معي ، فانتدبنا معه في ثمانمائة فارس جريدة خيل ، فما شعر ابن الزبير الا والرايات تخفق على رأسه ، قال : فجئنا الى بني هاشم ،

فاذا هم في الشعب ؛ فاستخرجناهم ، فقال لنا ابن الحنفية : لا تقاتلوا الا من قاتلكم ، فلما رأى ابن الزبير تنمرنا له واقدامنا عليه لاذ بأستار الكعبة ، وقال : انا عائذ الله . وحدث النوفلي في كتابه في الأخبار عن ابن عائشة ، عن أبيه ، عن حماد بن سلمة ، قال : كان عروة بن الزبير يعذر أخاه إذا جرى ذكر بني هاشم وحصره إيام في الشعب وجمعه لهم الحطب لتحريقهم ، ويقول : إنما أراد بذلك إرهابهم ليدخلوا في طاعته كما ارهب بنو هاشم وجمع لهم الحطب لاحراقهم إذ هم ابوا البيعة فيما سلف ، وهذا خبر لا يحتمل ذكره هنا ، وقد أتينا على ذكره في كتابنا في مناقب اهل البيت و اخبارهم المترجم بكتاب « حدائق الأذهان » .

وخطب ابن الزبير فقال : قد بايعني الناس ، ولم يتخلف عن بيعتي إلا هذا الغلام محمد بن الحنفية ،والموعد بيني وبينه أن تغرب الشمس ، ثم أضرم داره عليه ناراً،فدخل ابن العباس على ابن الحنفية فقال : يا ابن عم ، إني لا آمنه عليك فبايعه ، فقال : سيمنعه عني حجاب قوي ، فجعل ابن عباس ينظر الى الشمس،ويفكر في كلام ابن الحنفية ، وقد كادت الشمس ان تغرب، فوافاهم ابو عبدالله الجدلي فيما ذكرنا من الخيل ، وقالوا لابن الحنفية : ائذن لنا فيه ، فأبى ، وخرج إلى أيلة فأقام بها سنين ، ثم قتل ابن الزبير ، كذلك حدث عمر بن شبة النميري ، عن عطاء بن مسلم ، فيما أخبرنا بـــه أبو الحسن المهراني المصري[1] بمصر ، وأبو إسحاق الجوهري بالبصرة ، وغيرهما ، وهؤلاء الذين وردوا الى ابن الحنفية هم الشيعة الكيسانية ، وهم القائلون بإمامة محمد بن الحنفية ، وقد تنازعت الكيسانية بعد قولهم بإمامـــة محمد بن الحنفية : فمنهم من قطع بموته ، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنـــه حي في جبال رَضْوَى ، وقد تنازع كل فريق من هؤلاء ايضاً ، وإنما سموا بالكيسانية لإضافتهم الى المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وكان اسمه كيسان ،

---

١) في نسخة : ابو حسن المهراني البصري بمصر .

ويكنى أبا عمرة ، وأن علي بن أبي طالب سماه بذلك ، ومنهم من رأى أن كيسان أبا عمرة هو غير المختار ، وقد أتينا على أقاويل فرق الكيسانية وغيرهم من فرق الشيعة وطوائف الأمة في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » وذكرنا قول كل فريق منهم ، وما أيد به مذهبه ، وقول من ذكر منهم أن ابن الحنفية دخل الى شِعْب رَضْوى في جماعة من أصحابه فلم يعرف لهم خبر إلى هذه الغاية .

وقد ذكر جماعة من الأخباريين أن كُثَيِّراً الشاعر كان كَيْسانياً ، ويقول : إن محمد بن الحنفية هو المهدي الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت شراً وجوراً .

وحكى الزبير بن بكار في كتابه « أنساب قريش » في أنساب آل أبي طالب وأخبارهم منه قال : أخبرني عمي[1] قال : قال كثير أبياتاً له يذكر ابن الحنفية رضي الله عنه ، وأولها :

هو المهديُّ خَبَّرناه كَعْبٌ ... أخو الأحبار في الحِقَبِ الخوالي
أقر اللهُ عيني إذ دعاني ... أمين الله يلطف في السؤال
وأثنى في هواي عليٌّ خيراً ... وساءل عن بَنِيَّ وكيف حالي

وفيه يقول أيضاً كثير :

ألا إن الأئمة من قريش ... وُلاَةَ الحق أربعة سَوَاء
عليٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبِرٍّ ... وسبط غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاء
وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيلَ يتبعُها اللواء[2]
تَغَيَّبَ لا يُرَى فيهم زماناً ... برَضْوَى عنده عسلٌ وماءُ

١) في نسخة : أخبرني عمير مكان أخبرني عمي .
٢) في نسخة : يقود الخيلَ يقدمها اللواء .

وفيه يقول السيد الحميريّ ، وكان كيسانياً :

ألا قل للوصيّ فَدَتْكَ نفسي أطَلْتَ بذلك الجبل المقاما
أضرّ بمعشر والوْكَ منا وَسَمَّوْكَ الخليفة والإماما
وَعادَوْا فيكَ أهلَ الأرض طُرّاً مغيبك عنهم سبعين عاما
وما ذاق ابنُ خَوْلة طعم موت ولا وارتْ له أرضٌ عِظاما
لقد أمسى بِمردفِ شِعْبِ رَضْوى تُراجعه الملائكةُ الكلاما(١)

وفيه يقول السيد أيضاً :

يا شِعب رضوى ما لمن بك لا يرى وبنا إليه من الصبابة أوْلَقُ
حتى متى ؟ وإلى متى؟ وكم المدى ؟ يا ابن الرسول وأنت حيٌّ تُرْزَقُ

وللسيد فيه أشعار كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا .

وذكر علي بن محمد بن سليمان النوفلي في كتابه الأخبار مما سمعناه من أبي العباس بن عمار ، قال : حدثنا جعفر بن محمد النوفلي ، قال : حدثنا إسمعيل الساحر ، وكان راوية السيد الحميري ، قال : ما مات السيد إلا على قوله بالكيسانية وأنكر قوله في القصيدة التي أولها :

تَجَعْفَرْتُ باسم الله ، والله أكبرُ

قال أبو الحسن علي بن محمد النوفلي عقيب هذا الخبر : وليس يشبه هذا شعر السيد ، لأن السيد مع فصاحته وجزالة قوله لا يقول « تجعفرتُ باسم الله » .

وذكر عمر بن شبّة النميري ، عن مساور بن السائب ، أن ابن الزبير خطب أربعين يوماً لا يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا يمنعني أن أصلي عليه إلا أن تشمخ رجالٌ بآنافها .

---

١) في نسخة : لقد أمسى بمورق شعب رضوى .

بين ابن عباس وابن الزبير : وذكر سعيد بن جبير أن عبد الله بن عباس دخل على ابن الزبير فقال له ابن الزبير : أنت الذي تؤنبني وتبخلني ؟ قال ابن عباس : نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ليس المسلم الذي يشبع ويجوع جاره » فقال ابن الزبير : إني لاكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة ، وجرى بينهم خطب طويل فخرج ابن عباس من مكة خوفاً على نفسه ، فنزل الطائف ، فتوفي هنالك ، ذكر هذا الخبر عمر ابن شبة النميري ، عن سويد بن سعيد ، يرفعه إلى سعيد بن جبير فيما حدثنا به المهراني بمصر ، والكلابي بالبصرة ، وغيرهما ، عن عمر بن شبّة .

بين ابن الحنفية وابن الزبير : وحدث النوفلي في كتابه في الاخبار عن الوليد بن هشام المخزومي ، قال : خطب ابن الزبير فنال من علي ، فبلغ ذلك ابنه محمد بن الحنفية فجاء حتى وضع له كرسي قدامه ، فعلاه ، وقال: يا معشر قريش ، شاهت الوجوه ! أينتقص علي وأنتم حضور ؟ إن علياً كان سهماً صادقاً أحد مرامي [1] الله على اعدائه يقتلهم لكفرهم ويهوّعهم مآكلهم ، فثقل عليهم ، فرموه بقرفة الأباطيل [2] ، وإنا معشر له على ثبج من أمره [3] بنو النخبة من الأنصار ، فان تكن لنا في الأيام دولة ننثر عظامهم ونحسر عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فعاد ابن الزبير إلى خطبته ، وقال : عذرت بني الفواطم يتكلمون فما بال ابن الحنفية ؟ فقال محمد : يا ابن أم رومان ، وما لي لا أتكلم؟ أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبي وأم إخوتي ؟ أو ليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتي ؟ أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبي ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركت في بني أسد عظماً إلا هشمته ، وإن نالتني فيه المصائب صبرت .

---

١) في نسخة : سهماً صارماً أحد مرامي الله — الخ ...

٢) في نسخة : فرموه بصرفة الاباطيل .

٣) في نسخة : على نبج من أمره بنو الحسبة .

ابن الزبير ينتقص ابن العباس : حدثنا ابن عمار ، عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، قال : حدثني ابن عائشة والعتبي جميعاً عن أبويهما ، وألفاظهما متقاربة ، قالا : خطب ابن الزبير فقال : ما بال أقوام يفتون في المتعــة ، وينتقصون حواري الرسول وأم المؤمنين عائشة ، ما بالهم أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم ، يُعرّض بابن عباس ، فقال ابن عباس : يا غلام ، اصمدني صَمْدَه ، فقــال يا ابن الزبير :

قد أنصف القارَةَ مَنْ راماها إنا إذا ما فئة نلقاهـــا [1]
نَرُدُّ أولاها على أخراها

أما قولك في المتعة فسل أمك تخبرك ، فإن أول متعة سطع بجمرها لجمر سطع بين امك وأبيك ، يريد مُتْعَة الحج ، وأما قولك « أم المؤمنين » فبنا سميت أم المؤمنين ، وبنا ضرب عليها الحجاب وأما قولك « حَوَاريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم » فقد لقيتُ أباك في الزحف وأنا مع إمــام هدى ، فإن يكن على ما أقول ، فقد كفر بقتالنا ، وإن يكن على ما تقول فقد كفر بهربه عنا ، فانقطع ابن الزبير ودخل على أمه أسماء ، فأخبرها ، فقالت : صدق.

قال المسعودي : وفي هذا الخبر زيادات من ذكر البردة والعوسجة ، وقد أتينا على الخبر بتمامه وما قاله الناس في متعة النساء ومتعة الحج ، وتنازعهم في ذلك ، وما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه حرمها عام خيبر ولحوم الحمر الأهلية وما ذكر في حديث الربيع بن سَبْرَة عن أبيه وقول عمر « كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تقدمت بالنهي لفعلت بفاعل ذلك كذا وكذا » وما روي عن جابر قال : تمتعنا في عهــد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلافة أبي بكر ، وصدر من خلافة عمر ، وغــير ذلك من

---

١) في نسخة : اذا ما فتنة نلقاها .

أقاويلهم ، في كتابنا المترجم بكتاب « الاستبصار » وفي كتاب « الصفوة » وفي كتابنا المترجم بالكتاب « الواجب في الفروض اللوازم » وما قال الناس في غسل الرجلين ، ومسحها ، والمسح على الخفين ، وطلاق السنة ، وطلاق العدة ، وطلاق التعدي وغير ذلك .

وقد حدث النوفلي ، عن أبي عاصم ، عن ابن جريج ، قال : حدثني منصور بن شيبة ، عن صفية بنت أبي عبيد ، عن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : لما قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أمر من لم يكن معه هَدْي أن يحل ، قالت : فأحللت ، فلبست ثيابي ، وتطيبت ، وجئت حتى جلست إلى جنب الزبير ، فقال : قومي عني ، فقلت : ما تخاف ؟ قال : أخاف أن أثِبَ عليك ؟ فهذا الذي أراد ابن عباس .

وقد ذكر هذا الحديث عن أبي عاصم غَيْرُ النوفلي ، وقد تنازع الناس في ذلك ؛ فمنهم من رأى أنه عنى متعة النساء، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ؛ لأن الزبير تزوج أسماء بكراً في الإسلام ، زوجه أبو بكر معلناً ، فكيف تكون متعة النساء .

بين ابن الزبير والحصين بن نمير : ولما هلك يزيد بن معاوية ووليها معاوية ابن يزيد نمي ذلك إلى الحصين بن نمير ومن معه في الجيش من أهل الشام ، وهو على حرب ابن الزبير ، فهادنوا ابن الزبير ، ونزلوا مكة ، فلقي الحصين عبد الله في المسجد ، فقال له : هل لك يا ابن الزبير أن أحملك إلى الشام وابايع لك بالخلافة ؟ فقال له عبد الله رافعاً صوته : أبعد قتل أهل الحَرّة ، لا والله حتى أقتل بكل رجل خمسة من أهل الشام ، فقال الحصين : مَنْ زعم يا ابن الزبير أنك داهية فهو أحمق ، أكلمك سراً وتكلمني علانية ، أدعوك إلى أن أستخلفك فترفع الحرب وتزعم أنك تقاتلنا ، فستعلم أينا المقتول ، وانصرف أهل الشام إلى بلادهم مع الحصين ، فلما صاروا إلى المدينة

جعل أهلها يهتفون بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلاهم بالحرّة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وتَهَيُّجها صعد روح بن زنباع الجذامي على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان في ذلك الجيش ، فقال : يا أهل المدينة ، ما هذا الإيعاد الذي توعدوننا ؟ إنا والله ما دعوناكم إلى كلب لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من بَلْقَيْن ، ولا إلى رجل من لخم أو جُذام ، ولا غيرهم من العرب والموالي ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحي من قريش ، يعني بني أمية ، ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فإيانا توعدون ؟ أما والله إنا لأبناء الطعن والطاعون ، وفضلات الموت والمنون ، فما شئتم ، ومضى القوم إلى الشام .

ابن الزبير يبني الكعبة على قواعد ابراهيم : وحمل إلى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التي كان بناها أبرهة الحبشي في كنيسته التي اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشي منقوش قد حُشي النقش السندروس وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً ، وشرع ابن الزبير في بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أن قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سَعَة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذي أسسه هو وإسماعيل عليهما السلام ، فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين : بابا يدخل منه ، وبابا يخرج منه ، فلم يزل البيت على ذلك حتى قتل الحجاج عبد الله ابن الزبير ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان يعلمه بما زاده ابن الزبير في البيت ، فأمره عبد الملك بهدمه ، ورده إلى ما كان عليه آنفاً من بناء قريش وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن يجعل له بابا واحداً ، ففعل الحجاج ذلك .

واستوثق الأمر لابن الزبير ، وأخذت له البيعة بالشام ، وخطب له على سائر منابر الإسلام إلا منبر طبرية من بلاد الأردن ، فإن حسان بن مالك

بجدل[1] أبى أن يبايع لابن الزبير ، وأرادها لخالد بن يزيد بن معاوية ، وكان القيم بأمر بيعة ابن الزبير بمكة عبد الله بن مطيع العدوي ؛ ففي ذلك يقول قضاعة الأسدي ، وكان بايع لابن الزبير ثم نكث :

دعا ابنُ مطيع للبياع فجئته ... إلى بَيْعة قلبي لها غيرُ آلف

فناوَلني خَشْنَاء لما لمستها ... بكفي ليست من أكُفِّ الخلائف[2]

عبيد الله بن زياد والخلافة : وهلك يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد وعبيد الله بن زياد على البصرة أمير فخطب الناس وأعلمهم بموتها ، وأن الأمر شورى لم ينصب له أحد ، وقال : لا أرض اليوم أوسع من أرضكم ، ولا عدد أكثر من عددكم ، ولا مال أكثر من مالكم ، في بيت مالكم مائة ألف ألف درهم ، ومقاتلتكم ستون ألفاً ، وعطاؤهم وعطاء العيال ستون ألف الف درهم ؛ فانظروا رجلا ترضونه يقوم بأمركم ويجاهد عدوكم ، وينصف مظلومكم من ظالمكم ، ويوزع بينكم أموالكم ؛ فقام اليه أشراف أهلها — ومنهم الأحنف بن قيس التميمي ، وقيس بن الهيثم السلمي ، ومسمع بن مالك العبدي — فقالوا : ما نعلم ذلك الرجل غيرك أيها الأمير ، وأنت أحق من قام على أمرنا حتى يجتمع الناس على خليفة ، فقال : أما لو استعملتم غيري لسمعت وأطعت .

الكوفة تأبى الانقياد له : وقد كان على الكوفة عمرو بن حريث الخزاعي عاملا لعبيد الله بن زياد ، فكتب إليه عبيد الله يعلمه بما دخل فيه أهل البصرة ، ويأمره أن يأمر أهل الكوفة بما دخل فيه أهل البصرة ، فصعد عمرو بن حريث علىَ المنبر ، فخطب الناس وذكر لهم ما دخل فيه أهل البصرة فقام يزيد بن رويم الشيباني فقال : الحمد لله الذي أطلق أيماننا ، لا حاجة لنا في بني أمية ، ولا في إمارة ابن مرجانة ، وهي أم عبيد الله ، وأم أبيه زياد

---

١) في نسخة : حسان بن مالك بن بجدل ، بالحاء المهملة .

٢) خشناء : أراد كفا غير لينة المس ، وفي نسخة : حسناء .

سمية على ما ذكرنا آنفاً، إنما البيعة لأهل الحجر – يعني أهل الحجاز – فخلع أهل الكوفة ولاية بني أمية وإمارة ابن زياد وأرادوا أن ينصبوا لهم أميراً إلى أن ينظروا في أمرهم ، فقال جماعة : عمرو بن سعد بن أبي وقاص يصلح لها ، فلما هموا بتأميره أقبل نساء من همدان وغيرهن من نساء كهلان والأنصار وربيعة والنخع حتى دخلن المسجد الجامع صارخات باكيات معولات يندبن الحسين ويقلن : أما رضي عمرو بن سعد بقتل الحسين حتى أراد أن يكون أميراً علينا على الكوفة ، فبكى الناس ، وأعرضوا عن عمرو ، وكان المبرزات في ذلك نساء همدان ، وقد كان علي عليه السلام مائلا إلى همدان مؤثراً لهم ، وهو القائل :

فلو كنت بوّاباً على باب جنة   لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقال :

عبيت همدان وعبّوا حميرا

ولم يكن بصفين منهم أحد مع معاوية وأهل الشام إلا أناس كانوا بغوطة دمشق ، بقرية تعرف بعين ثرما ، فيها منهم قوم إلى هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

ولما اتصل خبر أهل الكوفة بابن الزبير أنفذ إليهم عبد الله بن مطيع العدوي ، على ما قدمنا آنفاً ، فتولى أمرهم حتى وجه المختار في أثره .

تدبير مروان بن الحكم : ونظر مروان بن الحكم في إطباق الناس على مبايعة ابن الزبير ، وإجابتهم له ، فأراد أن يلحق به وينضاف إلى جملته ، فمنعه من ذلك عبيد الله بن زياد عند لحاقه بالشام ، وقال له : إنك شيخ بني عبد مناف فلا تعجل ، فصار مروان إلى الجابية ، من أرض الجولان ، بين دمشق والأردن ، واستمال الضحاك بن قيس الفهري الناس، ورأسهم ، وانحاز عن مروان ، وأراد دمشق ، فسبقه اليها الأشدق : عمرو بن سعيد بن العاص فدخلها وصار الضحاك إلى حوران والبثنة وأظهر الدعوة لابن الزبير ، والتقى

الأشدق ومروان ، فقال الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك فهو خير لي ولك ؟ قال مروان : وما هو ؟ قال أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لي من بعدك ، فقال مروان : لا ، بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرضي الأشدق بذلك، ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، ومضى الأشدق إلى حسان بن مالك بالأردن ، فأرغبه في بيعة مروان فجنح لها .

البيعة لمروان : وبويع مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ويكنى أبا عبد الملك ، وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان ، وذلك بالاردن ، وكان أول من بايعه أهلها ، وتمت بيعته .

وكان مروان اول من اخذها بالسيف كرهاً على ما قيل بغير رضا من عصبة من الناس ، بل كل خوّفه الا عدداً يسيراً حماوه على وثوبه عليها ، وقد كان غيره ممن سلف اخذها بعدد وأعوان ، إلا مروان ، فإنه أخذها على مـــا وصفنا .

وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد الأشدق بعد خالد ، وكان مروان يلقب بخيط باطل ، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن الحكم أخوه:

لحا الله قوماً أمّرُوا خيطَ باطل على الناس يعطي من يشاء ويمنع

واشترط حسان بن مالك ـ وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام ـ على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية ، وابنه يزيد ، وابنه معاوية بن يزيد : منها أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين ، وإن مات قام ابنه او ابن عمه مكانه ، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي[١] ، وصدْر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد فمن رأي منهم ومشورة ، فرضي مروان بذلك ؛ فانقاد اليه ، وقال له مالك بن هبيرة اليشكري : إنه ليست لك في أعناقنا بيعة ، وليس نقاتل إلا عن عرض دنيا ، فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية

---

١) في نسخة : وعلى أن لهم بكر الأمر والنهي .

ويزيد نصرناك ، وإن تكن الأخرى فوالله ما قريش عندنا إلا سواء ، فأجابه مروان الى ما سأل .

لقاء مروان والضحاك بن قيس : وسار مروان نحو الضحاك بن قيس الفهري ، وقد انحازت قيس وسائر مضر وغيرهم من نزار الى الضحاك ، ومعه أناس من قضاعة ، عليهم وائل بن عمرو العدوي ، وكانت معه راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبيه ، وأظهر الضحاك ومن معه خلافة ابن الزبير ، والتقى مروان والضحاك ومن معهما بمرج راهط على أميال من دمشق ، فكانت بينهم الحروب سجالا ، وكاثرت اليمانية عليهم وبواديها مع مروان[1] ، فقتل الضحاك بن قيس رئيس جيش ابن الزبير ، قتله رجل من تيم اللات ، وقتل من معه من نزار ، وأكثرهم من قيس مقتلة عظيمة لم ير مثلها قط ، وفي ذلك يقول مروان بن الحكم :

لما رأيت الناس صاروا حربا ... والمال لا يؤخذ إلا غصبا
دعوت غسّانـــا لهم وكلبا ... والسكسكيّين رجالا غلبا
والقَين تمشي في الحديد نكبا ... والأعوجيـــاتُ يثبن وثبا
يحملن مروات ودينا صلبا[2]

وفي ذلك يقول أخوه عبد الرحمن بن الحكم :

أرى أحاديث أهل المرج قد بلغت ... أهل الفرات واهل الفيض والنيل

وكان زفر بن الحارث العامري ، ثم الكلابي ، مـــع الضحاك ، فلما أمعن السيفُ في قومه ولى ومعه رجلان من بني سليم ، فقصر فرساهما وغشيتهما اليمانية من خيل مروان ، فقالا له : انج بنفسك فإنا مقتولان ، فولى راكضاً ، ولحق الرجلان ، فقتلا : وفي هذا اليوم يقول زفر بن الحارث الكلابي من أبيات كثيرة :

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... لمروان صدْعاً بيننا متناكيا

---

١) في نسخة : واحتال بها مروان .

٢) في نسخة : يحملن مرواة ودينا صلبا .

فقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أريني سلاحي لا أبا لك إنني أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا وتترك قتلى راهط هي ما هيا
فلم تر مني نبوة قبل هذه فراري ، وتركي صاحبيّ ورائيا
عشية أغدو في الفريقين لا أرى من القوم إلا مَنْ عليّ ولا ليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته بصالح ايامي وحسن بلائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا ومقتل همـــام أمنّى الأمانيا

وتلاحق الناس ممن حضر الوقعة بأجنادهم من أرض الشام ، وكان النعمان ابن بشير والياً على حمص قد خطب لابن الزبير ممالئاً للضحاك ، فلما بلغه قتله وهزيمة الزبيرية خرج عن حمص هارباً ، فسار ليلته جمعاء متحيراً لا يدري أين يأخذ ، فاتبعه خالد بن عدي الكَلاعي فيمن خَفّ معه من أهل حمص ، فلحقه وقتله ، وبعث برأسه الى مروان ، وانتهى زُفَر بن الحارث الكلابي في هزيمته إلى قرقيسيا ، فغلب عليها ، واستقام الشام لمروان ، وبثّ فيه رجاله وعماله .

وسار مروان في جنوده من الشام الى أهـل مصر ؛ فحاصرها وخندق عليها خندقاً مما يلي المقبرة ، وكانوا زبيرية عليهم لابن الزبير عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم ، وسيد الفسطاط يومئذ وزعيمها أبو رشد بن كريب بن أبرهة ابن الصبـــاح فكان بينهم وبين مروان قتال يسير ، وتوافقوا على الصلح ، وقتل مروان أكيدر بن الحمام صبراً ، وكان فارس مصر ، فقال ابو رشد لمروان : إن شئت والله أعدناها جذَعة ، يعني يوم الدار بالمدينة ، فقال مروان : ما أشاء من ذلك شيئاً ، وانصرف عنها وقد استعمل عليها ابنه عبد العزيز .

وقدم مروان الشام فنزل الصميرة على ميلين من طبرية من بلاد الاردن ، فأحضر حسان بن مالك ، وأرغبه وأرهبه ، فقام حسان في الناس خطيباً ،

ودعـــاهم إلى بيعة عبد الملك بن مروان بعد مروان ، وبيعة عبد العزيز بن مروان بعد عبد الملك ، فلم يخالفه في ذلك أحد .

موت مروان بن الحكم : وهلك مروان بدمشق في هذه السنة ، وهي سنة خمس وستين، وقد تنازع أهل التواريخ وأصحاب السير ومن عُني بأخبارهم في سبب وفاته : فمنهم من رأى أنه مات مطعوناً ، ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه ، ومنهم من رأى أن فاختة بنت أبي هاشم بن عتبة أم خالد بن يزيد بن معاوية هي التي قتلته ، وذلك أن مروان حين أخـذ البيعة لنفسه ولخالد بن يزيد بعده وعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم بدا له غير ذلك فجعلها لابنه عبد الملك بعده ثم لابنه عبد العزيز بعد عبد الملك ودخل عليه خالد بن يزيد فكلّمه وأغلظ له ، فغضب من ذلك وقال : أتكلمني يا ابن الرَّطْبة ؟ وكان مروان قد تزوج بأمه فاختة ليذله بذلك ويَضَع منه ، فدخل خالد على أمه فقبح لها تزوجها بمروان ، وشكا اليها ما نزل به منه ، فقالت : لا يعيبك بعدها ؛ فمنهم من رأى أنها وضعت على نَفَسِه وسادة وقعدت فوقها مع جواريها حتى مات ، ومنهم من رأى أنها أعدت له لبناً مسموماً فلما دخل عليها ناولته إياه فشرب ، فلـــما استقر في جوفه وقع يجود بنفسه وأمسك لسانه ، فحضره عبد الملك وغيره من ولده ؛ فجعل مروان يشير الى أم خالد برأسه يخبرهم أنها قتلته ، وأم خالد تقول : بأبي وأمي أنت ، حتى عنـــد النزع لم تشتغل عني ، إنه يوصيكم بي ، حتى هلك ، فـكانت أيامه تسعة أشهر وأياماً قلائل ، وقيل . ثمانية أشهر ، وقيل غير ذلك مما سنورده عند ذكرنا للمدة التي ملكت فيها بنو أمية من الأعوام ، فيما يرد من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

ترجمة مروان : وهلك مروان وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وقد ذكر غير ذلك في سنه ، وكان قصيراً أحمر ، ومولده لسنتين خلتا من الهجرة ، وهلك بعد أخذ البيعة لولده بثلاثة أشهر . وقد ذكر ابن أبي خيثمة في كتابه

في التاريخ أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي ومروان ابن ثمان سنين، وكان لمروان عشرون أخاً وثماني اخوات ، وله من الولد أحد عشر ذكراً وثلاث بنات ، وهم : عبد الملك ، وعبد العزيز ، وعبد الله ، وأبان ، وداود ، وعمر ، وأم عمر ، وعبد الرحمن ، وأم عثمان ، وعمرو ، وام عمرو ، وبشر ، ومحمد ، ومعاوية ، وقد ذكرنا هؤلاء وممن أعقب منهم ومن لم يعقب .

ولد يزيد بن معاوية : وقد كان يزيد بن معاوية خلف من الولد أكثر مما خلف مروان ، وذلك أنه خلف : معاوية ، وخالدا ، وعبد الله الاكبر ، وأبا سفيان ، وعبد الله الاصغر ، وعمر ، وعاتكة ، وعبد الرحمن ، وعبدالله الذي لقبه الأصغر ، وعثمان ، وعتبة الاعور ، وأبا بكر ، ومحمدا ، ويزيد ، وأم يزيد ، وام عبد الرحمن ، ورملة .

ولد معاوية : وخلف ابوه معاوية بن ابي سفيان من الولد : عبد الرحمن ، ويزيد ، وعبد الله ، وهندا ، ورملة ، وصفية .

ذكر
أيام عبد الملك بن مروان

موجز : وبويع عبد الملك بن مروان ليلة الأحـــد غرة شهر رمضان من سنة خمس وستين ، ثم بَعَثَ الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير ومن معه من الناس بمكة ، فقتل عبد الله يوم الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ، وكانت ولاية ابن الزبير تسع سنين وعشر ليال ، وسنذكر مدة ابن الزبير بعد هذا الموضع من هذا الكتاب عند ذكرنا الجامع مدة ملك بني أمية ، ثم هاجت فتنة ابن الأشعث في شعبان من سنة اثنتين وثمانين ، ثم توفي عبد الملك بن مروان بدمشق يوم السبت لأربع عشرة مضت من شوال سنة ست وثمانين ، وكانت ولايته منذ بويع إلى أن توفي إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً ، وبقي بعد عبد الله بن الزبير واجتماع من اجتمع عليه من الناس ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليال ، وسنذكر مـا فعله من وقت استقامة من استقـــام له من الناس ، وقبض وهو ابن ست وستين سنة[1] ، وقيل أكثر من ذلك ، وكان يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح وكان الغالب عليه البخل ، وكان له إقدام على الدماء ، وكان عُمّاله على مثل مذهبه ، كالحجّاج بالعراق ، والمهلّب بخراسان ، وهشام بن إسماعيـــل بالمدينة ، وغيرهم بغيرهـا ، وكان الحجاج من أظلمهم وأسفكهم للدماء ، وسنذكر في هذا الكتاب جوامع من ذكره فيما يلي هذا الباب .

---

١) في نسخة : وقبض وهو ابن اثنتين وستين سنة .

ذكر

جمل من أفعاله ، وسيره

ولمع مما كان في أيامه ، ونوادر من أخباره

منادمة الشعبي لعبد الملك : ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان تاقت نفسه إلى محادثة الرجال والإشراف على أخبار الناس ، فلم يجد مَنْ يصلح لمنادمته غير الشَّعْبي ، فلما حُمِل إليه ونادمه وحَظِيَ عنده قال له : يا شعبي لا تساعدني على ما قبح ، ولا تردّ عليّ الخطأ في مجلسي ، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية ، ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى ، وكلمني بقدر ما أستطعمك واجعل بدل المدح لي صوابَ الاستماع مني ، واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتنك منه شيء ، وأرني فهمك في طرفك وسمعك ، ولا تجهد نفسك في تَطْرِية جوابي ، ولا تَسْتَدْعِ بذلك الزيادة في كلامي ؛ فإن أسوأ الناس حالا من استكدّ الملوك بالباطل[1] ، وإن أسوأ حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويسقط حق الحرمة ؛ فان الصمت في موضعه ربما كان أبلغ من المنطق في موضعه ، وعند إصابته فرصة .

مهب الرياح : وقال عبد الملك للشعبي يوماً : من أين تهبُّ الريح ؟ قال : لا علم لي يا أمير المؤمنين قال عبد الملك : أما مهبُّ الشمال فمن مطلع بنات نَعْش إلى مطلع الشمس ، وأمـــا مهب الصبا فمن مطلع الشمس إلى مطلع

---

١) في نسخة : فان اشر الناس حالا من استمد الملوك بالباطل .

سُهَيْل ، وأما الجنوب فمن مطلع سُهَيْل إلى مغرب الشمس ، وأما الدَّبُور فمن مغرب الشمس إلى مطلع بنات نَعْش .

حركة للشيعة : وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه ، ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأ كبيراً ، بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه ، ولمقتله إلى جانبهم فلم ينصروه ، ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه ، ففزعوا الى خمسة نفر منهم : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة[1] الفزاري ، وعبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي ، وعبدالله ابن وال التميمي ، ورفاعة بن شداد البجلي ، فعسكروا بالنخيلة ، بعد أن كان لهم مع المختار ابن ابي عبيد الثقفي خطب طويل بتثبيطه الناس عنهم ممن أراد الخروج معهم ، ففي ذلك يقول عبدالله بن الأحمر يحرض على الخروج والقتال من أبيات :

صحوت وودّعتُ الصبا والغوانيا ... وقلت لأصحابي : أجيبوا المناديا
وقولوا له اذا قام يدعو إلى الهدى ... وقبل الدعا : لبّيكَ لبيك داعيا

في شعر طويل يحثُّ فيه على الخروج ، ويرثي الحسين ومن قتل معه ، ويلوم شيعته بتخلفهم عنه ، ويذكر انهم قد تابوا الى الله وأنابوا اليه من الكبائر التي ارتكبوها إذ لم ينصروه ، ويقول أيضاً في هذا الشعر :

ألا وانعَ خير الناس جداً ووالدا ... حُسيناً لأهل الدين إن كنت ناعيا
ليبك حسينا مُرْمل ذو خصاصة ... عديم وأيتـام تشكى المواليا
فأضحى حسين للرماح دريئة ... وغودر مسلوباً لدى الطفّ ثاويا
فياليتني اذ ذاك كنت شهدته ... فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
سقى الله قبرا ضُمّنَ المجد والتقى ... بغربية الطف الغمامَ الغواديا
فيا أمة تاهت وضلت سفاهة ... أنيبوا فأرضُوا الواحد المتعاليا

---

١) في نسخة : والمسيب بن محمد الفزاري .

ثم ساروا يقدمهم مَن سمَّينا من الرؤساء وعبدالله بن الأحمر يقول :

خرجن يلمن بنــا ارسالا عوابساً يحملننـــا أبطالا
نريد أن نلقى بها الأقيالا القاسطين الغُدُرَ الضُّلاَّلا
وقد رفضنـا الولْدَ والأموالا والخَفِرات البيضَ والحِجَالا
نرضي به ذا النعم المفضالا

موقعة عين الوردة : فانتهوا إلى قرقيسياء من شاطيء الفرات وبها زُفَر ابن الحارث الكلابي ، فأخرج إليهم الأنزال ، وساروا من قرقيسياء ليسبقوا إلى عين الوردة ، وقد كان عبيدالله بن زياد توجه من الشام الى حربهم في ثلاثين الفاً ، وانفصل على مقدمته من الرقة خمسة أمراء ، منهم الحصين بن نمير السكوني ، وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري ، وأدهم بن محرز الباهلي ، وربيعة بن المخارق الغنوي ، وجبلة بن عبدالله الخثعمي ، حتى إذا صاروا إلى عين الوردة التقى الأقوام ، وقد كان قبل ذلك لهم مناوشات في الطلائع ، فاستشهد سليمان بن صُرَد الخزاعي ، بعد ان قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وأبلى وحشٌ وحرَّض ، ورماه يزيد بن الحصين بن نمير بسهم فقتله ، فأخذ الراية المسيب بن نجبة الفزاري ، وكان من وجوه أصحاب عليّ رضي الله عنه ، وكر على القوم وهو يقول :

قد علمتْ ميَّالة الذوائب واضحة اللبات والترائب
أني غداة الروع والمقانب أشجع من ذي لبْدَة مُوَاثب[1]

فقاتل حتى قتل ، فاستقتل التوابون ، وكسروا أجفان السيوف ، وسالت عليهم عساكر اهل الشام بالليل ينادون الجنة الجنة إلى البقية من أصحاب أبي تراب الجنة الجنة إلى الترابية ، وأخذ راية التوابين عبدالله بن سعد بن نفيل وأتاهم إخوانهم يحثون السير خلفهم من أهل البصرة واهل المدائن في نحو من

١) في الطبري وابن كثير : اني غداة الروع والتغالب .

خمسمائة فارس عليهم المثنى بن مخرمة ، وسعد[1] بن حذيفة ، وهم يقولون : أقلنا ربّنا تفريطنا فقد تبنا، فقيل لعبدالله بن سعد بن نفيل وهو في القتال : إن إخواننا قد لحقونا من البصرة والمدائن، فقال: ذاك لو جاءوا ونحن أحياء، فكان اول من استشهد في ذلك الوقت ممن لحقهم من اهل المدائن كثير بن عمرو المدني ، وطعن سعد بن أبي سعد [2] الحنفي ، وعبد الله بن الخطل الطائي ، وقتل عبد الله بن سعد [3] بن نفيل .

فلما علم من بقي من التوابين : أن لا طاقة لهم بمن بإزائهم من أهل الشام انحازوا عنهم ، وارتحلوا ، وعليهم رفاعة بن شداد البجلي ، وتأخر أبو الحويرث العبدي في جباية الناس ، وطلب منهم أهل الشام المكافئة والمتاركة ، لما رأوا من بأسهم وصبرهم مع قلتهم ، فلحق أهل الكوفة بمصرهم ، وأهل المدائن والبصرة ببلادهم ، وسمع من التوابين في مسيرهم ورجوعهم من عين الوردة قائلاً يقول ، رافعاً عقيرته :

يا عين بكّي ابن الصُّرَدْ ... بكّي إذا الليل خَمَدْ
كان إذا البأس نكد ... تخاله فيه أسد
مضى حميداً قد رشَدْ ... في طاعة الأعلى الصمد

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى وغيره من أصحاب التواريخ والسير من قتل من التوابين مع سليمان بن صرد الخزاعي على عين الوردة وأسماءهم ، فقللهم .

وحكى أبو مخنف في كتابه في أخبار التوابين بعين الوردة قصيدة عزاها إلى أعشى همدان طويلة يرثي بها أهل عين وردة من التوابين ويصف ما فعلوه منها :

---

١) في نسخة : المثني بن مخرمة وسعيد بن حذيفة .
٢) « « : وطعن سعيد بن سعيد الحنفي . ٣) في نسخة : عبد الله بن سعيد بن نفيل .

توجّهَ من دون الثنية سائراً ... الى ابن زياد في الجموع الكتائب
فساروا وهم من بين ملتمس التقى ... وآخر مما جَرّ بالأمس تائب
فلاقوا بعين الوردة الجيش فاصلاً ... عليهم فحيوهم ببيض قواضب
فجاءهم جمع من الشام بعده ... جموع كموج البحر من كل جانب
فما برحوا حتى أبيدت جموعهم ... ولم يَنْجُ منهم ثَمّ غيرُ عصائب
وغُودِرَ أهل الصبر صرْعى فأصبحوا ... تَعَاوَرُهُمْ ريحُ الصبا والجنائب
وأضحى الخزاعيُّ الرئيسُ مجدّلاً ... كأنْ لم يقاتل مرة ويحارب
ورأس بني شمخ وفارس قومه ... جميعاً مع التيمي هادي الكتائب
وعمرو بن عمرو بن بشر وخالد ... وبكر وزيد والحليس بن غالب
أبَوْا غير ضرب يَفلق الهام وقعه ... وطعن بأطراف الأسنة صائب
فيا خير جيش للعراق وأهله ... سقيتم روايا كل أسحمَ ساكب
فلا تبعَدُوا فرسانَنا وحماتنا ... إذا البيض أبدت عن خِدام الكواعب
فإن تقتلوا فالقتل أكرم ميتة ... وكل فتى يوماً لإحدى النوائب
وما قتلوا حتى أصابوا عصابة ... محلين سرراً كالليوث الضوارب

وقيل : إن وقعة عين الوردة كانت في سنة ست وستين .

وصف القرآن لعلي كرم الله وجهه : وفي سنة ست وستين ، في أيام عبد الملك بن مروان توفي الحارث الأعور صاحب علي عليه السلام ، وهو الذي دخل على عليّ فقال : يا أمير المؤمنين ألا ترى إلى الناس قد أقبلوا على هذه الأحاديث وتركوا كتاب الله ؟ قال : وقد فعلوها ؟ قال : نعم ، قال : أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتنة » قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله : فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، مَن تركه من جبار قَصَمه الله ، ومن أراد الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله

المتين ، وهو الذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ عنه العقول ، ولا تلتبس به الألسُن ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يعلم علم مثله ، هو الذي لما سمعته الجن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي الى الرشد ، من قال به صدق ، ومن زال عنه عدا ، ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم ، خذها إليك يا أعور .

مقتل عبيدالله بن زياد : ولما كان من وقعة عين الوردة ما قدمنا سار عبيدالله بن زياد في عساكر الشام يؤم العراق ، فلما انتهى إلى الموصل ـ وذلك في سنة ست وستين ـ التقى هو وابراهيم بن الأشتر النخعي ، وإبراهيم على خيل العراق من قبل المختار بالخازر[1] ، فكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها ابن مرجانة عبيدالله بن زياد ، والحصين بن نمير ، وشرحبيل بن ذي الكلاع ، وابن حوشب ذي ظليم ، وعبدالله بن إياس السلمي ، وأبو أشرس[2] ، وغالب الباهلي ، واشراف أهل الشام ، وذلك أن عمير بن الحباب السلمي كان على ميمنة ابن زياد في ذلك الجيش ، وكان في نفسه ما فعل بقومه من مضر وغيرهم من نزار يوم مرج راهط ، فصاح : يا لثارات قيس يا لمضر ، ، يا لنزار ، فتزاحمت نزار من مضر وربيعة على من كان معهم في جيشهم من اهل الشام من قحطان ، وقد كان عمير كاتب إبراهيم بن الأشتر سراً قبل ذلك ، والتقيا ، فتواطآ على ما ذكرنا ، وحمل إبراهيم بن الأشتر رأس ابن زياد وغيره الى المختار ، فبعث به المختار الى عبدالله بن الزبير بمكة .

اضطراب في كل ناحية : وقد كان عبد الملك بن مروان سار في جيوش أهل الشام فنزل بطنان ينتظر ما يكون من أمر ابن زياد ، فأتاه خبر

---

١) هكذا وقع في تاريخ الطبري (٧/١٤٢) ، وفي نسخة «بالجارد» وفي نسخة أخرى «بالجازر».
٢) في نسخة « وعبد الله بن اياس السلمي أبو سدس » .

مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل ، أتاه في تلك الليلة مقتل حبيش بن دلجة ، وكان على الجيش بالمدينة لحرب ابن الزبير ، ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مُصعَب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم لاوي بن فلنط ونزوله المصيصة يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق ، وأن عبيدها وأوباشها ودُعارها قد خرجوا على اهلها ، ونزلوا الجبل، ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة ، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع ، وغير ذلك مما نمي اليه من المقظعات في تلك الليلة ، فلم ير عبدالملك في ليلة قبلها أشد ضحكاً ، ولا أحسن وجهاً ، ولا ابسط لساناً ، ولا أثبت جناناً منه تلك الليلة ، تجلداً وسياسة للملوك ، وترك إظهار الفشل ، وبعث بأموال وهدايا إلى ملك الروم ، فشغله وهادنه ، وسار إلى فلسطين وبها ناتل[1] بن قيس على جيش ابن الزبير ، فالتقوا بأجنادين ، فقتل ناتل بن قيس وعامة أصحابه ، وانهزم الباقون ، ونمي خبر قتله وهزيمة الجيش الى مصعب بن الزبير وهو في الطريق ، فولى راجعاً إلى المدينة ، ففي ذلك يقول رجل من كلب من المروانية :

قتَلْنَا بأجنادين سعداً وناتلا قصاصاً بما لاقى حبيش ومنذر

ورجع عبدالملك الى دمشق فنزلها،وسار إبراهيم بن الأشتر فنزل نصيبين، وتحصن منه اهل الجزيرة ، ثم استخلف على نصيبين ، ولحق بالمختار بالكوفة.

بين مصعب والمختار الثقفي ومقتل المختار : . وفي سنة سبع وستين سار مصعب بن الزبير من البصرة ، وقد كان أخوه عبدالله بن الزبير أنفذه الى العراق والياً ، فنزل حرُوراء ، والتقى هو والمختار فكانت بينهم حروب عظيمة ، وقتل ذريع، وانهزم المختار ، وقد قتل محمد بن الأشعث وابنان له،

---

١) في نسخة : « نابل » في كل المواضع التي ذكر فيها هذا الاسم .

ودخل قصر الإمارة بالكوفة وتحصن فيه ، وجعل يخرج كل يوم لمحاربة مصعب وأصحابه من أهل الكوفة وغيرهم والمختار معه خلق كثير من الشيعة قد سموا الخشبية من الكيسانية وغيرهم ، فخرج إليهم ذات يوم وهو على بغلة له شهباء ، فحمل عليه رجل من بني حنيفة يقال له عبد الرحمن بن أسد فقتله واحتز رأسه، وتنادوا بقتله ، فقطّعه أهل الكوفة وأصحاب مصعب أعضاء، وأبى مصعب أن يعطي الأمان لمن بقي في القصر من أصحابه ، فحاربوا إلى أن أضرّ بهم الجهد ، ثم أمنهم وقتلهم بعد ذلك ، فكان ممن قتل مع المختار عبيد الله[1] بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وله خبر مع المختار في تخلصه منه ومضيه إلى البصرة وخوفه على نفسه من مصعب إلى أن خرج معه في جيشه ، وقد أتينا على خبره وسائر ما أومأنا إليه في كتابنا « أخبار الزمان » فكان جملة مَنْ أدركه الإحصاء ممن قتله مصعب مع المختار سبعة آلاف رجل ، كل هؤلاء طالبون بدم الحسين ، وقتلة أعدائه، فقتلهم مصعب، وسماهم الخشبية[2] ، وتتبع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها ، وأتى بحرم المختار فدعاهن إلى البراءة منه ؛ ففعلن إلا حرمتين له إحداهما بنت سَمُرَةَ بن جندب الفزاري ، والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنصاري ، وقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربي الله ؟ كان صائم نهاره قائم ليله ، قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قَتَلَةِ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله وشيعته ، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس ، فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله يخبرهما وما قالتاه، فكتب إليه : إن هما رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه وإلا فاقتلهما ، فعرضهما مصعب على السيف ، فرجعت بنت سمرة ولعنته وتبرأت منه ، وقالت : لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لكفرت : أشهد أن المختار كافر ، وأبت ابنة النعمان بن بشير ، وقالت : شهادة أرزقها فأتركها ؟ كلا ! إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته ، والله لا

١) في نسخة « فكان ممن قتل مع مصعب عبد الله بن الحسين بن علي » .
٢) في نسخة « وسماهم الحسينية » .

يكون ، آتي مع ابن هند فأتبعه وأترك ابن أبي طالب ؟ أللهم أشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته ، ثم قدّمها فقتلت صبراً ، ففي ذلك يقول الشاعر :

إن من أعجب الأعاجيب عندي   قَتْلَ بيضاء حرة عُطْبُولِ
قتلوها ظلماً على غير جرم   إن لله درهـــا من قتيل
كُتب القتل والقتال علينـــا   وعلى الغـانيات جَرُّ الذيول

ولم نتعرض في هذا الكتاب لذكر المهلب وقتله لنافع بن الأزرق ، وذلك في سنة خمس وستين ، ونافع هو الذي تنسب إليه الأزارقة من الخوارج ؛ إذ كنا أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » على ذكر حروب الخوارج مع المهلب وغيره ممن سلف وخلف ، وذكرنا شأن مرداس بن عمرو بن بلال التميمي ، وعطية بن الأسود الحنفي ، وأبي فديك ، وشوذب الشيباني ، وسويــد الشيباني ، وقطامة الشيباني ، والمهذب السكوني ، وقطري بن الفجـاءة ، والضحاك بن قيس الشيباني ، ووقعة ابن الماجور الخارجي مع المهلب ومقتله ، وظفر المهلب بهم في ذلك اليوم ، وخبر عبد ربـه وأخبار خوارج اليمن كأبي حمزه المختار بن عوف الأزدي ، وابن بيهس الهيصمي ، مع ما تقدم من ذكرنا لفرق الخوارج في كتابنا « المقالات في أصول الديانات » من الأباضية وهم شُراة عمان من الأزد وغيرهم من الأزارقة والنجدات والحمرية[١] والجابية والصفرية وغيرهم من فرق الخوارج وبلدانهم من الأرض ، مثل بلاد سنجار وتل أعفَرَ من بلاد ديار ربيعة والسن والبوازيج والحديقة[٢] مما يلي بـــلاد الموصل ، ثم من سكن من الأكراد بـــلاد أذربيجان وهم المعروفون بالشراة منهم ، وأسلم المعروف بابن شادلويه ، وقد كان تملك على أعمال ابن أبي الساج من بلاد أذربيجان وأران والبيلقان وأرمينية ، ومن سكن منهم بلاد سجستان وجبال هَرَاة وكوهستان وبوشنج من بلاد خراسان ومن بلاد مكران على

---

١) في نسخة « والحزبة » .   ٢) في نسخة « والحديثة » .

ساحل البحر بين بلاد السند وكرمان ، وأكثرهم صفرية وجمرية ، ومنهم ببلاد حمران إصطخر وصاهك بين كرمان وفارس ، ومنهم ببلاد تيهرت المغرب ، ومنهم ببلاد حضرموت وغيرها من بقاع الأرض .

وفاة عبدالله بن العباس : وفي سلطنة عبد الملك مات أبو العباس عبدالله ابن العباس بن عبد المطلب في سنة ثمان وستين ، وقيل : في سنة تسع وستين، بالطائف ، وأمه لبابة بنت الحارث بن حزن ، من ولد عامر بن صعصعة ، وله إحدى وسبعون سنة ، وقيل : إنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقد ذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين ، وصلى عليه محمد بن الحنفية ، وكان قد ذهب بصره لبكائه على عليّ والحسن والحسين ، وكانت له وَفْرَة طويلة يَخْضب شَيْبه بالحناء ، وهو الذي يقول :

إن يأخُذ الله من عينيَّ نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي، وعقلي غيرُ مُدَّخل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم دعا له حين وضع له الماء للطهور في بيت خالته ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » .

وقيل لابن عباس رضي الله عنه : ما منع علياً رضي الله عنه أن يبعثك مكان أبي موسى في يوم الحكمين ؟ فقال : منعه من ذلك حائل القدر، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ومبرما لما نقض ، أسِفُّ إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف ، ومع اليوم غد ، وللآخرة خير للمتقين .

وكان لابن عباس من الولد : علي ، وهو أبو الخلفاء من بني العباس ، والعباس ، ومحمد ، والفضل ، وعبد الرحمن ، وعبيد الله ، ولبابة ،

وأمهم زرعة [١] بنت مشرح الكندية ، فأما عبيد الله ومحمد والفضل فلا أعقاب لهم .

مقتل عمرو بن سعيد الاشدق : وفي سنة سبعين قتل عبد الملك بن مراون عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق وهو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان ذا شهامة وفصاحة وبلاغة وإقدام ، وقد كان بينه وبين عبد الملك محادثات ومكاتبات وتخطب طويل طلباً للملك ، وكان فيم كتب اليه عبد الملك : إنك لتطمع نفسك بالخلافة ، ولست لها بأهل ، فكتب اليه عمرو : استدراج النعم إياك أفادك البغي ، ورائحة الغدر أورثتك الغفلة ، زجرت عما وافقت عليه ، وندبت إلى ما تركت سبيله ، ولو كان ضعف الأسباب [٢] يؤيس الطالب ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز ، وعن قريب يتبين مَنْ صريع بغي وأسير غفلة .

وقد كان عبد الملك سار إلى زُفَرَ بن الحارث الكلابي وهو بقرقيسياء وبلاد الرحبة وخلف عمرو بن سعيد بدمشق فبلغه أن عمراً قد دعا الناس إلى بيعته بدمشق ، فكر راجعاً إليها ، فامتنع عمرو فيها ، فناشده عبد الملك الرحم ، وقال له : لا تفسد أمر أهل بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة ، وفيا صنعت قوة لابن الزبير ، ارجع إلى بيتك فإني سأجعل لك العهد ، فرضي وصالح ، ودخل عبد الملك وعمرو متحيز منه في نحو خمسمائة فارس يزولون معه حيث زال .

وقد تنازع أهل السير في كيفية قتل عبد الملك إياه : فمنهم من رأى أن عبد الملك قال لحاجبه : ويحك ! أتستطيع إذا دخل عمرو أن تغلق الباب؟ قال : نعم ، قال : فافعل ، وكان عمرو رجلاً عظيم الكبر لا يرى أن لأحد عليه فضلاً ، ولا يلتفت وراءه إذا مشى إلى أحد ، فلما فتح الحاجب الباب

---

١) في نسخة « وأمهم رعبة بنت مسرح » . ٢) في نسخة « ضعف الأنساب » .

دخل عمرو ، فأغلق الحاجب الباب دون أصحابه ، ومضى عمرو لا يلتفت ، وهو يظن أن أصحابه قد دخلوا معه كما كانوا يدخلون ، فعاتبه عبد الملك طويلاً ، وقد كان وصى صاحب حرسه أبا الزعيزعة بأن يضرب عنقه ، فكلمه عبد الملك وأغلظ له القول ، فقال : يا عبد الملك ، أتستطيل عليّ كأنك ترى لك عليّ فضلاً ؟ إن شئت والله نقضت العهد بيني وبينك ، ثم نصبت لك الحرب ، فقال عبد الملك : قد شئت ذلك ، فقال : وأنا قد فعلت ، فقال عبد الملك : يا أبا الزعيزعة شأنك ، فالتفت عمرو إلى أصحابه فلم يرهم في الدار ، فدنا من عبد الملك ، فقال : ما يدنيك مني ؟ قال : لتمسّني رحمك ، وكانت أم عمرو عمة عبد الملك كانت تحت الحكم بن أبي العاص بن وائل ، فضربه أبو الزعيزعة فقتله ، فقال له عبدُ الملك : ارم برأسه إلى أصحابه ، فلما رأوا رأسه تفرقوا ، ثم خرج عبد الملك فصعد المنبر وذكر عمرا فوقع فيه ، وذكر خلافه وشقاقه ، ونزل من المنبر وهو يقول :

أدنَيتُهُ مني لِيَسْكُنَ نَفْرَةً فأصولَ صولةَ حازم مُسْتَمْكِنِ
غضباً ومحاة لديني ؛ إنه ليس المسيء سبيلُهُ كالمحسن

وقيل : إن عمراً خرج من منزله يريد عبد الملك ، فعثر بالبساط ، فقالت له امرأته نائلة بنت قريص[1] بن وكيع بن مسعود : أنشدك الله أن لا تأتيه فقال : دعيني عنك فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني ، وخرج وهو مكفر بالدرع ، فلما دخل على عبد الملك قام مَنْ هناك من بني أمية ، فقال عبد الملك وقد أخذت الأبواب : إني كنت حلفت لئن ملكتك لأشدّنك في جامعة ، فأتى بجامعة فوضعها في عنقه وشدها عليه ، فأيقن عمرو أنه قاتله ، فقال : أنشدك الله يا أمير المؤمنين ، فقال له عبد الملك : يا أبا أمية ، مالك جئت في الدرع أللقتال ؟! فأيقن عمرو بالشر فقال : أنشدك الله أن تخرجني إلى

١) في نسخة « نائلة بنت فريض بن وكيع بن مسعود » .

الناس في الجامعة ، فقال له عبد الملك : وتماكرني أيضاً وأنا أمكر منك ؟ تريد أن أخرجك إلى النـاس فيمنعوك ويستنقذوك من يدي ، وخرج عبد الملك إلى الصلاة وأمر أخاه عبد العزيز – وقد كان قدم من مصر في ذلـك اليوم – بقتله إذا خرج .

وقد قيل : أمر ابنه الوليد بذلك ، فلما دنا منه عبد العزيز ناشده عمرو بالرحم فتركه ؛ فلما رجع عبد الملك من الصلاة ورآه حيّاً قال لعبد العزيز : والله ما أردت قتله إلا من أجلكم ألا لا يجوزها دونكم ، ثم أضجعه ، فقال له عمرو : أغدراً يا ابن الزّرقاء ؟ فذبحه ، ووافى أخو عمرو يحيى بن سعيد إلى الباب بمن معه من رجاله ليكسره ، فخرج إليه الوليد وموالي عبد الملك فاقتتلوا ، واختلف الوليد ويحيى ؛ فضربه يحيى بالسيف على أليته فانصرع ، وألقى رأس عمرو إلى الناس ، فلما رأوه تفرقوا من بعـــد أن ألقي عليهم من أعلى الدار بدَر الدنانير ، فاشتغلوا بها عن القتال ، وقـال عبد الملك : وأبيك لئن كانوا قتلوا الوليد لقد أصابوا بثأرهم ، وقد كان الوليد فقد حين ضرب ، وذلك أن إبراهيم بن عدي احتمله فأدخله بيت القراطيس في المعمعة وأتى عبد الملك بيحيى بن سعيد ، واجتمعت الكلمة على عبد الملك ، وانقاد الناس إليه .

وقد قيل في مقتله غير ما ذكرنا ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وقد ذكرنا شعر أخته فيه – وكانت تحت الوليد بن عبد الملك – فيا يرد من هذا الكتاب في أخبار المنصور ؛ إذ هو الموضع المستحق له دون هذا الموضع لما تغلغل بنا إليه الكلام ، وتسلسل بنا القول نحوه .

وأقام عبد الملك بدمشق بقية سنة سبعين ، وقد كان مصعب بن الزبير خرج حين صفا له العراق بعد قتل المختار وأصحابه ، حتى انتهى إلى الموضع المعروف بباجميرا مما يلي الجزيرة ، يريد الشام لحرب عبد الملك ، فبلغه مسير خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد من مكة إلى البصرة في ولده وعدّة من

مواليه ناكثاً لبيعة عبدالله بن الزبير ، فنزل بعض نواحي البصرة ، وأن قوماً قد انضافوا إليه من ربيعة ومضر ، ومنهم عبدالله بن الوليد ، ومالك بن مسمع البكري ، وصفران بن الأهتم[1] التميمي ، وصعصعة بن معاوية عم الأحنف ، فكانت لهم بالبصرة حروب كانت آخِراً على خالد بن عبد الله ؛ فخرج هارباً بابنيه في البر حتى لحقوا بعبد الملك ، وانصرف مصعب راجعاً إلى البصرة ، وذلك في سنة إحدى وسبعين ، ثم عاد من العراق إلى باجميرا ، ففي ذلك يقول الشاعر :

أبَيْتَ يا مُصْعَبُ إلاّ سَيْرَا في كل يوم لـك باجميرا

ونزل عبد الملك بن مروان على قرقيسياء ، فحاصر بها زُفَرَ بن الحارث العامري الكلابي ، وكان يدعو إلى ابن الزبير ، فنزل على إمامته وبايعه ، وسار عبد الملك فنزل على نصيبين — وفيها يزيد والحبشي موليا الحارث في ألفي فارس ممن بقي من أصحاب المختار يدعون إلى إمامة محمد بن الحنفية — فحاصرهم ، فنزلوا على إمامته ، وانضافوا إلى جملته .

وخرج مصعب في أهل العراق — وذلك في سنة اثنتين وسبعين — يريد عبد الملك ، ودَلَفَ إليه عبد الملك في عساكر مصر والجزيرة والشام ، فالتقوا بمسكن قرية من أرض العراق على شاطىء دجلة ، وعلى مقدمة عبد الملك الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي ، وقيل: على ساقته : وقد أحمد أمره في قيامه بما أهل له ، فكاتب عبدالملك رؤساء أهل العراق ممن هم بعسكر مصعب وغيرهم سراً وصار يرغبهم ويرهبهم ، فكان فيمن كتب إليه إبراهيم ابن الأشتر النخعي ، فلما أتاه كتابه مع الجاسوس اعتقله في رحله ، وأتى مصعباً بالكتاب قبل ان يفضه ويعلم ما فيه ، فقال له مصعب : أقرأته ، فقال : أعوذ بالله أن اقرأه حتى يقرأه الأمير ، وآتي يوم القيامة غادراً قد نقضت

١) في نسخة : ابن الأيهم .

بيعته وخلعت طاعته ، فلما تأمل مصعب ما فيه وجده أماناً له وولاية لما شاء من العراق وإقطاعاً وغير ذلك ، ثم قال إبراهيم لمصعب : هل أتاك أحد من اشراف العساكر بكتاب ؟ فقال مصعب : لا ، فقال إبراهيم : والله لقد كاتبهم وما كاتبني حتى كاتب غيري ولا امتنعوا عن ايصالها اليك إلا للرضا به والغدر بك ، فأطعني وابدأ بهم ، فأمرهم على السيف ، او استوثق منهم في الحديد ، وألق هذا الرجل ، فأبى مصعب ذلك وتحيز من كان في عسكره من ربيعة لقتله ابن زياد بن ظبيان البكري ، وكان من سادات ربيعة وزعماء بكر بن وائل ، وســـار ابراهيم بن الأشتر على مقدمة مصعب في متسرعة الخيل ، فلقي خيل عبد الملك ومقدمته عليها أخوه محمد بن مروان ، وبلغ عبدالملك ورود ابراهيم ومنازلته محمداً أخاه ، فبعث الى محمد : عزمت عليك ان لا تقاتل في هذا اليوم ، وقد كان مع عبدالملك منجم مقدم ، وقد أشار على عبدالملك ان لا تحارب له خيل في ذلك اليوم ، فإنه منحوس : وليكن حربه بعد ثلاث فانه ينصر ، فبعث اليه محمد : وانا اعزم على نفسي لأقاتلن ولا ألتفت الى زخاريف منجمك ، والمحالات من الكذب ، فقال عبدالملك للمنجم ولمن حضره : ألا ترون ؟ ثم رفع طرفه الى السماء ، وقال : اللهم إن مُصعباً أصبح يدعو إلى أخيه وأصبحت ادعو لنفسي ، اللهم فانصر خيرنا لامة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالتقى محمد بن مروان وابن الأشتر ، ومحمد يرتجز ويقول :

مثلي على مثلك أولى بالسلب عجل الرجلين أعرب الذنب

فاقتتلوا حتى غشيهم المساء ، فقال عتاب بن ورقاء التميمي ، وكان مع ابن الأشتر : يا ابراهيم ، ان الناس قد جهدُوا فمرهم بالانصراف ، حسداً له لإشرافه على الفتح ، فقال له ابراهيم : وكيف ينصرفون وعدوهم بإزائهم ؟! فقال عتاب : فمر الميمنة ان تنصرف ، فأبى ابراهيم ذلك ، فمضى اليهم عتاب فأمرهم بالانصراف ، فلما زالوا عن مصافهم أكبَّت ميسرة محمد عليهم ، واختلط الرجال ، وصمدت الفرسان لابراهيم ، واشتبكت عليه الأسنة ،

فبري منها عدة رماح وأسلمه من كان معه ، فاقتلع من سرجه ودار به الرجال ، وازدحموا عليه ، فقتل بعد ان أبلى ونكأ فيهم ، وقد تنوزع في آخذ رأسه : فمنهم من زعم أن ثابت بن يزيد مولى الحصين بن نمير الكندي هو الذي أخذ رأسه ، ومنهم من ذكر ان عبيد بن ميسرة مولى بني يشكر ثم من بني رفاعة هو الذي اخذ رأسه ، وأتى عبد الملك بجسد إبراهيم فالقي بين يديه ، فأخذه مولى الحصين بن نمير ، فجمع عليه حطباً وحرقه بالنار .

وسار عبدالملك في صبيحة تلك الليلة من موضعه حتى نزل بدير الجاثليق من ارض السوداء ، وأقبل عبيدالله بن زياد بن ظبيان وعكرمة بن ربعي إلى رايات ربيعة فأضافوها إلى عسكر عبدالملك ودخلوا في طاعته ، ثم تصافّ القوم ، فأفرد مصعب ، وتخلى عنه من كان معه من مضر واليمن ، وبقي في سبعة نفر منهم اسماعيل بن طلحة بن عبيدالله التميمي ، وابنه عيسى بن مصعب ، فقال لابنه عيسى : يا بني اركب فرسك فانج بنفسك فالحق بمكة بعمك ، فأخبره بما صنع بي اهل العراق ، ودعني فإني مقتول ، فقال له : لا والله ، لا يتحدث نساء قريش أني فررت عنك ، ولا احدثهم عنك ابداً ، فقال له مصعب : اما اذا ابيت فتقدم امامي حتى احتسبك ، فتقدم عيسى فقاتل حتى قتل .

وسأل محمد بن مروان أخاه عبد الملك أن يؤمن مصعباً ، فاستشار عبد الملك من حضره ، فقال له علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب : لا تؤمنه ، وقال خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : بل أمنه ، وارتفع الكلام بين علي وخالد حتى تسابا على مصافهما ، فأمر عبد الملك أخاه محمداً أن يمضي إلى مصعب فيؤمنه ويعطيه عنه ما أراد ، فمضى محمد ، فوقف قريباً من مصعب ، ثم قال : يا مصعب ، هلم إليّ ، أنا ابن عمك محمد بن مروان ، وقد أمنك أمير المؤمنين على نفسك ومالك ، وكل ما أحدثت ، وأنت

تنزل أي البلاد شئت ، ولو أراد بك غير ذلك لأنزله بك ، فأنشدك الله في نفسك .

وأقبل رجل من أهل الشام الى عيسى بن مصعب ليحتز رأسه ، فعطف عليه مصعب والرجل غافل ، فناداه أهل الشام : ويلك يا فلان الاسد قد أقبل نحوك ، ولحقه مصعب فقدّه ، وعرقب فرس مصعب ، وبقي راجلا ، فأقبل عليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فاختلفا ضربتين ، سبق مصعب بالضربة الى رأسه وكان مصعب قد أثخن بالجراح ، وضربه عبيدالله فقتله ، واحتز رأسه ، وأتى به عبد الملك ، فسجد عبد الملك ، وقبض عبيد الله بن زياد على قائم سيفه فاجتذبه من غمده حتى أتى على أكثره سَلاً ليضرب عبد الملك في حال سجوده ثم ندم واسترجع ، فكان يقول بعد ذلك : ذهب الفتك من الناس ، إذ هممت ولم أفعل فأكون قد قتلت عبد الملك ومصعباً ملكي العرب في ساعة واحدة ، وتمثل عبيدُ الله عند مجيئه برأس مصعب :

نعاطي الملوك الحق ما قسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم

وقال عبد الملك : متى تلد قريش مثل مصعب ؟ وكان قتل مصعب يوم الثلاثاء ، لثلاث عشرة خلت من جمادي الاولى سنة اثنتين وسبعين ، وأمر عبد الملك بمصعب وابنه عيسى فدفنا بدَيْرِ الجاثليق ، ودعا عبدالملك أهل العراق إلى بيعته فبايعوه .

وقد كان مسلم بن عمرو الباهلي من صنائع معاوية وابنه يزيد ، وكان في ذلك اليوم في جيش مصعب ، فأتى به عبد الملك وقد أخذ له منه الأمان ، فقيل له : أنت ميت لا ترجو الحياة لما بك من الجراح ، فما تصنع بالأمان ؟ قال : ليسلم مالي ويأمن ولدي بعدي ، فلما وضع بين يدي عبد الملك قال : قَطَعَ الله يدضاربك كيف لم يجهز عليك ؟ أكفرت صنائع آل حرب معك؟ فأمنه على ماله وولده ومات من ساعته .

وفي مصرع مصعب بدير الجاثليق من أرض العراق ، يقول عبد الله بن قيس الرقيات :

لقد أورثت المصرين عاراً وذلة قتيلٌ بدير الجاثليق مقيم
فما نصحت لله بكر بن وائل ، ولا صبرت عند اللقاء تميم
ولكنه ضاع الذمار ، ولم يكن بها مضريٌّ يوم ذاك كريم
جزى الله بصرياً بذاك ملامة وكوفيهم ، إن الملیم مُليمُ

وفي ذلك يقول شاعر أهل الشام من أبيات :

لعمري لقد أصحَرَتْ خيلنا بأكناف دجلة للمصعب
يهزون كل طويل القنا ة معتدل النصل والثعلب
إذا ما منافق أهل العرا ق عوتب يوماً فلم يعتب
دلفْنا اليه لدى موقف قليل التفقد للغيب

وقد كان مصعب ذا حسن ، وجمال ، وهيئة ، وكمال في الصورة ، وفيه يقول ابن الرقيات من كلمة :

إنما مصعب شهاب من اللــه تجلت عن وجهه الظلماء

وقد أتينا على أخبار مصعب ، وسكينة بنت الحسين زوجه ، وعائشة بنت طلحة وليلى من نسائه وغير ذلك من أخباره في الكتاب الأوسط

اربع رؤوس في مكان واحد : وحدث المنقري ، قال : حدثني سويد بن سعيد ، قال : حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن أبي مسلم النخعي ، قال : رأيت رأس الحسين جيء به ، فوضع في دار الإمارةبالكوفة بين يدي عبيد الله بن زياد،ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد قد جيء به ، فوضع في ذلك الموضع بين يدي المختار ، ثم رأيت رأس المختار قد جيء به ، فوضع بين يدي مصعب ابن الزبير ، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير قد جيء به ، فوضع في ذلك الموضع بين يدي عبد الملك .

وقد قيل في وجه آخر من الروايات ، قال الراوي : فرأى عبد الملك

مني اضطراباً ، فسألني ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بين يدي ابن زياد في هذا الموضع ، ثم دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار فيه ، ثم دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب ابن الزبير وهذا رأس مصعب بين يديك ، فوقاك الله يا أمير المؤمنين . قال : فوثب عبد الملك بن مروان ، وأمر بهدم الطاق الذي على المجلس ، ذكر هذا الحديث عن الوليد بن خباب وغيره .

الناس يبايعون عبد الملك : وسار عبد الملك من دير الجاثليق حتى نزل النخيلة بظهر الكوفة ، فخرج اليه أهل الكوفة فبايعوه ، ووفى الناس بما كان وعدهم به في مكاتبته إياهم سراً وخلع ، وأجاز ، وأقطع ، ورتب الناس على قدر مراتبهم ، وعمهم ترغيبه ، وترهيبه ، وولى على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسد ، وعلى الكوفة بشر بن مروان أخاه ، وخلف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام منهم روح بن زنباع الجذامي ، وبعث بالحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير بمكة ، وسار في بقية اهل الشام الى دار ملكه دمشق .

روح بن زنباع وبشر بن مروان : وكان بشر بن مروان اديباً ظريفاً ، يحب الشعر والسمر والسماع والمعاقرة ، وقد كان أخوه عبد الملك قال له : إن روحا عمك الذي لا ينبغي أن تقطع امراً دونه ، لصدقه وعفافه ومناصحته ومحبته لنا أهل البيت ، فاحتشم بشر منه ، وقال لندمائه : أخاف إن انبسطنا أن يكتب روح الى أمير المؤمنين بذلك ، وإني لأحبُّ من الأنس والاجتماع ما يحبه مثلي ، فقال له بعض ندمائه من أهل العراق بحسن مساعدته ولطيف حيلته : أنا أكفيك أمره حتى ينصرف عنك الى أمير المؤمنين غير شاكٍ ولا لائم ، فسر بشر ، ووعده الجائزة وحسن المكافأة إن هو تأتى له ما وعد به ، وكان روح شديد الغيرة ، وكانت له جارية إذا خرج من منزله الى المسجد أو غيره ختم بابه حتى يعود بعد أن يقفله ، فأخذ الفتى دواة

وأتى منزل روح عشياً مختفياً، وخرج روح للصلاة ، فتوصل الفتى الى دخول الدهليز في حـــال خروج روح ، وكمن تحت الدرجة ، ولم يزل يحتال ليلته حتى توصل الى بيت روح ، فكتب على حائط في أقرب المواضع مـن مرقد روح :

يا روح مَن لِبُنيّاتٍ وأرملة إذا نعاك لأهل المغرب الناعي
إن ابن مروان قد حانت منيته فاحتل لنفسك ياروحُ بْنَ زنباع
ولا يغرنك أبــكار منعمة واسمع هديت مقال الناصح الداعي (١)

ورجع الى مكانه بالدهليز ، فبات فيه ، فلما أصبح روح خرج الى الصلاة فتبعه غلمانه ، والفتى متنكر في جملتهم مختلط بهم ، فلما عاد روح وافتتح باب حجرته تبين الكتابة وقرأها ، فراعه ذلك وأنكره ، وقال : ما هذا ؟ فوالله ما يدخل حجرتي إنسيٌ سواي ، ولا حظ لي في المقام بالعراق ثم نهض الى بشر ، فقال له : يا ابن أخي ، أوصني بما أحببت من حاجة أو سبب عند أمير المؤمنين ، قال : أوَتريد الشخوص يا عم ؟ قال : نعم ، قـــال : ولم ؟ هل أنكرت شيئاً أو رأيت قبيحاً لا يسعك المقام عليه ؟ قـــال : لا والله ، بل جزاك الله عن نفسك وعن سلطانك خيراً ، ولكن أمر حدث ، ولا بد لي من الانصراف إلى أمير المؤمنين فأقسم عليه أن يخبره ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد مات أو هو ميت إلى أيام ، قال: ومن أين علمت بذلك؟ فأخبره بخبر الكتابة ، وقال : ليس يدخل حجرتي غيري وغير جـــاريتي فلانة ، وما كتب ذلك إلا الجن أو الملائكة ، فقـــال له بشر : أقم فإني أرجو أن لا يكون لهذا حقيقة ، فلم يَثْنِه شيء ، وسار إلى الشام ، فأقبل بشر على الشراب والطرب ، فلما لقي روح عبد الملك أنكر أمره ، وقال : ما إقدامك إلا لحادثة حدثت على بشر ، أو لأمر كرهته ، فأثنى على بشر ،

---

١) في نسخة : مقال الناصح الراعي .

وحمد سيرته ، وقال : لا بل لأمر لا يمكنني ذكره حتى تخلو ، فقال عبد الملك لجلسائه : انصرفوا ، وخلا بروح ، فأخبره بقصته وأنشده الأبيات ، فضحك عبد الملك حتى استغرق[١] ، وقال : ثقلت على بشر وأصحابه حتى احتالوا لك بما رأيت ، فلا تَرُعْ .

عبد الله بن الزبير ينعي اخاه مصعبا : ولما اتصل قتل مصعب بأخيه عبد الله أضرب عن ذكره حتى تحدث بذلك العبيد والإماء في سكك المدينة ومكة ، فصعد المنبر وجبينه يَرشَح عرقاً ، فقال : الحمد لله مالك الدنيا والآخرة ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، ألا إنه لن يذل الله من كان الحق معه ، ولن يعز من كان أولياء الشيطان حزبه ، إنه أتانا خبر من العراق أحزننا وأفرحنا ، وهو قتل مصعب ، فأما الذي أحزننا من ذلك فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوي من بعد ذلك إلى كريم الصبر وجميل العزاء ، وأما الذي أفرحنا فإن القتل له شهادة ، ويجعل الله لنا وله في ذلك الخيرة ، أما والله إنا لا نموت حتفاً[٢] كميتة آل أبي العاص وإنما نموت قَعْصاً بالرماح ، وقتلا تحت ظلال السيوف ، ألا وإن الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ولا يتبدل ، فإن تقبل الدنيا علي لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عني لا أبكي عليها بكاء الحزين المهين . .

الحجاج في مكة : فأتى الحجاج الطائف ، فأقام بها شهوراً ، ثم زحف إلى مكة ، فحاصر ابن الزبير بها ، وكتب إلى عبد الملك . إني قد ظفرت بأبي قُبَيس ، فلما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير بمكة والظفر بأبي قُبَيس كبر عبد الملك فكبر من معه في داره ، واتصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا ، واتصل ذلك بأهل الأسواق فكبروا ثم سألوا عن الخبر ،

---

١) في نسخة : حتى استغرب .
٢) في نسخة : لا نموت حبجا .

فقيل لهم : إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة وظفر بأبي قُبَيس ، فقالوا : لا نرضى حتى يحمله إلينا مكبلا على رأسه برنس على جمل يمر بنا في الأسواق الترابي الملعون ، وكان حصار الحجاج لابن الزبير بمكة هلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ، وفيها قتل مصعب وما ذكرنا من قول أهل دمشق في ابن الزبير فذكره عمر بن شبة النميري عن ابن عاصم ومنع ابن الزبير الحجاج أن يطوف بالبيت ، ووقف الحجاج بالناس بعرفة محرماً في درع ومغفر ، وهو من أبناء إحدى وثلاثين سنة ، ونحر ابن الزبير بمكة ، ولم يخرج إلى عرفة بسبب الحجاج ، فكانت مدة حصار الحجاج لابن الزبير بمكة خمسين ليلة .

ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر : ودخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد بلغت من السِّنّ مائة سنة لم تقع لها سن ، ولا ابيضّ لها شعر ، ولم ينكر لها عقل ، على حسب ما قدمنا من خبرها في هذا الكتاب ، فقال : يا أمه ، كيف تجدينك ؟ قالت : إني لشاكية يا بني ، فقال لها : إن في الموت راحة ، قالت : لعلك تمنّاه لي ، وما أحب أن أموت حتى يأتي علي أحد طرفيك : إما قتلت فأحتسبك ، وإما ظفرت فقرت عيني بك ، وأوصى عبد الله بما يحتاج من أمره وأمر نسائه إذا سمعن الواعية عليه أن يضممن أمه أسماء إليهن ، وكان عروة بن الزبير على رأي عمه عبد الملك بن مروان . وكانت كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج متصلة يأمره بتعاهد عروة وأن لا يسوءه في نفسه وماله ، فخرج عروة إلى الحجاج ، ورجع إلى أخيه فقال له : هذا خالد بن عبد الله بن خالد ابن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبد الملك على ما أحدثْتَ أنت ومن معك ، وأن تنزل أي البلاد شئت، لك بذلك عهد الله وميثاقه ، وغير ذلك من الكلام ، فأبى عبد الله قبول ذلك ، وقالت له أمه

أسماء : أيْ بنيّ ، لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل ، مت كريماً ، وإياك أن تؤسر ، أو تعطي بيديك ، فقال : يا أمه ، إني أخاف أن يمثل بي بعد القتل ، فقالت : يا بني ، وهل تتألم الشاة من ألم السلخ بعد الذبح ؟ ودخلوا على ابن الزبير في المسجد وقت الصلاة ، وقد التجأ إلى البيت وهم ينادون : يا ابن ذات النطاقين ، فقال ابن الزبير متمثلاً :

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ونظرَ إلى طائفة منهم قد أقبلوا نحوه بالسيوف ، فقال لأصحابه : من هؤلاء ؟ قالوا : أهل مصر ، قال : قتلة عثمان أمير المؤمنين ورب الكعبة ، فحمل عليهم ، فضرب رجلاً منهم به أدمة فقدّه ، وقال : صبراً يا ابن حام وتكاثر عليه الرجال من أهل الشام ومصر ، فلم يزل يضرب فيهم حتى أخرجهم عن المسجد ، ورجع إلى البيت وهو يقول :

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا أبتغي من رَهْبَة الموت سلما

فاستلم الحجر ، ثم تكاثروا عليه ، فحمل عليهم ، وهو يقول :

قد سن أصحابك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

فأتاه حجر فصك جبينه فأدماه وأوضحه ، فقال :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تَقْطُرُ الدما

فكشفهم عن المسجد ، ورجع على من بقي من أصحابه عند البيت ، فقال لهم : ألقوا أغماد السيوف ، وليصن كل رجل منكم سيفه كما يصون وجهه ، لا ينكسر سيف أحدكم فيقعد كالمرأة ، ولا يسأل رجل منكم : أين عبدالله من يسأل عني فإنني[1] في الرعيل الأول ، ثم أنشأ يقول :

يا رب إن جنود الشام قد كثروا وهتّكوا من حجاب البيت أستارا
يا رب إني ضعيف الركن مضطهد فابعث إلي جنوداً منك أنصارا

---

١) في نسخة : من يسأل عني يلقني في الرعيل الأول .

وتكاثر أهل الشام عليه ألوفاً من كل باب ، فحمل عليهم ، فشدخ بالحجارة ، فانصرع ، وأكب عليه موليان له ، وأحدهما يقول :

العبد يحمي ربه ويحتمي

حتى قتلوا جميعاً ، وتفرق من كان معه من أصحابه ، وأمر به الحجاج فصلب بمكة ، وكان مقتله يوم الثلاثاء ، لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى ، سنة ثلاث وسبعين .

وكلمت أسماء أمه الحجاج في دفنه ، فأبى عليها ، فقالت للحجاج : أشهد إني لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » فأما الكذاب فهو المختار ، وأما المبير فما أظنك إلا هو .

وسنذكر لمعاً من أخبار الحجاج فيما يرد من هذا الكتاب ، وإن كنا قد أتينا على مبسوطها فيما تقدم من كتبنا .

ولاية الحجاج الحجاز : وأقام الحجاج والياً على مكة والمدينة والحجاز واليمن واليمامة ثلاث سنين ، ثم جمع له العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة .

جابر بن عبد الله : ومات جابر بن عبد الله الأنصاري في أيام عبد الملك بالمدينة ، وذلك في سنة ثمان وسبعين ، وقد ذهب بصره ، وهو ابن نيف وتسعين سنة .

وقد كان قدم إلى معاوية بدمشق ، فلم يأذن له أياماً ، فلما أذن له قال : يا معاوية ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حجب ذا فاقة وحاجة حجبه الله يوم القيامة ، يوم فاقته وحاجته » فغضب معاوية ، وقال له لقد سمعته يقول : « إنكم ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تردوا على الحوض » أفلا صبرت ؟ قال : ذكرتني ما نسيت ، وخرج فاستوى على راحلته ومضى ، فوجه إليه معاوية بستمائة دينار ، فردها وكتب إليه :

وإني لأختار القنوع على الغنى إذا اجتمعا والماء بالبارد المحض
وأقضي على نفسي إذا الأمر نابني وفي الناس من يقضى عليه ولا يقضي
وألبس أثواب الحياء ، وقد أرى مكان الغنى أن لا أهين به عرضي

وقال لرسوله : قل له والله يا ابن آكلة الأكباد لا وجدتَ في صحيفتك حسنة أنا سببها أبداً .

محمد بن الحنفية : ومات محمد بن علي بن أبي طالب ، ابن الحنفية في سنة إحدى وثمانين في أيامه بالمدينة ، ودفن بالبقيع ، وصلى عليه أبان بن عثمان ابن عفان بإذن ابنه أبي هاشم وكان محمد يكنى بأبي القاسم، وقبض وهو ابن خمس وستين سنة،وقيل : إنه خرج إلى الطائف هارباً من ابن الزبير فمات بها ، وقيل إنه مات ببلاد أيلة ، وقد تنوزع في موضع قبره ، وقد قدمنا قول الكيسانية ومن قال منهم إنه بجبل رضوّى وكان له من الولد : الحسن ، وأبو هاشم، وعبد الله ، وجعفر الأكبر، وحمزة ، وعلي لأم ولد ، وجعفر الأصغر وعون ، أمها أم جعفر ، والقاسم ، وإبراهيم .

حدثنا نصر بن علي ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيري ، عن يونس بن أبي إسحاق ، قال : حدثنا سهل بن عبيد بن عمرو الحابوري قال : كتب ابن الحنفية إلى عبد الملك : إن الحجاج قد قدم بلدنا وقد خفتُه فأحب أن لا تجعل له علي سلطاناً بيد ولا لسان ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج : إن محمد بن علي كتب إلي يستعفيني منك ، وقد أخرجت يدك عنه ، فلم أجعل لك عليه سلطاناً بيد ولا لسان ، فلا تتعرض له ، فلقيه في الطواف فعض على شفته ، ثم قال : لم يأذن لي فيك أمير المؤمنين ، فقال له محمد : ويحك أوَما علمت أن لله تبارك وتعالى في كل يوم وليلة ثلاثمائة وستين لحظة ، أو قال نظرة ، لعله أن ينظر إليّ منها بنظرة ، أو قال يلحظني بلحظة ، فيرحمني فلا يجعل لك عليّ سلطاناً بيد ولا لسان ، قال : فكتب بها الحجاج

إلى عبد الملك، فكتب بها عبد الملك إلى ملك الروم وكان قد توعده؛ فكتب إليه ملك الروم : ليست هذه من سجيتك ولا من سجية آبائك ما قالها إلا نبي ، أو رجل من أهل بيت نبي .

ملك الروم والشعبي : وذكر الشعبي قال : أنفذني عبد الملك إلى ملك الروم ، فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته ، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة عنده ، فحبسني أياماً كثيرة ، حتى استحببت خروجي[1] فلما أردت الانصراف قال لي : من أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكني رجل من العرب في الجملة ، فهمس بشيء ، فدفعت إلي رقعة ، وقيل لي : إذا أديت الرسائل عند وصولك إلى صاحبك أوصل إليه هذه الرقعة ، قال : فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك ، ونسيت الرقعة فلما صرت في بعض الدار إذ بدأت بالخروج تذكرتها فرجعت فأوصلتها إليه فلما قرأها قال لي : أقال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك ؟ قلت : نعم، قال لي من أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ولكني رجل من العرب في الجملة ، ثم خرجت من عنده ، فلما بلغت الباب رُدِدْتُ ، فلما مثلت بين يديه قال لي : أتدري ما في الرقعة؟ قلت : لا ، قال : اقرأها ، فلما قرأتها فإذا فيها : عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره ، فقلت له : والله لو علمت ما فيها ما حملتها ، وإنما قال هذا لأنه لم يرك ، قال : أفتدري لم كتبها ؟ قلت : لا ، قال : حسدني عليك وأراد أن يغريني بقتلك ، قال : فتأدى ذلك إلى ملك الروم ، فقال : ما أردت إلا ما قال .

وصف معاوية عبد الملك : وذكر عند معاوية عبد الملك فقال : هو آخذ بثلاث ، وتارك لثلاث ؛ آخذ بقلوب الناس إذا حدث ، وبحسن الاستماع إذا

---

١) في نسخة : حتى استحثثت خروجي .

حدث ، وبأيسر الأمرين إذا خولف ، تارك للمماراه ، تارك للغيبة ، تارك لما يعتذر منه .

وقال لعبد الملك بعض جلسائه يوماً : أريد الخلوة بك ، فلما خلا به قال له عبد الملك : بشرط ثلاث خصال : لا تُطْرِ نفسي عندك فأنا أعلم بها منك ، ولا تغتب عندي أحداً فلست أسمع منك ، ولا تكذبني فلا رأي لمكذب ، قال : أتأذن لي في الانصراف ؟ قال : إذا شئت .

عبد الملك وعامل له قبل هدية : وذكر الهيثم وغيره من الاخباريين أن عبد الملك بلغه عن عامل من عماله أنه قبل الهدايا ، فأشخصه إليه ، فلما دخل عليه قال له : أقبلت هدية منذ وليت ؟ قال له : يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال ، قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : نعم ، قال : إن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم ، ولئن كنت أنلت مُهْديها من غير مالك أو استكفيته ما لم يكن مثله مستكفاه إنك لخائن جائر ، وما أتيت أمر لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع ، وأمر بصرفه من عمله .

عبد الملك وعمرو بن بلال يصلح بينه وبين زوجته : وحدث المنقري عن الضبي قال : قال الوليد بن إسحاق : قال ابن عباس : كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية — وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر — تحت عبد الملك بن مروان ، فغضبت عليه ، فطلب رضاها بكل شيء ، فأبت عليه وكانت أحبَّ الناس إليه ، فشكا ذلك إلى خاصته ، فقال له عمرو بن بلال رجل من بني أسد كان قد تزوج بنت زنباع الجذامي : ما لي عليك إن أرضيتها ؟ قال : حكمك ، فخرج وجلس ببابها يبكي فقالت له خاصتها : ما لك تبكي أبا حفص ؟ قال : فزعت إلى ابنة عمي فاستأذنوا لي عليها ، فأذنت له وبينها ستر فقال : قد عرفتِ حالي مع أمراء المؤمنين معاوية

ويزيد ومروان وعبد الملك ، ولم يكن لي غير ابنين فعدا أحدهما على الآخر فقتله ، فقال أمير المؤمنين : أنا قاتل المعتدي ، قلت له : أنا وليُّ الدم وقد عفوت ، فأبى علي وقال : ما أحب أن أعوِّد رعيتي هذا ، وهو قاتله بالغداة ، فأنشدك الله إلا ما طلبته منه ، فقالت : لا أكلمه ، قال : ما أظنك تكسبين شيئاً هو أفضل من إحياء نفس ، ولم يزل بها خواصها وخدمها وحاشيتها حتى قالت : علي بثيابي ، فلبست ، وكان بينها وبين عبد الملك باب ، وكانت قد ردمته ، فأمرت بفتحه ، ثم دخلت فأقبل الخصيُّ يشتد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه عاتكة ، قال : ويلك !! ورأيتها ؟ قال : نعم ، إذ طلعت وعبد الملك على سريره ، فسلمت ، فسكت ، فقالت : أما والله لولا مكان عمرو بن بلال ما أتيتك ، آلله أنْ عَدَا أحد ابنيه على الآخر فقتله وهو ولي الدم وقد عفا عنه أعزمت لتقتلنه ! قال : إي والله وهو راغم ، فأخذت بيده فأعرض عنها ، فأخذت برجله فقبلتها[1] ، فقال : هو لك، وتراضيا بعد أن نكحها ثلاثاً وراح عبد الملك فجلس بمجلسه للخاصة، فدخل عمرو بن بلال ، فقال له : يا أبا حفص ، ألطفت الحيلة في القيادة ، ولك الحكم ، فقال : يا أمير المؤمنين ألف دينار ومزرعة بما فيها من الآلات والرقيق ، قال : هي لك ، قال : وفرائض لولدي وأهل بيتي ، قال : وذلك كله ، وبلغ عاتكة الخبر ، فقالت : ويلي على القوَّاد إنما خدعني .

الحجاج يصف الفتنة : وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن صف لي الفتنة ، فكتب إليه : إن الفتنة تشب بالنجوى ، وتحصد بالشكوى ، وتلتج بالخطب، فكتب إليه : إنك قد أصبت وأحسنت الصفة ، فإن أردت أن يستقيم لك مَنْ قبلك فخذهم بالجماعة ، وأعطهم عطاء الفرقة ، وألصق بهم الحاجة .

وحدثنا المنقري ، قال . حدثنا أبو الوليد الصباح بن الوليد قال : حدثنا

---

١) في نسخة : برجليه فقبلتها .

أبورياش ضبة بن نفاقة ، عن مقلس بن سابق الدمشقي ثم السكسكي ، أن عبد الملك لما بلغه خلع ابن الأشعث صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن أهل العراق استعجلوا قدري قبل انقضاء أجلي ، اللهم لا تسلطنا على مَنْ هو خير منا ، ولا تسلط علينا من نحن خير منه ، اللهم سلط سيف أهل الشام على أهل العراق حتى يبلغ رضاك ، فإذا بلغه فلا تجاوز به سخطك .

كتاب من عبد الملك الى الحجاج لم يفهمه : وكتب عبد الملك إلى الحجاج: أنت عندي سالم ، فلم يعرف ما أراد بذلك ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يسأله عن ذلك ، وبعث الكتاب مع رسول فلما ورد على قتيبة وناوله الكتاب ضرط الرسول ، فخجل واستحيا ، فقرأه قتيبة وأراد أن يقول له اقعد ، فقال : اضرط ، قال : قد فعلت ، فاستحيا قتيبة ، وقال : ما أردت إلا أن أقول لك اقعد فغلطت ، فقال : قد غلطت أنا وغلطت أنت ، قال قتيبة : ولا سواء ، أغلط أنا من فمي وتغلط انت من استك ، أعلِم الامير أن سالماً كان عبداً لرجل ، وكان عنده أثيرا ، وكان يُسعى به اليه كثيرا ، فقال :

يُديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

فأراد عبد الملك أنك عندي بمنزلة سالم ، فلما أتى الحجاج بالرسالة كتب له عهداً على خراسان .

وقد روي نحو هذا الخبر عن رجل كان في مجلس خالد بن عبد الله القسري فضرط ، فلما حضر الغداء قام ذلك الرجل ، فقال له خالد : اقعد ، فأبى ، فقال له ، أقسمت عليك لتضرطن ، قال : قد ضرطت ، فخجل خالد ، واعتذر اليه وأمر له بمال .

وأهدي الى عبد الملك أترسة مكللة بالدر والياقوت ، فأعجبته ، وعنده جماعة من خاصته وأهل خلوته ، فقال لرجل من جلسائه اسمه خالد : اغمز

منها ترساً وأراد أن يمتحن صلابته ، فقام فغمزه فضرط ، فاستضحك عبد الملك ، فضحك جلساؤه ، فقال : كم دية الضرطة ؟ فقال بعضهم : أربعمائة درهم وقطيفة ، فأمر له بذلك ، فأنشأ رجل من القوم :

أيضرط خالد من غمز ترس   ويحبوه الأمير بها بدورا
فيا لك ضرطة جلبت غناء   ويالك ضرطة أغنت فقيرا
يودُّ الناس لو ضرطوا فنالوا   من المال الذي أعطي عشيرا
ولو نعلم بان الضرط يغني   ضرطنا أصلح الله الأميرا

فقال عبد الملك : أعطوه أربعة آلاف درهم ، ولا حاجة لنا في ضراطك .

عبد الملك يحج : وحدثنا أحمد بن سعيد الدمشقي والطوسي وغيرهما في كتاب الاخبار المعروف بالموقميات ، عن الزبير بن بكار ، قال : حدثنا محمد ابن عبد الرحمن بن محمد بن يزيد عن عتبة بن أبي لهب ، قال : حج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بدرة مكتوب عليها « من الصدقة » فأبى أهل المدينة من قبولها وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفيء[1]، فقال عبد الملك وهو على المنبر : يا معشر قريش ، مثلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين ، فنزلا في ظل شجرة تحت صفاة ، فلما دنا الرواح خرجت اليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً فألقته اليهما ، فقالا : إن هذا لمن كنز ، فأقاما عليها ثلاثة أيام كلُّ يوم تخرج اليهما ديناراً ، فقال أحدهما لصاحبه : الى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه ؟ فنهاه أخوه ، وقال له : ما تدري لعلك تعطب ولا تدرك المال ، فأبى عليه ، وأخذ فأساً معه ورصد الحية حتى خرجت فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها ، فثارت الحية فقتلته ، ورجعت الى جحرها ، فقام أخوه

١) في نسخة : وقالوا أنما كان أعطاؤنا من الفيء .

فدفنه ، وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ليس معها شيء، فقال لها : يا هذه إني والله ما رضيت ما أصابك، ولقد نهيت أخي عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضريني ولا أضرك ، وترجعين إلى ما كنت عليه ، قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لي أبداً وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشجة ، وأنشدهم شعر النابغة :

فقالت : أرى قبراً تراه مقابلي وضربةَ فأس فوق رأسي فاقره

فيا معشر قريش ، وليكم عمر بن الخطاب فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسمعتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ليناً كريماً فعدوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم مسلماً يوم الحرة فقتلتموه، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر مقتل عثمان .

روح بن زنباع وعبد الملك : وحدث المدائني وابن دأب أن روح بن زنباع جليس عبد الملك رأى منه إعراضاً وجَفْوة ، فقال للوليد بن عبد الملك : أما ترى ما أنا فيه من أمير المؤمنين بإعراضه عني بوجهه حتى لقد فَغَرَتِ السباع بأفواهها نحوي وأهوت بمخالبها إلى وجهي ؟ فقال له الوليد : احْتَلْ له في حديثٍ تضحكه به كما احتال مرزبان نديم سابور بن سابور ملك فارس، قال روح: وما كان من خبره مع الملك ؟ قال الوليد : كان مرزبان هذا من سُمّار سابور ، فظهرت له من سابور جَفْوة ، فلما علم ذلك تعلّم نُبَاح الكلاب ، وعُوَاء الذئاب ، ونهيق الحمير ، وزُقَاء الديوك ، وشحيج البغل ، وصهيل الخيل ، ومثل هذا ، ثم احتال حتى توصل الى موضع يقرب من مجلس خلوة الملك وفراشه ، وأخفى أثره ، فلما خلا الملك نبح نباح الكلاب ، فلم يشك الملك أنه كلب ، فقال الملك : انظروا ما هذا؟

فعوى عُواء الذئاب ، فنزلِ الملك عن سريره ، فنهق نهيق الحمير ، فمضى الملك هارباً ، ومضى الغلمان يتبعون الأثر والصوت ، فكلما دنَوْا منه ترك ذلك الصوت وأحدث صوتاً آخر من اصوات البهائم ، فأحجموا عنه ، ثم اجتمعوا فاقتحموا عليه فأخرجوه، فلما نظروا اليه قالوا للملك : هذا مرزبان المضحك ، فضحك الملك ضحكاً شديداً ، وقال له : ويلك ! ما حملك على هذا ؟ قال : ان الله مسخني كلباً وذئباً وحماراً وكل خلق لما غضبتَ عليّ ، فأمر الملك بالخلع عليه ، ورده الى مرتبته التي كان فيها ، وتجدد للملك به سرور ، فقال روح للوليد : اذا اطمأن المجلس بأمير المؤمنين فاسألني عن عن عبدالله بن عمر هل كان يمزح أو يسمع مُزّاحاً ؟ قال الوليد : أفعل ، وكان ابن عمر صاحب سلامة لا يمزح ولا يعرف شيئاً من المزاح ، فتقدَّمَ الوليد وسبقه بالدخول ، فتبعه روح ، فلما اطمأن بهما مجلس عبد الملك قال الوليد لروح : يا أبا زرعة ، هل كان ابن عمر يمزح أو يسمع المزاح ، قال روح : حدثني ابن ابي عتيق ان امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومية هجته فقالت :

ذهَبَ الإلهُ بما تعيش به وقُمِرْتَ عيشكَ أيّما قمر
أنفقتَ ما لَكَ غير محتشمٍ في كل زانيةٍ وفي الخمر

وكان ابن أبي عتيق صاحب غزل وفكاهة ، فأخذ هذين البيتين في رقعة وخرج بهذا الشعر فإذا هو بابن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، انظر في هذه الرقعة وأشرْ عليّ برأيك فيها ، فلما قرأها عبدالله استرجع ، فقال له : ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر ؟ قال : أرى أن تعفو وتصفح ، قال :والله يا أبا عبد الرحمن لئن لقيته[1] بناحية لأنيكنه نيكاً جيداً ، فأخذت ابن عمر أفكل ورعدة واربدّ لونه ، وقال : ما لك غضب الله عليك ؟ قال : ما

١) في نسخة : لئن لقيت صاحبه .

هو الا ما قلت لك ، وافترقا ، فلما كان بعد أيام لقيه فأعرض عنه ابن عمر: فقال : يا أبا عبد الرحمن ، اني لقيت صاحب البيتين ونكته ، فصُمِقَ عبدالله بن عمر فلما رأى ما حل به دنا منه وقال له في أذنه : انها امرأتي فقام ابن عمر فقبّل ما بين عينيه وضحك ، وقال : احسنت فزدها ، فضحك عبد الملك حتى فحص برجله ، وقال له : قاتلك الله يا روح ، ما أطيبَ حديثك له. ومدّ يده اليه ، فقام اليه روح فأكبّ عليه وقبّل اطرافه، وقال : يا أمير المؤمنين ، ألذنب فأعتذر أم لملالة فأصطبر وأرجو عاقبتها ؟ قال : لا والله ما ذاك لشيء تكرهه ، ثم عاد الى احسن حالاته .

عبدالملك الهمداني وسليان بن المنصور : وقد حكي مثل هذا عن عبد الملك بن مهلهل الهمداني ، وكان سميراً لسليان بن المنصور ، وكان سليان قد جفاه ، فأتاه يوماً في قائم الظهيرة واحتدام الهجيرة فاستأذن ، فقال له الحاجب : ليس هذا بوقت اذن على الامير ، فقال له : أعلمه بمكاني ، فدخل فاستأذن له ، فقال له سليان : مره يسلم قائماً ويخفف ، فخرج الحاجب فأذن له وأمره بالتخفيف ، فدخل فسلم قائماً ثم قال : أصلح الله الامير ، اني انصرفت بالأمس الى نحو منزلي وقد أمسيت ، فبينا انا في طريقي اذ أذّن مؤذن ، فدنوت ، ثم صعدت الى مسجد مغلق فصعدت ثم صعدت ثم صعدت ، قال سليان : فبلغتَ السماء فكان ماذا ؟ قال : فتقدم انسان إما كردي او طمطماني فأمّ القوم بكلام ما افهمه ولغة ما اعرفها ، فقال : ويل لكل زمة زما مالا وعده، قال : ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدّده، فإذا خلفه سكران ما يعقل سكراً ، فلما سمع قراءته ضرب بيديه ورجليه وجعل يقول : ايرعبكي درليلكا في حر أم قارئك ومصليك ، فضحك سليان حتى تمرغ على فراشه ، وقال : ادنُ مني يا ابا محمد ، فأنت أطيب امة محمد، ثم دعا بخلعة ، وقال : الزم الباب واغدُ في كل يوم ، وعاد الى أحسن حالاته عنده .

ذكر

طرف من أخبار الحجاج ، وخطبه

وما كان منه في بعض أفعاله

سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء : كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة ، فدخل عليها في السحر فوجدها تتخلل ، فبعث اليها بطلاقها ، فقالت : لم بعثت إلي بطلاقي ؟ ألشيء رابك مني ؟ قال : نعم ، دخلت عليك عند السحر وأنت تتخللين[1] ، فان كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين اسنانك فأنت قذرة ، فقالت : كل ذلك لم يكن ، لكني تخللت من شظايا السواك ، فتزوجها بعده يوسف بن أبي عقيل الثقفي أبو الحجاج ، فولدت له الحجاج بن يوسف مشوهاً لا دبر له ، فثقب عن دبره ، وأبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها ، فأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة ، فقال : ما خبركم ؟ فقالوا : ابن ولد ليوسف من الفارعة ، وكان اسمها ، وقد أبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها ، فقال : اذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه ، فاذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به كذلك ، فإذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سالخاً فأولغوه دمه واطلوا به وجهه ، فانه يقبل الثدي في اليوم الرابع ، قال : ففعلوا به ذلك ، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في بدء أمره ، هذا وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكثر

---

١) في نسخة : فوجدتك تتخللين .

لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يُقْدِم عليها غيره ، ولا سبق اليها سواه .

عبد الملك يولي المهلب قتال الخوارج : حدثنا أبو جعفر محمد بن سليمان ابن داود البصري المنقري ، قال : حدثني ابن عائشة وغيره قال : سمعت أبي يقول : لما غلبت الخوارج على البصرة بعث إليهم عبد الملك جيشاً فهزموه ثم بعث إليهم آخر فهزموه فقال : مَنْ للبصرة والخوارج ؟ فقيل له ليس لهم إلا المهلب بن أبي صُفْرة ، فبعث إلى المهلب ، فقال : على أنّ لي خراج ما أجليتهم عنه ، قال : إذن تشركني في ملكي ، قال : فثلثاه ، قال : لا ، قال : فنصفه ، والله لا أنقص منه شيئاً ، على أن تمدني بالرجال ؛ فإذا أخللت فلا حق لك علي ، فجعلوا يقولون : وَلّى عبد الملك على العراق رجلا ضعيفاً ، وجعل يقول : بعثت المهلب حتى يحارب الخوارج فركب دجلة ، ثم كتب المهلب إلى عبد الملك : إنه ليس عندي رجال أقاتل بهم ، فإما بعثت إلي بالرجال وإما خليْتَ بينهم وبين البصرة ، فخرج عبد الملك إلى أصحابه فقال : ويلكم ! من للعراق ؟ فسكت الناس وقام الحجاج وقال : أنا لها ، قال : اجلس ، ثم قال : ويلكم ! من للعراق ؟ فصمتوا ، وقام الحجاج وقال : أنا لها ، قال : اجلس، ثم قال : ويلكم ! من للعراق ؟ فصمتوا ، وقام الحجاج الثالثة فقال: والله أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: أنت زنبورها، فكتب إليه عهده ، فلما بلغ القادسية أمر الجيش ان يقبلوا وان يروحوا وراءه ، ودعا بجمل عليه قتب ، فجلس عليه بغير حَشِيَّة ولا وطاء ، وأخذ الكتاب بيده ، ولبس ثياب السفر ، وتعمم بعمامته[١] حتى دخل الكوفة وحده ، فجعل ينادي : الصلاة جامعة ، وما منهم رجل جالس في مجلسه إلا ومعه العشرون والثلاثون وأكثر من ذلك من أهله ومواليه وصعد المنبر متلثما متنكبا قَوْسَه ، فجلس واضعاً إبهامه على فيه فقال بعضهم لبعض : قوموا حتى

---

١) في نسخة : وتعمم بعمامة .

تحصبه فدخل محمد بن عمير الدارمي في مواليه فلما رأى الحجاج جالساً على المنبر لا يجنب ولا ينطق قال : لعن الله بني أميـــة حين يولون العراق مثل هذا ، لقد ضيع الله العراق حيث يكون مثل هذا عليها ، ثم ضرب بيده إلى حصباء المسجد ليحصبه ، وقال : والله لو وجدوا أذمّ من هذا لبعثوه إلينا ، فلما همّ أن يحصبه قال له بعض أهل بيته : أصلحك الله اكفف عن الرجل حتى نسمع ما يقول ، فمن قائل يقول : حُصِرَ الرجل فما يقدر على الكلام ، ومن قائل يقول : أعرابي ما أبصر حجته ، فلما غَصَّ المسجد بأهله حسر اللثام عن وجهه ثم قام ، ونحّى العمامة عن رأسه ، فوالله ما حمد الله ولا أثنى عليه ، ولا صلى على نبيه ، وكان أول ما بدأهم به أن قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنـــايا متى أضع العمامـــة تعرفوني

خطبة الحجاج عند مقدمه العراق : إني والله لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني أنا صاحبها ، كأني أنظر إلى الدماء تَرَقْرَقُ بين العمائم واللحى :

هذا أوان الحرب فاشتدّي زِيَمْ قد لَفَّها الليل بسواق حُطَم
ليس بِرَاعي إبل ولا غنم ولا بجزّارٍ على ظهر وَضَمْ

وقال :

قد لفّها الليـــل بعُصْلُبِيّ أرْوَعَ خرّاج من الدّوّيّ
مهـــاجر ليس بأعرابي

وقال :

قد شمّرتْ عن ساقها فكدوا وجَدّتِ الحرب بكم فجدوا
والقوسُ فيهـــا وَتَرٌ عُرُدُّ مثل ذراع البكر أو أشد

إن أمير المؤمنين نثر كنانته ، فوجدني أمرّها طعماً وأحدّها سناناً ، وأقواها قداحاً ، فإن تستقيموا تستقم لكم الأمور ، وإن تأخذوا لي بُنَيَّات

الطريق تجدوني لكل مرصد مرصداً ، والله لا أقيل لكم عَثْرَةً ، ولا أقبل منكم عذرة .

يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ، والله ما أغمز كتغماز التين ولا يُقَعقع لي بالشنّان ولقد فررت عن ذكاء ، وفتّشت عن تجربة والله لألحونكم لحو العود ، ولأعصبنكم عَصْبَ السَّلَمة(١) ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ولأقرعنكم قرع المروة .

يا أهل العراق ، طالما سعيتم في الضلالة ، وسلكتم سبيل الغواية ، وسننتم سنن السوء ، وتماديتم في الجهالة ، ياعبيد العصا وأولاد الإماء ، أنا الحجاج بن يوسف ، إني والله لا أعِدُ إلا وفيت ، ولا أخلق إلا فريت ، فإياكم وهذه الزرافات والجماعات ، وقال وقيل ، وما يكون وما هو كائن ، وما انتم وذاك يا بني اللكيعة ؟ لينظر الرجل في أمر نفسه ، وليحذر ان يكون من فرائسي .

يا أهل العراق ، إنما مثلكم كما قال الله عز وجل : (كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعُم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف - الآية) فأسرعوا واستقيموا ، واعتدلوا ولا تميلوا ، وشايعوا وبايعوا واخضعوا ، واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإهذار ، ولا منكم الفرار والنفار ، إنما هو انتضاء السيف ، ثم لا أغمده في شتاء ولا صيف ، حتى يقيم الله لأمير المؤمنين أوَدَكم ، ويذل له صعبكم .

إني نظرت فوجدت الصدق مع البر ، ووجدت البر في الجنة ، ووجدت الكذب مع الفجور ، ووجدت الفجور في النار .

ألا وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم الى محاربة عدوكم مع المهلب ، وقد أمرتكم بذلك ، وأجّلتُ لكم ثلاثاً ، وأعطيت الله

---

١) في نسخة : ولأعضدنكم عضد السلمة .

عهداً يؤاخذني به ويستوفيه مني أن لا أجد أحداً من بعث المهلب بعدها إلا ضربتُ عنقه ، وانتهبت ماله ، يا غلام اقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين .

فقال الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى مَن بالعراق من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإني إليكم أحمد الله الذي لا إله إلا هو .

فقال الحجاج : اسكت يا غلام ، ثم قال مغضباً : يا أهل العراق، يا أهل النفاق والشقاق ومساوىء الاخلاق ، يا أهل الفُرقة والضلال ، يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام ؟ أما والله لئن بقيت لكم لألحونكم لحو العود ولأؤدبنكم ادباً سوى هذا الادب ، هذا ادب ابن سمية ، وهو صاحب شرطة كان بالعراق ، اقرأ يا غلام الكتاب، فلما بلغ السلام قال اهل المسجد: وعلى امير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته

ثم نزل ، وأمر للناس بأعطياتهم ، والمهلب يومئذ بمهرجان قدق يقاتل الأزارقة .

فلما كان اليوم الثالث جلس الحجاج بنفسه يعرض الناس ، فمر به عمير بن ضابىء التميمي البرجمي ثم احد بني الحدادية وكان من اشراف اهل الكوفة ، وكان من بعث المهلب ، فقال : اصلح الله الامير ، اني شيخ كبير زَمِنٌ عليل ضعيف ، ولي عدة اولاد ، فليختر الامير أيهم شاء مكاني اشدهم ظهراً، واكرمهم فرساً ، واتمهم اداة ، قال الحجاج : لا بأس بشاب مكان شيخ، فلما ولّى قال له عنبسة بن سعيد ومالك بن اسماء : اصلح الله الامير ا اتعرف هذا ؟ قال : لا ، قالا : هو عمير بن ضابىء التميمي الذي وثب على امير المؤمنين عثمان وهو مقتول فكسر ضلعاً من اضلاعه، فقال الحجاج: عليَّ به، فأتي به ، فقال له : ايها الشيخ ، انت الواثب على امير المؤمنين عثمان بعد

قتله ، والكاسر ضلعاً من اضلاعـــه ؟ فقال له : إنه كان حبس ابي شيخاً كبيراً ضعيفاً فلم يُطلِقه حتى مات في سجنه ، فقال الحجاج : اما امــير المؤمنين عثمان فتغزوه بنفسك ، واما الأزارقة فتبعث اليهم بالبدلاء ، او ليس أبوك الذي يقول :

همَمْتُ ولم افعل وكدت وليتني فعلت وأوليت البكاء حلائله

أما والله ان في قتلك ايها الشيخ لصلاح المصرين ، ثم أقبل يصعّد بصره إليه ويصوّبه ويعض على لحيته مرة ويسرحها أخرى ، ثم أقبل عليه فقال : يا عمير سمعت مقالتي على المنبر ؟ فقال : نعم ، قال : والله إنه لقبيح بمثلي أن يكون كذاباً ، قم إليه يا غلام فاضرب عنقه ، ففعل ، فلما قتل ركب الناس كل صَعب وذلول ، وخرجوا على وجوههم يريدون المهلب ، فازدحموا على الجسر حتى سقط بعض الناس في الفرات ، فأتاه صاحب الجسر فقال : أصلح الله الأمير ! قد سقط بعض الناس في الفرات ، قال : ويحك ! ولم ذلك ؟ قال : أهل هذا البعث ازدحموا على الجسر حتى ضاق بهم ، قال : انطلق فاعقِد لهم جسرين .

وخرج عبدالله بن الزّبير الأسدي مذعوراً ، حتى اذا كان عند اللجامين لقيه رجل من قومه يقال له ابراهيم ، فقال له : ما الخبر ؟ فقال ابن الزبير : الشر الشر ، قتل عمير من بعث المهلب ، وانشأ يقول :

أقول لإبراهيم لمــا لقيته أرى الأمرَ أمسى مهلكا متصعبا
تجهّزْ فإما أن تزور ابن ضابيء عمــيراً وإما أن تزور المهلبا
هما خُطتا خَسْف نجاؤك منهما ركوبكَ حوليا من الثلج اشهبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هو أقربا
وإلا فما الحجاج مُغمدٌ سيفه مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيبا

وخرج الناس هرباً الى السواد ، وارسلوا الى اهاليهم أن زودونا ونحن

بمكاننا وقال الحجاج لصاحب الجسر : افتح ولا تحل بين أحد وبين الخروج[١] ووجه العراض الى المهلب ، فما أتت على المهلب عاشرة حتى ازدحموا عليه ، فقال : من هذا الذي استعمل على العراق ؟ هذا والله الذكر من الرجال ؟ فويل والله للعدو[٢] ان شاء الله تعالى .

خروج ابن الاشعث : وقد كان الحجاج استعمل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على سجستان وُبستَ والرخج ، فحارب من هنالك من امم الترك ، وهم انواع من الترك يقال لهم الغوز والخلج ، وحارب من يلي تلك البلاد من ملوك الهند ، مثل رتبيل وغيره وقد قدمنا فيا سلف من هذا الكتاب مراتب ملوك الهند وغيرهم من ملوك العالم ، وذكرنا مملكة كل واحد منهم ، والصقع الذي هو به ، وذوي السّمات منهم ؛ وبينا أن كل ملك يلي هذا الصقع من بلاد الهند يقال له رتبيل ، فخلع ابن الأشعث طاعة الحجاج ، وصار الى بلاد كرمان ، فثنى بخلع عبد الملك ، وانقاد الى طاعته اهل البصرة والجبال مما يلي الكوفة والبصرة وغيرهما ، وسار الحجاج الى البصرة، وسار ابن الأشعث إليه ، فكانت له حروب عظيمة، وفي عبد الرحمن بن الأشعث يقول الشاعر:

خلع الملوك وسار تحت لوائه شجر العرى وعراعر الأقوام

وكتب الحجاج بن يوسف الى عبد الملك يعلمه بخبر ابن الأشعث ، فكتب إليه عبد الملك : لعمري لقد خلع طـاعة الله بيمينه ، وسلطانه بشماله ، وخرج من الدين عرياناً ، وإني لأرجو أن يكون هلاكه وهلاك أهـل بيته واستئصالهم في ذلك على يدي أمير المؤمنين ، وما جوابه عندي في خلـع الطاعة إلا قول القائل :

أناة وحلماً وانتظاراً بهم غـداً فما أنا بالواني ولا الضَّـرع الغمر

---

١) في نسخة : « بين أحد وبين الرجوع » . ٢) في نسخة : « فوئل والله العدو » .

أظن صروف الدهر والجهل منهم ستحملكم مني على مركب وَعْرِ
ألم تعلموا أني تخاف عَرَامتي وأن قَنَاتي لا تلين على الكسر

ودخل ابن الأشعث الكوفة ، وكتب الحجاج كتاباً إلى عبد الملك يذكر فيه جيوش ابن الأشعث وكثرتها ، ويستنجد عبد الملك ويسأله الأمداد ، وقال في كتابه : واغوثاه يا الله ، واغوثاه يا الله ، واغوثاه يا الله ، فأمدَّه بالجيوش وكتب إليه : يا لبيك ، يا لبيك ، يا لبيك .

وقائع دير الجماجم وقتل ابن الاشعث : فالتقى الحجاج وابن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم ، فكانت بينهم وقائع نيف وثمانون وقعة تَفَانى فيها خلق ، وذلك في سنة اثنتين وثمانين ، وكانت على ابن الأشعث فمضى حتى انتهى إلى ملوك الهند ، ولم يزل الحجاج يحتال في قتله حتى قتل ، وأتي برأسه ، فعلا الحجاج منبر الكوفة ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أهل العراق ، إن الشيطان استبطنكم فخالط اللحم منكم والعظم والأطراف والأعضاء ، وجرى منكم مجرى الدم ، وأفْضَى إلى الأضلاع والأمخاخ ، فحشا ما هناك شقاقاً واختلافاً ونفاقاً ، ثم أربع فيه فعشش ، وباض فيه ففرخ ، واتخذتموه دليلا تتابعونه ، وقائداً تطاوعونه ومؤمراً تستأمرونه ، ألستم أصحابي بالأهواز حين سعيتم بالغدر بي فاستجمعتم عليّ وحيث ظننتم أن الله سيخذل دينه وخلافته ، وأقسم بالله إني لأراكم بطرفي وأنتم تتسللون لِوَاذاً منهزمين ، سراعاً مفترقين ، كل امرىء منكم على عنقه السيف رعباً وجبناً ، ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية ؟ بها كان فشلكم وتخاذلكم ، وبراءة الله منكم ، وتوليكم على أكتافكم السيوف هاربين ونكوص وليكم عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها لا يسأل الرجل عن بنيه ، ولا يلوي امرؤ على أخيه ، حتى عضتكم السلاح ، وقصفتكم الرماح ، ويوم دير الجماجم ، بها كانت الملاحم ، والمعارك العظائم :

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فما الذي أرجوه منكم يا أهل العراق ؟ أم ما الذي أتوقعه ؟ ولماذا أستبقيكم ؟ ولأي شيء أدخركم ؟ أللفجرات بعد العداوات ؟ أم للنزوة بعد النزوات ؟ وما الذي أراقب بكم ؟ وما الذي أنتظر فيكم ؟ إن بعثتم إلى ثغوركم جبنتم، وإن أمنتم أو خفتم نافقتم، لا تجزون بحسنة ولا تشكرون نعمة.

يا أهل العراق، هل استنبحكم نابح ، أو استشلاكم غاو ، أو استخفكم ناكث أو استنفركم عاص إلا تابعتموه وبايعتموه، وآويتموه وكفيتموه ؟ يا أهل العراق ، هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو دبى كاذب إلا كنتم أنصاره وأشياعه ؟

يا أهل العراق، لم تنفعكم التجارب وتحفظكم المواعظ وتعظكم الوقائع، هل يقع في صدوركم ما أوقع الله بكم عند مصادر الأمور ومواردها .

يا أهل الشام ، أنا لكم كالظَّليم الرامح عن فراخه ، ينفي عنهن القذى، ويكنفهن من المطر ، ويحفظهن من الذئاب ، ويحميهن من سائر الدواب ، لا يخلص إليهن معه قذى ، ولا يُفضي إليهن ردًى ، ولا يمسهن أذى .

يا أهل الشام ، أنتم العدة والعدد ، والجُنّة في الحرب ، إن نحارب حاربتم، أو نجانب جانبتم[1] ، وما أنتم وأهل العراق الا كما قال نابغة بني جعدة :

وإن تداعيهم حظهم ولم ترزقوه ولم نكذب
كقول اليهود : قتلنا المسيح ولم يقتلوه ولم يُصلَبِ

في أبيات .

من عبد الملك الى الحجاج : ولما أسرف الحجاج في قتل أسارى دير

---

١) في نسخة : « ان حارب محارب أو جانب مجانب » .

الجماجم وإعطائه الأموال بلغ ذلك عبد الملك ، فكتب اليه : أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سَرَفُكَ في الدماء ، وتبذيرك في الاموال ، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحدٍ من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء في الخطأ الدية وفي العمد القود ، وفي الاموال ردها الى مواضعها ، ثم العمل فيها برأيه ، فإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل ، فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران : لين وشدة ، فلا يؤنسنك إلا الطاعة ، ولا يوحشنك الا المعصية ، وظُنَّ بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتماله لك على الخطأ ، واذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً ، وكتب في أسفل كتابه :

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها ... وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
وتخشى الذي يخشاه مِثلُكَ هاربا ... إلى الله منه ضَيَّعَ الدَّرَّ حالبه
فان تر مني غفلة قُرَشية ... فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وإن تر مني وثبة أموية ... فهذا وهذا كلٌّ ذا أنا صاحبه
فلا ، لا تلمني والحوادث جمة ... فإنك مجزيٌّ بما أنت كاسبه
ولا تَعْدُ ما يأتيك مني وإن تَعُدْ ... يقوم بها يوماً عليك نوادبه
ولا تنقصن للناس حقاً علمته ... ولا تعطين ما ليس لله جانبه

وهي أبيات من جيد ما اخترناه من قول عبد الملك .

جواب الحجاج : فلما قرأ الحجاج كتابه كتب : أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سَرَفي في الدماء ، وتبذيري في الاموال ، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هُم أهلُه ، وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه ، فان كان قتلي أولئك العصاة سرفاً وإعطائي اولئك المطيعين تبذيراً فليسوِّغني أمير المؤمنين ما سلف ، وليحدَّ لي فيه حداً أنتهي اليه

إن شاء الله تعالى ، ولا قوة إلا بالله ، ووالله ما علي من عقل ولا قود : ما أصبت القوم خطأ فأديهم ، ولا ظلمتهم فأقاد بهم ، ولا أعطيتهم إلا لك ، ولا قتلت إلا فيك ، وأما ما أنا منتظره من أمريك فألينها عدة [1] ، وأعظمها محنة ، فقد عبأت للعدة الجلاد [2] ، وللمحنة الصبر ، وكتب في أسفل كتابه :

إذا أنا لم أتبع رضاك وأتقي أذاك فيومي لا تزول كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جنة تقيه من الأمر الذي هو كاسبه
أسالم من سالمت من ذي قرابة ومن لم تسالمه فإني محاربه
إذا قارف الحجاج منك خطيئة فقامت عليه في الصباح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه وأقصي الذي تسري الي عقاربه
فمن ذا الذي يرجو نوالي ويتقي مصاولتي ، والدهر جم نوائبه؟
فقف بي على حد الرضا لا أجوزه مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
وإلا فدعني والأمور فانني شفيق رفيق أحكمتني تجاربه

وهي أبيات من جيد ما اخترناه من شعر الحجاج .

فلما انتهى كتابه الى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صولتي ، ولن أعود لشيء يكرهه .

الحجاج يلتمس محدثا مؤنسا : وحدث حماد الراوية أن الحجاج سهر ليلة بالكوفة ، فقال لحرسي : ائتني بمحدث من المسجد ، فاعترض رجلا جسيما عظيما ، فقال له : أجب الأمير ، فانطلق به حتى أدخله اليه ، فلم يسلم ولا نطق حتى قال له الحجاج : إيه ما عندك ؟ فلم يتكلم ، فقال للحرسي : أخرجه أخرج الله نفسك ، أمرتك أن تأتيني بمحدث فأتيتني بمرعوب قد ذهب فؤاده ، فخرج الحجاج ومعه صرة دراهم الى المسجد ، فجعل يناول

---

١) في نسخة : « فألينهما عزة » . ٢) في نسخة : « للعزة الحلاء » .

الناس فيأخذونها ، حتى انتهى الى شيخ ، فأعطاه فنبّذها ، فأعادها الحجاج فردّها ، ففعل ذلك الحجاج ثلاثاً ، فدنا منه الحجاج وقال : أنا الحجاج فأخذها ، ودخل القصر ، وقال للحرسي : ألحقني به ، فدخل فسلم بلسان ذلق وقلب شديد ، فقال له الحجاج : ممن الرجل ؟ فقال : من بني شيبان ، قال : ما اسمك ؟ قال سميرة بن الجعد ، قال : يا سميرة ، هل قرأت القرآن ؟ قال : جمعته في صدري فإن عملت به فقد حفظته وان لم أعمل به ضيعته ، قال : فهل تفرض ؟ قال : إني لأفرض الصُّلْب وأعرف الاختلاف في الجد، قال : فهل تبصر الفقه ؟ قال : إني لأبصر ما أقوم به أهلي وأرشد ذا العمى من قومي ، قال : فهل تعرف النجوم ؟ قال : إني لأعرف منازل القمر ، وما أهتدي به في السفر ، قال : فهل تروي الشعر ؟ قال إني لأروي المثل والشاهد ، قال : المثل قد عرفناه فما الشاهد ؟ قال : اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر ، فإني أروي ذلك الشاهد ، فاتخذه الحجاج سميراً، فلم يك يطلب شيئاً من الحديث إلا وجد عنده منه علما وكان يرى رأي الخوارج وكان من أصحاب قَطَرِي بن الفُجَاءة التميمي ، والفجاءة أمه ، وكانت من بني شيبان ، وإنما هو رجل من تميم ، وكان قَطَري يومئذ يحارب المهلب ، فبلغ قطريا مكان سميرة من الحجاج فكتب إليه بأبيات منها :

لشتّان ما بين ابن جعد وبيننا إذا نحن رُحنا في الحديد المظاهر
نجاهد فُرْسانَ المهلّب كلنا صبُورٌ على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الخز عند أميره أمير بتقوى ربه غير آمر
أبا الجعد ، أين العلم والحلم والنهى وميراث آباء كرام العناصر ؟
ألم تر ان الموت لا شك نازل ولا بد من بعث الالى في المقابر
حفاةً عراةً والثواب لربهم فمن بين ذي ربح وآخرَ خاسر
فان الذي قد نلت يفنى ، وإنما حياتك في الدنيا كوقعة طائر

فرّاجع ابا جعد ولاتك مُفضياً   على ظلمة اعشتْ جميع النواظر
وتُبْ توْبةً تهدي إليك شهادة   فإنك ذو ذنب ولست بكافر
وسر نحونا تلق الجهاد غنيمة   تفدكَ ابتياعاً رابحاً غير خاسر
هي الغاية القُصوى الرغيبُ ثوابها   إذا نال في الدنيا الغنى كل تاجر

فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه واخذ سلاحه ، ولحق بقطري ،وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه ، ولم يشعرْ الحجاج إلا وكتابٌ قد بدر منه فيه شعر قطري الذي كان كتب بـــه إليه ، وفي أسفل الكتاب الى الحجاج أبيات ، منها :

فمن مُبلغ الحجاج أن سميرة   قلا كلّ دين غير دين الخوارج
رأى الناسَ إلا من رأى مثل رأيه   ملاعين ترّاكين قصْدَ المخارج
فأقبلتُ نحو الله بالله واثقاً   وما كُربتي غير الإله بفارج
إلى عصبة ، أما النهار فإنهم   هم الأسد أسد الغيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جنّ فإنهم   قيامٌ كأنواح النساء النواشج
يُنادون للتحكيم ، تالله انهم   رأوا حكم عمرو كالرياح الهوائج
وحُكم ابن قيس مثل ذاك فأعصموا   بحبل شديد المتن ليس بناهج

فطرح الحجاج هذا الكتاب الى عنبسة بن سعيد ، فقال : هذا من سميرنا الشيباني ، وهو من الخوارج ، ولا نعلم به .

ولأبي الجعد سميرة بن الجعد سمير الحجاج هذا أشعار كثيرة ، منها قوله من أبيات :

عجبت لحالات البلاء وللدهر   وللحين يأتي المرء من حيث لا يدري
وللناس يأتون الضلالة بعدما   أتاهم من الرحمن نور من البدر
ولله لا يخفى عليه صنيعنا   حفيظ علينا في المقام وفي السفر
علا فوق عرش فوق سبع ،ودونه   سماء يرى الأرواح من دونها تجري

وقد قيل : إن هذا الشعر لغيره من الخوارج .

بعض ما اتفق عليه الخوارج وما اختلفوا فيه : وللأصناف من الخوارج أخبار حسان من الأزارقة والأباضية وغيرهما ؛ وقد أتينا على ذكرهـا في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وذكرنا مـا اتفقت عليه الخوارج واجتمعت عليه من الأصول : من إكفارهم عثمان وعلياً ، والخروج على الإمام الجائر ، وتكفير مرتكب الكبائر ، والبراءة من الحكمين أبي موسى عبدالله ابن قيس الأشعري وعمرو بن العاص السَّهْمي ، وحكمهما ، والبراءة ممـن صَوَّبَ حكمهما أو رضي به ، وإكفار معاوية وناصريه ومقلِّديه ومحبيه ، فهذا ما اتفقت عليه الخوارج من الشُّراة والحَرُورية ، ثم اختلفوا بعد ذلك في مواضع من العبارة عن التوحيد والوعد والوعيد ، والإمامة ، وغير ذلك من آرائهم ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب ذكر الحكمين أن أول من حكم بصفين عُرْوَة بن أدية التميمي وقيل : إن أول من حَكَّمَ بصفين يزيد بن عاصم المحاربي وقيل : إن أول من حكم رجل من بني سعد ابن زيد مَنَاة بن تميم ، وكان أول من شرى بصفين من المحكمة رجل من بني يشكر ، وكان من وجوه ربيعة ممن كان مع علي ، فإنه في ذلك اليوم قال : لا حكم إلا لله ، ولا طاعة لمن عصى الله ، وخرج عن الصف ، فحمل على أصحاب عليّ فقَتَلَ منهم رجلا ، ثم حمل على أصحاب معاوية فتحاموه ولم يقدر على قتل أحد منهم ، وكر على أصحاب علي فقتله رجل من هَمْدَان .

ذكر بعض الخوارج : وقد أتى الهيثم بن عدي وأبو الحسن المدائني وأبو البختري القاضي وغيرهم على أخبار الخوارج وأصنافهم فيما أفردوه من كتبهم، وذكر أصحاب المقالات في الآراء والديانات ما تنازعوا فيه من مذاهبهم عند تباينهم في فروعهم ، وما اجتمعوا عليه من أصولهم ، وقد أتينا على أكثر ما تنازعوا فيه من مذاهبهم في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » وذكرنا

من خرج منهم من وقت التحكيم في عصر عصر إلى آخر من خرج منهم بديار ربيعة على بني حمدان ، وذلك في سنة ثمان عشرة وثلثمائة ، وهو المعروف بعرون ، وخرج ببلاد كفر توثي ، وورد الى نصيبين ، فكانت له مع أهلها حروب أسر فيها وقتل منهم خلق عظيم ، والمعروف بأبي شعيب ، خرج في بني مالك وغيرهم من ربيعة ، وقد كان أدخل على المقتدر بالله ، وقد كان بعد العشرين والثلثمائة للأباضية ببلاد عمان مما يلي بلاد. بروى وغيرهـا حروب وتحكيم وخروج وإمام نصبوه فقتل وقتل من كان معه .

الحجاج وشبيب الخارجي : وسنة سبع وسبعين كانت للحجاج حروب مع شبيب الخارجي ، وولّى عنه الحجاج بعد قتل ذريع كان في أصحابه حتى أحصى عددهم بالقضيب، فدخل الكوفة وتحصن في دار الإمارة، ودخل شبيب وأمه وزوجته غزالة الكوفة عند الصباح ، وقد كانت غزالة نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين تقرأ فيهما صورة البقرة وآل عمران، فأتوا الجامع في سبعين رجلاً ، فصلوا به الغداة ، وخرجت غزالة مما كانت أوجبته على نفسها .

فقال الناس بالكوفة في تلك السنة :

وفتِ الغزالة نذرَها يا رب لا تغفر لها

وكانت الغزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم ، وكذلك ام شبيب وقد كان عبد الملك — حين بلغه خبر هرب الحجاج ، وتحصنه في دار الامارة بالكوفة من شبيب — بعث من الشام بعساكر كثيرة عليها سفيان بن الابرد الكلبي لقتال شبيب ، فقدم على الحجاج بالكوفة ، فخرجوا الى شبيب فحاربوه فانهزم شبيب وقتلت الغزالة وامه ، ومضى شبيب في فوارس من اصحابه ، وأتبعه سفيان في أهل الشام ، فلحقه بالأهواز ، فولى شبيب ، فلما وصل الى

جسر [1] دجيل نَفَرَ به فرسه وعليه الحديد الثقيل من درع ومِغفر ، فألقاه في الماء ، فقال له بعض اصحابه : أغرقاً يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذلك تقدير العزيز العليم ، فألقاه دجيل ميتاً بشطه ، فحمل على البريد الى الحجاج ، فأمر الحجاج بشق بطنه واستخراج قلبه ، فاستخرج فاذا هو كالحجر اذا ضربت به الارض نبا عنها ، فشق فاذا في داخله قلب صغير كالكرة ، فشق فأصيب علقة الدم في داخله .

ابن القرية : وفي سنة اثنتين وثمانين قَتَلَ الحجاجُ ابن القَرّيَّة لخروجه مع ابن الاشعث ، وانشائه الكتب له ، ووضعه الصدور والخطب ، وكان ابن القرية من البلاغة والعلم والفصاحة بالموضع الموصوف ، وقد أتينا على خبر مقتله ، وما كان من كلامه مع الحجاج ، وقد كان قتله صبراً ، في الكتاب الأوسط ، وأن قتله اياه كان بالسيف ، وقيل : بل قدم اليه فضربه الحجاج بحربة في نحره فأتى عليه .

وابن القرية القائل: الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فأما العاقل فان الدين شريعته ، والحلم طبيعته [2] ، والرأي الحسن سجيته ، إن نطق أصاب ، وان كلم أجاب ، وان سمع العلم وَعى ، وان سمع الفقه روى ، واما الأحمق فان تكلم عجل ، وان حُدّث ذهل ، وإن حمل على القبيح حمل ، وأما الفاجر فإن استأمنته خانك ، وان صاحبته شانك ، وإن استكتم لم يكتم ، وان علم لم يعلم ، وان حدث لم يصدق ، وان فقه لم يفقه .

ليلى الاخيلية والحجاج : وذكر المدائني ان الحجاج لم يكن يظهر لندمائه منه بشاشة ولا سماحة في الخلق الا في يوم دخلت عليه ليلى الأخيلية فقال لها : لقد بلغني أنك مررت بقبر توبة بن الحمَيّر وعدلت عنه ، فوالله ما وفيت له ، ولو كان هو بمكانك وأنت بمكانه ما عدل عنك ، قالت : أصلح

---

١) في نسخة : « فلما صار على جسر دجيل نفر منه فرسه » .
٢) في نسخة : « والحكمة طبيعته » .

الله الأمير ! لي عذر ، قال : وما هو ؟ قالت : اني سمعته وهو يقول :

ولو ان ليلى الأخيلية سلّمت علي وفوقي جندل وصفائح
لسلّمت تسليم البشاشة او زقا اليها صدى من جانب القبر صائح

وكان معي نسوة قد سمعن قوله ، فكرهت أن اكذبه ، فاستحسن الحجاج قولها وقضى حوائجها ، وانبسط في عادتها ، فلم تُرَ منه بشاشة وأريحية داخلته مثل ذلك اليوم .

وذكر حماد الراوية غير هذا الوجه ، وهو ان زوج ليلى حلف عليها — وقد اجتازوا بقبر توبة ليلا — ان تنزل وتأتي قبره وتسلم عليه وتكذبه حيث يقول ، وذكر البيتين المتقدمين ؛ قال : وأبت أن تفعل ، فأقسم عليها زوجها ، فنزلت حتى جاءت الى القبر ودموعها على صدرها كفم السحاب ، فقالت : السلام عليك يا توبة ، فلم تستتم النداء[1] حتى انفرج القبر عن طائر كالحمامة البيضاء ، فضربت صدرها فوقعت ميتة ، فأخذوا في جهازها وكفنها ، ودفنت الى جانب قبره .

بعض عادات العرب : وللعرب فيما ذكرنا كلام كثير — على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في آرائهم ومذاهبهم في الهام والصدى والصَّفَر — وقد كانت العرب تعقل الى جانب قبر الميت اذا دفن ناقة، وتجعل عليه برذعة او حشية يسمونها البلية ، وقد ضربوا بذلك أمثالهم ، وذكره خطباؤهم في خطبهم ، فقالوا : البلايا على الولايا ، وقد كان بعضهم يتطير بالسانح ، ويتيامن بالبارح ، وبعضهم يضاد هذا ، فيتطير بالبارح ، ويتيامن بالسانح ، فأهل نجد يتيامنون بالسانح ، وأهل التهائم بالضد من ذلك ، على حسب ما قدمنا من قول عبيد الراعي فيما سلف من هذا الكتاب .

---

١) في نسخة : « فلم تستتم السلام » .

خطبة لعلي بن ابي طالب يعاتب اصحابه : حدثنا المنقري ، قال : حدثنا عبد العزيز بن الخطاب الكوفي ، قال : حدثنا فضيل بن مرزوق ، قال : لما غلب بُسر بن ارطاة على اليمن ، وكان من قبله لابني عبيدالله بن عباس ـ وكان لأهل مكة والمدينة واليمن ـ ما كان ، قام علي بن أبي طـالب رضي الله عنه خطيباً فحمد الله واثنى عليه ، وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ان بسر بن ارطاة قد غلب على اليمن ، والله ما أرى هؤلاء القوم الا سيغلبون على ما في أيديكم ، وما ذلك بحق في أيديهم ، ولكن بطاعتهم واستقامتهم لصاحبهم ، ومعصيتكم لي ، وتناصرهم وتخاذلكم ، واصلاح بلادهم وافساد بلادكم ، وتالله يا أهل الكوفة لوددت اني صرفتكم صرف الدنانير العشرة بواحد ، ثم رفع يديه فقال : اللهم اني قد مللتهم وملوني ، وسئمتهم وسئموني ، فابدلني بهم خيراً منهم ، وابدلهم بي شراً مـني ، اللهم عجل عليهم بالغلام الثقفي الذيال الميال ، يأكل خضرتها ، ويلبس فروتهـا ، ويحكم فيها بحكم الجاهلية : لا يقبل من محسنها ، ولا يتجـاوز عن مسيئها ، قال : وما كان ولد الحجاج يومئذ .

الحجاج يسأل عن النعمة : حدثنا الجوهري ، عن سليمان بن أبي شيـخ الواسطي ، عن محمد بن يزيد ، عن سفيان بن حسين ، قال : سأل الحجاج الجوهري : ما النعمة ؟ قال : الامن ، فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش ، قال : زدني ، قال : الصحة ، فاني رأيت السقيم لا ينتفع بعيش ، قـال : زدني ، قال : الشباب ، فاني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش ، قال : زدني ، قـال : الغنى ، فاني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش ، قـال : زدني ، قال : لا اجد مزيداً .

خطبة للحجاج وقد أرجف الناس بموته : حدثنا الجوهري ، عن مسلم بن أبراهيم ابي عمرو الفراهيدي ، عن الصلت بن دينار ، قال : مرض الحجاج

فأرجف به أهل الكوفة ، فلما تماثل من علته صعد المنبر وهو يتثنى على اعواده فقال : إن اهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان في مناخرهم فقالوا: مات الحجاج ، ومات الحجاج فمَه ؟ والله ما أرجو الخير كله الا بعد الموت ، وما رضي الله الخلود لأحد من خلقه في الدنيا إلا لأهونهم عليه ، وهو ابليس ، والله لقد قال العبد الصالح سليمان بن داود : ربِّ اغفر لي وهَبْ لي ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدي ، فكان ذلك ، ثم اضمحل فكأن لم يكن ، يا ايها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، كأني بكل حي ميتاً ، وبكل رطب يابساً ، وقد نقل كل امرىء بثياب طهره إلى حفرته ، فخُدَّ له في الأرض ثلاث أذرع طولاً في ذراعين عرضاً ، فأكلت الأرض لحمه ، ومَصَّت[1] من صديده ودمه ، وانقلب الحبيبان يقتسم أحدهما صاحبه : حبيبه من ولده يقتسم حبيبه من ماله ، أما الذين يعلمون فسيعلمون ما أقول ، والسلام .

خطبة للحجاج يهدد ويتوعد : حدثنا المنقري ، عن مسلم بن إبراهيم أبي عمرو الفراهيدي ، عن الصلت بن دينار قال : سمعت الحجاج يقول : قال الله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) فهذه لله ، وفيها مَثْنَوِية ، وقال : (واسمعوا وأطيعوا) وهذه لعبد الله وخليفة الله ونجيب الله عبد الملك ، أما والله لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب فدخلوا في غيره لكانت دماؤهم لي حلالاً ، عذيري من أهل هذه الحمراء ، يُلقي أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله ، لأجعلنهم كالرسم الداثر وكالأمس الغابر ، عذيري من عبد هُذَيل ، يقرأ القرآن كأنه رَجَزُ الأعراب أما والله لو أدركته لضربت عنقه ، يعني عبدالله بن مسعود ، عذيري من سليمان بن داود ، يقول لربه : (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) كان والله فيما علمت عبداً حسوداً بخيلاً .

---

١) في نسخة : « وضمت من صديده ودمه » .

الحجاج وعبد الله بن هانيء : وحدثنا المنقري ، عن عبيد بن أبي السرى ، عن محمد بن هشام بن السائب عن أبيه عن عبد الرحمن بن السائب ، قال : قال الحجاج يوماً لعبد الله بن هانيء وهو رجل من أود حي من اليمن ، وكان شريفاً في قومه ، وقد شهد مع الحجاج مشاهِدَه كلها ، وشهد معه تحريق البيت ، وكان من أنصاره وشيعته : والله ما كافأناك بعد ، ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة — وكان من فزارة — أن زوج عبد الله بن هانيء ابنتك ، فقال : لا والله ، ولا كرامة ، فدعا له بالسياط ، فقال : أنا أزوجه ، فزوجه ، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهمداني رئيس اليمانية أن زَوِّجْ عبدالله ابن هانيء ابنتك ، قال : ومن أود ؟ والله لا أزوجه ولا كرامة ، قال : هاتوا السيف ، قال : دعني حتى أشاور أهلي ، فشاورهم ، فقالوا : زوجه لا يقتلك هذا الفاسق ، فزوجه ، فقال له الحجاج : يا عبد الله ، قد زوجتك بنت سيد بني فزارة وابنة سيد همدان وعظيم كهلان ، وما أود هنالك ، فقال : لا تقل أصلح الله الأمير ذلك ، فإن لنا مناقب ما هي لأحد من العرب ، قال : وما هذه المناقب ؟ قال ما سُبَّ أمير المؤمنين عثمان في نادٍ لنا قط ، قال : هذه والله منقبة ، قال : وشهد منا صفين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً ، وما شهدها مع أبي تراب منا إلا رجل واحد ، وكان والله ما علمته امرأ سَوْء قال : وهذه والله منقبة ، قال : وما منا أحد تزوج امرأة تحب أبا تراب ولا تتولاه ، قال : وهذه والله منقبة ، قال وما منا امرأة إلا نذرت إن قتل الحسين أن تنحر عشر جزائر لها ، ففعلت ، قال : وهذه والله منقبة ، قال : وما منا رجل عرض عليه[1] شتم أبي تراب ولعنه إلا فعل ، وقال : وأزيدكم ابنيه الحسن والحسين وأمهما فاطمة ، قال: وهذه والله منقبة ، قال: وما أحد من العرب له من الملاحة والصباحة ما لنا ،

---

١) في نسخة : « وما منا رجل علم من أبيه » .

وضحك ، وكان دميماً شديد الأدمة مجدوراً في رأسه أعجر مائل الشدق أحْوَلَ قبيح الوجه وحش المنظر .

الحجاج والشعبي : حدثنا المنقري ، عن جعفر بن عمرو الحرصي ، عن مجدي بن رجاء ، قال : سمعت عمران بن مسلم بن أبي بكر الهذلي يقول : سمعت الشعبي يقول : أتى بي الحجاج موثقاً ، فلما دخلت عليه استقبلني يزيد ابن مسلم فقال : إنا لله يا شعبي ، على ما بين دفتيك من العلم ، وليس بيوم شفاعة ، بؤ للأمير بالشرك وبالنفاق على نفسك فبالحَرَى أن تنجو منه ، فلما دخلت عليه استقبلني محمد بن الحجاج فقال لي مثل مقالة يزيد ، فلما مثلت بين يدي الحجاج قال : وأنت يا شعبي فيمن خرج علينا وكثر ؟ قلت : نعم اصلح الله الامير ، أحزن بنا المبرك [1] ، واجدب بنا الجناب وضاق المسلك ، واكتحلنا السهاد ، واستحلسنا الخوف ، ووقعنا في فتنة [2] لم نكن فيها بَرَرَة أتقياء ولا فجَرة اقوياء ، قال : صدق ، والله ما بروا بخروجهم علينا ، ولا قووا اذ فجروا ، اطلقوا عنه ، قال الشعبي : ثم احتاج الى فريضة ، فقال : ما تقول في أخت وأم وجد ؟ قلت : اختلف فيها خمسة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبدالله ، وزيد ، وعلي ، وعثمان ، وابن عباس ، قال : فماذا قال فيها ابن عباس فلقد كان متقياً ؟ قلت : جعل الجد أباً ، وأعطى الأم الثلث ، ولم يعط الاخت شيئاً ، قال : فماذا قال فيها عبدالله ؟ قلت : جعلها من ستة ؛ فأعطى الاخت النصف ، وأعطى الأم السدس ، وأعطى الجد الثلث ، قال : فما قال فيها زيد ؟ قلت : جعلها من تسعة ؛ فأعطى الام ثلاثة ، وأعطى الاخت سهمين ، وأعطى الجد اربعة ، قال : فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان ؟ قلت : جعلها أثلاثاً ، قال : فما قال فيها أبو تراب ؟ قلت : جعلها من ستة ، أعطى الاخت النصف ، وأعطى

١) في نسخة : أحزن بنا المنزل . ٢) في نسخة : ووقعنا في خزية .

الام الثلث ، وأعطى الجد السدس ، قال : فضرب بيده على أنفه ، وقــال : انــه المرء لا يرغب عن قوله ثم قال للقاضي : أمِرَّها على مذهب امير المؤمنين عثمان .

الحجاج يريد الحج : حدثنا المنقري ، عن أبي عبــد الرحمن العتبي، عن أبيه قال : أراد الحجاج الحج فخطب الناس وقال : يا أهل العراق ، اني قد استعملت عليكم محمداً وبة الرغبة عنكم، اما انكم لا تستأهلونه ، وقد أوصيته فيكم بخلاف وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنصار ، فانه أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ، أما اني اذا وليت عنكم اعلم أنكم تقولون : لا احسن الله له الصحابة ، وما منعكم من تعجيله الا الفراق ، وأنا اعجل لكم الجواب ، لا أحسنَ الله عليكم الخلافة ، ثم نزل .

عبيد بن أبي المخارق يتولى عملا ويطلب المشورة : حدثنــا العتبي ، عن عبد الغني بن محمد بن جعفر ، عن الهيثم بن عــدي ، عن أبي عبد الرحمن الكناني ، عن ابن عباس الهمداني ، عن عبيد بن أبي المخارق ، قال : استعملني الحجاج على الفلوجة فقلت : أههنا دهقان يستمان برأيه ؟ فقالوا : جميل بن صهيب ، فأرسلت اليه ، فجاءني شيخ كبير قد سقطت حاجباه على عينيه ، فقال : أزعجتــني وأنا شيخ كبير ، قلت : أردت يُمنَك ، وبركتك ، ومشورتك ، فأمر بحاجبيه فرفعا بخرقة حرير ، وقال : ما حاجتك ؟قلت: استعملني الحجاج على الفلوجة وهو مما لا يؤمن شره ، فأشِرْ علي ، قال : أيما أحب اليك : رضا الحجاج ، أو رضا بيت المال ، أو رضا نفسك ؟ قلت : أحب أن أرضي كل هؤلاء وأخاف الحجاج فانه جبار عنيد ، قال : فاحفظ عني اربع خلال :- افتح بابك ولا يكن لك حاجب فيأتيك الرجل وهو على ثقة من لقائك ، وهو أجدر أن يخافك عمالك ، وأطِل الجلوس لأهل عملك ، فانه قلما أطال عامل الجلوس الا هيب مكانه، ولا يختلف حكمك بين الناس،

وليكن حكمك على الشريف والوضيع سواء ، ولا يطمع فيك أحد من أهل عملك ، ولا تقبل من اهل عملك هدية ، فان مهديها لا يرضى من ثوابهـا الا بأضعافها ، مع ما في ذلك من المقالة القبيحة ، ثم اسلخ ما بين أقفيتهم الى عجوب أذنابهم ، فيرضوا عنك ، ولا يكون للحجاج عليك سبيل .

حدث المنقري ، عن يوسف بن موسى القطان ، عن جرير ، عن المغيرة ، عن الربيع بن خالد ، قال : سمعت الحجاج يخطـب على المنبر وهو يقول : أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته ؟ فقلت : لله عليّ أن لا أصلي خلفك صلاة ابداً ، ولئن رأيت قوماً يجاهدونك لأقاتلنك معهم ، فقاتل في دير الجماجم حتى قتل .

الغضبان بن القبعثرى : حدث المنقري ، عن العتبي ، عن أبيه ، أن الحجاج وجّه الغضبان بن القبعثرى الى بلاد كرمان ليأتيه بخبر ابن الأشعث عند خلعه ، ففصّل من عنده ، فلما صار ببلاد كرمان ضرب خباءه ونزل ، فاذا هو بأعرابي قد أقبل عليه فقال : السلام عليك ، فقال الغضبان : كلمة مقولة ، قال له الأعرابي : من أين جئت ؟ قال : من ورائي ، قال : وأين تريد ؟ قال : أمامي ، قال : وعلامَ جئت ؟ قال : على فرسي ، قال : وفيم جئته ؟ قال : في ثيابي ، قـال : أتأذن لي أن أدنو اليك[1] قال : وراءك أوسع لك ، قال : والله مـا أريد طعامك ولا شرابك ، قال : لا تعرّض بهما فوالله لا تذوقها ، قال : أوليس عندك إلا ما أرى ؟ قال : بل هراوة من أرزن أضرب بها رأسك ، قال : إن الرمضاء قد أحرقت قدمي ، قال : بُلْ عليهما يبردان ، قال : فكيف ترى فرسي هذا ؟ قال : أراه خيراً من آخر شر منه وأرى آخر أفـرَهَ منه ، قـال : قد علمت هذا ، قال : لو علمته ما سألتني عنه فتركه الاعرابي وولى ، ثم دخل على عبد الرحمن بن الأشعث فقال : ما وراءك يا غضبان ؟ قال : الشر ، تغدّ بالحجاج قبل أن

---

١) في نسخة : أن أدخل اليك.

يتغشّى بك ، ثم صعد المنبر فخطب بمعايب الحجاج والبراءة منه ، ودخل مع ابن الأشعث في أمره ، فلم يلبث إلا قليلاً ثم أُسِرَ[١] ابن الاشعث ، فأخذ الغضبان فيمن أُسِرَ ، فلما أدخل على الحجاج قال: يا غضبان، كيف رأيت بلاد كرمان ؟ قال : أصلح الله الامير ، بلاد ماؤها وَشَل ، وتمرها دقل ، ولصها بطل ، والخيل بها ضعاف ، وإن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلوا ضاعوا ، قال : ألست صاحب الكلمة الخبيثة « تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشّى بك » ، قال : أصلح الله الامير ! ما نفعت من قِيلَتْ له ، ولا ضرت من قيلت فيه، قال : لأقطعنّ يديك ورجليك من خلاف ثم لأصلبنك ، قال : لا أرى الأمير أصلحه الله يفعل ذلك ، فأمر به فقُيِّد وأُلقي في السجن ، فأقام به حتى بنى الحجاج خضراء[٢] واسط ، فلما استتم بناءها جلس في صحنها ، وقال : كيف ترون قبتي هذه ؟ قالوا : ما بنى لخلق قبلك مثلها ، قال : فإن فيها مع ذلك عيباً فهل فيكم مخبري به ؟ قالوا : والله لا نرى بها عيباً ، فأمر بإحضار الغضبان ، فأتى به يرْسُف في قيوده ، فلما دخل عليه قال له الحجاج : أراك يا غضبان سميناً ، قال : أيها الامير القيد والرتعة ، ومن يكن ضيف الأمير يسمن ، قال : فكيف ترى قبتي هذه ؟ قال : أرى قبة ما بني لأحد مثلها إلا أن بها عيباً ، فإن أمنني الأمير أخبرته به ، قال : قل آمناً ، قال : بنيت في غير بلدك لغير ولدك لا تتمتع به ولا تنعم ، فما لما لا يتمتع فيه من طيب ولا لذة ، قال : رُدُّوه فإنه صاحب الكلمة الخبيثة، قال : أصلح الله الأمير ! إن الحديد قد أكل لحمي وبَرَى عظمي ، فقال : احملوه، فلما استقلّ به الرجال قال : (سُبْحَانَ الذي سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنينَ) قال : أنزلوه ، فلما استوى على الأرض قال : (اللهم أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) قال : جُرُّوه ، فلما جَرُّوه قال :

---

١) في نسخة : حتى أسر ابن الأشعث .
٢) « « : بني الحجاج قصر واسط فلما استتم بناءه جلس في صحنه .

(بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربي لغفور رحيم) قال : أطلقوا عنه .

حدث المنقري ، عن عبد الله بن[1] محمد بن حفص التميمي ، عن الحسين ابن عيسى الحنفي ، قال : لما هلك بشر بن مروان وولي الحجاج العراق بلغ ذلك أهل العراق ، فقام الغضبان بن القبعثرى الشيباني بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل العراق ، ويا أهل الكوفة ، إن عبد الملك قد ولّى عليكم مَنْ لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ، الظلوم الغشوم ، الحجاج ، ألا وإن لكم من عبد الملك منزلة بما كان منكم من خذلان مُصعب وقتله ، فاعترضوا هذا الخبيث في الطريق فاقتلوه ، فإن ذلك لا يعدُّ منكم خلعاً ، فإنه متى[2] يعلوكم عَلىَ متن منبركم وصدر سريركم وقاعة قصركم ، ثم قتلتموه عُدَّ خَلْعا ، فأطيعوني وتغدوا به قبل أن يتعشى بكم ، فقال له أهل الكوفة : جبنت يا غضبان ، بل ننتظر سيرته ، فإن رأينا منكراً غيرناه ، قال : ستعلمون .

فلما قدم الحجاج الكوفة بلغته مقالته ، فأمر به فحبس ، فأقام في حبسه ثلاث سنين ، حتى ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية : عشراً من النجائب ، وعشراً من قعد النكاح ، وعشراً من ذوات الأحلام ، فلما نظر إلى الكتاب لم يدر ما وصفه له من الجواري ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ! ينبغي أن يعرف هذا مَنْ كان في أوليته بدويا فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو ، ثم شرب الشراب فله بَذاء أهل الشراب ، قال : وأين هذا ؟ قيل : في حبسك ، قال : ومن هو ؟ قيل : الغضبان الشيباني ، فأحضر ، فلما مثل بين يديه قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتغدون بي قبل أن أتعشى بهم ، قال : أصلح الله الأمير ! ما نفعت من قالها ، ولا ضرت من

١) في نسخة : الحسن بن عيسى الحنفي . • ٢) في نسخة : فانه متى يغلبكم – الخ ...

قيلت فيه ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إليّ كتاباً لم أدْرِ ما فيه ، فهل عندك شيء[(١)] منه ؟ قال : يقرأ عليّ ، فقرىء عليه ، فقال : هذا بَيِّن ، قال : وما هو ؟ قال : أما النجيبة من النساء فالتي عظمت هامتها ، وطال عنقها ، وبعد ما بين منكبيها وثدييها ، واتسعت راحتها وثخنت ركبتها[(٢)] فهذه إذا جاءت بالولد جاءت به كالليث العادي وأما قعد النكاح فهنّ ذوات الأعجاز ، منكسرات الثُّدِيّ ، كثيرات اللحم ، يقرب بعضهن من بعض ، فأولئك يشفين القَرِم ، ويروين الظمآن ، وأما ذوات الأحلام فبنات خمس وثلاثين إلى الاربعين ، فتلك التي تبسه كما يبس الحالب الناقة[(٣)] فتستخرجه من كل شعر وظفر وعرق ؛ قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير ! شرهن الصغيرة الرقبة ، الحديدة الركبة ، السريعة الوَثْبة ، الواسطة في نساء الحي ، التي إذا غضبت غضب لها مائة ، وإذا سمعت كلمة قالت : لا والله لا انتهي حتى أقرها قرارها ، التي في بطنها جارية ، ويتبعها جارية ، وفي حجرها جارية ، قال الحجاج : على هذه لعنة الله ! ثم قال : ويحك ! فأخبرني بخير النساء ، قال : خيرهن القريبة القامة من السماء ، الكثيرة الأخذ من الأرض ، الودود الولود ، التي في بطنها غلام ، وفي حجرها غلام ، ويتبعها غلام ؛ قال : ويحك ! فأخبرني بشر الرجال ، قال : شرهم السبوط الربوط ، المحمود في حرم الحي ، الذي إذا سقط لإحداهن دلو في بئر انحطّ عليه حتى يخرجه ، فهن يجزينه الخير أو يقلن : عافى الله فلاناً ، قال : على هذا لعنة الله ! فأخبرني بخير الرجال ، قال خيرهم الذي يقول فيه الشماخ التغلبي :

فتى ليس بالرّاضي بأدنى معيشة ... ولا في بيوت الحي بالمتولّج
فتى يملأ الشِّيزَى ويروي سنانه ... ويضرب في رأس الكمي المدجّج

١) في نسخة : فهل عندك فيه شيء .
٢) في نسخة : ودقت ركبتها .
٣) في نسخة : فتلك التي يسنّ كما يسن الحالب الناقة .

فقال له : حسبك ، كم حبَسنا عطاءك ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها وتخلّى سبيله .

وصف البصرة والكوفة : حدث المنقري عن محمد بن أبي السرى ، عن هشام بن محمد بن السائب ، عن ابي عبدالله النخعي ، قال : لما فرغ الحجاج من دير الجماجم وفد على عبد الملك ومعه أشراف أهل المصرين فأدخلهم عليه ، فبينا هم عنده يوماً اذ تذاكروا البلدان ، فقال محمد بن عمير بن عطارد : أصلح الله الامير ! ان الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها ، وسفلت عن الشام ووبائها وبردها ، وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها ؛ وقال خالد بن صفوان الاهتمي : أصلح الله الامير ! نحن أوسع منهم برية ، وأسرع منهم في السرية ، وأكثر منهم قنداً وعاجاً وساجاً[1] ، ماؤنا صفو ، وخيرنا عفو لا يخرج من عندنا الا قائد وسائق وناعق ، فقال الحجاج: اصلح الله امير المؤمنين ! اني بالبلدين خبير ، وقد وطئتها جميعاً ، فقال له : قل فأنت عندنا مصدق ، فقال : اما البصرة فعجوز شمطاء دفراء بخراء أوتيت من كل حلي وزينة ، وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة ، لا حلي لها ولا زينة ؛ فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة .

الحجاج يصف الدنيا : حدث المنقري عن عمرو بن الحباب الباهلي ، عن اسماعيل بن خالد ، قال : سمعت الشعبي يقول : سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه اليه احد ، سمعته يقول : أما بعد فإن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا من غائب الآخرة ، فطول الامل يقصر الاجل .

رسول المهلب الى الحجاج : حدث المنقري عن سهل بن تمام بن بزيع[2]

---

١) في نسخة : قندا وعاجا وبأسا . ٢) في نسخة : سهل بن تمام بن بديع .

عن عباد بن حبيب بن المهلب عن ابيه قال : لما قتل المهلب عبد ربه بن الصغير بكرمان قال : ائتوني برجل له بيان وعقل ومعرفة أوجهه الى الحجاج برؤوس من قتلنا ، فدلوه على بشر بن مالك الجرشي ، فلما دخل على الحجاج قال : ما اسمك ؟ قال : بشر بن مالك الجرشي ، قال : كيف تركت المهلب؟ قال : تركته صالحاً نال ما رجا وأمن ما خاف ، قال : فكيف فاتكم قطري؟ قال : كادنا من حيث كدناه ، قال : أفلا طلبتموه ؟ قال : كان فلًّا ، وكان الجد علينا أهم من الفل[1] ، قال : أصبتم ، فكيف كان بنو المهلب ؟ قال : كانوا اعداء البيات حتى يأمنوا ، وأصحاب السرج حتى يردوا ، قال : اجل ، فأيهم أفضل ؟ قال : ذاك الى ابيهم أيهم شاء ان يستكفيه أمراً كفاه ، قال : اني ارى لك عقلاً فقل ، قال : هم كالحلقة المستوية[2] لا يدرى أين طرفها ، قال : اين هم من أبيهم ؟ قال : فضله عليهم كفضلهم على سائر الناس ، قال : كيف كان الجند ؟ قال : ارضاهم الحق ، وأشبعهم الفضل ، وكانوا مع وال يقاتل بهم مقاتلة الصعلوك ويسوسهم سياسة الملوك ، فله منهم برّ الاولاد ، ولهم منه شفقة الوالد ، قال : هل كنت هيأت ما أرى ؟ قال: لا يعلم الغيب الا الله ، قال : فالتفت الحجاج الى عنبسة فقال : هذا الكلام المطبوع[3] لا الكلام المصنوع .

الحجاج وجرير بن الخطفى : وأخذ الحجاج بن جرير بن الخَطَفَى ، فأراد قتله ، فمشى اليه قومه من مضر فقالوا : اصلح الله الامير ! لسان مضر وشاعرها ، هَبْهُ لنا ، فوهبه لهم .

وكانت هند بنت أسماء زوج الحجاج ممن طالب به ، فقالت للحجاج : أتأذن لجرير عليّ يوماً استنشده من وراء حجاب ؟ فقال لها : نعم ، فأمرت بمجلس لها فهيء فجلست فيه والحجاج معها ، ثم بعث الى جرير ، فدخل

---

١) في نسخة : قال كان الحمد أهم علينا من القتل .
٢) « « : هم كالحلقة المفرغة .
٣) في نسخة : هذا الكلام الخالق .

عليها يسمع كلامها ولا يراها ، فقالت : يا ابن الخطفى ، انشدني ما شببت به في النساء ، فقال لها : ما شببت بامرأة قط ، ولا خلق الله شيئاً هو أبغض الي من النساء ، قالت : يا عدو الله ، وأين قولك :

طرقتْكَ صائدة القلوب وليس ذا — وقت الزيارة فارْجعي بسلام
تجري السواك على أغرَّ كأنه — بَرَدٌ تحدَّر من مُتون غمام [١]
لو كنت صادقة بما حدثتنا — لوصلت ذاك فكان غير لمام [٢]
سرت الهموم فبتن غير نيام — وأخو الهموم يروم كل مرام

قال : ما قلت هذا ، ولكني أنا الذي أقول :

لقد جرّد الحجاج للحق سيفه — ألا فاستقيموا لا يميلَنّ مائل
وما يستوي داعي الضلالة والهُدى — ولا حجّةُ الخصمين حق وباطل

قالت : دع عنك هذا ، فأين قولك :

خليليّ لا تستغزرا الدمعَ في هند — أعيذكما بالله أن تجدا وجدي [٣]
ظمئت إلى شرب الشراب وحسنه — كذي قرية يرجو هداها ومايجدي [٤]

قال لها : ما قلت هذا ، ولكني أنا الذي أقول :

ومن يأمن الحجاج ؟ أما عقابه — فمرٌ ، وأما عقدُه فوثيق
يُسِرُّ لك البغضاء كلُّ منافق — كما كل ذي بر عليك شفيق

قالت : دع عنك هذا ، فأين قولك :

يا عاذليّ دعا الملام وأقصِرا — طال الهوى وأطلتما التفنيدا
إني وجدت ، ولو أردت زيادة — في الحب عندي ما وجدت مزيدا

---

١) البرد — بفتح الباء والراء — : حب الغمام ، يشبهون به الأسنان .
٢) في نسخة : وكان غير لمام .
٣) في نسخة : من هند . ولا تستغزرا : أي لا تجداه غزيرا ، أي كثيراً .
٤) في نسخة : كذي منية يرجو جداها وما يجدي .

فقال : باطل أصلحك الله ، ولكني أنا الذي أقول :

من سدَّ مُطّلع النفاق عليهمُ أم من يصول كصولة الحجاج ؟
أم من يغار على النساء حفيظةً إذ لا يثقن بغيرة الأزواج !
هذا ابن يوسف فافهموا وتفهموا بَرِح الخفاء وليس حيث يفاجي [1]
فلربَّ ناكث بيعتين تركته وخضابُ لحيته دَمُ الأوداج

فقال الحجاج : يا عدو الله ، تحرض عليَّ النساء ؟ فقال: لا والذي أكرمك أيها الأمير ، ما فطنت لهذا البيت قبل ساعتي هذه ، وما علمت بمكانك ، فأقلني جعلني الله فداك ، قال : قد فعلت ، فأمرت له هند بجارية وكسوة، وأوفده الحجاج على عبد الملك .

بين الحجاج وأعشى همدان : ولما انهزم ابن الاشعث بدير الجماجم حلف الحجاج أن لا يؤتى بأسير الا ضرب عنقه ، فأتي بأسرى كثيرة ، وكان أول من أتي بـه أعشى همدان الشاعر ، وهو أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الاشعث بسجستان ، فقال له الحجاج : إيه أنت القائل :

مَن مُبلغ الحجاج انيّ قد جنيت عليه حربا
وصفقت في كف امرىء جلد إذا ما الأمر عبّ [2]
أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كعبا
فابعث عطية بالخيول يكبُّهُنَّ عليه كبّا
وانهض هُديت لعله يجلو بك الرحمن كربا
نبئت أن بني يوسف خرَّ من زَلَق فتبا

---

١) كذا في بعض النسخ ، وهو تخليط في الرواية وتحريف في الكلام ، وصوابه :
هذا ابن يوسف فافهموا وتيقنوا ماضي البصيرة واضح المنهاج
فاستوثقوا وتبينوا سبل الهدى ودعوا النجي فليس حين تناج
٢) في نسخة : ووضعت في كف امرىء .

وهي أبيات ، وأنت القائل :

شطت نوى مَن دارُه الإيوانُ   إيوان كسرى ذي القرى والريحان
من عاشق أمسى بزابلستان   إن ثقيفاً منهم الكذّابانْ
كذابُها الماضي وكذاب ثان   أمكن ربي من ثقيف همْدانْ
يوماً من الليل يسلي ما كان

وانت القائل :

وسألتماني المجد أين محله   فالمجد بين محمد وسعيد(١)
بين الأشجّ وبين قيس باذخ   بخ بخ لوالده وللمولود

قال : لا ، ولكني الذي أقول :

أبى الله إلا أن يتمم نوره   ويُطفىء نور الفقعتين فيخمدا
وينزل ذلّاً بالعراق وأهله   بما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وضلالة   من القول لم يصعد الى الله مصعدا

قال : لسنا نحمدك على هذا القول ، إنما قلته تأسفاً على أن لا تكون ظفرت وظهرت ، وتحريضاً لأصحابك علينا ، وليس عن هذا سألتك ، اخبرني عن قولك :

أمكن ربي من ثقيف همدان   يوماً من الليل يسلي ما كان

فكيف ترى الله أمكن ثقيفاً من همدان ، ولم يمكن همدان من ثقيف ؟ وعن قولك :

بين الأشجّ وبين قيس باذخ   بخ بخ لوالده وللمولود

والله لا تبخبخ لأحد بعدها ، وأمر به فضربت عنقه .

ولم يزل يؤتى برجل رجل حتى أتي برجل من بني عامر، وكان من فرسان الجماجم مع ابن الاشعث ، فقال له: والله لأقتلنك شر قتلة ، قال : والله ما

١) في نسخة : وسألتم في الجد .

ذلك لك ، قال : ولم ؟ قال : لأن الله يقول في كتابه العزيز : (فـإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقـاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما مناً بعد وإمـــا فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها) وأنت قد قتلت فأثخنت ، وأسرت فأوثقت ، فإما أن تمن علينا أو تفدينا عشائرنا ، فقـال له الحجاج : أكفرت ؟ قـــال : نعم ، وغيرتُ وبدلتُ ، قـال : خلوا سبيـــله .

ثم أتي برجل من ثقيف فقال له الحجاج : أكفرت ؟ قال : نعم ، قال له الحجاج : لكن هذا الذي خلـْفك لم يكفر ، وَخلـْفه رجل من السّكون ، فقال السّكـُوني : أعن نفسي تخادعني ؟ بلى والله ولو كان شيء أشد من الكفر لبؤت به ، فخلـّى سبيلهما .

فهذه جمل من أخبار عبد الملك والحجاج ، وقد أتينا على مبسوط هـذه الأخبار مما لم نورده في هذا الكتاب في كتابينا «أخبار الزمان » و«الأوسط» التالي له الذي كتابنا هذا تاليه ، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار الحجاج لمعاً ، على حسب ما قدمنا من الشرط فيما سلف من هذا الكتاب ، وبالله العون والقوة .

ذكر

أيام الوليد بن عبد الملك

موجز : وبويع الوليد بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي توفي فيه عبد الملك ، وتوفي الوليد بدمشق للنصف من جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين؛ فكانت ولايته تسع سنين وثمانية أشهر وليلتين ، وهلـــك وهو ابن ثلاث وأربعين سنة [1] ، وكان يكنى بأبي العباس .

---

(١) في نسخة « وهلك وهو ابن أربع وأربعين سنة » .

ذكر

لمع من أخباره ، وسيره

وما كان من الحجاج في أيامه

خلق الوليد وولده : كان الوليد جباراً عنيداً ، ظلوماً غشوماً ، وخلف من الولد أربعة عشر ذكراً منهم يزيد ، وعمرو ، وبشر العالم ، والعباس ، وكان يدعى فارس بني مروان لشهامته ، فعدل الوليد بالأمر عن ولده بعده اتباعاً لوصية عبد الملك على حسب ما رتبها ، وكان نقش خاتمه « يا وليد إنك ميت » فكان كلما همّ أن يجعل الأمر لولده قلب الفصّ وقرأ « إنك ميت » فيقول : لاها الله ، لا خالفت ما أمرني به أبي ، إني لميت .

بناء مسجدي دمشق والمدينة : وفي سنة سبع[1] وثمانين ابتدأ الوليد ببناء المسجد الجامع بدمشق ، وبناء مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فأنفق عليها الأموال الجليلة ، وكان المتولي للنفقة على ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .

وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحاً من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب ، فلم يقدروا على قراءته ، فوجّه به الى وهب بن منبّه ، فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، فقرأه فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا ابن آدم ، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك ، لزهدت فيما بقي من طول أملك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وإنما تلقى ندمك ، اذا زلّت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وانصرف عنك الحبيب ، وودعك القريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت الى أهلك عائد ، ولا في عملك زائد فاغتنم الحياة قبل الموت ، والقوة قبل

---

(١) في نسخة « تسع وثمانين »

الفوت ، وقبل أن يؤخذ منك بالكَظْم ، ويحال بينك وبين العمل؛ وكتب زَمَنَ سليمان بن داود ؛ فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد في حائط المسجد : ربنا الله ، لا نعبد إلا الله ، أمر ببناء هذا المسجد، وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبدُ الله الوليدُ أميرُ المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين، وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق الى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

بين الوليد والحجاج : ووفد الحجاج بن يوسف على الوليد ، فوجده في بعض نُزَهه ، فاستقبله ، فلما رآه ترجَّلَ له ، وقبَّلَ يده ، وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية ، فقال له الوليد : اركب يا أبا محمد ، فقال : دعني يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ؛ فإن ابن الزبير وابن الاشعث شغلاني عنك ، فعزم عليه الوليد حتى ركب ، ودخل الوليد داره ، وتفضل في غلالة ، ثم أذن للحجاج فدخل عليه في حاله تلك وأطال الجلوس عنده ، فبينا هو يحادثه اذ جاءت جارية فسارّت الوليد ومضت ، ثم عادت فسارته ثم انصرفت ، فقال الوليد للحجاج : أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد ؟ قال: لا والله ، قال : بعثتها اليّ ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول : ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة ؟ فأرسلت اليها إنه الحجاج ، فراعها ذلك ، وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق ، فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ، دَعْ عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعهن على سرك ، ولا مكايدة عدوك ، ولا تُطمِعْهن في غير أنفسهن ، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن، وإياك ومشاورتهن في الأمور فإن رأيهن الى أفَنٍ ، وعزمهُنّ الى وهْنٍ ، واكفف عليهن من أبصارهن بحُجبك ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن والخلوة بهن،فإن ذلك أوفر لعقلك وأبيَنُ لفضلك ، ثم نهض الحجاج فخرج.

بين الحجاج وام البنين : ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج، فقالت : يا أمير المؤمنين أحبُّ أن تأمره غداً بالتسليم عليّ ، فقال : أفعل، فلما غدا الحجاج على الوليد قال له : يا أبا محمد ، سر الى أم البنين فسلم عليها، فقال : أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال: لا بد من ذلك ، فمضى الحجاج اليها ، فحجبته طويلا ، ثم أذنت له فأقرته قائما ، ولم تأذن له في الجلوس، ثم قالت : إيه يا حجاج ، انت الممتَنُّ[1] على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟ أما والله لولا أن الله جعلك أهْوَنَ خلقه[2] ما ابتلاك برمي الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات النِّطاقين ، وأول مولود ولد في الإسلام ، وأما ابن الاشعث فقد والله والى عليك الهزائم ، حتى لُذْتَ بأمير المؤمنين عبد الملك فاغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من القرن ، فأظَلَّتْك رماحهم وأنجاك كفاحهم وطالما نفض نساء امير المؤمنين المسك من غدائرهن وبعنه في الأسواق في أرزاق البعوث اليك ، ولولا ذلك لكنت أذل من النَّقَد ، وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فإن كنَّ ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقَّه بالأخذ عنكَ والقبول منك ، وإن كنَّ ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ولا مُصْغٍ الى نصيحتك ، قاتل الله الشاعر وقد نظر اليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول :

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة ... فزعاء تفزع من صفير الصافر[3]
هلا برَزْتَ إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحيْ طائر

ثم قالت لجواريها أخرجنَهُ عني ، فدخل الى الوليد من فوره ، فقال له : يا أبا محمد ما كنت فيه ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما سكتتْ حتى كان

---

١) في نسخة : أنت المصر على أمير المؤمنين .
٢) في « » : لولا أن الله علم أنك أهون خلقه .
٣) كذا في نسخة ، والمحفوظ في عجزه : فتخاء تنفر من صفير الصافر .

بطن الأرض أحب الي من ظاهرها ، فضحك الوليد حتى فحص برجله ، ثم قال : يا أبا محمد ، إنها بنت عبد العزيز .

ولأم البنين هذه أخبار كثيرة في الجود وغيره ، وقد أتينا على ذكرها في غير هذا الكتاب .

موت علي بن الحسين السجاد : وفي سنة خمس وتسعين قبض علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في ملك الوليد ، ودفن بالمدينة في بقيع الغرقد مع عمه الحسن بن علي ، وهو ابن سبع وخمسين سنة ، ويقال : إنه قبض سنة أربع وتسعين،وكل عقب[١] الحسين من علي ابن الحسين هذا وهو السجاد على ما ذكرنا ، وذو الثفنات وزين العابدين .

موت عبد الملك بن مروان : وذكر المدائني قال : دخل الوليد على أبيه عبد الملك عند وفاته ، فجعل يبكي عليه وقال : كيف أصبح أمير المؤمنين ؟ فقال عبد الملك :

ومشتغل عنا يريد بنا الردى ومستعبرات والعيون سواجم[٢]

أشار بالمصراع الأول الى الوليد ، ثم حوّل وجهه عنه ، واشار بالمصراع الثاني إلى نسائه ، ومن المستعبرات .

وذكر العتبي وغيره من الأخباريين أن عبد الملك لما سأله الوليد عن خبره وهو يجود بنفسه أنشأ يقول :

كم عائد رجلا وليس يعوده إلا لينظر هل يراه يموت

وقيل : إن عبد الملك نظر إلى الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه فقال : يا هذا ، احنين الحمامة ؟ إذا أنا متُّ فشمر واتزرْ ، والبس جلد نمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فمن ابدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه ، ومن سكت

---

١) في نسخة : وكان عقب الحسين .
٢) « « : والعيون سواجع .

مات بدائه ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا فقال : إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لقليل ، وان كنا منك لفي غرور ، ثم اقبل على جميع ولده فقال : أوصيكم بتقوى الله فإنها عصمة باقية ، وجُنّة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهي احصن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميل الأمور ، واياكم والبغي والتحاسد ، فبها هلك الملوك الماضون ، وذوو العز المكين ، يا بنيّ اخوكم مسلمة نابكم الذي تفترون عنه ، ومجنكم الذي تستجنون به ، اصدُروا عن رأيه ، واكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم هذا الأمر ، وكونوا أولادا ابراراً ، وفي الحروب احراراً ، وللمعروف مناراً ، وعليكم السلام .

وسأله بعض شيوخ بني أمية ـ وقد فرغ من وصية اولاده هذه ـ قال : كيف تجدك يا أمير المؤمنين : قال : كما قال الله عز وجل : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) الى قوله (وما كنتم تزعمون) فكان هذا آخر كلام سمع منه .

فلما قضى سجّاه الوليد ، ثم صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : لم أر مثلها مصيبة ، ولا مثلها نعمة ، فقدت الخليفة ، وتقلدت الخلافة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على المصيبة ، والحمد لله رب العالمين على النعمة ، ثم دعا الناس الى بيعته فبايعوا ، ولم يختلف عليه أحد .

موت عبيد الله بن العباس : ومات في أيام الوليد عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ؛ وذلك في سنة سبع وثمانين ، وكان جواداً كريماً ، وذكر أن سائلا وقف عليه فقال له : تصدق مما رزقك الله ؛ فإني نبئت ان عبيد الله بن العباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر اليه ، فقـــال : وأين أنا من عبيد الله ؟ قال له : وأين أنت منه في الحسب أم في كثرة المال ؟ قال : فيهما

جيماً ، قال : إن الحسب في الرجل مروءته وحسن فعله ، فإذا فعلت ذلك كنت حسيباً ، فأعطاه ألفي درهم واعتذر اليه ، فقال له السائل : إن لم تكن عبيد الله فأنت خير منه ، وإن كنت هـو فأنت اليوم خير منك أمس ، فأعطاه ألفاً أيضاً ، فقال : لئن كنت عبيد الله إنك لأسمح أهل دهرك ، وما إخالك إلا من رهطٍ فيهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسألك بالله أأنت هو ؟ قال : نعم ، قال : والله ما اخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحي ، وإلا فهذه الصورة الجميلة والهيئة المنيرة لا تكون إلا في نبي أو عترة نبي .

وذكر أن معاوية وصله بخمسمائة ألف درهم ، ثم وجّه له من يتعرّف له خبره فانصرف اليه فاعلمه أنه قسمها في سُمّاره وإخوانه حصصاً بالسوية ، وأبقى لنفسه مثل نصيب أحدهم ، فقال معاوية : إن ذلك ليسوءني ويسرني ، فأما الذي يسرني فإن عبد مناف والده ، وأما الذي يسوءني فقرابته من أبي تراب دوني .

قال المسعودي : وقد قدمنا خبر مقتل ابني عبيد الله فيما سلف من هـذا الكتاب ، وهما عبد الرحمن وقُثَم ، وما رثتهما به أمهما أم حكيم جويرية بنت فارط [١] بن خالد الكنانية .

عبيد الله بن العباس وبسر بن أرطاة : وقد كان عبيد الله بن العباس دخل يوماً على معاوية وعنده قاتلهما بُسْرُ بن أرطاة العامري ، فقال له عبيد الله : أيها الشيخ أنت قاتل الصبيين ؟ قال : نعم ، قال والله لوددت : أن الأرض أنبتتني عندك يومئذٍ ، فقال له بسر : فقد أنبتتك الساعة ، فقال عبيد الله : ألا سيف ، فقال بسر : هاك سيفي ، فلما هوى عبيد الله الى السيف ليتناوله قبض معاوية ومَن حضره على يد عبيد الله قبل أن يقبض على السيف ، ثم أقبـل

---

١) في نسخة : « جويرية بنت قارظ » .

معاوية على بسر فقال : أخزاك الله من شيخ ! قد كبرت وذهل عقلك ، تعمد الى رجل موتور من بني هاشم فتدفع اليه سيفك ، إنك لغافل عن قلوب بني هاشم ، والله لو تمكن من السيف لبدأ بنا قبلك ، قال عبيد الله : ذلك والله أردت .

وكان علي عليه السلام – حين أتاه خبر قتل بسر لابني عبيد الله قثم وعبد الرحمن – دعا على بسر ، فقال : اللهم اسلبه دينه وعقله ، فخرف الشيخ حتى ذهل عقله ، واشتهر بالسيف فكان لا يفارقه ، فجعل له سيف من خشب ، وجعل بين يديه زق منفوخ يضربه ، وكلما تخرق أبدل ، فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف ، حتى مات ذاهل العقل يلعب بخرئه [١] ، وربما كان يتناول منه ثم يقبل على من يراه فيقول : انظروا كيف يطعمني هذان الغلامان ابنا عبيد الله ؟ وكان ربما شدت يداه الى وراء منعاً من ذلك ، فأنجى ذات يوم في مكانه ، ثم أهوى بفيه فتناول منه : فبادروا الى منعه ، فقال : أنتم تمنعونني وعبد الرحمن وقثم يطعمانني ، ومات بسر في أيام الوليد بن عبد الملك سنة ست وثمانين .

موت عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي : وفيها مات عبد الله بن عتبة ابن مسعود الهذلي ، وعتبة مهاجر ، وهو أخو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح بن مخزوم بن صبح بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ، وكانت الرياسة في الجاهلية في صبح [٢] بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل ، وكان عبيد الله ولد عبد الله بن عتبة من كبار أهل العلم ، وذكر ابن أبي خيثمة قال : سمعت ابن الأصبهاني يقول : قال سفيان : قال الزهري : كنت أظن أني نلت من العلم ، حتى جالست عبيد الله بن عبد الله فكأنما هو البحر .

---

١) في نسخة « يلعب بنجوه » .
٢) « « : صبيح .

مقتل سعيد بن جبير : وفي سنة أربع وتسعين قَتَلَ الحجاج سعيد بن جبير ، فذكر عون بن أبي راشد العبدي قال : لما ظفر الحجاج بسعيد بن جبير وأوصل إليه قال له : ما اسمك ؟ قال : اسمي سعيد بن جبير ، قال : بل شقي بن كسير ، قال : أبي كان أعلم باسمي منك ، قال : لقد شقيت وشقي أبوك ، قال له : الغيب إنما يعلمه غيرك ، قال : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ، قال : لو علمت أن ذلك بيدك ما اتخذت إلهاً غيرك ، قال : فما قولك في الخلفاء ؟ قال : لست عليهم بوكيل ، قال : فاختر أي قتلة تريد أن أقتلك ، قال : بل اختر يا شقي لنفسك ، فوالله ما تقتلني اليوم بقتلة إلا قتلتك في الآخرة بمثلها ، فأمر به الحجاج ، فأخرج ليقتل ، فلما ولى ضحك ، فأمر الحجاج برده ، وسأله عن ضحكه ، فقال : عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عنك ، فأمر به فذبح ، فلما كب لوجهه[1] قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الحجاج غير مؤمن بالله ثم قال : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدي ، فذبح واحتز رأسه .

ولم يعش الحجاج بعده إلا خمس عشرة ليلة حتى وقعت في جوفه الأكلة فمات من ذلك ، ويروى أنه كان يقول بعد قتل سعيد : يا قوم ما لي ولسعيد ابن جبير ؟ كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي .

بين الوليد وأخيه سليمان : واشتكى الوليد ، فبلغه عن أخيه سليمان تمنٍّ لموته[2] لما له من العهد بعده ، فكتب إليه الوليد يعتب عليه الذي بلغه ، وكتب في آخر كتابه هذه الأبيات :

تمنى رجال أن أموت، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ
لعل الذي يرجو فنائي ويدعي به قبل موتي أن يكون هو الردي

---

١) في نسخة « فلما كب على وجهه » .
٢) « « : أنه تمنى لموته .

فما موت مَنْ قد مات قبلي بضائري
ولا عيش من قد عاش بعدي بمُخْلِدِي
فقل للذي يرجو خـــلاف الذي مضى
تَزَوَّدْ لأخرَى غيرها فكأنْ قَدِ
منيته تجري لوقت ، وَحَتْفُهُ سيلحقه يوماً على غير موعدِ

فأجابه سليمان : فهمت ما قال أمـــير المؤمنين ، ووالله لئن كنت تمنيت ذلك لما يخطر بالبال إني لأول لاحِقٍ به ومنعيٌّ إلى أهله ، فعلام أتمنى زوال مدة لا يلبث متمنيها إلا بقدر ما يحل السفر بمنزل ثم يظعنون عنه ؟ وقـــد بلغ أميرَ المؤمنين مـــا لم يظهر من لفظي ، ولا يرى من لحظي ، ومتى سمع أمير المؤمنين من أهل النميمة ومن ليست له روية[١] أوشك أن يسرع في فساد النيات ، ويقطع بين ذوي الأرحام والقرابات ، وكتب في أسفل الكتاب:

ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يَمُتْ وهو عاتب[٢]
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة يجِدْها ولم يسلم له الدهر صاحب[٣]

فكتب إليه الوليد : ما أحسن ما اعتذرت به ، وحذوت عليه ، وأنت الصادق في المقال ، والكامل في الفعال ، وما شيء أشبه بك من اعتذارك ، ولا أبعد مما قيل فيك ، والسلام .

وكان الوليد متحنناً على إخوته ، مراعياً لسائر ما أوصاه به عبد الملك ، وكان كثير الإنشاد لأبيات قالها عبد الملك حين كتب اليه بوصيته منها :

انفُوا الضغائن عنكُمُ وعليكم عند المغيب وفي حضور المشهدِ
فصلاح ذات البين طول بقائكم إن مُدَّ في عمري وإن لم يمدد

---

١) في نسخة « ومن ليست له رواية » .
٢) « « : ومن لم يغمض .
٣) « « : ولا يسلم له الدهر صاحب .

فلمثل ريب الدهر ألّفَ بينكم ... بتواصل وتراحم وتودد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم ... بمسوّدٍ منكم وغير مسود
إن القداح إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حَنَقٍ وبطش باليد
عزّت فلم تكسر، وإن هي بُدّدت ... فالوهن والتكسير للمتبدد

وصية عبد الملك لأولاده : وكان عبد الملك مواظباً على حث أولاده على اصطناع المعروف ، وبعثهم على مكارم الاخلاق ، وقال لهم: يا بني عبد الملك أحسابكم أحسابكم ، صونوها ببذل أموالكم ، فما يبالي رجل منكم ما قيل فيه من الهجو بعد قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم ... وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وما يبالي قوم ما قيل فيهم من المدح بعد قول زهير :

على مكثريهم حقٌ من يعتريهم ... وعند المقلين السماحةُ والبذلُ

حدث عبدالله بن إسحاق بن سلام ، عن محمد بن حبيب ، قال : صعد الوليد المنبر فسمع صوت ناقوس ، فقال : ما هذا ؟ قيل : البيعة ، فأمر بهدمها ، وتولى بعض ذلك بيده، فتتابع الناس يهدمون ، فكتب إليه الأخرم ملك الروم : إن هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك ، فإن يكونوا أصابوا فقد أخطأت ، وإن تكن أصبت فقد أخطأوا ، فقال : مَنْ يجيبه ؟ فقال الفرزدق : أنا ، فكتب إليه (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكماً وعلماً) .

موت الحجاج : ومات الحجاج في سنة خمس وتسعين ، وهو ابن أربع وخمسين سنة بواسط العراق ، وكان تأمرُه على الناس عشرين سنة ، وأحصي من قتله صبرا سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفاً ، ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة

عشر ألفاً مجردة ، وكان يحبس[1] النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء ، وكان له غير ذلك من العذاب ما أتينا على وصفه في الكتاب الأوسط .

وذكر أنه ركب يوماً يريد الجمعة ، فسمع ضجة ، فقال : ما هذا ؟ فقيل له : المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء ، فالتفت الى ناحيتهم وقال : (اخسأوا فيها ولا تكلمون) فيقال : إنه مات في تلك الجمعة ، ولم يركب بعد تلك الركبة .

قال المسعودي : ووجدت في كتاب عيون البلاغات مما اختير من كلام الحجاج قوله : ما سلبت نعمة إلا بكفرها ، ولا نَمَتْ إلا بشكرها .

وقد كان الحجاج تزوج الى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب حين أملَقَ عبدُ الله وافتقر ، وقد ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » الخبر في ذلك ، وتهنئة بن القِرِّية الحجاج بذلك .

موت عبد الله بن جعفر : وقد كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من الجود بالموضع المعروف ، ولما قل ماله سمع يوم الجمعة[2] في المسجد الجامع وهو يقول : اللهم إنك قد عودتني عادة فعودتها عبادك ، فإن قطعتها عني فلا تبقني ، فمات في تلك الجمعة ، وذلك في أيام عبد الملك بن مروان وصلى عليه أبانُ بن عثمان بمكة؛ وقيل : بالمدينة ، وهي السنة التي كان بها السيل الجحاف الذي بلغ الركن وذهب بكثير من الحجاج .

وفي هذه السنة كان الطاعون العامُّ بالعراق والشام ومصر والجزيرة والحجاز وهي سنة ثمانين .

وقبض عبد الله بن جعفر وهو ابن سبع وستين ، وولد بالحبشة حين هاجر جعفر الى هنالك ، وقيل : ان مولده كان في السنة التي قبض فيها النبي صلى

---

١) في نسخة « وقد كان محبس النساء والرجال »
٢) « « : في يوم جمعة .

الله عليه وسلم ، وقيل غير ذلك .

وذكر المبرد والمدائني والعتبي وغيرهم من الأخباريين أن عبدالله عوتب على كثرة افضاله ، فقال : ان الله تعالى عودني أن يفضل علي ، وعودته أن أفضل على عباده ، فأكره أن اقطع العادة عنهم فيقطع العادة عني .

ووفد عبدالله على معاوية ، بدمشق ، فعلم به عمرو بن العاص قبل دخوله دمشق[1] ، اخبره بذلك مولى له كان قد سار مع ابن جعفر من الحجاز فتقدّمه بمرحلتين الى دمشق ، فدخل عمرو على معاوية وعنده جماعة من قريش من بني هاشم وغيرهم : منهم عبدالله بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال عمرو : قد أتاكم رجل كثير الخلوات بالتمني ، والطرقات بالتغني ، آخذ للسلف ، منقاد بالسرف[2] ، فغضب عبدالله بن الحارث ، وقال لعمرو : كذبت وأهلُ ذلك أنت ليس عبدالله كما ذكرت ، ولكنه لله ذَكور ، ولبلائه شكور ، وعن الخنا نفور ، ماجد مهذب كريم سيد حليم ، ان ابتدأ أصاب ، وان سئل أجاب ، غير حصر ولا هيـــاب ، ولا فحاش ولا سبّاب ، كالهزبر الضرغام ، الجريء المقدام ، والسيف الصمصام ، والحسيب القمقام ، وليس كمن اختصم فيه من قريش شرارها ، فغلب عليه جزّارها ، فأصبح ألأمها حسباً ، وادناها منصباً ، يلوذ منها بذليل ، ويأوي الى قليل ، وليت شعري بأي حسب تتناول ؟ أو بأي قدم تتعرض ؟ غير انك تعاو بغير اركانك ، وتتكلم بغير لسانك ، ولقد كان أبر في الحكم ، وابين في الفضل ، أن يكفّك ابن أبي سفيان عن ولوعك بلعراض قريش ، وان يكممك كمام الضبع في وجارها ولست بأعراضها بوفي ، ولا لأحسابها بكفي ، وقد اتيح لك ضيغم شرس ، للأقران مختلس ، وللارواح مفترس ، فهمّ عمرو ان يتكلم ، فمنعه معاوية من ذلك ، وقال عبدالله بن الحارث : لا يُبقي المرء الا على نفسه ،

---

١) في نسخة « قبل دخوله بدمشق » .
٢) « « : متقاربا بالشرف

والله ان لساني لحديد ، وان جوابي لعتيد ، وان قولي لسديد ، وان انصاري لشهود ، فقام معاوية وتفرق القوم .

ولعبدالله بن جعفر بن ابي طالب أخبار حسان في الجود والكرم وغير ذلك من المناقب ، وقد أتينا على مبسوط ذلك في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وانما كان تزوج الحجاج اليه يبتذل بذلك[1] آل ابي طالب .

كتاب من عبدالملك الى الحجاج لم يفهمه : وكتب الحجاج الى عبدالملك يغلظ له امر الخوارج مع قطري ، فكتب اليه : أما بعد ، فإني احمد اليك السيف ، واوصيك بما أوصى به البكري زيداً ، فلم يفهم الحجاج ما عناه عبد الملك ، وقال : من جاء بتفسير ما اوصى به البكري زيداً فله عشرة آلاف درهم ، فورد رجل من الحجاز يتظلم من بعض عماله ، فقيل له : أتعلم ما اوصى به البكري زيداً ؟ قال : نعم، قالوا : فأت الحجاج به ولك عشرة آلاف درهم ، فأتاه فأحضره فقال : أوصاه بأن قال :

أقول لزيد لا تبربر فانهم ... يرون المنايا دون قتلك او قتلي[2]
فان وضعوا حرباً فضعها، وان أبوا ... فشب وقود الحرب بالحطب الجزل
وان عضت الحرب الضروس بنابها ... فعرضة حد السيف مثلك او مثلي

فقال الحجاج : صدق امير المؤمنين وصدق البكري .

كتاب من الحجاج الى المهلب: وكتب الى المهلب :ان امير المؤمنين أوصاني بما اوصى به البكري زيداً ، وانا اوصيك به وبما اوصى به الحارث بن كعب بنيه ، فأتى المهلب بوصيته فاذا فيها : يا بني ، كونوا جميعاً ولا تكونوا شتى فتفرقوا ، وبروا قبل ان تبروا فموت في قوة وعز ، خير من حياة في ذل وعجز ، فقال المهلب : صدق البكري والحارث بن كعب .

---

١) في نسخة « ليذل بذلك آل ابي طالب » .
٢) في بعض النسخ « لا تبر فانهم » .

وكتب عبد الملك الى الحجاج : جنبني دماء آل أبي طالب ؛ فإني رأيت الملك استوحش[1] من آل حرب حين سفكوا دماءهم ، فكان الحجاج يتجنبها خوفاً من زوال الملك عنهم ، لا خوفاً من الخالق عز وجل .

ليلى الاخيلية والحجاج : ودخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فقالت : أصلح الله الأمير ! أتيت لإخلاف النجوم ، وقلة الغيوم ، وكَلَب البرد ، وشدة الجهد ، قال : فأخبريني عن الأرض ، قالت : الأرض مقشعرة ، والفجاج مغبرة ، والمقار[2] مقل ، وذو العيال مختل ، والبائس معتل ، والناس مُسْنِتُونَ ، رحمةَ الله يرجون ، قال : أي النساء تختارين تنزلين عندها ؟ قالت : تمّنن لي ، قال : عندي هند بنت المهلب ، وهند بنت أسماء بن خارجة ، فاختارتها فدخلت عليها ، فصبت حليها عليها حتى أثقلها ، لاختيارها إياها ودخولها عليها دون مَنْ سواها .

ابن عم للحجاج يطلب منه ان يوليه فيمتحنه فيوليه فينجح : حدثنا المنقري قال : حدثنا العتبي ، عن أبيه ، قال : قدم على الحجاج ابن عم له أعرابي من البادية ؛ فنظر اليه يُوَلّي الناس ، فقال له : أيها الأمير ، لم لا توليني بعض هذا الحضر ؟ فقال الحجاج : هؤلاء يكتبون ويحسبون وأنت لا تحسب ولا تكتب ، فغضب الأعرابي وقال : بلى إني والله لأحْسَبُ منهم حسباً ، وأكتب منهم يداً ، فقال له الحجاج : فإن كان كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين اربعة أنفس ، فما زال يقول : ثلاثة دراهم بين اربعة ، ثلاثة بين اربعة ، لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء ، كم هم أيها الأمير ؟ قال : هم أربعة ، قال : نعم أيها الأمير ، قد وقفت على الحساب ، لكل واحد منهم درهم ، وانا اعطي الرابع منهم درهماً من عندي ، وضرب بيده الى تكته فاستخرج منها درهما ، وقال : ايكم الرابع فلا ها الله ما رأيت

---

١) في نسخة « فاني رأيت الموت استوحش — الخ » .

٢) « « : والمقتل مقل ، وذو الغنى مجل ، والبائس مقل .

كاليوم زوراً مثل حساب هؤلاء الحضريين ، فضحك الحجاج ومن معه ، وذهب بهم الضحك كل مذهب ، ثم قال الحجاج : إن أهل إصبهان كسروا خراجهم ثلاث سنين ، كلما اتاهم والٍ اعجزوه ، فلأرمينهم ببدوية هذا وعنجهيته ، فأخلق به ان ينجب ، فكتب له عهده على إصبهان ، فلما خرج استقبله اهل إصبهان واستبشروا به ، وأقبلوا عليه يقبلون يده ورجله ، وقد استغمروه ، وقالوا : اعرابي بدوي ماذا يكون منه ، فلما اكثروا عليه قال : أعينوا على انفسكم وتقبيلكم اطرافي واخّروا عني هذه الهيئات ، اما يشغلكم ما اخرجني له الأمير ؟ فلما استقر في داره باصبهان جمع اهلها فقال لهم : ما لكم تعصون ربكم وتغضبون اميركم وتنقصون خراجكم؟ فقال قائلهم: جوْر مَنْ كان قبلك ، وظلم من ظلم ، قال : فما الأمر الذي فيه صلاحكم ؟ فقالوا : تؤخرنا بالخراج ثمانية اشهر ونجمعه لك ، قال : لكم عشرة وتأتوني بعشرة ضمناء يضمنون ، فأتوه بهم ، فلما توثّق منهم امهلهم ، فلما قرب الوقت رآهم غير مكترثين لما يدنو من الأجل ، فقال لهم ، فلم ينتفع بقوله ، فلما طال به ذلك جمع الضمناء وقال لهم : المال ، فقالوا : اصابنا من الآفة ما نقض ذلك ، فلما رأى ذلك منهم آلى ان لا يفطر — وكان في شهر رمضان — حتى يجمع ماله او يضرب اعناقهم ، ثم قدم احدهم فضرب عنقه، وكتب عليه فلان بن فلان ادّى ما عليه ، وجعل رأسه في بدرة وختم عليها، ثم قدم الثاني ففعل به مثل ذلك ، فلما رأى القوم الرؤوس تبدر وتجعل في الأكياس بدلاً من البِدَرِ قالوا:ايها الأمير،توقّف علينا حتى نحضر لك المال، ففعل ، فأحضروه في أسرع وقت ، فبلغ ذلك الحجاج ، فقال : إنا معاشر آل محمد — يعني جدّه — ولدُنا نجيب ، فكيف رأيتم فراستي في الأعرابي ؟ ولم يزل عليها والياً حتى مات الحجاج .

ابراهيم التميمي في سجن الحجاج : وحبس الحجاج ابراهيم التميمي بواسط، فلما دخل السجن وقف على مكان مشرف ونادى بأعلى صوته : يا أهل بلاء

الله في عافيته ، ويا أهل عافية الله في بلائه ، اصبروا ، فنادوه جميعاً : لبيك، لبيك ، ومات في حبس الحجاج ، وإنما كان الحجاج طلب ابراهيم النخعي فنجا ، ووقع ابراهيم التيمي .

وحكي عن الأعمش قال : قلت لإبراهيم النخعي : أين كنت حين طلبك الحجاج ؟ فقال : بحيث يقول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسان فكدت أطير

الحجاج يسأل ابن القرية عن النساء : حدثنا الدمشقي الاموي أحمد ابن سعيد وغيره ، عن الزبير بن بكار ، عن محمد بن سلام الجمحي ، وحدثنا الفضل بن الحباب الجمحي ، عن محمد بن سلام قال : سأل الحجاج ابن القرية : أي النساء احمد ؟ قال : التي في بطنها غلام ، وفي حجرها غلام ، ويسعى لها مع الغلمان غلام ، قال : فأي النساء شر ؟ قال : الشديدة الأذى ، الكثيرة الشكوى ، المخالفة لما تهوى ، فقال : أي النساء أعجب اليك ؟ قال : الشفاء المطبول ، المنماج الكسول ، التي لم يشنها قصر ولا طول، قال : فأي النساء أبغض اليك ؟ قال : الرعينة [١] القصيرة ، الباهق الشريرة ، قال : فأخبرني عن أفضل النساء مَخبراً وأطيبهن أعطافا ، قال : أفضل النساء ، الغضّة البضّة ، التي أعلاها قضيب ، وأسفلها كثيب ، اللعساء الورهاء [٢] التي لم تذهب طولاً في امحطاط ، ولم تلصق قصراً في إفراط ، الجعدة الغدائر ، السَّبْطة الضفائر ، الضخمة المآكم ، الطّفلة البراجم ، إذا رأيت أناملها شبهتها بالمداري ، واذا قامت خلتها سارية من السواري، فتلك تهيج المشتاق ، وتُحيي العاشق بالعناق .

قال المسعودي : وللوليد بن عبد الملك أخبار حسان لما كان في أيامه من

---

١) في نسخة « الرغيفة القصيرة ، البهلق الشريرة » . ٢)في نسخة «اللعساء الدرماء».

الكوائن والحروب ، وكذلك الحجاج ، وقد أتينا على كثير من مبسوطها في كتابينا « اخبار الزمان» والأوسط ، وإنما نذكر في هذا الكتاب ما لم نورده في ذينك الكتابين ، كما أن ما ذكرناه في الكتاب الاوسط ، هو ما لم نورده في كتاب « أخبار الزمان » والله أعلم .

ذكر

أيام سليمان بن عبد الملك

موجز : وبويع سليمان بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي كانت فيه وفاة الوليد ، وذلك يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين من الهجرة ، وتوفي سليمان بمرج دابق من أعمال جند قنسرين يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ؛ فكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر وخمس ليال ، وهلك وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، وعهد إلى عمر بن عبد العزيز ، وقيل : إن وفاة سليمان كانت يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين ، وإن ولايته سنتان[1] وتسعة اشهر وثمانية عشر يوماً ، على حسب ما وجدناه من تباين ما في كتب التواريخ والسير ، وسنذكر جمل أيامهم في باب نفرده فيما يرد من هذا الكتاب .

وقد تنوزع في مقدار سِنّ سليمان : فذكر بعضهم أنه قبض وهو ابن خمس وأربعين سنة ، ومنهم من زعم أنه كان ابن ثلاث وخمسين ، وقد قدمنا قول من قال : إنه قبض وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، ووجدتُ أكثر شيوخ بني مروان من ولده وولد غيره بدمشق وغيرها يذهبون الى أنه كان ابنَ تسع وثلاثين ، والله أعلم .

---

١) في نسخة « وان ولايته كانت سنتين – الخ » .

ذكـــر

لمع من أخباره ، وسيره

خطبته اول ما ولي الخلافة : ولما أفضى الأمر الى سليمان صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : الحمد لله الذي ما شاء صنع ، وما شاء أعطى ، وما شاء منع ، وما شاء رفع ، ومـا شاء وضع ، أيها الناس ، إن الدنيا دار غرور وباطل وزينة وتقلـّب بأهلهـا ، تُضْحِك باكيها ، وتبكي ضاحكها ، وتخيف آمنها ، وتؤمن خائفها ، وتثري فقيرها ، وتفقر مثريها ميالة بأهلها عباد الله ، اتخذوا كتاب الله إماماً ، وارْضَوا به حكماً ، واجعلوه لكم هادياً ودليلا ، فإنه ناسخ ما قبله ، ولا ينسخه مـا بعده ، واعلموا عباد الله أنه ينفي عنكم كيد الشيطان ومطامعه ، كما يجلو ضوء الشمس الصبح إذا أسفر ، وإدبار الليـل إذا عسعس ، ثم نزل وأذن للناس بالدخول عليه ، وأقر عمال من كان قبله على أعمالهم ، وأقر خالد بن عبد الله القَسْري على مكة .

خالد القسري في مكة : وقد كان خالد أحدث بمكة أحداثاً : منها أنـه أدار الصفوف حول الكعبة ، وقد كان قبل ذلك صفوف الناس في الصلاة بخلاف ذلك ، وبلغه قول الشاعر :

يا حبـــذا الموسم من موقف   وحبذا الكعبة من مسجد
وحبـــذا اللاتي تزاحمننـــا   عند استلام الحَجَرِ الأسود

فقال خالد : أما إنهن لا يزاحمنك بعدها أبداً ، ثم أمر بالتفريق بـــين الرجال والنساء في الطواف .

كان سليمان اكولا : وكان سليمان صاحب أكل كثير يجوز المقدار ، وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشي ، وفي أيامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ، ولبس الناس جميعاً الوشي جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس، وكان لا يدخل عليه رجل[١] من أهل بيته إلا في الوشي ، وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره ، وكان لباسه في ركوبه وجلوسه على المنبر ، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه إلا في الوشي،حتى الطباخ ؛ فإنه كان يدخل اليه في صدره وشي وعلى رأسه طويلة وشي ، وأمر أن يكفن في الوشي المثقلة وكان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل بالعراقي وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المشوية وعليه جبة الوشي المثقلة فلنهمه وحرصه على الأكل يدخل يده في كمه حتى يقبض[٢] على الدجاجة وهي حارة فيفصلها .

وذكر الاصمعي قال : ذكرت للرشيد نهم سليمان وتناوله الفراريج بكمه من السفافيد ، فقال : قاتلك الله فما أعلمك بأخبارهم، إنه عرضت عليّ جباب بني أمية ، فنظرتُ إلى جباب سليمان وإذا كل جبة منها في كمها أثر كأنه أثر دهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث[٣] ، ثم قال : علي بجباب سليمان ، فأتي بها ، فنظرنا فإذا تلك الآثار فيها ظاهرة ، فكساني منها جبة فكان الأصمعي ربما يخرج أحياناً فيها فيقول : هذه جبة سليمان التي كسانيها الرشيد .

وذكر أن سليمان خرج من الحمام ذات يوم وقد اشتد جوعه ، فاستعجل الطعام ، ولم يكن فرغ منه ، فأمر أن يقدم عليه ما لحق من الشواء ، فقدم إليه عشرون خروفاً ، فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة ، ثم قرب بعد ذلك الطعام فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئاً .

---

١) في نسخة : أحد من أهل بيته .
٢) « « : حتى يقضي على الدجاجة .
٣) في نسخة : بذلك الحديث .

وحكي أنه كان يتخذ سلال الحلوى ، ويجعل ذلك حول مرقده ، فكان إذا قام من نومه يمدّ يده فلا تقع إلا على سلة يأكل منها .

لبس سليمان فأعجبته نفسه : حدث المنقري ، عن العتبي ، عن إسحاق بن إبراهيم بن الصباح بن مروان — وكان مولى لبني أمية من أرض البلقاء من اعمال دمشق ، وكان حافظاً لأخبار بني أمية — قال : لبس سليمان يوم الجمعة في ولايته [١] لباساً شهر به ، وتعطر ، ودعا بتخت فيه عمائم ، وبيده مرآة ، فلم يزل يعتم بواحدة بعد أخرى حتى رضي منها بواحدة ، فأرخى من سدُولها ، وأخذ بيده مخصرة ، وعلا المنبر ناظراً في عطفيه ، وجمع جمعه [٢] وخطب خطبته التي أرادها ، فأعجبته نفسه ، فقال : أنا الملك الشاب ، السيد المهاب [٣] ، الكريم الوهاب ، فتمثلت له جارية من بعض جواريه وكان يتحظّاها ، فقال لها : كيف ترين أمير المؤمنين ؟ قالت : أراه مُنىَ النفس وقُرّة العين ، لولا ما قال الشاعر ، قال : وما قال الشاعر ؟ قالت : قال :

أُنتَ نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان
أنت مَنْ لا يَريبنا منك شيء ... علم الله غير انك فاني [٤]
ليس فيما بدا لنا منك عيب ... يا سليمان غير أنك فان

فدمعت عيناه وخرج على الناس باكياً ، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بالجارية ، فقال لها : ما دعاك إلى ما قلت لأمير المؤمنين ؟ قالت : والله ما رايت امير المؤمنين اليوم ولا دخلت عليه ، فاكبره ذلك ، ودعا بقيّمة جواريه فصدقتها في قولها ، فراع ذلك سليمان ، ولم ينتفع بنفسه ، ولم يمكث بعد ذلك إلا مُديّدة حتى توفي .

وكان سليمان يقول : قد اكلنا الطيب ، ولبسنا اللين ، وركبنا الفاره ولم يبق لي لذة إلا صديق اطرح معه فيما بيني وبينه مؤنة التحفظ .

---

١) في نسخة : من ولايته لباسا تشهر به .
٢) « « : وجمع حشمه .
٣) في نسخة : السيد الحجاب .
٤) « « : ليس أنا يريبنا منك شيء .

بين سليمان وكاتب الحجاج : وأدخل عليه يزيد بن ابي مسلم كاتب الحجاج والمستولي عليه ، وهو مكبل بالحديد ، فلما رآه ازدراه ، فقال : ما رأيت كاليوم قط ، لعن الله رجلا أجرك رسنه ، وحكمك في امره ، فقال له يزيد : لا تفعل يا امير المؤمنين ، فانك رأيتني والأمر عني مدبر ، وعليك مقبل ،ولو رأيتني والأمر مقبل علي لاستعظمت مني ما استصغرت،ولاستجللت مني ما استحقرت ، قال : صدقت فاجلس لا ام لك ، فلما استقر به المجلس قال له سليمان : عزمت عليك لتخبرني عن الحجاج ما ظنك به اتراه يهوي بعد في جهنم أم قد استقر فيها ؟ قال: يا امير المؤمنين ، لا تقل هذا في الحجاج[1] فقد بذل لكم نصحه ، واحقن دونكم دمه ، وامن وليكم ، وأخاف عدوكم ، وانه يوم القيامة لعن يمين ابيك عبدالملك ، ويسار أخيك الوليد ، فاجعله حيث شئت ، فصاح سليمان : اخرج عني الى لعنة الله ، ثم التفت الى جلسائه فقال : قبحه الله ! ما كان أحسن ترتيبه[2] لنفسه وصاحبه ، ولقد احسن المكافأة ، اطلقوا سبيله .

بين سليمان وابي حازم الاعرج : ودخل عليه ابو حازم الأعرج ، فقال : يا ابا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم واخربتم آخرتكم ، فانتم تكرهون النقلة من العمران الى الخراب ، قال : فاخبرني كيف القدوم على الله ؟ قال : اما المحسن فكالغائب يأتي اهله مسروراً ، واما المسيء فكالعبد الآبق يأتي مولاه محزوناً ، قال : فأي الأعمال افضل ؟ قال : اداء الفرائض مع اجتناب المحارم، قال:فاي القول اعدل؟قال: كلمة حق عند من تخاف وترجو ، قال : فأي الناس اعقل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، قال: فاي الناس اجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنيا غيره ، قال: عظني واوجز ،

١) في نسخة : لا تقل هذا للحجاج . ٢) في نسخة : ما كان أحسن تربيته لنفسه .

قال : يا امير المؤمنين ، نزّه ربك[١] وعظمه بحيث ان يراك تجتنب ما نهاك عنه ولا يفقدك من حيث امرك به ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جلسائه : اسرفت ويحك على أمير المؤمنين ، فقال له أبو حازم: اسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم خرج، فلما صار الى منزله بعث اليه سليمان بمال ، فرده ، وقال للرسول : قل له والله يا أمير المؤمنين ما ارضاه لك ، فكيف ارضاه لنفسي ؟.

بين سليمان واعرابي : وذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : حدثني الأصمعي ، عن شيخ من المهالبة ، قال : دخل اعرابي على سليمان فقال له : يا أمير المؤمنين ، اني اريد ان أكلمك بكلام فافهمه ، فقال له سليمان : انا نجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ، ولا نأمن غشه ، وارجو ان تكون الناصح جيباً ، المأمون غيباً ، فهات ، قال : يا امير المؤمنين ، اما اذ امنتُ بادرة غضبك فسأطلق لساني بما خرست به الألسن من عظتك تأدية لحق الله وحق امانتك[٢] ، يا أمير المؤمنين ، انه قد تكنّفكَ رجال اساءوا الاختيار[٣] لأنفسهم ، وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم ،خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك ، حرب للآخرة وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما يأمنك الله عليه ، فإنهم لم يأتوا الا ما فيه تضييع وللأمة خسف وعسف ، وانت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس غبناً بائع آخرته بدنيا غيره ، فقال له سليمان : أما انت يا أعرابي فقد سللت علينا لسانك ، وهو اقطع من سيفك، فقال : اجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك ، فقال سليمان : اما وأبيك يا اعرابي لا تزال العرب بسلطاننا لأكناف العز متبوئة ، ولا تزال ايام دولتنا

---

١) في نسخة : عظم ربك واياك أن يراك بحيث نهاك عنه ويفقدك من حيث أمرك .

٢) في نسخة : وحق امامتك .

٣) « « : وأساءوا الاحسان .

بكل خير مُقبلة ، ولئن ساسكم ولاة غيرنا ليحمَدُنّ منا ما اصبحتم تذمون، فقال الأعرابي : أما اذا رجع الأمر الى ولد العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصنو ابيه ووارث. ما جعله الله له اهلا فلا ، فتغافل سليان كأن لم يسمع شيئاً ، وخرج الاعرابي فكان آخر العهد به ، هذا الخبر اخبرني به بعض شيوخ ولد العباس بمدينة السلام مدينة ابي جعفر المنصور ، وهو ابن ديهة المنصوري[1] ، عن ابيه ، عن علي بن جعفر النوفلي ، عن ابيه ، وذلك في سنة ثلثمائة .

سليان يصف معاوية : وذُكِرَ معاوية بن أبي سفيان في مجلس سليان ، فصلى على روحه وأرواح من سلف من آبائه ، وقال : كان والله هَزْلُه جِداً ، وجده علماً ، والله ما رُئي مثل معاوية ، كان والله غضبه حلماً ، وحلمه حكماً ، وقيل : إن هذا الكلام لعبد الملك .

خالد القسري في العراق : وكتب سليان الى خالد بن عبد الله القسري وهو على العراق[2] في رجل استجار به من قريش ، وكان هرب من خالد ، أن لا يعرض له ، فأتاه بالكتاب فلم يَفُضَّه حتى ضربه مائة سوط ، ثم قرأه ، فقال : هذه نقمة أراد الله ان ينتقم بها منك لتركي قراءة الكتاب، ولو كنت قرأته لأنفذت ما فيه ، فخرج القرشي راجعاً الى سليان ، فسأله الفرزدق وأناس ممن كان بالباب عما صنع خالد ، فأخبرهم ، فقال الفرزدق في ذلك :

سَلُوا خالداً لا قدّس الله خالداً متى وَليت قَسْرٌ قُرَيْشاً تَدينُها
أقَبْلَ رسول الله أم بَعْدَ عهده فأضحَتْ قُرَيْشٌ قد أغثّ سمينُها
رَجَوْنا هُداه لاهدَى الله سَعْيَهُ وما أمه بالأم يُهْدَى جَنينُها

فلما بلغ سليان ذلك وجّه الى خالد من ضربه مائة سوط، فقال الفرزدق

---

١) في نسخة : وهو ابن بريهة . ٢) في نسخة : وهو على الحجاز .

في ذلك من أبيات :

لعمري لقد صُبَّتْ على ظهر خالدٍ ... شآبيبُ ليْسَتْ من سَحاب ولاقَطْرِ
أتضرب في العصيان من ليس عاصياً ... وتعصى امير المؤمنين أخا قَسْرِ
فلولا يَزيدُ بْنُ المهلب حلّقَتْ ... بكفك فتخاء الى الفرخ في الوَكْرِ(١)
لعمري لقد سار ابن شيبة سيرةً ... ارتكَ نجومَ الليل مُظْهَرَةً تجري
فخذ بيديك الخِزْيَ حقا ؛ فإنما ... جُزيتَ قصاصاً بالمرجرجة السُّمْرِ

بين سليمان وعمر بن عبد العزيز : وقال سليمان لعمر بن عبد العزيز يوماً وقد اعجبه سلطانه : كيف ترى ما نحن فيه ؟ قال : سرور لولا انه غرور، وحياة لولا انه موت ، وملك لولا انه هلك ، وحسن لولا انه حزن ، ونعيم لولا انه عذاب أليم ، فبكى سليمان من كلامه

سليمان على الضد من الوليد : وكان سليمان بخلاف الوليد ، وعلى الضد منه في الفصاحة والبلاغة ، وقد كان الوليد افسد في ارضٍ لعبد الله بن يزيد بن معاوية ، فشكا ذلك اخوه خالد بن يزيد الى عبد الملك ، فقال له عبد الملك: (إن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها) الآية ، فقال له خالد : (وإذا اردنا أنْ نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيهـــا) الآية ، فقال عبد الملك : افي عبد الله تتكلم وبالأمس دخل علي فغير في لسانه(٢) ولحن في كلامه ؟ فقال : أفعلى الوليد تقول ؟ قال : إن كان الوليد يلحن فسليمان أخوه ، قال خالد: وإن كان عبد الله لحاناً فأخوه خالد ، فقال الوليد : أتتكلم ولست في العير ولا في النفير ، قال خالد : ألم تسمع ما يقول امــير المؤمنين ، انا والله ابن العير والنفير، ولو قلت حُبَيْلات وغُنَيْمات والطائف ورحم الله عثمان ،قلنا: صدقت ، اراد بذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نَفَى الحكم بن أبي العاص الى الطائف فصار راعياً حتى رَدَّه عثمان .

---

١) في نسخة : بكفك فتخاء الى الفرخ بالوكر .
٢) في نسخة : وبالأمس دخل الي يعثر في لسانه ويلحن في كلامه .

غضب سليمان على خالد القسري : وغضب سليمان على خالد القسري، فلما دخل عليه قال : يا أمير المؤمنين ، إن القدرة تذهب الحفيظة ، وإنك تجل عن العقوبة ، فإن تعفُ فأهل لذلك أنت ، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا ، فعفا عنه .

وذم رجل في مجلس سليمان الكلام ، فقال سليمان : إنه من تكلم فأحسن قدَر على أن يصمت فيحسن ، وليس مَن صمت فأحسن قدَر على أن يتكلم فيحسن .

ووقف سليمان على قبر ولده أيوب وبه كان يكنى، فقال : اللهم إني أرجوك له ، وأخافك عليه ، فحقق رجائي ، وأمن خوفي .

بعض الكتاب ينعي سليمان : قال المسعودي : ولما دفن سليمان سمع بعض كتابه وهو يقول أبياتاً منها :

وما سالم عما قليل بسالم وإن كثرت أحراسه وكتائبه
ومَن يَكُ ذا بأس شديد ومنعة فعما قليل يهجر الباب حاجبه(١)
ويصبح بعد الحجب للناس مقصياً رهينة بيت لم تستر جوانبه (٢)
فما كان إلا الدفن حتى تفرقت الى غيره أحراسه ومواكبه
واصبح مسروراً به كل كاشح وأسلمه احبابه واقاربه
فنفسك أكسِبْها السعادة جاهداً فكل امرىء رَهن بما هو كاسبه

قال المسعودي : ولسليمان اخبار حسان لما كان في مدة ملكه من الكوائن ، وقد أتينا على مبسوط ذلك في كتابينا « اخبار الزمان » والأوسط ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً طلباً للايجاز ، وميلا الى الاختصار وبالله التوفيق .

---

١) في نسخة : ومن يك ذا باب شديد ومنعة. ٢) في نسخة : رهينة باب لم تستر جوانبه.

ذكر

خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم

موجز : واستخلف عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ، وهو اليوم الذي مات فيه سليمان ، وتوفي بدَيْر سمعان من أعمال حمص مما يلي بلاد قنسرين يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام ، وقبض وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، وقبره مشهور في هذا الموضع الى هذه الغاية ، مُعَظّم يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية ، لم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان كما تعرض لقبور [1] غيره من بني أمية .

وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه !

وقيل : إنه قبض وهو ابن أربعين سنة ، وقيل : إحدى وأربعين سنة .

وقد تنوزع ايضاً في مقدار مدته في الخلافة ، وقد أتينا على المحصَّل من ذلك في باب مقدار المدة من الزمان وما تملكت فيه [2] بنو أمية من الاعوام فيما يرد من هذا الكتاب .

---

١) في نسخة : كما عرض لقبور غيره .

٢) في نسخة : وما ملكت فيه بنو أمية .

ذكر

لمع من أخباره، وسيره، وزهده

رضي الله عنه

كيف آلت الخلافة لعمر : لم تكن خلافة عمر في عهد تقدم [1] ، وكان السبب فيها أن سليمان لما حضرته الوفاة بمرج دابق دعا رجاء بن حَيْوَة ومحمد ابن شهاب الزهري ومكحولا وغيرهم من العلماء ممن كان في عسكره غازياً ونافراً ، فكتب وصيته ، وأشهدهم عليها ، وقال : إذا أنا متُّ فأذّنوا بالصلاة جامعة ، ثم اقرأوا هذا الكتاب على الناس ، فلما فُرغ من دفنه نودي الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس وحضر بنو مروان فاشرأبّوا للخلافة ، وتشوفوا نحوها ، فقام الزهري فقال : أيها الناس ، أرضيتم مَن سماه أمير المؤمنين سليمان في وصيته ؟ فقالوا : نعم ، فقرأ الكتاب فإذا اسم عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فقام مكحول فقال : أين عمر بن عبد العزيز ؟ وكان عمر في أواخر الناس ، فاسترجع حين دُعيَ باسمه مرتين أو ثلاثا ؛ فأتاه قوم فأخذوا بيده وعَضُدَيه ، فأقاموه ، وذهبوا به إلى المنبر فصعد وجلس على المرقاة الثانية ، وللمنبر خمس مَراقيَ ، فكان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك ، وقام سعيد وهشام فانصرفا ولم يبايعا ، وبايع الناس جميعاً ، ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين .

خلق عمر ودينه : وكان عمر في نهاية النسك والتواضع ، فصرف عمال مَن كان قبله من بني أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته،

---

١) في نسخة : عن عهد تقدم .

وترك لعن علي عليه السلام على المنابر ، وجعل مكانه (ربنـــا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا انك غفور رحيم) وقيل : بل جعل مـــكان ذلك (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) الآية ، وقيل : بل جعلها جميعاً ، فاستعمل الناس ذلك في الخطبة الى هذه الغاية .

بين السدي وعمر : ولما استخلف عمر دخل عليه سالم السدي ، وكان من خاصته ، فقال له عمر : أسرك ما وليت أم ساءك ؟ فقال : سرني للناس وساءني لك ، قال : إني أخاف أن أكون قد أوبقت نفسي ، قال : مـا أحسن حالك،إن كنت تخاف ، إني أخاف عليك أن لا تخاف (١) ، قال : عظني ، قال : أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة .

من طاوس الى عمر : وكتب طاوس الى عمر : إن أردت أن يكون عملك بخيراً كله فاستعمل أهل الخير ، فقال عمر : كفى بها موعظة .

اول خطبة لعمر : ولما أفضى اليه الأمر كان أول خطبة خطب الناس بها أن قال: أيها الناس ، إنما نحن من اصول قد مضت وبقيت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نصب المصائب مع كل جرعة شرق ، وفي كل أكلة غصص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمــره إلا بهدم آخر من أجله .

بين عمر وعامله على المدينة : وكتب الى عامله بالمدينة أن أقسم في ولد علي بن أبي طالب عشرة آلاف دينار ، فكتب إليه : إن علياً قد ولد له في عدة قبائل من قريش ففي أي ولده ؟ فكتب اليه : لو كتبت اليك في شاة تذبحها لكتبت إلي أسوداء أم بيضاء ، إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي

١) في نسخة : ما أحسن ذلك ان كنت تخاف ، انما أخاف عليك ألا تخاف .

من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار ، فطالما تخطتهم حقوقهم ، والسلام .

خطبة اخرى : وخطب في بعض مقاماته فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه : أيها الناس إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وإني لست بقاضٍ ، ولكني منفذ[1] ، ألا وإني لست بمبتدع ، ولكني متّبع ، ان الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ ولكن الإمام الظالم هو العاصي ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

تقدير ملك الروم لعمر : وبعث عمر وفداً الى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوه اليه ، فلما دخلوا اذا ترجمان يفسر عليه ، وهو جالس على سرير ملكه ، والتاج على راسه ، والبطارقة عن يمينه وشماله ، والناس على مراتبهم بين يديه ، فأدى اليه ما قصدوا له ، فتلقاهم بجميل ، واجابهم باحسن الجواب ، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم ، فلما كان في غداة غدٍ اتاهم رسوله ، فدخلوا عليه ، فاذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه ، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كانه في مصيبة ، فقال : هل تدرون لماذا دعوتكم ؟ قالوا : لا ، قال : ان صاحب مسلحتي التي تلي العرب جاءني كتابه في هذا الوقت ان ملك العرب الرجل الصالح قد مات فما ملكوا انفسهم ان بكوا ، فقال : ألكم تبكون ، او لدينكم ، او له ؟ قالوا : نبكي لانفسنا ولديننا وله ، قال : لا تبكوا له وابكوا لانفسكم ما بدا لكم ، فانه قد خرج الى خيرٍ مما خلف ، قد كان يخاف ان يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافة الآخرة ، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان احد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى ، ولقد كانت تأتيني اخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد

---

١) في نسخة : ولكني مقتد .

حين خلوته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه[١] فزهد فيها ، حتى صار مثل الراهب ، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلا .

وصية الاعرج: وكتب عمر إلى أبي حازم المدني الأعرج أن أوصني وأوجز، فكتب اليه : كأنك ياأمير المؤمنين بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل والسلام .

توقيع لعمر الى عامل له : ووقع إلى عامل من عماله : قد كثر شاكوك وقل شاكروك ، فإما عدلت ، وإما اعتزلت ، والسلام .

زهده بعد الخلافة : وذكر المدائني قال : كان يشترى لعمر قبل خلافته الحلّة بألف دينار ، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها ، فلما أتته الخلافة كان يُشترى له قميص بعشرة دراهم فإذا لبسه استلانه .

وخرج مع جماعة من اصحابه فمر بالمقبرة ؛ فقال لهم: قفوا حتى آتي قبور الأحبة فأسلم عليهم ، فلما توسطها وقف فسلم وتكلم وانصرف الى أصحابه فقال : ألا تسألوني ماذا قلت لهم وما قيل لي ؟ فقالوا : وماذا قلت يا أمير المؤمنين وما قيل لك ؟ قال : مررتُ بقبور الأحبة فسلمت عليهم فلم يردوا، ودعوت[٢] فلم يجيبوا ، فبينا أنا كذلك اذ نوديت : يا عمر ، أما تعرفني ؟أنا الذي غيرت محاسن وجوههم ، ومزقت الأكفان عن جلودهم ، وقطعت أيديهم ، وأبَنْتُ أكفهم عن سواعدهم، ثم بكى حتى كادت نفسه أن تطفأ، فوالله ما مضى بعد ذلك إلا أيام حتى لحق بهم .

من مطرف الى عمر : وذكر المدائني قال : كتب مطرف الى عمر : أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ، لها يجمع مَنْ لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم

---

١) في نسخة : تحت قدميه .

٢) « « : ودعوتهم فلم يجيبوا ، فبينا أنا كذلك اذ ناداني التراب .

له ، فكن بها كالمـــداوي جرحه ، واصبر على شدة الدواء ، لما تخاف من عاقبة الداء .

بين عمر وعبد له : وذكر بعض الأخبـاريين أن عمر في عنفوان حداثته جنى عليه عبدٌ له أسود جناية ، فبطحه وهمَّ ليضربه ، فقال له العبـــد : يا مولاي ، لم تضربني ؟ قال : لأنك جنيت كذا وكذا ، قال فهل جنيت أنت جناية قط غضب بها عليك مولاك ؟ قال عمر : نعم ، قال : فهـــل عجَّلَ عليك العقوبة ؟ قال : اللهم لا ، قال العبد : فلم تعجل عليّ ولم يعجل عليك؟ فقال له : قم فأنت حر لوجه الله ، وكان ذلك سبب توبته .

بين عمر وغلام ورد عليه في وفد الحجاز : وكان عمر يكثر هذا الكلام في دعائه فيقول : يا حليما لا يعجل على من عصاه .

وذكر جماعة من الأخباريين ان عمر لما ولي الخلافة وفد عليه وفود العرب ووفد عليه وفد الحجاز ، فاختار الوفد غلاما منهم ، فقدموه عليهم ليبدأ بالكلام،فلما ابتدأ الغلام بالكلام وهو اصغر القوم سناً قال عمر : مهلا يا غلام ليتكلم من هو اسنّ منك فهو اولى بالكلام؛فقال :مهلا ياأمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه لسانه وقلبه ، فإذا منح الله العبد لسانا لافظا ، وقلبا حافظا ، فقد استجاد له الحلية[1] ، يا امير المؤمنين ، ولو كان التقدم بالسن لكان في هذه الأمة من هو أسن منك ، قال : تكلم يا غلام ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة ، قدمنا اليك من بلدنا ؛ نحمدالله الذي منّ بك علينا ، لم يخرجنا اليك رغبة ولا رهبة ، اما الرغبة فقد اتانا منك إلى بلدنا ، وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك ، فقال : عظنا يا غلام واوجز ، قال : نعم يا امير المؤمنين ، إن أناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم ، وطول املهم ، وحسن ثناء الناس عليهم ، فلا يغرنك حلم الله

---

١) في نسخة : استجاد له الحلة .

عنك ، وطول املك ، وحسن ثناء الناس عليك ، فاتزلّ قدمك ، فنظر عمر في سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة ، فانشأ عمر رحمه الله يقول :

تعلّم فليس المرء يولدُ عالماً ‏ ‏ وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده ‏ ‏ صغير إذا التفتْ عليه المحافل

قصة جارية عند قاضي المدينة : وقد كان رجل من اهل العراق أتى المدينة في طلب جارية وصفت له قارئة قوالة ، فسأل عنها فوجدها عند قاضي المدينة ، فأتاه وسأله ان يعرضها عليه ، فقال : يا عبدالله ، لقد أبعدت الشقة في طلب هذه الجارية ، فما رغبتك فيها ؟ لما رأى من شدة اعجابه بها ، قال : إنها تغني فتجيد ، فقال القاضي :ما علمت بهذا ، فألح عليه في عرضها ، فعرضت بحضرة مولاها القاضي ، فقال لها الفتى : هات ، فغنت :

إلى خالد حتى أنخن بخالد ‏ ‏ فنعم الفتى يرجى ونعم المؤمّلُ

فقرح القاضي بجاريته وسُرّ بغنائها ، وغشيه من الطرب أمر عظيم حتى أقعدها على فخذه ، وقال : هات شيئا بأبي أنت ، فغنت :

أروح إلى القصاص كل عشية ‏ ‏ أرجي ثواب الله في عدد الخطا

فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدر ما يصنع ، فأخذ نعله [١] فعلقها في أذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه والنعل معلقة فيها ، وهو يقول : أهدوني إلى البيت الحرام ، فإني بَدَنَة ! حتى أدمى اذنه ، فلما أمسكت أقبل على الفتى فقال له : يا حبيبي ، انصرف ، قد كنا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول ، فنحن الآن فيها أرغب ، فانصرف الفتى ، وبلغ ذلك إلى عمر بن عبد العزيز فقال : قاتله الله ! لقد استرقّه الطرب ،

---

١) في نسخة : فأخذ نعليه فعلقها .

وأمر بصرفه من عمله ، فلما صرف قال : نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اركبوني فاني مطية ، فبلغ ذلك عمر فأشخصه وأشخص الجارية ، فلما دخلا على عمر قال له : أعِدْ ما قلت ، قال : نعم ، فأعاد ما قال ، فقال للجارية قولي ، فغنت :

كأنْ لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا
أنيسٌ ، ولم يسمر بمكة سامرُ
بلى ، نحن كنا أهلها ، فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طرباً بيناً ، واقبل يستعيدها ، ثلاثاً ، وقد بلّتْ دموعه لحيته ، ثم أقبل على القاضي فقال : قد قاربت في يمينك ، ارجع الى عملك راشداً .

بين فتى اموي وجارية لبعض قريش : حدثنا الطوسي والأموي الدمشقي وغيرهما ، عن الزبير بن بكار ، عن عبد الله بن احمد المديني ، قال : كان بالمدينة فتى من بني أمية من ولد عثمان ، وكان ظريفاً يختلف الى قينْة لبعض قريش ، وكانت الجارية تحبه ولا يعلم ، ويحبها ولا تعلم ، ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة ، فأراد يوماً أن يبلو ذلك ، فقال لبعض من عنده : امض بنا اليها ، فانطلقا ، ووافاها وُجوه أهل المدينة من قريش والأنصار وغيرهما ، وما كان فيهم فتى يَجِدُ بها وجْدَه ، ولا تجد بواحد منهم وجدها بالأموي ، فلما أن أخذ الناس مواضعهم قال لها الفتى : أتحسنين أن تقولي :

أحبكمُ حباً بكل جوارحي فهل عندكم علم بما لكم عندي
أتجزون بالود المضاعف مثله فان كريماً من جزى الود بالود

قالت : نعم ، وأحسن منه ، وقالت :

للذي وَدَّنا المــودَّةُ بالضعــف وفَضْلُ البادي به لا يُجازَى
لو بدا ما بنا لكم ملأ الأر ض وأقطار شامهــا والحجازا

قال : فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها وجودة حفظها فازداد كَلَفاً بها ، وقال :

أنت عذر الفتى إذا هتك السِّتــر وإن كان يُوسُفَ المعصوما

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ، فاشتراهــا بعشر حدائق ووهبها له بما يصلحها ؛ فأقامت عنده حَوْلاً ثم ماتت ، فرثاها ، وقضى في حاله تلك نحبه فدفنا معاً ، وكان من مَرْثيته لها قوله :

قد تمنيت جنة الخلد للخلــد فأدْخِلتُها بلا استئهال [1]
ثم أخرجت إذ تطمّعْتُ بالنعــمة منها والموت أحمدُ حال

وقال أشعب الطامع المدني : هذا سيد شهداء أهل الهوى انحروا على قبره سبعين بَدَنة ، وقال أبو حازم الأعرج المدني : أما عبد الله يبلغ هذا .

عمر والخوارج : وقد كان خرج في أيام عمر شودب الخارجي ، وقوي أمره فيمن خرج معه من المحكمة من ربيعة وغيرها ، فحدث عباد بن عباد المهلبي ، عن محمد بن الزبير الحنظلي ، قال : أرسلني عمر اليهم ، وأرسل معي عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وكان خــروجهم بالجزيرة ، وكتب عمر معنا اليهم كتاباً ، فأتيناهم فأبلغناهم كتابه ورسالته ، فبعثوا معنا رجلين منهم أحدهما من بني شيبان والآخر فيه حبشية ، وهو أحدُّهما لساناً وعارضة ، فقدمنا بهما على عمر بن عبد العزيز ، وهو بخُناصرة ، فصعدنا اليه إلى غرفة هو فيها ومعه ابنه عبد الملك وكاتبه مُزاحم ، فذكرنا مكانهما ، فقــال : فتّشوهما لئلا يكون معهما حديد ، ففعلنا ، فلما دخلا قالا : السلام عليك ،

---

١) في نسخة : قد تمنيت أن أرى جنة الخلد فادخلتها — الخ .

ثم جلسا ، فقال لهما عمر : اخبراني ما الذي اخرجكم مخرجكم هذا ؟ وما نقمتم علينا ؟ فتكلم الذي فيه حبشية فقال : والله ما نقمنا عليك في سيرتك، وإنك لتجري بالعدل والإحسان ، ولكن بيننا وبينك أمر إن أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك ، فقال عمر: وما هو؟ قال : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها المظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق ، فتكلم عمر فقال : إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدنيا ، ولكن اردتم الآخرة وأخطأتم طريقها ، وإني سائلكم عن امور ، فبالله لتصدقنني عنها ، أرأيتما أبا بكر وعمر ، أليسا من أسلافكم وممن تتولونهما وتشهدون لهما بالنجاة ؟ قالا : بلى ، قال : فهل علمتم أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء واخذ الأموال وسبى الذراري ؟ قالا : نعم ، قال : فهل علمتم أن عمر حين قام بعد ابي بكر رد تلك السبايا الى أصحابها ؟ قالا : نعم ، قال : فهل برىء عمر من ابي بكر ؟ قالا: لا ، قال : أفرأيتم اهل النهروان، أليسوا من اسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: بلى، قال: فهل علمتم أن اهل الكوفة حين خرجوا اليهم كفوا أيديهم فلم يسفكوا دماً ولم يخيفوا آمناً ولم يأخذوا مالاً ؟ قالا : نعم ، قال : فهل علمتم أن اهل البصرة حين خرجوا اليهم مع الشيباني وعبدالله بن وهب الراسبي واصحابه استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبدالله بن خبّاب بن الأرتّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه وقتلوا جاريته ، ثم صبحوا حياً من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الأقط وهي تفور ؟ قالا : قد كان ذلك ، قال : فهل تبرأ اهل البصرة من اهل الكوفة واهل الكوفة من اهل البصرة ؟ قالا : لا ، قال : فهل تبرءون انتم من إحدى الطائفتين ؟ قالا : لا ، قال : أرأيتم الدين واحداً أم اثنين ؟

قالا : بل واحداً ، قال : فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني ؟ قالا : لا ، قال : فكيف وسعكم ان توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم اهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعني فيما زعمتم إلا لمن أهل[1] بيتي والتبرؤ منهم ؟ ارأيتم لعن اهل الذنوب فريضة مفروضة لا بدّ منها ، فإن كانت كذلك فأخبرني أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون ؟ قال : ما اذكر متى لعنته ، قال : ويحك ! لم لا تلعن فرعون وهو اخبث الخلق ويسعني فيما زعمت لعن اهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ ويحكم ! إنكم قوم جهال اردتم أمراً فأخطأتموه ، فانتم تردون على الناس ما قبله منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده ، قالا : ما نحن كذلك ، قال عمر : بل سوف تقرون بذلك الآن ، هل تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث الى الناس وهم عبدة اوثان فدعاهم الى خلع الأوثان وشهادة أن لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله فمن فعل ذلك حقّن دمه ، واحرز ماله ، ووجبت حرمته ، وكانت له أسوة المسلمين ؟ قالا : نعم ، قال : افلستم انتم تلقونّ من يخلع الأوثان ويشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله فتستحلوا دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك واباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرّمون دمه ، قال الحبشي : ما سمعت كاليوم قط حجة ابين واقرب مأخذاً من حجتك ، اما انا فأشهد انك على الحق وانا بريء ممن بريء منك ، فقال عمر للشيباني : فأنت ما تقول ؟ قال : ما احسن ما قلت ، وابين ما وصفت ، ولكني لا افتات على المسلمين بأمر حتى اعرض قولك عليهم فانظر ما حجتهم ، قال : فانت اعلم : فانصرف ، واقام الحبشي ، فامر له عمر بعطائه ، فمكث خمسة

---

(١) في نسخة : الا أن ألعن أهل بيتي وأتبرأ منهم .

عشر يوماً ثم مات ، ولحق الشيباني باصحابه فقتل معهم بعد موت عمر رحمه الله تعالى . .

ولعمر مع الخوارج اخبار غير ما ذكرنا، ومراسلات، ومناظرات، وكذلك لمن سلف من بني أمية وغيرهم من ولاة الأمصار ، وقد أتينا على ذكرها وذكر كل مَن سمّته الخوارج بأمير المؤمنين وخاطبته بالإمامة من الأزارقة والأباضية والحرية والنجدات والخلقية والصفرية وغيرهم من أنواع الحرورية ، وذكرنا مواضعهم من الأرض في هذا الوقت مثل مَن سكن منهم من بلاد شهرزور وسجستان وإصطخر من بلاد فارس وبلاد كرمان وأذربيجان وبلاد مكران وجبال عمان وهراة من بلاد خراسان والجزيرة وتاهرت السفلى وغيرها من بقاع الأرض في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وما ذكرنا من الرد عليهم في التحكيم ، وغير ذلك في كتابنا المترجم بكتاب «الانتصار» المفرد لفرق الخوارج ، وفي كتاب « الاستبصار » .

بعض شعراء الخوارج : وقد ذكرنا جماعة من شعرائهم ممن سلف من أئمتهم من ذلك قول مَصقَلة بن عتبان الشيباني ، وكان من غلبة الخوارج :

وأبلغ أمير المؤمنين رسالةً ... وذو النصح إن لم يرع منك قريب
فإنك إن لا ترضَ بكر بن وائل ... يكن لك يومٌ بالعراق عصيب
فإن يك منكم كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنا سويد والبطين وقعنب ... ومنا أمير المؤمنين شَبيب
غزالة ذات النذر منا حميدة ... لها في سهام المسلمين نصيب
ولا صُلح ما دامت منابر أرضنا ... يقوم عليها من ثقيفَ خطيب

وكذلك ذكرنا أخبار أم شبيب ، وما كانت عليه من الاجتهاد في ديانة المحكمة وفيها يقول الشاعر :

أمُّ شبيب ولدَتْ شبيبا هل تلد الذئبة إلا ذيبا

بعض علماء الخوارج : وأخبار علمائهم كاليمان ، وله كتب مصنفة في مذاهبهم ، وعبد الله بن يزيد الأباضي ، وأبي مالك الحضرمي ، وقعنب ، وغير هؤلاء من علمائهم ، وقد كان اليمان بن رباب من علية علماء الخوارج ، وأخوه علي بن رباب من علية علماء الرافضة ، هذا مقدم في أصحابه ، وهذا مقدم في أصحابه ، يجتمعان في كل سنة ثلاثة أيام يتناظران فيها ثم يفترقان ولا يسلم أحدهما على الآخر ولا يخاطبه ، وكذلك كان جعفر بن المبشر من علماء المعتزلة وحذاقها وزهادها ، وأخوه حنش بن المبشر من علماء أصحاب الحديث ورؤساء الحشوية بالضد من أخيه جعفر ، وطالت بينهما المناظرة والمباغضة والتباين ، وآلى كل واحد منهما ألا يخاطب الآخر الى أن لحق بخالقه ، وجعفر بن المبشر وجعفر بن حرب من علماء البغداديين من المعتزلة ، وكان عبدالله بن يزيد الأباضي بالكوفة تختلف اليه أصحابه يأخذون منه ، وكان خرازاً شريكا لهشام بن الحكم ، وكان هشام مقدماً في القول بالجسم والقول بالإمامة على مذهب القطيعية يختلف اليه أصحابه من الرافضة يأخذون عنه ، وكلاهما في حانوت واحد ، على ما ذكرنا من التضاد في المذهب من التشري والرفض ولم يجر بينهما مُسابّة ، ولا خروج عما يوجبه العلم وقضية العقل وموجب الشرع وأحكام النظر والسير .

وذكر أن عبد الله بن يزيد الأباضي قال لهشام بن الحكم في بعض الأيام : تَعْلَم ما بيننا من المودة ودوام الشركة ، وقد أحببت أن تُنكحني ابنتك فاطمة ، فقال له هشام : إنها مؤمنة ، فأمسك عبد الله ، ولم يعاوده في شيء من ذلك ، إلى أن فرق الموت بينهما .

وكان من أمر هشام مع الرشيد وابن بَرْمَك ما قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا .

رأي عمرو بن عبيد فيه : وذكر عن عمرو بن عبيد أنه يقول : أخذ عمر

ابن عبد العزيز الخلافة بغير حقها ، ولا باستحقاق لها ، ثم استحقها بالعدل حين أخذها .

الفرزدق يرثي عمر : وفي وفاة عمر رضي الله تعالى عنه يقول الفرزدق من أبيات يَرْثيه بها :

أقول لمّا نعى الناعون لي عُمَراً لَقَدْ نَعَيْتُمْ قِوَامَ الحق والدين
قد غيَّبَ الرامسون اليوم إذ رَمَسوا بِدَيرِ سِمْعَان قِسْطاسَ الموازين
لم يُلْهِهِ عمرَهُ عَيْنٌ يُفَجِّرُها ولا النخيل ولا رَكْضُ البراذين

ولعمر رحمة الله عليه خطب وأخبار حسان غير ما ذكرنا في هذا الكتاب ، وفي الزهد وغيره ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا ، والحمد لله رب العالمين .

ذكر

أيام يزيد بن عبد الملك بن مروان

موجز : ومَلَكَ يزيد بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه عمر بن عبد العزيز ، وهو يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، ويكنى أبا خالد وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وتوفي يزيد بن عبد الملك بإربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة ، وهو ابن سبع وثلاثين سنة ، فكانت ولايته أربع سنين وشهراً ويومين .

ذكر لمع من أخباره وسيره

وجمل من ما كان في أيامه

حبه سلامة القس : كان الغالبُ على يزيد بن عبد الملك حُبٌ جارية يقال لها سَلّامة القَسّ، وكانت لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، فاشتراها يزيد بثلاثة آلاف دينار ، فأعجب بها ، وغلبت على أمره ، وفيها يقول عبد الله بن قيس الرقيّات :

لَقَدْ فتن الدنيا وسَلامَةُ القسا   فلم يتركا للقس عقلاً ولا نَفْسَا

فاحتالت أم سعيد العثمانية جَدّتُه بشراء جارية يقال لها حَبّابة قد كان في نفس يزيد بن عبد الملك قديماً منها شيء ، فغلبت عليه ، ووهب سَلّامة لأم سعيد[1] ، فعذله مسلمة بن عبد الملك لما عم النـاس من الظلم والجور ، باحتجابه وإقباله على الشرب واللهو ، وقال له : إنما مات عمر أمس ، وقد كان من عدله ما قد علمت ، فينبغي أن تظهر للناس العدل ، وترفض هـذا اللهو ، فقد اقتدى بك عمّالك في سائر أفعالك وسيرتك ، فارتدع عما كان عليه ، فأظهر الإقلاع والندم ، وأقام على ذلك مدة مديدة ، فغلظ ذلك على حَبابة . فبعثت إلى الأحوص الشاعر ومَعْبد المغني : انظرا ما أنتما صانعان؟ فقال الأحوص في أبيات له :

ألا لا تَلُمْهُ اليوم أن يتبـلدا   فقـد غلب المحزون أن يتجلّدا
إذا كنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فكن حَجراً من يابس الصّلدِ جَلْمَدا

---

١) في نسخة : ورفض سلامة ووهبها لأم سعيد .

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشَّنانِ وفَنَّدَا

وغنّاه معبد ، وأخذته حَبابة ، فلما دخل عليها يزيد قالت : يا أمير المؤمنين اسمع مني صوتاً واحداً ثم افعل ما بَدَا لك ، وغنته ، فلما فرغت منه جعل يردد قولها :

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشَّنانِ وفَنَّدَا

وعاد بعد ذلك إلى لهوه وقَصْفه ، ورَفَضَ ما كان عليه .

يزيد وحبابة وشعر للفند الزماني : وذكر إسحاق بن إبراهيم المَوْصِليُّ قال : حدثني ابن سلام ، قال : ذكر يزيد قول الشاعر :

صَفَحْنا عن بني ذهْلٍ وقلنا : القوم إخوانُ
عَسى الأيام أن يَرْجِعْـــنَ قوماً كالذي كانوا
فلمـــا صَرّح الشرُّ فأمسى وَهْوَ عُرْيان
مَشَيْنا مِشْيةَ اللّيْثِ غدَا والليث غضْبان
بضَرْبٍ فيه تَوْهينٌ وتخضيـــع وإقران
وطَعْنٍ كفَمِ الزِّقّ وَهَى والزِّقُّ ملآن
وفي الشر نجاة حيـــنَ لا يُنْجيك إحْسانُ

وهو شعر قديم يقال : إنه للفِندِ الزِّمّاني في حرب البَسُوس ، فقـــال لحبابة : غنيني به بحياتي ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، هذا شعر لا أعرف أحداً يغني به إلا الأحول المكي ، فقال : نعم ، قد كنت سمعت ابن عائشة يعمل فيه ويترك ، قالت : إنما أخذه عن فلان بن أبي لهب ، وكان حَسَنَ الأداء ، فوجّهَ يزيد إلى صاحب مكة : إذا أتاك كتابي هذا فادفع إلى فلان ابن أبي لهب ألف دينار لنفقة طريقه واحمله على ما شاء من دَوَابّ البريد ،

ففعل ، فلما قدم عليه قال : غنني بشعر الفِنْدِ[١] ، فغناه فأجاد وأحسن ، وقال : أعده ، فأعاده فأجاد وأحسن وأطرب يزيد ، فقال له : عمن أخذت هذا الغناء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أخذته عن أبي ، وأخذه أبي عن أبيه ، فقال:لو لم تَرِثْ إلا هذا الصوت لكان أبو لهب قد وَرَّثكم خيراً كثيراً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا لهب مات كافراً مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : قد أعلم ما تقول ، ولكني دخلتني له رقة إذ كان مجيداً للغناء ، ووصله وكساه ورَدَّه إلى بلده مكرماً .

وكتب في عهد عمر إلى يزيد : إذا أمكنتك القدرة بالعزة فاذكر قدرة الله عليك ، وقيل : إن هذا الكلام كتب به عمر إلى بعض عماله ، وفيه زيادة — على ما ذكره الزبير بن بكار — وهي : إذا أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذكر قدرة الله عليك بما تأتي إليهم ، واعلم أنك لا تأتي إليهم أمراً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك ، وأن الله يأخذ للمظلوم من الظالم ، ومهما ظلمت من أحد فلا تظلمنَّ من لا ينتصر عليك إلا بالله تعالى .

موت حبابة وجزع يزيد عليها : واعتلَّتْ حبابة فأقام يزيد أياماً لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياماً لا يدفنها جزعاً عليها حتى جيفَتْ ، فقيل : إن الناس يتحدثون بجزعك ، وإن الخلافة تجلُّ عن ذلك ، فدفنها وأقام على قبرها فقال :

فإن تسلُ عنك النفس أو تدع الهوى فباليأس تسلو النفسُ لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياماً قلائل ومات .

حدث أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن إسحاق الموصلي عن أبي الحويرث الثقفي قال : لما ماتت حَبابة حزن عليها يزيد بن عبد الملك

---

١) في نسخة : غنني شعر الفند .

حزناً شديداً[١] ، وضمّ إليه جويرية لها كانت تحدثها فكانت تخدمه ، فتمثلت الجارية يوماً :

كفى حَزَناً للهائم الصب أن يَرَى منازل من يهوى مُعَطّلة قَفْراً

فبكى حتى كاد أن يموت ، ولم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها حبابة حتى مات .

وكان يزيد ذات يوم في مجلسه وقد غنته حبابة وسلامة فطرب طرباً شديداً ثم قال : أريد أن أطير ، فقالت له حَبابة : يا مولاي ، فعلى مَنْ تَدَعِ الأمة وتدعنا .

وكان أبو حمزة الخارجي إذا ذكر بني مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال : أقْعَدَ حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره ، ثم قال : أريد أن أطير ، فطار إلى لعنة الله وأليم عذابه .

يزيد بن المهلب يخرج على يزيد بن عبد الملك : قال المسعودي : وقد كان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة هرب من سجن عمر بن عبد العزيز ، حين أثقل وذلك في سنة إحدى ومائة ، وصار إلى البصرة وعليها عدي بن أرْطاةَ الفزاري ، فأخذه يزيد بن المهلب ، فأوثقه ثم خرج يريد الكوفة مخالفاً على يزيد بن عبد الملك ، وحشدت له الأزد وأحلافها ، وانحاز إليه أهله وخاصته وعظم أمره ، واشتدت شوكته ، فبعث إليه يزيد أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، في جيش عظيم ، فلما شارفاه رأى يزيد بن المهلب في عسكره اضطراباً فقال : ما هذا الاضطراب ؟ قيل : جاء مَسْلَمة والعباس، قال : فوالله ما مَسْلَمة إلا جرادة صفراء ، وما العباس إلا نسطوس بن نسطوس ، وما أهل الشام إلا طَغام قد حشدوا ما بين فلاح وزراع ودباغ وسفلة ، فأعيروني أكفكم ساعة واحدة تصفعون بها خراطيمهم،

---

١) في نسخة : جزع عليها يزيد جزعاً شديداً .

فما هي إلا غدوة أو روحة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظـــالمين ، عليّ بفرمي ، فأتي بفرس أبلق ، فركب غير متسلح ، فالتقى الجيشان فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وولـّى أصحاب يزيد عنه ، فقتل يزيد في المعركة ، وصبروا إخوته أنفسهم ، فقتلوا جميعاً ، ففي ذلك يقول الشاعر :

كل القبائل بايعوك على الذي   تدعو إليه طائعين وساروا
حتى إذا حضر الوغى وجعلتهم   نصبَ الأسنة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن   عاراً عليك وبعضُ قتلٍ عارُ

فلما ورد الخبر على يزيد بن عبد الملك استبشر ، وأخذ الشعراء جميعـــاً يهجون آل المهلب ، إلا كثير فإنه امتنع من ذلك فقال له يزيد : حَرَّكتك الرحم يا أبا صخر ؛ لأنهم يمانيون ، ففي ذلك يقول جرير يمدح يزيد ، ويهجو آل المهلب :

يا رب قوم وقوم حاسدين لـكم   ما فيهم بَدَلٌ منكم ولا خلفُ
آل المهلـّب جَزَّ الله دابرهم   أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف
ما نالت الأزد من دعوى مضلتّهم   إلا المعـــاصم ، والأعناق تختطف
والأزد قد جعلوا المنتوف قائدهم   فقتـّلتهمْ جنود الله ، وانتـُسِفوا

وهي طويلة ، وفي ذلك يقول جرير أيضاً ليزيد من كلمة .

لقد تركت فلا نَعْدَمْكَ إذ كفروا   آل المهلب عظماً غـــير مجبور[١]
يا ابن المهلب ، إن الناس قد علموا   أن الخلافة للشمّ المغـــاوير

صنيع يزيد في آل المهلب : وبعث يزيد هلال بن أحوز المازني في طلب آل المهلب ، وأمره أن لا يلقى منهم من بلغ الحلم إلا ضرب عنقه ، فأتبعهم حتى أتى قندابيل من أرض السند وأتى هلال بغلامين من آل المهلب ، فقال لأحدهما : أدركت ؟ قال : نعم ، ومد عنقه ، فكان الآخر أشفق عليـه فمَضَّ شفته لئلا يظهر جزعاً فضرب عنقه، وأثخن القتل في آل المهلب حتى

كاد أن يفنيهم ، فذكر أن آل المهلب مكثوا بعد إيقاع هلال بهم عشرين سنة يولد فيهم الذكور فلا يموت منهم أحد ، وفي مدح هلال بن أحوز وما فعل يقول جرير :

أقول لها من ليلة ليس طولها كطول الليالي: ليت صبحك نوّرا
أخاف على نفسي ابن أحوز ، إنه جلا كل همّ في النفوس فأسفرا
جعلت بقبر بالحسان ومالك وقبر عديّ في المقابر أقبرا
فلم يبق منهم راية تعرفونها ولم يبق من آل المهلب عسكرا

وهي أبيات .

بين ابن هبيرة والشعبي وابن سيرين والحسن البصري : وقد كان يزيد ابن عبد الملك – حين ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق ، وأضاف إليه خراسان واستقام أمره هنالك – بعث ابن هبيرة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري وعامر بن شرحبيل الشعبي ومحمد بن سيرين ، وذلك في سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيد بن عبد الملك خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ ميثاقهم بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة . وقد ولاني ما ترون ، يكتب إلي بالأمر من أمره فأنفذه ، وأقلده ما تقلّده من ذلك ، فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية ، فقال عمر : ما تقول يا حسن ؟ فقال الحسن : يا ابن هبيرة ، خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله ، إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة ، إني أحذرك أن تعصي الله ؛ فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركنّ دين[2] الله وعباده بسلطان الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

---

١) في نسخة : لابن المهلب عظما غير مجبور .
٢) في نسخة : فلا تركبه دين الله وعباده بسلطان الله .

وحكي في هذا الخبر أن ابن هبيرة أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن،فقال الشعبي : سفسفنا فسفسف لنا .

بين يزيد وأخيه هشام : وذكر أن يزيد بن عبد الملك بلغه أن اخــــاه هشام بن عبد الملك ينتقصه ، ويتمنى موته ، ويعيب عليه لهوه بالقَيْنات ، فكتب إليه يزيد : أما بعد فقد بلغني استثقالك حياتي ، واستبطاؤك موتي، ولعمري إنك بعدي لواهي الجناح ، أجذمُ الكف ، وما استوجبت منك ما بلغني عنك ، فأجابه هشام : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين متى فرّغَ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم يوشك ان يقدح ذلـك في فساد ذات البين ، وتقطع الأرحام ، وأمير المؤمنين بفضله وما جعله الله أهلاً له اولى أن يتغمد ذنوب أهل الذنوب ، فأما انا فمعاذ الله ان استثقل حياتـــك ، او استبطىء وفاتك، فكتب إليه يزيد : نحن مغتفرون ما كان منك ، ومكذبون ما بلغنا عنك ،فاحفظ وصية عبد الملك ايانا ، وقوله لنا في ترك التباغي والتخاذل ، وما أمر به وحضّ عليه من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء ؛ فهو خير لك وأملك بك ، وإني لأكتب اليك وأنا اعلم انك كما قال الأول :

وإني على أشياء منك تريبني ... قديماً لذو صفح على ذاك مُجملُ
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني ... يمينـك، فانظر أي كف تبدل
وإن أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل

فلما أتى الكتاب هشاما ارتحل اليه ، فلم يزل في جواره مخافة أهل البغي والسعاية[1] حتى مات يزيد .

وفاة عطاء بن يسار : وممن مات في أيام يزيد بن عبد الملك عطاء بن يسار مولى ميمونة زوج النـــبي صلى الله عليه وسلم ، ويكنى أبا محمد ، وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وذلك في سنة ثلاث ومائة .

---

(١) في نسخة : أهل البغي والفساد .

موت جماعة من العلماء : وفيها مات مجاهد بن جبر، مولى قيس بن السائب المخزومي ، ويكنى أبا الحجاج ، وهو ابن أربع وثمانين سنة .

وجابر بن زيد ، مولى الأزد ، من أهل البصرة ويكنى أبا الشعثاء .

ويزيد بن الأصم ، من أهل الرقة ، وهو ابن أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

ويحيى بن وثاب الأسدي ، مولى بني كنانة كان .

وأبو بُرْدَةَ بن أبي موسى الأشعري ، واسمه عامر ، كوفي .

وفي سنة أربع ومائة مات وهب بن مُنَبّه ، ويقال : مات سنة عشرة ومائة [1] .

وفي سنة أربع ومائة هذه أيضاً مات طاوس .

وفي سنة خمس ومائة مات عبدالله بن جبير ، مولى العباس بن عبدالمطلب ويقال : انه مولى مولى العباس .

وقيل : ان طاوس بن كيسان — ويكنى أبا عبد الرحمن — مولى بحير الحميري مات بمكة سنة ست ومائة ، وصلى عليه هشام بن عبد الملك .

وفي سنة سبع ومائة مات سليمان بن يسار ، مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم،وهو اخو عطاء بن يسار ويكنى ابا أيوب ، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، بالمدينة ، وقيل : انه مات في سنة ثمان ومائة .

وفي سنة ثمان ومائة مات القاسم بن محمد بن أبي بكر الصّديق .

محمد بن سيرين واخوته : ومات الحسن بن أبي الحسن البصري ، ويكنى ابا سعيد ، في سنة عشر ومائة ، واسم أبيه يسار مولى لامرأة من الأنصار ، ومات وله تسع وثمانون سنة ، وقيل : تسعون سنة ، وكان اكبر من محمد بن سيرين، ومات محمد بعده بمائة ليلة في هذه السنة وهو ابن احدى وثمانين سنة ،

---

١) في نسخة : ويقال : مات سنة ستة عشر ومائة .

وقيل : ابن ثمانين . وكان أولاد سيرين خمسة اخوة : محمد، وسعيد ، ويحيى، وخالد ، وأنس بني سيرين ، وسيرين مولى أنس بن مالك ، والخمسة قد رووا السنن ، ونقلت عنهم .

ووجدت أصحاب التواريخ متباينين ومختلفين غير متفقين في وفاة وهب ابن منبه ، ويكنى أبا عبد الله، فمنهم من ذكر وفاته على حسب ما قدمنا في هذا الباب ، ومنهم مَنْ رأى أنه مات سنة عشر ومائة بصنعاء، وكان من الابناء وهو ابن تسعين سنة .

وفي سنة خمس عشرة ومائة ، مات الحكم بن عتبة الكندي ، وقيل : انه مات فيها عطاء بن أبي رباح .

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائة مات أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن عبد الله بن شهاب الزهريّ ، وذكر الواقدي أنه مات سنة أربع وعشرين ومائة .

وليزيد بن عبد الملك أخبار حسان ، ولما كان في أيامه من الكوائن والاحداث ، وقد أتينا على مبسوط ذلك في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط، وإنما ذكرنا وفاة من سمينا من أهل العلم ونقلة الآثار وحملة الاخبار ليكون ذلك زيادة في فائدة الكتاب ، فتكون فوائده عامة ؛ إذ كان الناس في أغراضهم متباينين ، وفيما يليمونه من مأخذ العلم مختلفين : فمنهم طالبُ خبرٍ ومقلد لأثر ، ومنهم ذو بحث ونظر ، ومنهم صاحب حديث ، ومنقر عن علل ، ومراع لوفاة مثل من ذكرنا ، فجعلنا فيه لكل ذي رأي نصيباً وبالله التوفيق .

ذكر

أيام هشام بن عبد الملك بن مروان

موجز : ويويع هشام بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه أخوه يزيد ابن عبد الملك وهو يوم الجمعة لخمس بَقِينَ من شوال سنة خمس ومائة ، وقبض يزيد وله يومئذ ثمان وثلاثون سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وتوفي هشام بن عبد الملك بالرصافة من أرض قنسرين يوم الاربعاء لست خَلَوْنَ من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فكانت ولايته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحدى عشرة ليلة .

ذكـــر

لمع من أخباره ، وسيره

أوصافه وأخلاقه : وكان هشام أحْوَلَ خشناً فظاً غليظاً، يَجْمَع الأموال، ويعمر الأرض ، ويستجيد الخيل ، وأقام الحَلْبَة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ، ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس، وقد ذكرت الشعراء ما اجتمع له من الخيل، واستجاد الكُسَى[1] والفُرُشَ ، وعُدَدَ الحرب ولأمتها واصطنع الرجــال ، وقَوَّى الثغور ، واتخذ القنى والبرك بطريق مكة ، وغير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود ابن علي في صدر الدولة العباسية .

وفي أيامه عمل الخز والقطف الخز ، فسلك الناس جميعاً في أيامه مذهبه ، ومنعوا ما في أيديهم ، فقلّ الإفضال ، وانقطع الرِّفْد ، ولم ير زمان أصعب من زمانه .

---

١) في نسخة : واستجاد الكساء والفرش .

استشهاد زيد بن علي : وفي أيامه استشهد زيد بن علي بن الحسين بن علي كرم الله وجهه ، وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل بل في سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقد كان زيد بن علي شاوَرَ أخاه أبا جعفر بن علي ابن الحسين بن علي فأشار عليه بأن لا يركن الى أهل الكوفة ؛ إذ كانوا أهل غدر ومكر ، وقال له : بها قتل جدك علي ، وبها طعن عمك الحسن ، وبها قتل أبوك الحسين ، وفيها وفي أعمالها شُتِمْنَا أهلَ البيت ، وأخبره بما كان عنده من العلم في مدة ملك ابن مروان ، وما يتعقبهم من الدولة العباسية ، فأبى إلا ما عزم عليه من المطالبة بالحق ، فقال له : إني أخاف عليك يا أخي أن تكون غدا المصلوبَ بكُنَاسة الكوفة ، وودعه أبو جعفر ، وأعلمه أنهما لا يلتقيان .

وقد كان زيد دخل على هشام بالرصافة ، فلما مثل بين يديه لم ير موضعاً يجلس فيه ، فجلس حيث انتهى به مجلسه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، ليس أحد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله ، فقال هشام : اسكت لا أم لك ، أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة ، وأنت ابن أمة ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن لك جوابا إن أحببت أجبتك به ، وإن أحببت أمسكت[1] عنه ، فقال : بل أجب ، قال : إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات ، وقد كانت أم إسماعيل أمةً لأم إسحاق صلى الله عليهما وسلم ، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبياً ، وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صُلْبه خير البشر محمداً صلى الله عليه وسلم ، فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي ، وقام وهو يقول :

شَرَّدَهُ الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حر الجلاد
منخرق الكفين يشكو الجوى ... تنكثه أطراف مَرْوٍ حداد
قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد

---

١) في نسخة : وان شئت ان اسكت سكت عنك .

إن يُحدِث الله له دولة يترك آثار العدا كالرماد

فمضى عليها الى الكوفة وخرج عنها ، ومعه القراء والأشراف ، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي ، فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد ، وبقي في جماعة يسيرة ، فقاتلهم أشدّ قتال ، وهو يقول متمثلاً :

أذلّ الحياة وعز الممات وكُلّاً أراه طعاماً وبيلا

فإن كان لا بد من واحد فسيري إلى الموت سيراً جميلا

وحال المساء بين الفريقين ، فراح زيد مثخناً بالجراح[1]، وقد أصابه سهم في جبهته، فطلبوا من ينزع النصل ، فأتي بحجام من بعض القرى،فاستكتموه امره ، فاستخرج النصل ، فمات من ساعته ، فدفنوه في ساقية ماء ، وجعلوا على قبره التراب والحشيش ، وأجري الماء على ذلك ، وحضر الحجام مواراته فعرف الموضع ، فلما أصبح مضى الى يوسف متنصحاً ، فدله على موضع قبره ، فاستخرجه يوسف ، وبعث برأسه الى هشام ، فكتب اليه هشام : ان اصلبه عرياناً ، فصلبه يوسف كذلك،ففي ذلك يقول بعض شعراء بني أمية يخاطب آل أبي طالب وشيعتهم من ابيات :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم أر مهدياً على الجذع يصلب

وبنى تحت خشبته عموداً ، ثم كتب هشام الى يوسف يأمره بإحراقه وذروه في الرياح .

صنيع العباسيين بقبور الامويين : قال المسعودي : وحكى الهيثم بن عدي الطائي ، عن عمرو بن هانيء ، قال : خرجت مع عبدالله بن علي لنبش قبور بني أمية في ايام ابي العباس السفاح ، فانتهينا الى قبر هشام ، فاستخرجناه صحيحاً ما فقدنا منه الا خورمة[2] أنفه، فضربه عبدالله بن علي ثمانين سوطاً، ثم احرقه ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئاً الا صلبه وأضلاعه ورأسه ، فاحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية ، وكانت

١) في نسخة: وانصرف زيد مثخنا بالجرح . ٢)في نسخة : حشمة انفه .

قبورهم بقنسرين ، ثم انتهينا الى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك ، فما وجدنا في قبره قليلا ولا كثيراً ، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا الا شؤون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا فيه الا عظماً[١] واحداً ووجدنا مع لحده خطاً أسود كأنما خط بالرماد في الطول في لحده ، ثم اتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم .

وانما ذكرنا هذا الخبر في هذا الموضع لقتل هشام زيد بن علي[٢]، وما نال هشاما من المثلة بما فعل بسلفه من الاحراق كفعله بزيد بن علي .

وقد ذكر ابو بكر بن عياش وجماعة من الأخباريين أن زيداً مكث مصلوباً خمسين شهرا عريانا ، فلم ير له احد عورة ، سترا من الله له ، وذلك بالكناسة بالكوفة فلما كان في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك وظهر ابنه يحيى بن زيد بخراسان كتب الوليد الى عامله بالكوفة : أن احرق زيداً بخشبته ، ففعل ذلك به ، وأذري رماده في الرياح على شاطيء الفرات .

فرق الزيدية من الشيعة : وقد اتينا في كتابنا المقالات في اصول الديانات، على السبب الذي من اجله سميت الزيدية بهذا الاسم ، وان ذلك بخروجهم مع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، هذا ، وقد قيل غير ذلك مما قد اتينا عليه فيما سلف من كتبنا، والخلاف بين الزيدية والإمامية والفرق بين هذين المذهبين وكذلك غيرهم من فرق الشيعة وغيرهم وقد ذكر جماعة من مصنفي كتب المقالات والآراء والديانات من آراء الشيعة وغيرهم كأبي عيسى محمد بن هارون الوراق وغيره ، أن الزيدية كانت في عصرهم ثمانية فرق أولها الفرقة المعروفة بالجارودية ، وهم اصحاب ابي الجارود زياد بن المنذر العبدي ، وذهبوا الى ان الامامة مقصورة في ولد الحسن والحسين دون غيرهما، ثم الفرقة الثانية المعروفة بالمرئية[٣] ، ثم الفرقة الثالثة المعروفة بالأبرقية ، ثم الفرقة الرابعة المعروفة باليعقوبية ، وهم أصحاب يعقوب بن علي الكوفي ، ثم الفرقة الخامسة المعروفة بالعقبية ، ثم الفرقة السادسة المعروفة بالأبترية ، وهم اصحاب كثير الأبتر والحسن بن صالح بن يحيى ، ثم الفرقة السابعة المعروفة

١) في نسخة : فما وجدنا منه الا عظماً واحداً .
٢) في نسخة : لفعل هشام بزيد بن علي .
٣) في نسخة : المعروفة برثدية .

بالجريرية ، وهم اصحاب سليان بن جرير ، ثم الفرقة الثامنة المعروفة باليانية ، وهم اصحاب محمد بن اليان الكوفي ، وقد زاد هؤلاء في المذهب ، وفرعوا مذاهب على ما سلف من اصولهم وكذلك فرق اهل الامامة فكانوا على ما ذكر من سلف من اصحاب الكتب ثلاثاً وثلاثين فرقة ، وقد ذكرنا تنازع القطيعية بعد مضي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وما قالت الكيسانية ، وما تباينت فيه وغيرها من سائر طوائف الشيعة ، وهم ثلاث وسبعون فرقة ، دون ما تباينوا فيه من التفريع ، وتنازعوا فيه من التأويل ، والغلاة أيضا ثمان فرق : المحمدية منهم أربع ، والمعتزلة أربع ، وهم العلوية ، ولولا أن كتابنا هذا كتاب خبر لبسطنا من مذاهبهم ووصفنا من آرائهم ما تقدم قبلنا وحدث في وقتنا هذا ، وما قالوه من دلائل ظهور المنتظر الموعود بظهوره ، وما ذهب إليه كل فريق منهم في ذلك من أصحاب الدور والسرو[1] والتشريق ، وغيرهم من أهل الإمامة .

بين هشام ورجل من اهل حمص : وعرض هشام يوماً الجند بحمص ، فمر به رجل من أهل حمص وهو على فرس نفور ، فقال له هشام : ما حملك على أن تربط فرسا نفوراً ؟ فقال الحمصي : لا والرحمن الرحيم يا أمير المؤمنين ، ما هو بنفور ، ولكنه أبصر حولتك فظن أنها عين غزوان البيطار ، فقال له هشام : تنح فعليك وعلى فرسك لعنة الله ، وكان غزوان البيطار نصرانيا ببلاد حمص كأنه هشام في حولته وكشفته .

هشام والابرش الكلبي وجارية من جواري هشام : وبينا هشام ذات يوم جالسا خاليا وعنده الابرش الكلبي إذ طلعت وصيفة لهشام عليها حلة ، فقال للأبرش : مازحها ، فقال لها الأبرش : هبي لي حلتك ، فقالت له : لأنت أطمع من أشعب ، فقال لها هشام : ومَن أشعب ؟ فقالت : كان مضحكا

---

١) في نسخة : والثروة .

بالمدينـــة ، وحدثته بعض احاديثه ، فضحك هشام ، وقال : اكتبوا الى إبراهيم بن هشام ، وكان عامله على المدينة ،في حمله إلينا ، فلما ختم الكتاب أطرق هشام طويلاً ، ثم قال : يا أبرش ، هشام يكتب الى بـلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمل اليه منه مضحك ، لا ها الله ، ثم تمثل :

اذا انت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيه عليك مقـــال

وأوقف[1] الكتاب .

أمثلة من بخل هشام : وذكر أن هشاما أهدى له رجل طائرين ، فأعجب بهما ؛ فقال له الرجل : جائزتي يا أمير المؤمنين ، قال ويلك ومـــا جائزة طائرين ؟ قال له : مـــا شئت ، قال: خذ احدهما ، فقصد الرجل لأحسنهما فأخذه ، فقال له هشام : وتختار أيضا ؟ قال : نعم والله أختار ؛ فقـال : دعْه ، وأمر له بدريهمات .

ودخل هشام بستاناً له ومعه ندماؤه فطافوا به ، وبـــه من كل الثمار ، فجعلوا يأكلون ويقولون : بارك الله لأمير المؤمنين ، فقال : وكيف يبارك لي فيه وأنتم تأكلونه ؟! ثم قال : ادع قيمه ، فدعا به ، فقـــال : اقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه احد شيئا .

وكتب اليه ابنه سليمان : إن بغلتي قد عجزت ، فإن رأى امير المؤمنين ان يأمر لي بدابة ، فكتب إليه هشام : قد فهم أمير المؤمنين كتابك ، وما ذكرت من ضعف دابتك ، وقد ظن أن ذلك من قلة تعاهدك لعلفها وضياع العلف ، فقم عليها بنفسك ، ولعلّ امير المؤمنين يرى رأيه في حملانك .

ونظر هشام الى رجل على برذون طخاري ، فقال : من أين لـــك هذا ؟ قال : حملني عليه الجنيد بن عبد الرحمن ، قال : وقد كثرت الطخارية حتى ركبها العامة ؟ لقد مات عبد الملك وفي مربطه برذون واحـــد طخاري ،

---

١) في نسخة : ومزق الكتاب .

فتنافس فيه ولده ، حتى ظن مَن فاتـــه أن الخلافة فاتته ، قال الرجل : فحسدني إياه[١] .

وقد كان أخوه مسلمة مازحه قبل أن يلي الأمر ، فقال له : : يا هشام ، أتؤمل الخلافة وانت جبان بخيل ! فقال : والله إني عليم حليم .

السواس من بني امية : وذكر الهيثم بن عديّ والمدائني وغيرهما ان السُّواس من بني أمية ثلاثة : معاوية ، وعبد الملك ، وهشام ، وختمت بــه أبواب السياسة وحسن السيرة ، وأن المنصور كان في اكثر اموره وتدبــيره وسياسته متبعا لهشام بن عبد الملك في افعاله ، لكاثرة ما كشفه عن اخبار هشام وسيره[٢] .

وقد أتينا على غرر أخباره وسيره وسياسته ، وما حفظ من أشعاره وخطبه ، وما كان في أيامه في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط ، وكذلك ذكرنا بدء الكلام الذي أثار تصنيف الكتاب المعروف بكتاب الواحدة في مناقب العرب ومثالبها مفردة لا يشاركها فيها غيرها ، وما أضيف إلى كل حي من أحياء العرب من قحطان وغيرهم من نزار ، وما جرى في مجلس هشام في أوقات مختلفة بين الأبرش الكلبي والعباس بن الوليد بن عبد الملك ،وخالد ابن مسلمة المخزومي والنضر بن مريم الحميري ، وما أورده الحميري من مناقب قومه من حِمْير وكهْلان،وما اورده المخزومي من مناقب قومهمن نزار بن معد ابن عدنان،وما ذكره كل واحد منهم من المثالب فيا عدا قومه وبان عن عشيرته ورَهطه ، وقد قيل : إن هذا الكتاب ألفه أبو عبيدة معمر بن المثنّى مولى آل تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ، على لسان من ذكرنا ، وعزاه إلى من وصفنا ، أو غيره من الشعوبية .

---

١) في نسخة : تحسدني اياه ,

٢) في نسخة: عن أخبار هشام وسيرته .

ذكر

أيام الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان

موجز : وبويع الوليد بن يزيد في اليوم الذي توفي فيه هشام ، وهو يوم الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، ثم قتل بالبخراء يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة ، فكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً ، وقتل وهو ابن اربعين سنة ، والموضع الذي قتل فيه دفن فيه ، وهي قرية من قرى دمشق تعرف بالبخراء ، على ما ذكرنا ، وقد أتينا على خبر مقتله في كتابنا الأوسط.

ذكر

لمع من اخباره ، وسيره

ظهور يحيى بن زيد ومقتله : ظهر في أيام الوليد بن يزيد : يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، بالجوزجان من بلاد خراسان ، منكراً للظلم وما عم الناس من الجور ، فسير إليه نصر بن سيار سلم بن أحوز المازني ، فقتل يحيى في المعركة بقرية يقال لها ارعونة ، ودفن هنالك ، وقبره مشهور مزور إلى هذه الغاية ، وليحيى وقائع كثيرة ، وقتل في المعركة بسهم أصابه في صدغه ، فولى اصحابه عنه يومئذ ، واحتز رأسه[1] ، فحمل الى الوليد ، وصلب جسده بالجوزجان ، فلم يزل مصلوباً

---

١) في نسخة :واجتز رأسه .

إلى ان خرج ابو مسلم صاحب الدولة العباسية ، فقتل ابو مسلم سلم بن أحوز ، وأنزل جثة يحيى فصلى عليها في جماعة أصحابه ودفنت هناك ، وأظهر اهل خراسان النيّاحة على يحيى بن زيد سبعة أيام في سائر اعمالها في حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بني أمية ، ولم يولد في تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمي بيحيى او بزيد ، لما داخل اهل خراسان من الجزع والحزن عليه .

وكان ظهور يحيى في آخر سنة خمس وعشرين ،وقيل : في أول سنة ست وعشرين ومائة،وقد أتينا على أخباره وما كان من حروبه في الكتاب الأوسط وفي غيره مما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن إعادته .

وكان يحيى يوم قتل يكثر من التمثل بشعر الخنساء :

نهينُ النفوس ، وهون النفو س يوم الكريهة أوفى لها(۱)

لهو الوليد وخلاعته : وكان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء ، وهو أول من حمل المغنين من البلدان اليه ، وجالس الملهين ، وأظهر الشرب والملاهي والعزف ، وفي أيامه كان ابن سريج المغني،ومعبدٌ ، والغريض ، وابن عائشة ، وابن محرز ، وطويس ، ودحمان ، وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه ، وعلى الخاص والعام ، واتخذ القيان ، وكان متهتكا ماجناً خليعاً ، وطرب الوليد لليلتين خلتا من ملكه وأرق فأنشأ يقول :

طال ليلي وبتُّ أسقى السّلافه وأتاني نعيّ مَنْ بالرّصافه
وأتاني ببردة وقضيب وأتاني بخاتم الخلافه

ومن مجونه قوله عند وفاة هشام ، وقد أتاه البشير بذلك ، وسلم عليه بالخلافة ، فقال :

إني سمعت ، خليلي ، نحو الرصافة رنّه
أقبلت أسحبُ ذيلي أقول : ما حالهنّه

---

۱) في بعض النسخ : نهين النفوس وهول النفوس .

إذا بنات هشام يندبن والدهنه
يدعون ويلاً وعولاً والويلُ حلّ بهنّه
أنا المُخنّثُ حقاً إن لم أنيكَنّهُنّه

وقيل للوليد : ما بقي من لذاتك؟ قال : محادثة الإخوان في الليالي القمر، على الكثبان العُفر .

الوليد وشراعة بن زيد : وبلغ الوليد عن شراعة بن زيد ورود حسن عشرة وحلاوة مجالسة ، فبعث في إحضاره ، فلما أُدخل اليه قال : إني ما بعثت اليك لأسألك عن كتاب ولا سُنة ، قال : ولست من أهلها ، قال : إنما اسألك عن القهوة ، قال : سل عن اي ذلك شئت يا أمير المؤمنين ، قال : ما تقول في الشراب؟ قال : عن أيه تسأل ؟ قال : ما تقول في الماء ؟ قال : يشاركني فيه البغل والحمار ، قال : فنبيذ الزبيب ؟ قال : خمار وأذى ، قال : فنبيذ التمر ؟ قال:ضراط كله ، قال : فالخمر ؟ قال : شقيقة روحي ، وأليفة نفسي ، قال : فما تقول في السماع ؟ قال : يبعث مع التأني على ذكر الأشجان ، ويجدّد اللهو[1] على مواقع الأحزان ، ويؤنس الخليّ الوحيد ، ويسرّ العاشق الفريد ، ويبرد غليل القلوب ، ويثير من خواطر الضمائر خطرة ليست من الملاهي لغيره ، يسرع ترقيها في أجزاء الجسد، فتهيج النفس ، وتقوي الحس ، قال : فأي المجالس أحب اليك ؟ قال:ما رأيت فيه السماء من غير أن ينالني فيه اذى ، قال : فما تقول في الطعام ؟ قال : ليس لصاحب الطعام اختيار ما وجده اكله ، فاتخذه الوليد نديماً .

مَن قوله في الشراب : ومن مليح قوله في الشراب من أبيات :

وصفراءَ في الكأس كالزّعفران سباها لنا التجرُ من عسقلان
تريك القذاة وعرض الإنا ء ستر لها دون مسّ البنان

---

١) في نسخة : ويحدر النهي عن مواقع الأحزان .

لها حَبَبٌ كلما صُفِّقت تراها كلمعة برق يماني

ومن مجونه أيضاً على شرابه قوله لساقيه :

اسقني يا يزيد بالقرقاره قد طربنا وحنّتِ الزمّاره
اسقني اسقني ؛ فإن ذنوبي قد احاطت فما لها كفّاره

سمير الوليد يتحدث عنه : وأخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي القاضي ، عن محمد بن سلام الجمحي ، قال : حدثني رجل من شيوخ اهل الشام عن أبيه ، قال : كنت سميراً للوليد بن يزيد[١] ، فرأيت ابن عائشة القرشي عنده وقد قال له : غنني ، فغناه :

اني رأيت صبيحة النحر حوراً نفين عزيمة الصبر
مثل الكواكب في مطالعها عند العشاء اطفن بالبدر
وخرجت أبغي الأجر محتسباً فرجعت موقوراً من الوزر

فقال له الوليد : أحسنت والله يا أميري ، أعد بحق عبد شمس ، فأعاد ، فقال : أحسنت والله ، بحق أمية أعد ، فأعاد ، فجعل يتخطى من أب إلى أب ويأمره بالإعادة ، حتى بلغ نفسه ، فقال : أعد بحياتي ، فأعاد ، فقام إلى ابن عائشة فأكبّ عليه ولم يُبق عضواً من أعضائه الا قبله ، وأهوى إلى أيره يقبله ، فجعل ابن عائشة يضم ذكره بين فخذيه ، فقال الوليد : والله لا زلت حتى أقبله ، فأبرأه فقبل رأسه وقال : واطرباه واطرباه ، ونزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة ، وبقي مجرداً الى ان اتوه بثياب غيرها[٢] ، ودعا له بألف دينار فدفعت إليه ، وحمله على بغلة له وقال : اركبها على بساطي وانصرف فقد تركتني على أحر من جمر الغَضَى .

ورث الوليد الخلاعة عن يزيد أبيه : قال المسعودي : وقد كان ابن عائشة غنّى بهذا الشعر يزيدَ بنَ عبدِ الملك أباه فأطربه ، وقيل : إنه أحد

---

١) في نسخة: كنت صاحب سائر الوليد بن يزيد . ٢) في نسخة: الى ان جاءوه بثياب غيرها.

وكفر في طربه ، وكان فيما قال لساقيه : اسقنا بالسماء الرابعة ، فكأن الوليد ابن يزيد قد ورث الطرب في هذا الشعر عن أبيه ، والشعر لرجل من قريش ، والغناء لابن سريج ، وقيل : لمالك ، على حسب ما في كتب الأغاني من الخلاف في ذلك بما ذكره إسحاق بن إبراهيم الموصلي في كتابه في الأغاني وإبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة في كتابه في الأغاني أيضاً ، وغيرهما ممن صنف في هذا المعنى ، والوليد يُدعى خليع بني مروان .

فعله بالمصحف وقد استفتح به : وقرأ ذات يوم (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويُسقى من ماء صديد) فدعا بالمصحف فنصبه غرضاً للنشاب ، وأقبل يرميه وهو يقول :

أتوعدُ كلَّ جبار عنيدٍ فها أنا ذاك جبار عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب خرّقني الوليد

شعر له ألحد فيه : وذكر محمد بن يزيد المبرد النحوي أن الوليد ألحد في شعر له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الوحي لم يأته عن ربه ، كذب أخزاه الله ! من ذلك الشعر :

تلعّبَ بالخلافة هاشمي بلا وحيٍ أتاه ولا كتاب
فقل لله يمنعني طعامي ، وقل لله يمنعني شرابي !

فلم يُمهَلْ بعد قوله هذا إلا أياماً حتى قتل .

نسب أمه : وأم الوليد بن يزيد : أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفية ، ويكنى أبا العباس .

من خواص اليشب : وقد كان حمل إليه جفنة من البلور – وقيل : من الحجر المعروف باليشب (١) – وقد ذهب جماعة من الفلاسفة إلى أن مَنْ

---

١) في نسخة : المعروف بالجمست .

شُرب فيه الخمر لا يسكر ، وقد ذكرنا خاصية ذلك في كتاب « القضايا والتجارب » ، وأن من وضع تحت رأسه منه قطعة أو كان فص خاتمه منه لم يرَ إلا رؤيا حسنة ، فأمر الوليد فملئت خمراً وطلع القمر وهو يشرب وندماؤه معه ، فقال : أين القمر الليلة ؟ فقال بعضهم : في البرج الفلاني ، فقال له آخر منهم : بل هو في الجفنة ، وقد كان القمر تبين في شعاع الجوهر وصورته في ذلك الشراب، فقال له الوليد : والله ما تعدّيت[1] ما في نفسي ، وطرب طرباً شديداً ، وقال : لأصطبحَنّ ، هفت هفته ، وهذا كلام فارسي تفسيره لأصطبحن سبعة أسابيع ، فدخل عليه بعض حجابه فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بالباب جمعاً من وفود العرب وغيرهم من قريش ، والخلافة تجلُّ عن هذه المنزلة ، وتبعد عن هذه الحال ، فقال : اسقوه ، فأبى ، فوضع في فمه قِمَعٌ وجعلوا يسقونه حتى خرَّ ما يعقل سكراً .

وقد كان أبوه أراد أن يعهد إليه ، فلاستصغاره لسنه عهد إلى أخيه هشام ، ثم إلى الوليد من بعده .

كان مغرى بالخيل : وكان الوليد مُغرًى بالخيل وحبها وجمعها ، وإقامة الحَلْبة ، وكان السندي فرسه جواد زمانه ، وكان يسابق به في أيام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد، وربما ضامّه، وربما جاء مصلياً .

مراتب خيل الحلبة : وهاك مراتب السوابق من الخيل إذا جرت ، فأولها السابقُ ، ثم المُصلّى ، وذلك أن رأسه عند صَلا السابق ، ثم الثالث والرابع ، وكذلك الى التاسع ، والعاشر السُّكَّيت ، مشدد ، وما جاء بعد ذلك لم يعتد به ، والفِسكِل : الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل .

واجرى الوليد الخيل بالرصافة ، وأقام الحلبة ، وهي يومئذ ألف قارح ،

---

١) في نسخة : والله ما عدوت ما في نفسي .

ووقف بها ينتظر الزائد ، ومعه سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان له فيها جواد يقال له المصباح [١] ، فلما طلعت الخيل قال الوليد :

خيلي وربِّ الكعبة المحرمه سبقن أفراس الرجال اللُّؤَّمه

كما سبقناهم وحُزْنا المكرمه

كذاك كنا في الدهور القدمه أهل العلا والرتب المعظمه

فأقبل فرس ابن الوليد – ويقال له : الوضاح – أمام الخيل ، فلما دنا صرع فارسه وأقبل المصباح فرسُ سعيدٍ يتلوه وعليه فارسه ، وهو فيما يرى سعيد يعد سابقاً ، فقال سعيد ، والوليد يسمع :

نحن سبقنا اليوم خيل اللومه وصرّفَ الله إلينا المكرمه

كذاك كنا في الدهور القدمه أهل العلا والرتب المعظمه

فضحك الوليد لما سمعه ، وخشي ان تسبق فرس سعيد ، فركض فرسه حتى ساوى الوضاح ، فقذف بنفسه عليه ، ودخل سابقاً ، فكان الوليد أول من فعل ذلك وسَنّه في الحلبة ، ثم تلاه في الفعل كذلك المهديُّ في أيام المنصور ، والهادي في أيام المهدي ، ثم عرضت على الوليد الخيل في الحلبة الثانية ، فمر به فرس لسعيد ، فقال : لا لسابقك يا أبا عنبسة ، وأنت القائل:

نحن سبقنا اليوم خيل اللومه

فقال سعيد : ليس كذا قلت يا أمير المؤمنين ، وإنما قلت :

نحن سبقنا اليوم خيلا لومه

فضحك الوليد ، وضمه إلى نفسه ، وقال : لا عَدِمَتْ قريش أخاً مثلك .

وللوليد بن يزيد أخبار حسان في جمعه الخيول في الحَلْبة ، فإنه اجتمع له في الحلبة ألف قارح ، وجمع بين الفرس المعروف بالزائد والفرس المعروف

---

١) في نسخة: جواد يسمى المصباح .

بالسندي وكانا قد برزا في الجري على خيول زمانها ، وقد ذكر ذلك جماعة من الأخباريين وأصحاب التواريخ ، مثل ابن عفير والأصمعي وأبي عبيدة وجعفر بن سليمان ، وقد أتينا على الغرر من أخباره في أخبار الخيل، وأخبار الحلبْات ، وخبر الفرس المعروف بالزائد والسندي وأشقر مروان ، وغير ذلك من أخبار من سلف من الأمويين ، ومن تأخر ، في كتابنا المترجم بالأوسط ، وإنما الغرض من هذا الكتاب إيراد جوامع تاريخهم ، ولمع من أخبارهم وسيرهم ، وكذلك أتينا على ذكر ما يستحب من معرفة خلق الخيل وصفاتها من سائر أعضائها وعيوبها [١] وخلقها ، والشاب منها والهرم ، ووصف ألوانها ودوائرها ، وما يستحسن من ذلك ، ومقادير أعمارها ، ومنتهى بقائها ، وتنازع الناس في أعداد هذه الدوائر ، والمحمودة منها والمذمومة ، ومَنْ رأى أنها ثمانيَ عشرةَ أو أقل من ذلك أو أكثر على حسب ما أدرك من طرق العادات بها والتجارب ، ووصف السوابق من الخيل ، وغير ذلك مما تكلم الناس به في شأنها وأعرافها ، فيما سلف من كتبنا .

وفاة أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين : وفي أيام الوليد بن يزيد كانت وفاة أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وقد تنوزع في ذلك : فمن الناس من رأى أن وفاته كانت في أيام هشام ، وذلك سنة سبعَ عشرة ومائة ، ومن الناس من رأى أنه مات في أيام يزيد ابن عبد الملك ، وهو ابن سبع وخمسين سنة ، بالمدينة ، ودفن بالبقيع مع أبيه علي بن الحسين ، وغيره مِنْ سلفه عليهم السلام ، مما سنورد ذكرهم فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، والله ولي التوفيق .

---

١) في بعض النسخ : وعيونها .

ذكر

أيام يزيد وابراهيم إبني الوليد

ابن عبد الملك بن مروان

موجز : ولي يزيد بن الوليد بدمشق[١] ليلة الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة ، فبايعه الناس بعد قتل الوليد بن يزيد ، وتوفي يزيد بن الوليد بدمشق يوم الأحد هلال ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة ، فكانت ولايته من مقتل الوليد بن يزيد إلى أن مات خمسة أشهر وليلتين ، وقد كان إبراهيم بن الوليد أخوه قام بالأمر من بعده ، فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر ، وقيل : شهرين ، ثم خُلِعَ ، وكانت أيامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط ، واختلاف الكلمة ، وسقوط الهيبة ، وفيه يقول بعض أهل ذلك العصر :

نبايع إبراهيم في كل جمعة ألا إن أمراً أنت واليهِ ضائعُ

ودفن يزيد بن الوليد بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير ، وهو ابن سبع وثلاثين سنة ، ويقال : ابن ست وأربعين سنة على الخلاف في ذلك .

---

١) في نسخة : ووثب يزيد بن الوليد بدمشق .

ذكر

لمع مما كان في أيامها

وصف يزيد الناقص : كان يزيد بن الوليد أحْوَلَ ، وكان يلقب بيزيد الناقص ، ولم يكن ناقصاً في جسمه ولا عقله ، وإنما نقَصَ بعضَ الجندِ من أرزاقهم ، فقالوا : يزيد الناقص ، وكان يذهب إلى قول المعتزلة وما يذهبون إليه في الأصول الخمسة : من التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والأسماء والأحكام ، وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قول المعتزلة في التوحيد : وتفسير قولهم فيما ذهبوا إليه من الباب الأول — وهو باب التوحيد — وهو ما اجتمعت عليه المعتزلة من البصريين والبغداديين وغيرهم ، وإن كانوا في غير ذلك من فروعهم متباينين ، من أن الله عز وجل لا كالأشياء ، وأنه ليس بجسم ولا عَرَض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر ، وأن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا ، ولا في الآخرة ، وأنه لا يحصره المكان ، ولا تحويه الأقطار ، بل هو الذي لم يزل ولا له زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حَدّ ، وأنه الخالق للأشياء المبدع لها لا من شيء ، وأنه القديم ، وأن ما سواه محدث .

قولهم في العدل : وأما القول بالعدل — وهو الأصل الثاني — فهو أن الله لا يحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهُوا

عنه[١] بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كره ، وأنه وليّ كل حسنة أمر بها ، بريء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم مالاً يطيقونه ، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه ، وأن أحداً لا يقدر على قبْض ولا بَسْط إلا بقدرة الله التي أعطاهم إياها ، وهو المالك لها دونهم ، يُفنيها إذا شاء ، ويُبقيها إذا شاء ، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ، ومعهم اضطرارياً عن معصيته ولكان على ذلك قادراً ، غير أنه لا يفعل ، إذ كان في ذلك رفع للمحنة ، وإزالة البلوى .

قولهم في الوعيد : أما القول بالوعيد — وهو الأصل الثالث — فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، وإنه لصادق في وعده ووعيده ، لا مبدل لكلماته .

قولهم في المنزلة بين المنزلتين : وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين — وهو الأصل الرابع — فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر ، بل يسمى فاسقاً ، على حسب ما ورد التوقيف بتسميته ، وأجمع أهل الصلاة على فسوقه .

قال المسعودي : وبهذا الباب سميت المعتزلة ، وهو الاعتزال ، وهو الموصوف بالأسماء والأحكام ، مع ما تقدم من الوعيد في الفاسق من الخلود في النار .

قولهم في الأمر بالمعروف : وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — وهو الأصل الخامس — فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب ، على حسب استطاعتهم في ذلك ، بالسيف فما دونه ، وإن كان كالجهاد ، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق .

فهذا ما اجتمعت عليه المعتزلة ، ومن اعتقد ما ذكرنا من هذه الأصول

---

١) في نسخة : ويجتنبوا ما نهوا عنه .

الخمسة كان معتزلياً ، فإن اعتقد الأكثر أو الأقل لم يستحق اسم الاعتزال ، فلا يستحقه إلا باعتقاد هذه الأصول الخمسة ، وقد تنوزع فيا عدا ذلك من فروعهم .

الاختلاف في الامامة : وقد أتينا على سائر قولهم في أصولهم وفروعهم وأقاويلهم وأقاويل غيرهم من فرق الأمة من الخوارج والمرجئة والرافضة والزيدية والحشوية وغيرهم في كتابنا « المقالات في أصول الديانات » وأفردنا بذلك كتابنا المترجم بكتاب « الإبانة » اجتبيناه لأنفسنا ، وذكرنا فيه الفرق بين المعتزلة وأهل الإمامة ، وما بان به كل فريق منهم عن الآخر ، إذ كانت المعتزلة وغيرها من الطوائف تذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينصّ على رجل بعينه ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا اجتمع المسلمون عندهم على رجل بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوّضٌ إلى الأمة تختار رجلاً منها ينفذُ فيها أحكامه ، سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان ، ولم يراعوا في ذلك النسبَ ولا غيرَه ، وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك .

والذي ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز في قريش وغيرهم من النـــاس هو المعتزلة بأسرها ، وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن يحيى ، ومن قال بقوله ، على حسب ما قدمنا من ذكرهم فيا سلف من هـــذا الكتاب في أخبار هشام .

ويوافق على هذا القول جميعُ الخوارج من الأباضية وغيرهم ، إلا النجدات من فرق الخوارج ، فزعموا أن الإمامة غير واجب نصبها ، ووافقهم على هذا القول أناسٌ من المعتزلة ممن تقدم وتأخّر ، إلا أنهم قالوا : إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج إلى إمام .

وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها ؛ منها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو أن سالماً حي ما داخلتني فيه الظنون، وذلك حين فوّضَ

الأمر إلى أهل الشورى ، قالوا : وسالم مولى امرأة من الأنصار ، فلو لم يعلم عمر أن الإمامة جائزة في سائر المؤمنين لم يطلق هذا القول ، ولم يتأسف على موت سالم مولى أبي حذيفة .

قالوا : وقد صح بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة ، منها قوله « اسمعوا واطيعوا ولو لعبد أجْدَعَ » ، وقد قال الله عز وجل : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وذهب أبو حنيفة ، وأكثر المرجئة، وأكثر الزيدية من الجارودية وغيرها، وسائر فرق الشيعة والرافضة والراوندية ، إلى أن الإمامة لا تجوز إلا في قريش فقط ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم « الإمامة في قريش » وقوله عليه السلام : « قدّموا قريشاً ولا تقدّموها » ، ولما احتج المهاجرون به على الأنصار يوم سقيفة بني ساعدة من أن الإمامة في قريش لأنهم إذا ولوا عدلوا، ولرجوع كثير من الأنصار إلى ذلك .

ولما انفرد به أهل الإمامة من أن الإمامة لا تكون إلا نصاً من الله ورسوله على عين الإمام واسمه واشتهاره كذلك ، وفي سائر الأعصار لا تخلو الناس من حجة لله فيهم ظاهراً أو باطناً ، على حسب استعماله التقية والخوف على نفسه ، واستدلوا بالنص على الإمامة، وبدلائل كثيرة من العقول وجوامع من النصوص في وجوبها ، وفي النص عليهم ، وفي عصمتهم ، من ذلك قوله عز وجل مخبراً عن إبراهيم : (إني جاعلك للناس إماماً) ومسألة إبراهيم بقوله : (ومن ذريتي) وإجابة الله له بأنه (لا ينال عهدي الظالمين) .

قالوا : ففيم تلونا دلائل على أن الإمامة نص من الله ، ولو كان نصها إلى الناس ما كان لمسألة إبراهيم ربه وجه ، ولما كان الله قد أعلمه أنه اختاره ، وقوله (لا ينال عهدي الظالمين) دلالة على أن عهده يناله من ليس بظالم.

ووصف هؤلاء الإمام فقالوا : نعت الإمام في نفسه أن يكون معصوماً

من الذنوب ؛ لأنه إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب ؛ فيحتاج أن يقام عليه الحد ، كما يقيمه هو على غيره ، فيحتاج الإمام إلى إمام ، إلى غير نهاية ، ولم يؤمن عليه أيضاً أن يكون في الباطن فاسقاً فاجراً كافراً ؛ وأن يكون أعلم الخليقة ؛ لأنه إن لم يكن عالماً لم يؤمن عليه أن يقلب شرائع الله وأحكامه ، فيقطع من يجب عليه الحد ، ويحد من يجب عليه القطع ، ويضع الأحكام في غير المواضع التي وضعها الله ، وأن يكون أشجعَ الخلق ؛ لأنهم يرجعون إليه في الحرب ، فإن جبن وهرب يكون قد باء بغضب من الله ، وأن يكون أسخى الخلق ؛ لأنه خازن المسلمين وأمينهم ، فان لم يكن سخياً تاقت نفسه إلى أموالهم ، وشَرِهَتْ إلى ما في أيديهم ، وفي ذلك الوعيد الشديد بالنار ، وذكروا خصالاً كثيرة ينال بها أعلى درجات الفضل لا يشاركه فيها أحد ، وأن ذلك كله وجد في علي بن أبي طالب وولده رضي الله عنهم : من السبق إلى الإيمان ، والهجرة ، والقرابة ، والحكم بالعدل ، والجهاد في سبيل الله ، والورع ، والزهد ، وأن الله قد أخبر عن بواطنهم وموافقتها لظواهرهم بقوله عز وجل ، ووصفه لهم فيما صنعوه من الإطعام للمسكين واليتيم والأسير ، وأن ذلك لوجهه تعالى خالصاً ، لا أنهم أبْدَوْهُ بألسنتهم فقط وأخبر عن أمرهم في المنقلب ، وحسن المَوْئِلِ في المحشر ، ثم إخباره عز وجل عما أذهب عنهم من الرجس وفعل بهم من التطهير ، وغير ذلك مما أوردوه دلائل لما قالوه ، وأن علياً نص على ابنه الحسن ، ثم الحسين ، والحسين على علي بن الحسين ، وكذلك مَنْ بعده إلى صاحب الوقت الثاني عشر ، على حسب ما ذكرنا وسمينا في غير هذا الموضع من هذا الكتاب .

ولأهل الإمامة من فرق الشيعة في هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - كلام كثير في الغيبة واستعمال التقية ، وما يذكرونه من أبواب الأئمة والأوصياء ، لا يسعنا إيراده في هذا الكتاب ، إذ كان كتاب خبر ،

وإنما تغلغل بنا الكلام إلى إيراد لمع من هذه المذاهب والآراء .

وكذلك ما عليه غير أهل الإمامة من أصحاب الدور والسيرورة[١]، وما يراعونه من الظهور ، وقد أتينا على جميع ذلك فيا سلف من كتبنا ، وما وصفنا فيها من الأقاويل في الظاهر والباطن والسائر والدائر والوافر[٢] ، وغير ذلك من أمورهم وأسرارهم .

قال المسعودي : وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع شائعة[٣] من المعتزلة وغيرهم من أهل دَارَيّا والمِزَّة من غوطة دمشق على الوليد بن يزيد، لما ظهر من فسقه ، وشمل الناس من جوره ، فكان من خبر مقتل الوليد ما قد ذكرناه فيا سلف من كتبنا مفصلاً ، وذكرناه في هذا الكتاب مجملاً .

أم يزيد أم ولد : وكان يزيد بن الوليد أول من ولي هذا الأمر وأمُّهُ أمُّ ولد ، وكانت أمه سارية بنت فيروز بن كسرى ، وهو الذي يقول في ذلك :

أنا ابنُ كِسرى وأبي مَروان   وقيصرٌ جَدِّي وجدِّي خاقان

وكان يكنى بأبي خالد ، وأم أخيه إبراهيم أم ولد تدعى بدبرة. والمعتزلة تفضل في الديانة يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز ، لمـــا ذكرناه من الديانة .

ظهور مروان بن محمد (الحمار) : وفي سنة سبع وعشرين ومائة أقبل مَروان بن محمد بن مروان من الجزيرة فدخل دمشق ، وخرج إبراهيم بن الوليد هارباً من دمشق ، ثم ظفر به مروان فقتله وصلبه ، وقتل مَنْ مالأه ووالاه ، وقتل عبد العزيز بن الحجاج ، ويزيد بن خالد القَسْري ، وبدأ أمر بني أمية يؤول إلى ضعف .

---

١) في نسخة : من أصحاب دين الهجرة والمشورة .   ٣) في نسخة : مع سابقة .
٢) » » : والواقف .

وذكر اليحصبي عن الخليل بن إبراهيم السبيعي ، قال : سمعت ابن الجمحي يقول : قال لي العلاء ابن بنت ذي الكلاع : إنه كان مؤانساً لسليمان ابن عبد الملك لا يكاد يفارقه ، وكان أمر المسوّدة بخراسان والمشرق قد بان ، ودنا من الجبل ، وقرب من العراق ، واشتد إرجافُ الناس ، ونطق العدو بما أحب في بني أمية وأوليائهم ، قال العلاء : فإني لَسَمَحَ سليمان وهو يشرب حذاء رصافة أبيه ، وذلك في آخر أيام يزيد الناقص ، وعنده حكم الوادي ، وهو يغنّيه بشعر العَرْجِيّ :

إن الحبيبَ تَرَوّحَتْ أجمالُهُ أصُلاً ؛ فدمعك دائم إسبالُهُ
إقنَ الحياء فقد بكيتَ بعَوْلَةٍ لو كان ينفع باكياً إعوالُهُ
يا حبّذا تلك الحمول ، وحبّذا شخصٌ هناك ، وحبّذا أمثالُهُ

فأجاد بما شاء ، فشرب سليمان بالرطل ، وشربنا معه ، حتى توسدنا أيدينا ، فلم أنتبه إلا بتحريك سليمان إياي ، فقمت إليه مسرعاً ، فقلت له : ما شأن الأمير ؟ فقال لي : على رِسْلِكِ ، رأيت كأني في مسجد دمشق ، وكأن رجلاً في يده خنجر وعليه تاج أرى بصيص ما فيه من جوهر ، وهو رافع صوته بهذه الأبيات :

أبَني أميّة قد دنا تشتيتكم وذهابُ مُلكِكم وأن لا يرجع
وينالُ صفوتَهُ عدوٌ ظالم للمحسنين إليه ثمة يفجعُ
بعد المهات بكل ذكر صالح يا وَيْلَهُ من قبح ما قد يَصْنَعُ

فقلت : بل لا يكون ذلك ، وعجبت من حفظه ، ولم يكن من أصحاب ذلك ، فوَجَمَ ساعة ثم قال : يا حميري ، بعيدُ ما يأتي به الزمان قريبٌ ، قال : فما اجتمعنا على شراب بعد ذلك .

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وكان من أمر المسوّدة ومروان بن محمد الجعدي ما كان .

سبب زوال ملك الامويين : وذكر المنقري قال : سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصّليها عقيب زوال الملك عنهم إلى بني العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إنا شُغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقّده يلزمنا ، فظلَمنا رعيتنا ؛ فيئسوا من انصافنا ، وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلّوا عنا ، وخربت ضياعنا ، فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا ، فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وامضَوْا أمورا دوننا أخفَوْا علمها عنا، وتأخّر عطاء جندنا ، فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا[1] فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكدِ أسباب زوال ملكنا .

ذكر

السبب في العصبية بين النزارية واليمانية

الكميت يعرض شعره على الفرزدق : ذكر أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، قال : حدثني أبي ، قال : لما قال الكميت بن زيد الأسدي – من أسد مضر بن نزار – الهاشميات قدم البصرة فأتى الفرزدق فقال : يا أبا فراس ، أنا ابن أخيك ، قال : ومن أنت ؟ فانتسب له، فقال : صدقت فما حاجتك ؟ قال : نفث على لساني ، وأنت شيخ مضر وشاعرها ، وأحببت أن أعرض عليك ما قلت ، فان كان حسناً أمرتني بإذاعته ، وان كان غير ذلك أمرتني بستره وسترته علي ، فقال : يا ابن أخي ، أحسب شعرك على قدر عقلك ، فهات ما قلت راشداً ، فأنشده :

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ ولا لعباً مني ، وذو الشيب يلعب

قال : بلى فالعبْ ، فقال :

---

١) في نسخة: واستدعاهم عداتنا .

ولمْ يُلهِني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطرّبْني بَنانٌ مُخضّبُ

قال : فما يطربك إذاً ؟ قال :

وما أنا مِمّن يزجُرُ الطير َهمُّهُ أصاح غُرابٌ أو تعرّض ثعلب

قال : فما أنت ويحك ؟ وإلى مَن تسمو ؟ فقال :

وما السانحات البارحاتُ عشيةً أمرّ سليمُ القرنِ أم مر أعضَبُ

قال : أما هذا فقد أحسنت فيه ، فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهى وخيرِ بني حوّاء ، والخيرُ يُطلب

وقال : ومَن هم ويحك ؟ قال :

إلى النفَر البيض الذين بحبهم الى الله فيما نابني أتقرّبُ

قال : أرِحني ويحك ! مَن هؤلاء ؟ قال :

بنيهاشم رَهطِ النبيّ ؛ فإنني بهم ولهمْ أرضى مِراراً وأغضب

قال : لله درّك يا بنيّ ، أصبت فأحسنت ، اذ عدلت عن الزعانف والأوباش إذاً لا يصرّد سهمك ، ولا يُكذّب قولك ، ثم مرّ فيها ، فقال له: أظهر ثم أظهر وكِدِ الأعداء ، فأنت والله أشعر مَن مضى وأشعر من بقي .

الكميت يعرض شعره على ابي جعفر محمد بن علي : فحينئذ قدم المدينة ، فأتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فأذن له ليلا فأنشده ، فلما بلغ من الميمية قوله :

وقتيلٍ بالطّفّ غُودِر منهم بين غوغاء أمة وطغَام

بكى أبو جعفر ، ثم قال : يا كميت ، لو كان عندنا مال لأعطيناك ، ولكن لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : لا زلت مؤيداً بروح القدس ما ذَبَبْتَ عنا أهلَ البيت ، فخرج من عنده .

ثم يعرضه على عبد الله بن الحسن : فأتى عبد الله بن الحسن بن علي ،

فأنشده ، فقال : يا أبا المستهل ، إن لي ضيعة قد أعطيت فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا كتابها ، وقد أشهدت لك بذلك شهوداً ، وناوله إياه ، فقال : بأبي أنت وأمي ، إني كنت أقول الشعر في غيركم أريد بذلك الدنيا والمال ، ولا والله ما قلت فيكم شيئاً إلا لله ، وما كنت لآخذ على شيء جعلته لله مالا ولا ثمناً ، فألح عبد الله عليه ، وأبى من اعفائه ، فأخذ الكميت الكتاب ومضى ، فمكث أياماً ، ثم جاء الى عبد الله فقال : بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ، إن لي حاجة ، قال : وما هي ؟ وكل حاجة لك مقضية ؛ قال : كائنة ما كانت ؟ قال : نعم ، قال : هذا الكتاب تقبله وترتجع الضيعة ، ووضع الكتاب بين يديه ، فقبله عبد الله .

عبد الله بن جعفر يثيب الكميت : ونهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب ؛ فأخذ ثوباً جلداً فدفعه الى أربعة من غلمانه ، ثم جعل يدخل دور بني هاشم ، ويقول : يا بني هاشم ، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صَمَتَ الناس عن فضلكم ، وعرّض دمه لبني أمية ، فأثيبوه بما قدرتم ، فيطرح الرجل في الثوب مــا قدر عليه من دنانير ودراهم ، وأعلم النساء بذلك ، فكانت المرأة تبعث ما أمكنها ، حتى إنها لتخلع الحلي عن جسدها ، فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمته مائة الف درهم ، فجاء بهـا الى الكميت ، فقال : يا أبا المستهل ، أتيناك بجهد المُقِلّ ، ونحن في دولة عدونا ، وقد جمعنا لك هذا المال وفيه حلي النساء كما ترى ، فاستعن به على دهرك ، فقال : بأبي أنت وأمي ، قد أكثرتم وأطيبتم ، وما أردت بمدحي إياكم إلا الله ورسوله ، ولم أك لآخذ لذلك ثمناً من الدنيا ، فأردده إلى أهله ، فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة ؛ فأبى ، فقال : إن أبيت [1] أن تقبل فــإني رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس ، لعلّ فتنةً تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تحب ، فابتدأ الكميت وقال قصيدته التي

(١) في نسخة : أما اذ أبيت أن تقبل .

يذكر فيها مناقب قومه من مضر بن نزار بن معـــد وربيعة بن نزار وإياد وأنمار ابني نزار ، ويكثر فيها من تفضيلهم ، ويطنب في وصفهم ، وأنهم أفضل من قحطان ؛ فغضب بها بين اليمانية والنزارية ، فيما ذكرناه ، وهي قصيدته التي أولها :

ألا حُيِّيتِ عَنَّا يا مَدينا وَهلْ ناسٌ تقول مسلمينا

إلى أن انتهى إلى قوله تصريحاً وتعريضاً باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم فيها ، وهو قوله :

لنَا قَمرُ السَّماءِ وكلُّ نجم تشير اليه أيدي المُهتدينا
وجدْت الله إذ سمَّى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعَلَ المكارمَ خالصات وللناس القفا ولنا الجبينا
وما ضربت هجائن من نزار فوالج من فُحول الأعجمينا
وما حملوا الحمير على عِتاقٍ مُطهَّرة فيلفوا مبلغينـــا
وما وجدت نساء بني نزار حلائل أسوَدين وأحمرينا

دعبل الخزاعي يرد على الكميت : وقد نقض دعبل بن علي الخزاعي هذه القصيدة على الكميت وغيرها ، وذكر بمناقب اليمن وفضائلها من ملوكهـــا وغيرها ، وصرح وعرض بغيرهم ، كما فعل الكميت ، وذلك في قصيدته التي أولها :

أفيقي من ملامِكِ يا ظعينا كفاكِ اللومَ مرُّ الأربعينا
ألم تحزُنْكِ أحداثُ الليالي يُشيِّبنَ الذوائب والقرُونا
أحَيَّ الغُرَّ من سروات قومي لقد حُيِّيتِ عنَّا يا مَدينا
فإن يك آل إسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنسَ الخنازير اللواتي مُسِخنَ مع القرود الخاسئينا
بأيلةَ والخليج لهم رُسومٌ وآثار قدُمْن وما مُحينا

وماطلبُ الكميتِ طلابَ وترٍ ولكنا لنصرتنا هُجينا
لقد علمت نِزارٌ أن قومي إلى نصر النبوة فاخرينا

كانت العصبية من دواعي زوال ملك بني امية : وهي طويلة ، ونمي قول الكميت في النزارية واليمانية ، وافتخرت نزار على اليمن ، وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كل فريق بما له من المناقب ، وتحزبت الناس ، وثارت العصبية في البدو والحضر ؛ فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي ، وتعصبه لقومه من نزار على اليمن ، وانحراف اليمن عنه الى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر الى انتقال الدولة عن بني أمية الى بني هاشم ثم ما تلا ذلك من قصة معْن بن زائدة باليمن ، وقتْلِهِ أهلها تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار : وقطْعه الحلف الذي كان بين اليمن وربيعة في القِدَمِ ، وفعل عقبة بن سالم بعُمان والبحرين ، وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة وسائر نزار بمن بأرض البحرين وعُمان كياداً لمعن ، وتعصباً من عقبة بن سالم لقومه من قحطانٍ ، وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان .

ذكر

أيام مروان بن محمد بن مروان

ابن الحكم ، وهو الجعدي

موجز : وبويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق يوم الاثنين لأربعَ عشرةَ ليلة خلتْ من صفر سنة سبع وعشرين ومائة ، وقيل : إنما دعا [١] الى نفسه بمدينة حران من ديار مُضَر ، وبويع له بها ، وأمه أم ولد يقال لها رَيّا ، وقيل طرونة ، كانت لمصعب بن الزبير فصارت بعد مقتله لمحمد بن

١) في نسخة : انه دعا الى نفسه .

مروان أبيه ، وكان مروان يكنى أبا عبد الملك ، واجتمع أهلُ الشام على بيعته ، إلا سليمان بن هشام بن عبد الملك وغيره من بني أمية ، فكانت أيامه منذ بويع بمدينة دمشق من أرض الشام إلى مقتله خمس سنين وعشرة أيام ، وقيل : خمس سنين وثلاثة أشهر ، وكان مقتله في أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ومنهم من رأى أن ذلك كان في المحرم ، ومنهم من رأى أنه كان في صفر ، وقيل غير ذلك مما تنازع فيه أهل التواريخ والسير على حسب تنازعهم في مقدار ملكه : فمنهم من ذهب إلى أن مدته خمس سنين وثلاثة أشهر ، ومنهم من قال : خمساً وشهرين وعشرة أيام ، ومنهم من قال : خمساً وعشرة أيام ، وكان مقتله ببوصير قريةٍ من قرى الفيوم بصعيد مصر ، وقد تنوزع في مقدار سنه كتنازعهم في مقدار ملكه ، فمنهم من زعم أنه قتل وهو ابن سبعين سنة ، ومنهم من قال : ابن تسع وستين ، ومنهم من قال : اثنتين وستين ، ومنهم من قال : ثمان وخمسين ، وإنما نذكر هذا الخلاف من قولهم لئلا يظن ظانٌ أننا قد أغفلنا ما ذكروه أو تركنا شيئاً مما وصفوه ، مما إليه قصدنا في كتابنا هذا ، وإن كنا قد أتينا على مبسوط ما قيل في ذلك ، في كتابينا أخبار الزمان والأوسط .

وسنورده فيما يرد من هذا الكتاب جُملاً من كيفية مقتله وأخباره ، وجوامع من سيره وحروبه ، وما كان من أمر الدولتين في ذلك من الماضية — وهي الأموية — والمستقبلة في ذلك الزمان — وهي العباسية — مع إفرادنا باباً نذكر فيه جوامِعَ تاريخ ملك الأمويين ، وهو الباب المترجم بذكر مقدار المدة من الزمان ، وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام ، ثم نُعقّبُ ذلك بلمع من أخبار الدولة العباسية وأخبار أبي مُسلم ، وخلافة أبي العباس السفاح ومَن تلا عصره من خلفاء بني العباس ، الى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من خلافة أبي إسحاق المتقي لله إبراهيم بن المقتدر بالله ، إن شاء الله تعالى ، والله ولي التوفيق .

ذكر

مقدار المدة من الزمان

وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام

المدة اجمالا : كان جميع مُلك بني أميـة الى أن بويع أبو العباس السفّاح ألف شهر كاملة لا تزيد ولا تنقص ؛ لأنهم ملكوا تسعين سنة ، وأحد عشر شهراً ، وثلاثة عشر يوماً .

تفصيل المدة : قال المسعودي: والناس متباينون في تواريخ أيامهم،والمعول على ما نورده[1] وهو الصحيح عند اهل البحث ومن عني بأخبار هذا العالم ، وهو أن معاوية بن أبي سفيان ملك عشرين سنة ، ويزيد بن معاوية ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً ، ومعاوية بن يزيد شهراً وأحد عشر يومـاً ومروان بن الحكم ثمانية اشهر وخمسة أيام ، وعبد الملك بن مروان احـــدى وعشرين سنة وشهراً وعشرين يومـــاً ، والوليد بن عبد الملك تسع سنين وثمانية أشهر ويومين ، وسليمان بن عبد الملك سنين وستة أشهر وخمسة عشر يوماً ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام ، ويزيد بن عبد الملك أربع سنين وثلاثة عشر يوماً ، وهشام ابن عبدالملك تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة وثلاثة أشهر ، ويزيـــد بن الوليد بن عبد الملك شهرين وعشرة أيام ، واسقطنا ايام إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك كإسقاطنا ايام إبراهيم بن المهدي أن يعد في الخلفاء العباسيين ، ومروان بن محمد بن مروان خمس سنين وشهرين وعشرة ايام ، إلى ان بويع السفاح ، فتكون الجملة تسعين

---

١) في نسخة : والمعول عليه ما نورده .

سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً ، يضاف إلى ذلك الثمانية اشهر التي كان مروان يقاتل فيها بني العباس إلى أن قتل،فيصير مُلكهم إحدى وتسعين سنة وسبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً .

يُوضع من ذلك أيام الحسن بن علي - وهي خمسة اشهر وعشرة ايام - وتوضع ايام عبد الله بن الزبير إلى الوقت الذي قتل فيه - وهي سبع سنين وعشرة اشهر وثلاثة ايام - فيصير الباقي بعد ذلك ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر ، يكون ذلك ألف شهر سواء .

وقد ذكر قوم أن تأويل قوله عز وجل : (ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر) ما ذكرناه من أيامهم .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : والله ليملكنّ بنو العباس ضعف ما ملكته بنو أمية : باليوم يومين ، وبالشهر شهرين ، وبالسنة سنتين ، وبالخليفة خليفتين .

مدة ملك بني العباس : قال المسعودي : فملك بنو العباس في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وانقضى مُلك بني أمية ؛ فلبني العباس من وقت ملكهم[١] إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - مائتا سنة ، وذلك أن أبا العباس السفاح بويع له بالخلافة في ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة وانتهينا من تصنيفنا من هذا الكتاب إلى هذا الموضع في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة في خلافة أبي اسحاق المتقي لله ، والله اعلم بما يكون من امرهم فيما يأتي به الزمان المستقبل بعد هذا الوقت من الأيام .

وقد اتينا بحمدالله فيما سلف من كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط على الغُرر من أخبارهم ، والنوادر من اسمائهم ، والطرائف مما كان في أيامهم وعهودهم ، ووصاياهم ، ومكاتباتهم ، واخبار الحوادث والخوارج في ايامهم من

---

١) في نسخة : مذ ملكوا الى هذا الوقت .

الأزارقة والأباضية وغيرهم، ومن ظهر من الطالبين طالباً بحق أو آمراً بمعروف أو ناهياً عن منكر ، فقتل في ايامهم ، وكذلك من تلاهم من بني العباس الى خلافة المتقي لله من سنتنا هذه ـ وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ـ وما ذكرنا في هذا الكتاب من جوامع التاريخ قد يخالف ما تقدم بسطه باليوم أو العشرة أو الشهر عند ذكرنا لدولة كل واحد منهم وأيامه ، وهذا هو المعوّل عليـــه من تاريخهم وسنيهم ، والمفصل[1] من مددهم ، والله اعلم ، ومنه التوفيق .

ذكر
الدولة العباسية
ولمع من أخبار مروان ومقتله وجوامع من حروبه وسيره

قول الراوندية في الخلافة : قد قدمنا في الكتاب الأوسط ما ذكرته الراونديةـ وهم شيعة ولد العباس بن عبدالمطلب ، من أهل خراسان وغيرهم ـ من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ، وأن أحق الناس بالإمامة بعده العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه عمه ووارثه وعصبته ، لقول الله عز وجل : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » ، وأن الناس اغتصبوه حقه ، وظلموه أمره ، إلى أن رده الله إليهم ، وتبرؤوا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأجازوا بيعة علي بن ابي طالب رضي الله عنه بإجازته لها ، وذلك لقوله : يا ابن أخي ، هلمّ إلى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان ، ولقول داود بن عليّ على منبر الكوفة يوم بويع لأبي العباس : يا أهل الكوفة ،

[1] في نسخة : والمحصل من مددهم .

لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عليّ بن أبي طالب ، وهذا القائم فيكم – يعني أبا العباس السفاح – .

من حوار فاطمة الزهراء وأبي بكر الصديق : وقد صنف هؤلاء كتباً في هذا المعنى الذي ادعوه هي متداولة في أيدي أهلها ومُنتحليها ، منها كتاب صنّفه عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو المترجم بكتاب « إمامة ولد العباس » يحتج فيه لهذا المذهب ، ويذكر فعل أبي بكر في فدَكَ وغيرها وقصته مع فاطمة رضي الله عنها ، ومطالبتها بإرثها من أبيها صلى الله عليه وسلم ، واستشهادها ببعلها وابنيها وأم أيمن ، وما جرى بينها وبين أبي بكر من المخاطبة ، وما كثر بينهم من المنازعة ، وما قالت ، وما قيل لها عن أبيها عليه السلام ، من انه قال : « نحن معاشر الأنبياء َلا نرثُ ولا نورث » ، وما احتجت به من قوله عز وجل : ﴿ وورث سليمانُ داوُدَ ﴾ على ان النبوة لا تورث ، فلم يبق إلا التوارث وغير ذلك من الخطاب ، ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب ، ولا استقصى فيه الحجاج للراوندية ، وهم شيعة ولد العباس ، لأنه لم يكن مذهبه ، ولا كان يعتقده ، ولكن فعل ذلك تماجناً وتطرباً .

العثمانية للجاحظ : وقد صنف أيضاً كتاباً إستقصى فيه الحِجاجَ عند نفسه ، وأيده بالبراهين وعَضّده بالادلة فيما تصوره من عقله ، وترجمه بكتاب العثمانية ، يحل فيه عند نفسه فضائل علي عليه السلام ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره ، طلباً لإماتة الحق ، ومضادة لأهله ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

كتب أخرى للجاحظ : ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر في إمامة المروانية وأقوال شيعتهم، ورأيته مترجماً بكتاب إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، في الانتصار له من علي

ابن أبي طالب رضي الله عنه وشيعته الرافضة، يذكر فيه رجال المروانية ، ويؤيد فيه إمامة بني أمية وغيرهم .

ثم صنف كتابا آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية ، يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه ، من فضائل أمير المؤمنين علي ومناقبه فيما ذكرنا .

نقض الشيعة لكتب الجاحظ : وقد نقضتُ عليه ما ذكرنا من كتبه ككتاب العثمانية وغيره ، وقد نقضها جماعة من متكلمي الشيعة : كأبي عيسى الوراق ، والحسن بن موسى النخعي ، وغيرهما من الشيعة ممن ذكر ذلك في كتبه في الإمامة مجتمعا ومفترقا .

والمعتزلة تنقض العثمانية : وقد نقض على الجاحظ كتابَ العثمانية أيضاً رجل من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم ، وأهل الزهد والديانة منهم ، ممن يذهب الى تفضيل علي والقول بإمامة المفضول — وهو أبو جعفر محمد بن عبدالله الإسكافي — وكانت وفاته سنة أربعين ومائتين ، وفيها مات أحمد بن حنبل ، وسنذكر وفاة الجاحظ فيما يرد من هذا الكتاب ، ووفاة غيره من المعتزلة ، وإن كنا قد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا .

راي الجريانية في الامامة : والذي ذهب إليه مَنْ تأخر من الراوندية وانتقل وتحيز عن جملة الكيسانية القائلة بإمامة محمد بن الحنفية — وهم الجريانية أصحاب أبي مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية،وكان يلقب بجريان — ان محمد بن الحنفية هو الإمام بعد علي بن أبي طالب ، وأن محمداً أوصى إلى ابنه أبي هاشم ، وأن أبا هاشم أوصى الى علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب ، وان علي بن عبد الله أوصى إلى ابنه محمد بن علي ، وأن محمداً أوصى الى ابنه إبراهيم الإمام المقتول بحران ، وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبي العباس بن عبدالله بن الحارثية المقتول .

أصل أبي مسلم الخراساني : وقد تنوزع في أمر أبي مسلم : فمن الناس

من رأى أنه كان من العرب، ومنهم من رأى أنه كان عبداً فأعتق، وكان من أهل البرس والجامعين من قرية يقال لها خرطينة وإليها تضاف الثياب البرسية المعروفة بالخرطينية ، وتلك من اعمال الكوفة وسوادها ؛ وكان قهرمانا لإدريس بن إبراهيم العجلي ، ثم آل أمره ونمت به الأقدار إلى أن اتصل بمحمد بن علي ، ثم بإبراهيم بن محمد الإمام ، فأنفذه إبراهيم الى خراسان ، وأمر أهل الدعوة بإطاعته والانقياد الى أمره ورأيه فقوي أمره وظهر سلطانه ، وأظهر السواد ، وصار زينة في اللباس والأعلام والبنود ، وكان أول من سوّد من أهل خراسان بنيسابور وأظهر ذلك فيهم أسيد بن عبدالله ، ثم نمى ذلك في الأكثر من المدن والكُوَر بخراسان ، وقوي أمر أبي مسلم ، وضعف أمر نصر بن سيّار صاحب مروان بن محمد الجعدي على بلاد خراسان ، وكانت له مع أبي مسلم حروب أكثر فيها أبو مسلم الحيل والمكايد من تفريقه بين اليمانية والنزارية بخراسان وغير ذلك مما احتال به على عدوه ، وقد كان لنصر بن سيّار حروب كثيرة مع الكرماني إلى أن قتل؛ أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وذكرنا بدء أخبار الكرماني جديع بن علي ، وما كان بينه وبين سَلْم بن أحوز صاحب نصر بن سيّار ، وما كان من أمر خالد بن برمك ، وقحطبة بن شبيب ، وغيرهما من الدعاة والمقيمين بخراسان للدعوة العباسية : كسليمان ابن كثير ، وأبي داود خالد بن إبراهيم ، ونظرائهم ، وما كان من شعارهم عند إظهار الدعوة ، ونداؤهم حين الحروب : محمد يا منصور ، والسبب الذي له ومن أجله أظهروا استعمال السواد دون سائر الألوان .

بين نصر بن سيار ومروان بن محمد الجعدي : وطالت مكاتبة نصر بن سيّار مروانَ ، وإعلامه بما هو فيه ، وإظهار أمر العباسية ، وتزايده في كل وقت ؛ فكان فيما كتب به إليه إعلامه بحال أبي مسلم وحال من معه ، وأنه كشف عن أمره وبحث عن حاله ، فوجده يدعو الى ابراهيم بن محمد بن

علي بن عبدالله بن العباس ، وضمن كتابه أبياتاً من الشعر ، وهي :

اری بين الرّمـــاد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام[1]
فإن النـــار بالعودين تذكى وإن الحرب أولهـــا الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حربـــاً مشمرة يشيب لهـــا الغلام
أقول من التعجب : ليت شعري أأيقـــاظٌ أمية أم نيـــام ؟
فإن يك قومنا أضحوا نيامـــاً فقل : قوموا ؛ فقد حان القيام
ففري عن رحالك ، ثم قولي : على الاسلام والعـــرب السلام

فلما ورد الكتاب على مروان وجده مشتغلا بحروب الخـــوارج بالجزيرة وغيرها ، وما كان من خبره في حروبه مع الضحاك بن قيس الحروري حتى قتله مروان بعد وقائع كثيرة بين كفرتوثي ورأس العين ، وكان الضحاك خرج من بلاد شهرزور ، ونصبت الخوارج بعد قتل الضحاك عليهـا الحري الشيباني فلما قتل الحري ولّتِ الخوارج عليها ابا الذلفاء شيبان الشيباني ، وما كان من حروب مروان مع نعيم بن ثابت الجذامي ، وكان خرج عليه ببلاد طبرية والأردن من بلاد الشام حتى قتله مروان ،وذلك في سنة ثمانية وعشرين ومائة ، فلم يدر مروان كيف يصنع في أمر نصر بن سيار وخراسان وإنجـازه لما هو فيه من الحروب والفتن ، فكتب اليه مروان مجيباً عن كتابه : ان الشاهـد يرى ما لا يراه الغائب فاحسم الثؤلول قبلك[2] ، فلما ورد الكتاب على نصر قال لخواص أصحابه : أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده .

بعض خادل وأعمال مروان بن محمد الجعدي : وأقام مروان أكثر أيامه لا يدنو من النساء الى ان قتل ، وبرزت له جارية[3] من جواريه ، فقال لهـا : والله لا دنوتُ منك ، ولا حللتُ لك عقدة، وخراسان ترجف وتتضرم بنصر ابن سيار ، وأبو مجرم قد أخذ منه بالمخنّق .

---

١) في نسخة : أرى خلل الرماد وميض نار .
٢) « « : فاجشم الثولات قبلك .
٣) في نسخة : وتراءت له جارية .

وكان مع ما هو فيه يديم قراءة سير الملوك ، وأخبارها في حروبها ، من الفرس ، وغيرها من ملوك الأمم .

وعذله بعض أوليائه ممن كان يأنس إليه في ترك النساء والطيب وغير ذلك من اللذات ، فقال له مروان : يمنعني منهن ما منع أمير المؤمنين عبدالملك ، فقال له الرجل : وما ذاك يا امير المؤمنين ؟ قال : حمل صاحب إفريقية اليه جارية ذات بهاء وكمال ، تامة المحاسن ، شهية للمتأمل ، فلما وقفت بين يديه تأمل حسنها وبيده كتاب ورد من الحجاج وهو بدير الجماجم مواقعاً لابن الأشعث فرمى بالكتاب عن يده ، وقال لها : أنت والله منية النفس ، فقالت الجارية : ما يمنعك يا امير المؤمنين إذ كنتُ بهذا الوصف ؟قال: يمنعني والله منك بيتٌ قاله الأخطل :

قومٌ إذا حاربوا شدُّوا مآزرَهم ... دون النساءِ ولو باتت بأطهـار

أألتذ بالعيش وابن الاشعث مصافنٌ لأبي محمد وقد هلكت فيه زعماء العرب ؟ لاها الله إذاً ، ثم أمر بصيانتها ، فلما قتل ابن الأشعث كانت أول جارية خلا بها .

نصر يكتب لابن هبيرة يستنجده : ولما يئس نصر بن سيار من إنجاد مروان كتب الى يزيد بن عمر بن هُبيرة الفزاري عامل مروان على العراق يستمدُّه ، ويسأله النصرة على عدوه ، وضمَّن كتابه أبياتاً من الشعر وهي :

أبلِغْ يزيدَ ، وخير القول أصدقه ... وقد تبيَّنتُ ان لا خير في الكـذبِ
بأنَّ ارضَ خراسانٍ رأيتُ بهـا ... بَيْضاً لوَ افرخَ قد حُدِّثتَ بالعجب
فِراخُ عامين إلا انهـا كَبِرَتْ ... لما يَطِرْنَ وقد سُربلنَ بالزَّغَب
فإنْ يطِرنَ ولم يحتلْ لهُنَّ بهـا ... يلهبْنَ نيران حربٍ أيَّما لهب

فلم يجبه يزيد بن عمر عن كتابه ، وتشاغل بدفع فتن العراق .

دعاة الى طالب الحق بالحجاز : ودخلت خوارج اليمن مكة والمدينة وعليهم ابو حمزة المختار بن عوف الأزدي ، وبلخ بن عقبة الأزدي ، وهما فيمن معهما يدعون الى عبدالله بن يحيى الكندي ، وكان قد سمى نفسه بطالب الحق ، وخوطب بأمير المؤمنين ، وكان اباضي المذهب من رؤساء[1] الخوارج، وذلك في سنة تسع وعشرين ومائة .

مروان يجهز لحرب الخوارج : وفي سنة ثلاثين ومائة جهز مروان بن محمد جيشاً مع عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي ، فلقي الخوارج بوادي القرى ، فقتل بلخ ، وفر ابو حمزة في بقيتهم الى مكة ، فلحقه عبد الملك ، فكانت بينهم وقعة قتل فيها أبو حمزة وأكثر من كان معه من الخوارج،وسار عبد الملك في جيش مروان من أهل الشام يريد اليمن ، وخرج عبدالله بن يحيى الكندي الخارجي من صنعاء ، فالتقوا بناحية الطائف وأرض جُرش ، فكانت بينهم حربٌ عظيمة قتل فيها عبدالله بن يحيى وأكثر من كان معه من الأباضية ، ولحق بقية الخوارج ببلاد حضرموت ، فأكثرها أباضية الى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة — ولا فرق بينهم وبين مَن بعمان من الخوارج في هذا المذهب ، وسار عبد الملك في جيش مروان فنزل صنعاء، وذلك في سنة ثلاثين ومائة ، وقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك اتصل بالخوارج بالجزيرة خوفاً من مروان ، واحتوى عبد الله بن معاوية بن عبدالله ابن جعفر على بلاد إصطخر وغيرها من ارض فارس ، الى ان رفع عنها[2] وصار الى خراسان ، فقبض عليه ابو مسلم ، وقد ذكرنا من يقول بإمامته ، وينقاد الى دعوته ، في كتابنا « المقالات ، في اصول الديانات » في باب تفرق الشيعة ومذاهبهم .

---

١) في نسخة : من رأي الخوارج .

٢) في نسخة : الى ان دفع عنها .

موت نصر بن سيار : وقوي امر ابي مسلم ، وغلب على اكثر خراسان ، وضعف امر نصر بن سيار من عدم النجدة ، فخرج عن خراسان حتى أتى الري ، وخرج عنها ، فنزل ساوة بين بلاد همذان والري ، فمات بها كمداً .

وقد كان نصر بن سيار – لما صار بين الري وخراسان – كتب كتاباً الى مروان يذكر فيه خروجه عن خراسان ، وأن هذا الأمر الذي أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضمّن ذلك ابياتاً من الشعر ، وهي :

إنا وما نكتمُ من امرنا . كالثور إذ قرب للناخع
او كالتي يحسبها اهلها عذراء بكراً وهي في التاسع
كنا نرقيها فقد مزقت واتسع الخرق على الراقع
كالثوب اذ أنهج فيه البلى أعيا على ذي الحيلة الصانع

خديعة مروان للقبض على ابراهيم الامام : فلم يستتم مروان قراءة هذا الكتاب حتى مثل أصحابه بن يديه بمن كان قد وكل بالطرق رسولاً من خراسان من أبي مسلم إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره فيه خبره ، وما آل اليه أمره ، فلما تأمل مروان كتاب ابي مسلم قال للرسول: لا ترع ، كم دفع لك صاحبك ؟ قال : كذا وكذا ، قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وإنما دفع اليك شيئاً يسيراً ، وامض بهذا الكتاب إلى ابراهيم ، ولا تعلمه بشيء مما جرى ، وخذ جوابه فائتني به ، ففعل الرسول ذلك ، فتأمل مروان جواب إبراهيم إلى أبي مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه وغير ذلك من أمره ونهيه ، فاحتبس مروانُ الرسولَ وكتب الى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو على دمشق يأمره أن يكتب الى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكرار والحُميمة ليأخذ إبراهيم بن محمد فيشده وثاقاً ، ويبعث به إليه في خيل كثيفة ، فوجّه الوليد الى عامل البلقاء فأخذ إبراهيم وهو جالس في مسجد القرية فأخذ وهو ملفف ، وحمل إلى الوليد ، فحمله الى مروان

فحبسه في السجن شهرين [١] ، وقد كان جرى بين إبراهيم ومروان خطب طويل حين مثل بين يديه ، وأغلظ له إبراهيم ، وأنكر كل ما ذكره له مروان من أمر أبي مسلم ، فقال له مروان : يا منافق ، أليس هذا كتابك إلى أبي مسلم جواباً عن كتابه إليك ، وأخرج إليه الرسول ، وقال : أتعرف هذا ؟ فلما رأى ذلك إبراهيم أمسك ، وعلم أنه أتى من مأمنه .

مقتل ابراهيم وجماعة معه : واشتد أمر أبي مسلم ، وكان في الحبس مع إبراهيم جماعة من بني هاشم وبني أمية : فمن بني أمية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان مروان قد خافهما على نفسه وخشي أن يخرجا عليه ، ومن بني هاشم : عيسى ابن علي ، وعبدالله بن علي ، وعيسى بن موسى ؛ فذكر ابو عبيدة الثعلبي ـ وكان معهم في الحبس ـ أنه هجم عليهم في الحبس وذلك بحران جماعة من موالي مروان من العجم وغيرهم فدخلوا البيت الذي كان فيه إبراهيم والعباس وعبدالله ، فأقاموا عندهم ساعة ، ثم خرجوا وأغلق باب البيت ، فلما أصبحنا دخلنا عليهم ، فوجدناهم قد أتي عليهم ، ومعهم غلامان صغيران من خدمهم كالموتى ، فلما رأونا أنسوا بنا ، فسألناهم الخبر ، فقالا : أما العباس وعبدالله فجعل على وجوههما مخاد وقعد فوقهما فاضطربا ثم بردا ، وأما إبراهيم فإنهم جعلوا رأسه في جراب كان معهم فيه نورة مسحوقة ، فاضطرب ساعة ثم خمد .

وكان في الكتاب الذي قرأه مروان من ابراهيم إلى أبي مسلم أبيات من الرجز بعد خطب طويل ، منها :

دونك أمراً قد بدت أشراطه إن السبيل واضح صراطه
لم يبق إلا السيف واختراطه

وقد ذكر في كيفية قتل ابراهيم الإمام من الوجوه غير ما ذكرنا ، وقد اتينا

---

١) في نسخة : فحبسه بالسجن بحران .

على جميع ما قيل في ذلك في الكتاب الأوسط ، وكذلك ما كان من قحطبة وابن هبيرة على الفرات ، وغرق قحطبة فيه ، ودخول ابنه الحسن بن قحطبة الكوفة .

موقعة الزاب بين عبدالله بن علي ومروان : وسار مروان حتى نزل على الزاب الصغير ، وعقد عليه الجسر ، وأتاه عبد الله بن علي في عساكر اهل خراسان وقوادهم ، وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة اثلتين وثلاثين ومائة ، فالتقى مروان وعبدالله بن علي ، وقد كردس مروان خيله كراديس الفاً والفين ، فكانت على مروان،فانهزم ، وقتل وغرق من أصحابه خلق عظيم ، فكان فيمن غرق في الزاب من بني أمية ذلك اليوم ثلثمائة رجل ، دون من غرق من سائر الناس ، وكان فيمن غرق في الزاب في ذلك اليوم من بني أمية إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك المخلوع ، وهو اخو يزيد الناقص ، وقد قيل في رواية اخرى : إن مروان كان قد قتل إبراهيم بن الوليد قبل هذا الوقت وصلبه ،وكانت هزيمة مروان من الزاب في يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة اثلتين وثلاثين ومائة .

أهل حران ومروان : ومضى مروان في هزيمته حتى أتى الموصل فمنعه أهلها من الدخول اليها ، وأظهروا السواد لما رأوه من تولية الأمر عنه ،وأتى حران — وكانت داره ، وكان مقامه بها — وقد كان أهل حران قاتلهم الله تعالى حين أزيل لعن أبي تراب — يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه — عن المنابر يوم الجمعة امتنعوا عن إزالته ، وقالوا : لا صلاة الا بلعن ابي تراب ، وأقاموا على ذلك سنة حتى كان من أمر المشرق وظهور المسوّدة ما كان ، وامتنع مروان من ذلك لانحراف الناس عنهم ، وخرج مروان في أهله وسائر بني أمية عن حران ، وعبر الفرات ، ونزل عبدالله بن علي على باب حران ؛ فهدم قصر مروان ، وقد كان أنفق عليه عشرة آلاف ألف درهم ، واحتوى على خزائن مروان وأمواله، وسار مروان فيمن معه من خواصه وعياله حتى انتهى الى نهر أبي فطرس من بلاد فلسطين والأردن فنزل عليه ، وسار

عبد الله بن علي حتى نزل دمشق فحاصرها وفيها يومئذ الوليدُ بن معاوية ابن عبد الملك في خمسين ألف مقاتل ، فوقعت بينهم العصبية في فضل اليمن على نزار ونزار على اليمن فقتل الوليد بن معاوية ، وقد قيل : إن أصحاب عبد الله بن علي قتلوه وأتى عبد الله بن علي يزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فحملهما إلى أبي العباس السفاح ، فقتلهما وصلبهما بالحيرة ، وقتل عبد الله بن علي بدمشق خلقاً كثيراً ولحق مروان بمصر ، ونزل عبد الله بن علي على نهر أبي فطرس ، فقتل من بني أمية هناك بضعاً وثمانين رجلا ، وذلك في يوم الأربعاء للنصف من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك وحمل رأسه إلى عبد الله بن علي ، ورحل صالح بن علي في طلب مروان ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد ، وعامر بن إسماعيل المذحجي، فلحقوه بمصر وقد نزل بوصير ، فبايتوه ، وهجموا على عسكره وضربوا بالطبول ، وكبروا ونادوا : يا لثارات ابراهيم ، فظن من في عسكر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسوّدة ، فقتل مروان ، وقد اختلف في كيفية قتله في المعركة في تلك الليلة ، وكان قتله ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

ولما قتل عامرُ بن اسماعيل مروانَ وأراد الكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه إذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول عليهن، فأخذوا الخادم فسئل عن أمره ، فقال : أمرني مروان إذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه فلا تقتلوني ؛ فإنكم والله إن قتلتموني ليفقدن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : انظر ما تقول ، قال : إن كذبت فاقتلوني ، هلموا فاتبعوني ، ففعلوا ، فأخرجهم من القرية الى موضع رمل ، فقال : اكشفوا هنا ، فكشفوا ، فاذا البُرْد والقضيب ومِخْصَر قد دفنها مروان لئلا تصير الى بني هاشم ، فوجه بها عامر بن اسماعيل الى عبد الله بن علي ،

فوجه بها عبد الله الى أبي العباس السفاح ، فتداولت ذلك خلفاء بني العباس الى ايام المقتدر ، فيقال : ان البرد كان عليه في يوم مقتله ، ولست أدري أكل ذلك باقٍ مع المتقي لله الى هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – في نزوله الرقة أم قد ضيع ذلك .

بنات مروان بين يدي صالح بن علي : ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى الى صالح بن علي ، فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى ، فقالت : يا عمّ أمير المؤمنين ، حفظ الله لك من أمرك ما يحبُّ لك حفظه ، وأسعدك في الأمور كلها بخواص نعمه ، وعمّك بالعافية في الدنيا والآخرة ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا ، قال : اذن لا نستبقي منكم أحداً رجلا ولا امرأة ، ألم يقتل ابوك بالأمس ابن أخي إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الإمام في محبسه بحران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين ابن علي وصلبه في كناسة الكوفة ، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يدي يوسف ابن عمر الثقفي ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعيُّ مسلم بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن عليّ على يدي عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى ورد بهنّ على يزيد بن معاوية وقبل مقدمهن بعث اليه برأس الحسين بن علي قد ثقب(١) دماغه على رأس رمح يطاف به كُور الشام ومدائنها حتى قدموا به على يزيد بدمشق كأنما بعث اليه برأس رجل من أهل الشرك ؟ ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السبي يتصفحهن جنودُ أهل الشام الجفاة الطغام ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم استخفافاً بحقه صلى الله عليه وسلم وجراءة على الله عز وجل ، وكفراً لأنعُمِه ، فما الذي استبقيتم منا أهل البيت ؟ لو عدلتم فيه علينا ! قالت

١) في نسخة : قد نصب دماغه .

يا عمّ أمير المؤمنين ليسعنا عفوكم اذاً ، قال : أما العفو فنعم قد وسعكم ، فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن علي ، وزوجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح ، فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، وأي أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بحران ، قال : فإذاً أفعل ذلك بكنّ إن شاء الله ، فألحقهن بحران ، فعلَتْ أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان، وشققن جيوبهن، وأعوَلْنَ بالصياح والنحيب ، حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان .

فكانَ ملك مروان الى أن بويع أبو العباس السفاح خمس سنين وشهرين وعشرة أيام على حَسْب ما قدمنا ذكره في هذا الكتاب من التنازع في مدة أيامه، ومن وقت أن بويع أبو العباس السفاح الى أن قتل ببوصير ثمانية أشهر، فكانت مدة أيامه إلى ان قتل خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وقد قدمنا ما تنازعوا فيه من مقدار سنه وغير ذلك من أخباره ، وقد أتينا على مبسوط أخباره فيما سلف من كتبنا .

عبد الحميد بن يحيى الكاتب : وكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعد صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات في فصول الكتب ، واستعمل الناس ذلك بعده .

وذكر أن مروان قال لكاتبه عبد الحميد — حين أيقن بزوال ملكه — قد احْتَجْتُ أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي ، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي ، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمي بعد وفاتي ، فقال له عبد الحميد : إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين لك ، وأقبحها بي ، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله أو أقتل معك ، وقال :

أسِرُّ وفاء ثم أظهر غدرة فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره ؟

وقد أتينا على خبر أبي الورد ومقتله ، وخبر بشر بن عبدالله الواحدي ومقتله في كتابنا الأوسط ، فأغنى ذلك عن ذكره .

مروان يعتزم الفرار الى ارض الروم فيرده اسماعيل القشيري : وذكر إسماعيل بن عبدالله القشيري قال : دعاني مروان وقد وافى على الهزيمة الى حران ، فقال : يا أبا هاشم ، ومـا كان يكنيني قبلها ، قد ترى ما جـاء من الأمر وأنت الموثوق به ، ولا عَبأ لعِطْرٍ بعـدَ عرُوس[1]، فما الرأي ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين علام أجمعت ؟ قال : على أن أرتحل بمواليّ ومن تبعني من النـاس حتى أقطع الدَّرْبَ وأميل الى مدينـة من مدنْ الروم فأنزلهـا ، وأكاتب صاحبها ، وأستوثق منه، فقد فعل ذلك جماعةٌ من ملوك الأعاجم، وليس هذا عارا بالملوك ، فلا يزال يأتيني من أصحابي الخالفُ والهـاربُ والطامعُ فيكثر من معي،ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمري وينصرني على عدوي ، فلما رأيت ما أجمع عليه وكانَ الرأيَ ، ورأيت آثاره في قومي من قحطان وبلاءه عندهم ، فقلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي، تحكم أهل الشرك في بناتك وحرمك ، وهم الروم ، ولا وفاء لهم ، ولا تدري ما تأتي به الأيام ، وأنت إن حدث عليك حادث بأرض النصرانيـة — ولا يحدث عليك إلا خير — ضاع مَنْ بعدك ، ولكن اقطع الفرات ، ثم استنفر أهل الشام جنداً جنـدا فانك في كنف وعزة ، ولك في كل جند صنائع ، يسيرون معك حتى تأتي مصر ، فانها أكثر أرض الله مالاً وخيلاً ورجالاً ، ثم الشام أمامك وإفريقية خلفك ، فان رأيت ما تحبُّ انصرفت الى الشام ، وان كانت الأخرى مضيت الى إفريقيـة ؛ قـال : صدقت ، واستخير الله ، فقطع الفرات ، ووالله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان : ابن حمزة السلمي وكان أخاهُ من الرضاعـة ، والكوثر بن الأسود الغنوي ، ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئاً ، بل غدروا به وخذلوه ، فلما اجتاز ببـلاد قنسرين وخُنَاصرة أوقعت تَنُوخُ القاطنةُ بقنسرين بساقته ، ووثب به أهل حمص ، وسار الى دمشق ، فوثب به الحارث بن عبدالرحمن الحرشي ، ثم أتى الأردن

---

١) في نسخة : ولا عَبأ بعد بؤس .

فوثب به هاشم بن عمرو القيسي والمذحجيون جميعاً ، ثم مر بفلسطين فوثب الحكم بن صنعان بن روح بن زنباع ؛ لمـــا رأوا من إدبار الأمر منه ، وعلم مروان أن اسماعيل بن عبدالله القشيري قد غشّه في الرأي ولم يمحضه النصيحة، وأنه فرّط في مشورته إياه ؛ اذ شاور رجلاً من قحطـان موتوراً متعصباً من قومـه على أضدادهم من نزار ، وان الرأي كان الذي همّ بفعـله من قطع الدرب ونزول بعض حصون الروم ومكاتبته ملكها الى أن يرتئي في أمره .

وذكر المدائني والعتبي وغيرهما ان مروان حين نزل على الزاب جرّد من رجاله ، ومَن اختاره من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم ، مائة ألف فارس على مائة ألف قارح ، فلما كان يوم الوقعة وأشرف عبد الله بن عليّ في المسودة ، وفي أوائلهم البنود السود يحملها الرجال على الجمال البُخْت، وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب ، قال مروان لمن قَرُبَ منه : أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظا ؟ أمـــا ترون إلى أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع من الغمام سود ؟ فبينا هو كذلك إذ طار من أفرجـة هنالك قطعة من الغرابيب سود ، فاجتمعت على أول رايات عبد الله بن علي ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ، ومروان ينظر ، فتطـير من ذلك فقال : أما ترون السواد قد اتصل بالسـواد ، وكأن الغرابيب كالسحب سواداً ، ثم نظر الى أصحابه المحاربين وقد استشعروا الجزع والفزع والفشل فقال : إنها لعدة ، وما تنفع العدة إذا انقضت المدة ؟

ولمروان على الزاب أخبار غير هذه قد أتينا على ذكرهـــا في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، فأغنى ذلك عن إعادة ذكرهـــا ، والله ولي التوفيق .

ذكر

خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد السفاح

موجز : وبويع أبو العباس السّفاح – وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب – ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وقيل : انه بويع يوم الاربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وقيل في النصف من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد المدان الحارثية ، وركب إلى المسجد الجامع في يوم الجمعة فخطب على المنبر قائماً ، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً ، فضجّ النـاس وقالوا : أحييت السنة يا ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وعشرين يوماً ، ومات بالأنبار في مدينته التي بناها ، وذلك في يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل : ابن تسع وعشرين سنة ، وكانت أمه تحت عبد الملك بن مروان ، فكان له منها الحجاج بن عبد الملك ، فلما توفي عبد الملك تزوجها محمد بن علي بن عبد الله ابن العبـاس ، فولدت منه عبد الله بن محمد السفاح ، وعبيد الله ، وداود وميمونة .

ذكر

جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه

وصية ابراهيم الامام له: ولما حبس إبراهيم الإمام بحران، وعلم ان لا نجاة له من مروان، أثبت وصيته وجعلها إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد، وأوصاه بالقيام بالدولة والجدّ والحركة وأن لا يكون له بعده بالحميمة لُبْثٌ ولا عَرْجة حتى يتوجّه إلى الكوفة فإن هذا الأمر صائر إليه لا محالة، وأنه بذلك أتتهم الرواية، وأظهره على أمر الدعاة بخراسان والنقباء، ورسم له بذلك رسماً أوصاه فيه أن يعمل عليه ولا يتعداه، ودفع الوصية بجميع ذلك إلى سابق الخوارزمي مولاه، وأمره إنْ حدَث به حدث من مروان في ليل أو نهار أن يجدّ السير الى الحميمة حتى يدفع وصيته الى أخيه أبي العباس، فلما قضى إبراهيم نحبه أسرع سابق في السير حتى أتى الحميمة فدفع الوصية الى أبي العباس ونعاه إليه، فأمره أبو العباس بستر الوصية وأن ينعاه، ثم أظهر أبو العباس أهلَ بيته على أمره، ودعا الى مؤازرته ومكاشفته أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد، وعيسى بن موسى بن محمد بن أخيه، وعبد الله بن علي عمه، وتوجه أبو العباس إلى الكوفة مسرعاً، وهؤلاء معه في غيرهم ممن خفّ من أهل بيته، فلقيتهم أعرابية على بعض مياه العرب في طريقهم الى الكوفة، وقد تقدم أبو العباس وأخوه أبو جعفر وعمه عبد الله بن علي فيمن كان معهم الى الماء، فقالت الأعرابية: تالله ما رأيت وجوهاً مثل هذه ما بين خليفة وخليفة وخارجي، فقال لها أبو جعفر المنصور: كيف قلت يا أمة الله؟ قالت والله ليلينها هذا، وأشارت إلى السفاح، ولتخلفنه أنت، وليخرجن عليك هذا، وأشارت الى عبد الله

ابن علي، فلما انتهوا الى دومة الجندل لقيهم داود بن علي وموسى بن داود ، وهما منصرفان من العراق الى الحميمة من أرض الشراة ، فسأله داود عن مسيره ، فأخبره بسببه، وأعلمه بحركة أهل خراسان لهم مع أبي مسلم ،وأنه يريد الوثوب بالكوفة ، فقال له داود : يا أبا العباس ، تثب بالكوفة ومروان شيخ بني أمية وزعيمهم في أهل الشام والجزيرة مُطِلٌ على أهل العراق ، وابن هبيرة شيخ العرب في جلّة العرب بالعراق؟ فقال أبو العباس : يا عمّاه ، من أحب الحياة ذل ، وتمثل بقول الأعشى :

فما ميتة إن متُّها غير عاجز بِعارٍ ، إذا ما غالت النفسَ غولها

فالتفت داود الى ابنه موسى ، فقال : أيْ بني ، صدق ابن عمك ، ارجع بنا معه نحيا أعزاء أو نموت كراما ، فعطفا ركابهما معه ، وسار أبو العباس حتى دخل الكوفة .

وقد كان أبو سَلَمة حفص بن سليمان – حين بلغه مقتل إبراهيم الإمام – أضمَرَ الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية الى آل أبي طالب .

مقدم السفاح الكوفة : وقدم أبو العباس الكوفة فيمن ذكرنا من أهل بيته سراً ، والمسودة مع أبي سلمة بالكوفة ، فأنزلهم جميعا دار الوليد بن سعد في بني أوْدٍ حي من اليمن ، وقد ذكرنا مناقب أود وفضائلها فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار الحجاج ، وبراءتهم من عليّ والطاهرين من ذريته ، ولم أرَ الى هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – فيما دُرْتُ من الأرض وتغربت من الممالك رجلاً من أود إلا وجدته – اذا استبطنت ما عنده – ناصبيا متوليا لآل مروان وحزبهم .

وأخفى أبو سَلَمة امر أبي العباس ومن معه ، ووكل بهم وكيلا ، وكان قدوم أبي العباس الكوفة في صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وفيها جرى البريد بالكتب لولد العباس ، وقد كان أبو سلمة لما قتل ابراهيم الإمام خاف انتقاض الأمر وفساده عليه ، فبعث بمحمد بن عبد الرحمن بن أسلم

وكان أسلم مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب معـــه كتابين على نسخة واحدة إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب والى أبي محمد عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ! يدعو كل واحد منهما الى الشخوص إليه ليصرف الدعوة إليه ، ويجتهد في بيعة أهل خراسان له ، وقال للرسول : العَجَلَ العَجَلَ ، فلا نكونن كوافد عـــاد ، فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على أبي عبد الله جعفر بن محمد فلقيه ليلا ، فلما وصل إليه أعلمه أنه رسول أبي سَلَمة ، ودفع اليــه كتابه ، فقــال له أبو عبدالله : وما أنا وأبو سلمة ؟ وأبو سلمة شيعة لغيري ، قال : اني رسول ، فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت ، فدعا أبو عبدالله بسراج ثم أخذ كتاب أبي سلمة فوضعه على السراج حتى احترق ، وقال للرسول: عرف صاحبك بما رأيت ، ثم أنشأ يقول متمثلا بقول الكميت بن زيد :

أيا مُوقِداً ناراً لغيرك ضوؤهـــا ويا حاطباً في غير حبلك تحطب

كيف آلت الامامة للسفاح : فخرج الرسول من عنده وأتى عبدالله بن الحسن فدفع اليه الكتاب فقبله وقرأه وابتهج به ، فلما كان من غد ذلك اليوم الذي وصل اليه فيه الكتاب ركب عبدالله حماراً حتى أتى منزل أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق، فلما رآه أبو عبدالله أكبر مجيئه، وكان أبو عبدالله أسَنّ من عبدالله، فقال له :يا أبا محمد أمر ما أتى بك ، قال : نعم وهو أجل من أن يوصف، فقال : وما هو يا أبا محمد ؟ قال : هذا كتاب أبي سلمة يدعوني الى ما أقبله، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان ، فقال له أبو عبدالله : يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أنت بعثت أبا مسلم الى خراسان؟ وأنت أمرته بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وَجّهت فيهم؟ وهل تعرف منهم أحداً ؟فنازعه عبدالله بن الحسن الكلام، الى أن قال: إنما يريد القوم ابني محمداً لأنه مهديُّ هذه الأمة، فقال أبو عبدالله جعفر : والله ما هو مهدي هذه الأمة، ولئن شهر سيفه ليقتلن، فنازعه عبدالله القول،

حتى قال له : والله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد ، فقال أبو عبدالله : والله ما هذا إلا نصح مني لك ، ولقد كتب اليَّ أبو سلمة بمثل ما كتب به اليك ، فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك ، ولقد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه ، فانصرف عبدالله من عند جعفر مغضباً ، ولم ينصرف رسول أبي سلمة اليه الى أن بويع السفاح بالخلافة وذلك أن أبا حميد الطوسي دخل ذات يوم من العسكر الى الكوفة فلقي سابقاً الخوارزمي في سوق الكناسة فقال له: سابق؟ قال : سابق ، فسأله عن ابراهيم الإمام ، فقال : قتله مروان في الحبس ، وكان مروان يومئذ بحران ، فقال أبو حميد : فإلى من الوصية ؟ قال : الى أخيه أبي العباس ، قال : وأين هو ؟ قال : معك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من عمومته وأهل بيته ، قال : مُذ متى هم هنا ؟ قال : من شهرين ، قال : فتمضي بنا اليهم ، قال : غداً بيني وبينك الموعد في هذا الموضع وأراد سابق أن يستأذن أبا العباس في ذلك ، فانصرف الى أبي العباس فأخبره ، فلامه إذ لم يأت به معه اليهم ، ومضى أبو حميد فأخبر جماعة من قوّاد خراسان في عساكر أبي سلمة بذلك ، منهم أبو الجهم[1] وموسى بن كعب ، وكان زعيمهم ، وغدا سابق الى الموضع ، فلقي أبا حميد ، فمضيا حتى دخلا على أبي العباس ومن معه فقال : أيكم الإمام ؟ فأشار داود بن علي الى أبي العباس ، وقال : هذا خليفتكم ، فأكبّ على أطرافه يقبلها ، وسلم عليه بالخلافة ، وأبو سلمة لا يعلم بذلك ، وأتاه وجوه القواد فبايعوه ، وعلم أبو سلمة بذلك فبايعه ، ودخلوا الى الكوفة في أحسن زي ، وضربوا له مصافا ، وقدّمت الخيول ، فركب أبو العباس ومن معه حتى أتوا قصر الإمارة ، وذلك في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب تنازع الناس في أي شهر بويع له من هذه السنة .

---

١) في نسخة : منهم الجهم وموسى بن كعب .

ثم دخل المسجد الجامع من دار الإمارة فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر تعظيم الرب ومننه ، وفضل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاد الولاية والوراثة حتى انتهت اليه ، ووعد الناس خيراً ، ثم سكت ، فتكلم عمه داود بن علي وهو على المنبر دون أبي العباس ، فقال : إنه والله ما كان بينكم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة إلا علي عليه السلام وأمير المؤمنين هذا الذي خلفي ، ثم نزلا .

ثم خرج أبو العباس الى عسكر أبي سلمة فنزل في حجرته ، واستخلف على الكوفة وأرضها عمّه داود بن علي ، وبعث بعمه عبدالله بن علي الى أبي عون عبد الملك بن يزيد ، فسارا معاً إلى مروان ، فكان من أمرهم ما قدمنا ذكره من التقائهم على الزاب ، وهزيمة مروان بن محمد .

عامر بن اسماعيل قاتل مروان : واتصل بأبي العباس السفاح ما كان من عامر بن إسماعيل وقتله لمروان ببوصير وقيل : إن ابن عم لعامر يقال له نافع ابن عبد الملك كان قتله في تلك الليلة في المعركة وهو لا يعرفه ، وإن عامراً لما احتاز رأس مروان واحتوى على عسكره دخل إلى الكنيسة التي كان فيها مروان ، فقعد على فرشه وأكل من طعامه ، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى ، وتعرف بأم مروان ، وكانت أسنهن ، فقالت : يا عامر إن دهراً أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره ، وحكمت في مملكته ؛ لقادر أن يغير ما بك من نعمة .

بين السفاح وعامر بن اسماعيل : وبلغ السفاحَ فعله وكلامها ، فاغتاظ من ذلك ، وكتب إليه : « ويلك ! أما كان لك في أدب الله عز وجل ما يزجرك عن أن تأكل من طعام مروان ، وتقعد على مهاده ، وتتمكن من وساده ؟ أما والله لولا أن أمير المؤمنين تأول ما فعلت على غير اعتقاد منك لذلك ولا شهوة لمسّك من غضبه وأليم أدبه ما يكون لك زاجراً ، ولغيرك واعظاً ، فإذا أتاك كتابُ أمير المؤمنين فتقرب إلى الله تعالى بصدقة تطفىء

بها غضبه ، وصلاة تظهر بها الاستكانة ، وصُمْ ثلاثة أيام ، ومُرْ جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك » .

رأس مروان بين يدي السفاح : ولما أتي أبو العباس برأس مروان ووضع بين يديه سجد فأطال السجود ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رَهْطِك ، والحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك ، ثم قال : ما أبالي متى طرقني الموت ، قد قتلتُ بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين ، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخي إبراهيم ، وتمثل :

لو يشربون دمي لم يُرْوِ شاربهم ولا دماؤهمُ للغيظ ترويني

ثم حَوَّل وجهه إلى القبلة فأطال السجود ، ثم جلس وقد أسفر وجهه ، وتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له :

أبى قومُنا أن ينصفونا ، فأنصفت قواطِعُ في أيماننا تقطر الدما
تورثن من أشياخ صدق تقربوا بهنّ إلى يوم الوغى فتقدما
إذا خالَطَتْ هام الرجال تركنها كبَيْض نعام في الوغى متحطما

وقالت الشعراء في أمر مروان فأكثرت .

وذكر أبو الخطاب عن أبي جعدة بن هبيرة المخزومي — وكان أحد وزراء مروان وسمّاره ، وقد كان لما ظهر أمر أبي العباس انضاف إلى جملته وصار في عداد أصحابه وخواصه الذين اتخذهم — أنه كان في ذلك اليوم حاضراً لمجلس أبي العباس ورأسُ مروان بين يديه ، وهو يومئذ بالحيمة ، وأن أبا العباس التفت إلى أصحابه فقال : أيكم يعرف هذا ؟ قال أبو جعدة : فقلت أنا أعرفه ، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد خليفتنا بالأمس رضي الله عنه ، قال : فحدقتْ إليّ الشيعة فأخذتني بأبصارها ، فقال لي

أبو العباس : في اي سنة كان مولده ؟ قلت : سنة ست وسبعين ، فقام وقد تغير لونه غيظاً علي[١] ، وتفرق الناس من المجلس ، وانصرفتُ وأنا نادم على ما كان مني ، وتكلم الناس في ذلك وتحدثوا به ، فقلت هـــذه زلة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبـــداً ، فأتيت منزلي ، فلم أزل باقي يومي أعهد وأوصي ، فلما كان الليل اغتسلت وتهيأت للصلاة ، وكان أبو العباس إذا هم بأمر بعث فيه ليلا ، فلم أزل ساهراً حتى أصبحت ، فلما أصبحت ركبت بغلتي واستعرضت بقلبي إلى من أقصد في أمري ، فلم أجد أحداً أولى من سليان بن خالد مولى بني زهرة ، وكانت له من أبي العباس منزلة عظيمة ، وكان من شيعة القوم ، فأتيته ، فقلت : أذكرني أمير المؤمنين البارحـــة ؟ فقال : نعم ، جرى ذكرك فقال : هو ابن اختنا ، وفـّى لصاحبه ، ونحن إن أوليناه خيراً كان لنا أشكر ، فشكرت ذلك له وجزيته خيراً، ودعوت له ، وانصرفت ، فلم أزل آتي أبا العباس على ما كنتُ عليه لا أرى إلا خيراً ونمي الكلام الذي كان في مجلس أبي العباس – حين أتى برأس مروان – فبلغ أبا جعفر وعبد الله بن علي ، فكتب عبد الله بن علي إلى أبي العباس يُعلمه بما بلغه من كلامي ، وأنه ليس هذا يحتمل ، وكتب أبو جعفر يخبر بما بلغه من ذلك ، ويقول : هو ابن أختنا ، ونحن أولى باصطناعه واتخـــاذ المعروف عنده ، وبلغني ما كان منهما فأمسكت ، وضرب الدهر ضربانه ، فبينا أنا ذات يوم عند أبي العباس بعد حين وقد تزايدت حـــالي عنده وأحظاني ، فنهض الناس ونهضتُ ، فقال لي أبو العباس : على رِسْلِكَ يا ابن هبيرة ، اجلس فجلست ، ونهض ليدخل فقمت لقيامه ، فقال : اجلس ، فرفع الستر ودخل ، وثبتُ في مجلسي ، فأقام ملياً ثم رفع الستر فخرج في ثوبَيْ وَشْي رداء وجبة ، فما رأيت أحسن منه ولا مما عليه قط ، فلما رفع الستر نهضت ، فقال : اجلس ، فجلست ، فقال : يا ابن هبيرة ، إني ذاكر

١) في نسخة : غضبا علي .

لك أمراً فلا يخرجنّ من رأسك إلى أحدٍ من الناس ، ثم قال : قد علمت ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتَلَ مروان ، وعبدُ الله بن علي عمي هو الذي قتله ؛ لأن ذلك كان بجيشه وأصحابه ، وأخي أبو جعفر — مع فضله وعلمه وسنه وإيثاره لأمر الله — كيف يسوغ إخراجه عنه ؟ قال : فأطال في مديح أبي جعفر ، فقلت : أصلح الله أمير المؤمنين !! لا أشير عليك ، ولكني أحدثك حديثاً تعتبره ، فقال : هاته ، فقلت : كنا مع مَسْلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية إذ ورد عليه كتابُ عمر بن عبد العزيز بنمي سليان ومصير الأمر إليه ، فبعث إليّ ، فدخلت عليه ، فرمى بالكتاب إليّ فقرأته ، ثم اندفع يبكي ، فقلت : أصلح الله الأمير ! لا تَبْكي على أخيك ، ولكن ابك على خروج الخلافة من ولد أبيك إلى ولد عمك ، فبكى حتى اخضلّتْ لحيته ، قال : فلما فرغت من حديثي قال لي أبو العباس : حسبك قد فهمت عنك ، ثم قال : إذا شئت فانهض ، فما مضيت غير بعيد حتى قال لي : يا ابن هبيرة ، فالتفتُّ راجعاً ، فقال لي : امْضِ ، أما إنك قد كافأت هذا ، وأدركت بثأرك من هذا ، قال : فما ادري من أي الأمرين أعجب ؟ أمن فِطْنته أم من ذكره لما كان ؟

وأبو جعدة بن هبيرة هذا هو من ولد جعدة بن هبيرة المخزومي من فاختة أم هانيء بنت أبي طالب ، وعلي وجعفر وعقيل أخْوَالُه ، وقد قدمنا خبره فيا سلف من هذا الكتاب .

بين عبدالله بن علي وأخيه داود في ولاية عهد السفاح:قال المسعودي:ووجدت في أخبار المدائني ، عن محمد بن الأسود ، قال : بينا عبدالله بن علي يُسَايِر أخاه داود بن علي ومعهما عبدالله بن الحسن بن الحسن ، فقال داود لعبدالله : لم لا تأمر ابنيك بالظهور ؟ فقال عبدالله : هيهات لم يئن لهما بعد فالتفت اليه عبدالله بن علي فقال : كأنك تحسب أن ابنيك هما قاتلا مروان ، فقال : ان ذلك كذلك ، فقال عبدالله : هيهات ، وتمثل :

سيكفيك المقالةَ مستميتٌ خفيف اللحم من أولاد حام

أنا والله قاتله .

وقيل لعبدالله بن علي : ان عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز يذكر أنه قرأ في بعض الكتب أنه يقتل مروانَ عينٌ ابنُ عينٍ، وقد أمَّلَ أن يكون هو، فقال عبدالله بن علي : أنا والله ذلك ، ولي عليه فضل ثلاثة أعين ،أنا عبدالله ابن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم،وهو عمرو بن عبد مناف.

فلما صافٌ مروان عبدالله بن علي أقبل مروان على رجل الى جنبه فقال: من الرجل الذي كان يخاصم عندك عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر الأقنى الحديد البصر الحسن الوجه ؟ فقلت: يرزق الله البيان من يشاء ، قال: إنه لهو ، قلت : نعم ، قال : من ولد العباس بن عبدالمطلب هو ؟ قلت : أجَلْ ، فقال مروان ، إنا لله وإنا اليه راجعون ، ويحك ! إني ظننت أن الذي يحاربني من ولد أبي طالب وهذا الرجل من ولد العباس واسمه عبدالله أتدري لم صيرت الأمر بعدي لابني عبيدالله بعد عبدالله ومحمد أكبر من عبدالله؟ قلت : لم ؟ قال : لأنا خُبِّرنا أن الأمر صائر بعدي الى عبدالله وعبيدالله ، فنظرت فاذا عبيد الله أقرب الى عبد الله من محمد ، فوليته دونه .

قال : وبعَثَ مروان بعد أن َحدَّث صاحبه بهذا الحديث الى عبد الله بن علي في خِفْية : إن الأمر يا ابن عم صائر اليك فاتق الله في الحرم ، قال : فبعث اليه عبد الله : ان الحق لنا في دمك ، والحق علينا في حرمك .

زواج السفاح بأم سلمة بنت يعقوب : وذكر مصعب الزبيري عن أبيه قال : كانت أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، فهلك عنها ، ثم كانت عند هشام فهلك عنها ، فبينا هي ذات يوم جالسة اذ مر بها أبو العباس السفاح ، وكان جميلا وسيما ، فسألت عنه ، فنسب لها ، فأرسلت له مولاةً لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لها : قولي له هذه سبعمائة دينار أوجه بها اليك ،

وكان معها مال عظيم وجوهر وحشم ، فأتته المولاة فعرضت عليه ذلك ، فقال : أنا مملق لا مال عندي ، فدفعت اليه المال ، فأنعم لها ، وأقبل الى أخيها فسأله التزويج فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، واهدى مائتي دينار ، ودخل عليها من ليلته ، واذا هي على مِنَصَّةٍ ، فصعد عليها ، فاذا كل عضو منها مكلل بالجوهر فلم يصل اليها ، فدعت بعض جواريها فنزلت وغيرت لبسها ولبست ثياباً مصبغة وفرشت له فراشاً على الأرض دون ذلك(١) فلم يقدر يصل اليها ، فقالت : لا يضرك هذا ، كذلك الرجال كان يصيبهم مثل ما أصابك ، فلم تزل به حتى وصل اليها من ليلته ، وحَظِيت عنده ، وحلف أن لا يتزوج عليها ولا يتسرّى ، فولدت منه محمداً ورَيْطة ، وغلبت عليه غلبة شديدة ، حتى ما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها وبتأميرها حتى أفضت الخلافة اليه ، فلم يكن يدنو الى النساء غيرها لا الى حرة ولا الى أمة ، ووفى لها بما حلف أن لا يغيرها ، فلما كان ذات يوم في خلافته خلا به خالد ابن صفوان فقال : يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك ، وسَعَةِ ملكك، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة واقتصرت عليها فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجواري ومعرفة أخبار حالاتهن والتمتع بما تشتهي منهن فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغَيْداء ، وإن منهن البَضّة البيضاء ، والعتيقة الأَدْماء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العَجْزاء ، من مولدات المدينة ، تفتن بمحادثتها ، وتلذ بخلوتها ، وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر الى ما عندهن وحسن الحديث منهن ؟ ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء ، والسمراء اللعساء ، والصفراء العجزاء، والمولدات من البصريات والكوفيات ، ذات الألسن العذبة، والقدود المهفهفة، والأوساط المخصرة ، والأصداغ المزرْفنة ، والعيون المكحلة ، والثدي المحققة، وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن ، لرأيت شيئاً حسناً ، وجعل خالد يجيد في

---

١) في نسخة : دون الذي كانت عليه .

الوصف ، ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فلما فرغ كلامه قال له ابو العباس : ويحك يا خالد ! ما صكّ مسامعي والله قط كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعِدْ علي كلامك فقد وقع مني موقعاً ، فأعاد عليه كلامه خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف، وبقي ابو العباس مفكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه أم سلمة امرأته ، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت : إني لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه ، او اتاك خبر فارتعتَ له ؟ قال لم يكن من ذلك شيء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوي عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد له ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله ينصحني وتشتمينه ؟ فخرجت من عنده مُغْضَبة ، وأرسلت الى خالد جماعة من النجارية ومعهم الكافر كوبات(١) ، وأمرتهم أن لا يتركوا منه عضواً صحيحاً ، قال خالد : فانصرفت الى منزلي ، وأنا على السرور بما رأيت من امير المؤمنين ، وإعجابه بما ألقيته اليه ، ولم أشك أن صلته ستأتيني ، فلم ألبث حتى صار اليّ اولئك النجارية وانا قاعد على باب داري ، فلما رأيتهم قد اقبلوا نحوي ايقنت بالجائزة والصلة ، حتى وقفوا عليّ ، فسألوا عني ، فقلت : ها انا ذا خالد ، فسبق الي احدهم بهراوة كانت معه فلما اهوى بها الي وثبت فدخلت منزلي ، واغلقت الباب عليّ ، واستترت ، ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي ، ووقع في خَلَدي أني أوتيت من قبل أم سلمة ، وطلبني أبو العباس طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا علي ، وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت فركبت وليس عليّ لحم ولا دم(٢) ، فلم أصل إلى الدار حتى استقبلني عدة رسل ، فدخلت عليه فألفيته خالياً ، فسكنت بعض السكون ، فسلمت فاومأ إلي بالجلوس ، ونظرت فإذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخيت، وحركة خلفها ، فقال لي: يا خالد ، لم أرك منذ ثلاث ، قلت : كنت عليلاً يا

---

١) في نسخة : الكرنبات .
٢) في نسخة :وليس لي لحم ولا دم .

أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! إنك كنت وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه ، فأعده علي ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جَهْد ، فقال : ويحك ! لم يكن هذا في الحديث ، قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافيّ القِدْر يغلي عليهن ، قال أبو العباس : برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعت هـــذا منك في حديثك ، قال : وأخبرتك أن الأربعة من النساء شر مجموع لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه ويسقمنه ، قال : ويلك ! والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت ، قال خالد : بلى والله ، قال : ويلك! وتكذبني؟ قال : وتريد أن تقتلني يا أمـير المؤمنين ؟ قال : مُرَّ في حديثك ، قال : وأخبرتك أن أبكار الجواري رجال ، ولكن لا خصي لهنّ ، قال خالد : فسمعت الضحك من وراء الستر ، قلت : نعم وأخبرتك أيضاً أن بني مخزوم رَيحانَةُ قريش ، وأن عندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمح بعينك إلى حرائر النساء وغيرهن من الإماء ، قال خـــالد : فقيل من وراء الستار : صدقت والله يا عماه وبَرِرْتَ ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ، ولكنه بـــدل وغير ونطق عن لسانك ، فقال لي أبو العباس : ما لك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل !؟ قال : فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة ، قال خالد: فما شعرت إلا برسل أم سلمة قد صاروا إليّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتختٌ وبرذون وغلام .

كان السفاح يحب مسامرة الرجال : ولم يكن أحـــد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح ، وكان كثيراً ما يقول : إنمـــا العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك

وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ، ويروي نقصاً ، فقال له الهذلي : لذلك فضلكم الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين .

السفاح وأبو نخيلة : ودخل عليه أبو نخيلة الشاعر ، فسلم عليه ، وانتسب له ، وقال : عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك ، أفتأذن لي في إنشادك ؟ فقال له : لعنك الله ! ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بن مروان :

أمَسْلَمَ ، إني يا ابن كل خليفة ويا فارس الهيجا ويا جبل الارض
شكرتك، إن الشكر حبلٌ من التقى وما كل من أوليته نعمة يقضي
وأحييْتَ لي ذكرى وما كان خاملا ولكنَّ بعض الذكر أنبهُ من بعض

قال : فأنا يا أمير المؤمنين الذي أقول :

لما رأينا استمسكت يداكا كنا أناساً نَرهَبُ الملاكا
ونركب الأعجاز والأوراكا من كل شيء ما خلا الإشراكا
فكلما قد قلت في سواكا زُورٌ ، وقد كفَّر هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها إياكا فكنت أنت للرجاء ذاكا

قال : فرضي عنه ووصله وأجازه .

كان ابسط وجها اذا حضر طعامه : وكان أبو العباس إذا حضر طعامه أبسطَ ما يكون وجهاً ، فكان إبراهيم بن مخرمة الكندي إذا أراد أن يسأله حاجة أخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله، فقال له يوماً : يا ابراهيم، ما دعاك إلى أن تشغلني عن طعامي بحوائجك ؟ قال : يدعوني الى ذلك التماس النجح لما أسأل ، قال أبو العباس : إنك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفطنة .

بعض عادات وسياسات السفاح : وكان اذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته لم يسمع من أحدهما في الآخر شيئاً ولم يقبله ، وإن كان القائل عدلاً

في شهادته ، وإذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحد منهما لصاحبه ولا عليه ، ويقول : إن الضغينة القديمة تولد العداوة المُمِضّة [١] ، وتحمل على إظهار المسالمة ، وتحتها الافعى التي إذا تمكنت لم تُبقِ .

وكان في أول أيامه يَظهر لندمائه، ثم احتجب عنهم ، وذلك لسنة خلت من ملكه ، لأمر قد ذكرناه فيما سلف من كتبنا ، وكان قعـوده من وراء الستارة ، على حسب ما ذكرناه فيما سلف من هذا الكتاب في سيرة أردشيدر ابن بابك وأيامه .

وكان يطرب من وراء الستر ، على حسب ما ذكرنا ، ويصيحُ بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ، أعدْ هذا الصوت .

وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا من مطربيه الا بصلة من مال أو كسوة ، ويقول : لا يكون سرورنا معجلا ، ومكافاة من سرنا وأطربنا مؤجلا ، وقد سبقه الى هذا الفعل ملك من الملوك التي للفرس ، وهـو بَهْرام جور .

وحضره أبو بكر الهذلي ذات يوم ، والسفاح مقبل عليه يحادثه بحديث لأنوشروان في بعض حروبه بالمشرق مع بعض ملوك الامم ، فعصفت الريح فاذْرتْ تراباً وقطعاً من الآجر من أعلى السطح الى المجلس، فجزع من حضر المجلس لوقوع ذلك ، وارتاع له ، والهذلي شاخص نحو أبي العباس لم يتغير كما تغير غيره ، فقال له أبو العباس : لله أنت يا أبا بكر ، لم أر كاليوم ، أما راعك ما راعنا ولا أحسست بما ورد علينا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، مـا جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وإنما جُعل للرجل قلب واحد ، فلما غمره السرور بفائدة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال ، والله عز وجل اذا أفرد بكرامته أحداً وأحب ان يبقي له ذكرها جعل تلك الكرامة على

---

١) في نسخة : تولد العداوة المحضة .

لسان نبي او خليفة ، وهذه كرامة خُصصْتُ بها فمال اليها ذهني ، وشغل بها فكري ، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ، ولا وجت لها ، الا بما يلزمني من نفسي لأمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، فقال له السفاح : لئن بقيت لك لأرفعنّ منك وضيعاً لا تطيف بــه السباع ، ولا ينحط عليه العقــابيع .

من النصائح في مخالطة الملوك : وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وصية عبد الملك للشعبي في فضل الإنصات للملوك .

وقد حكي عن عبد الله بن عياش المنتوف أنه قال : لم تتقرب العامة الى الملوك بمثل الطاعة ، ولا العبيد بمثل الخدمة ، ولا البطانة بمثل حسن الاستماع.

وقد حكي عن روح بن زنباع الجذامي انه كان يقول : اذا أردت ان يمكنك الملك من اذنه فأمكن اذنك من الإصغاء الى حديثه ، ولا يتعتب الرجل عندي اذا كان يصغي الى حديثه ، ولا يقدح ما قيل فيه في قلبي لما تقدم له من حسن الاستماع عندي .

وقد حكي عن معاوية أنه كان يقول: يُغلَب الملك حتى يُركَب لشيئين: بالحلم عند سورته ، والإصغاء الى حديثه .

ووجدت في سير الملوك من الأعاجم أن شيرَويه بن أبرويز بينا هو في بعض متنزهاته بأرض العراق ، وكان لا يسايره أحد من الناس مبتدئاً ، وأهل المراتب العالية خلف ظهره على مراتبهم ، فإن التفت يميناً دنا منه صاحب الجيش ، وإن التفت شمالاً دنا منه الموبذانُ ، فأمر مَن دنا منها بإحضار مَن أراد مسامرته ، فالتفت في مسيره هذا يميناً ، فدنا منه صاحب الجيش ، فقال : أين شداد بن جرثة ؟ فأحضر ، فسايره فقال له شيرويه: أفكَرْتُ في حديث جدنا أردشيدر بن بابك حين واقع ملك الخزر ، فحدثني به ان كنت تحفظه ، وكـــان شداد قد سمع هذا الحديث من أنوشروان ، وعرف المكيدة ، وكيف كان اردشير اوقعها بملك الخزر ، فاستعجم عليه شداد ، وأوهمه أنه

لا يعرفه ، فحدثه شيرويه بالحديث ، فأصغى اليه الرجل بجوارحه كلها ، وكان مسيرهم على شاطىء نهر ، فترك الرجل لإقباله على شيرويه النظر إلى موطىء حافر دابته ، فزلّت إحدى قوائم الدابة ، فمالت بالرجل الى اليمين ، فوقع في الماء ، ونفرت الدابة، فابتدرها حاشية الملك وغلمانه فأمالوها عن الرجل ، وجذبوه فحملوه على أيديهم حتى أخرجوه فاغتمّ الملك لذلك، ونزل عن دابته وبسط له هنالك حتى تغدّى في موضعه ، ودعا بثياب من خاص كسوته فألقيت على شداد وأكل معه ،.وقال له : غفلت عن النظر الى موضع حافر دابتك ، فقال : أيها الملك ، إن الله إذا أنعم على عبد نعمة قابلها بمحنة ، وعارضها ببلية ، وعلى قدر النعم تكون المحن ، وان الله انعم عليّ بنعمتين عظيمتين هما اقبال الملك علي بوجهه من بين هذا السواد الأعظم وهذه الفائدة وهي تدبير الحرب حتى حدّث بها عن أردشير حتى إني لو دخلت الى حيث تطلع الشمس أو تغرب لكنت رابحاً ، فلما اجتمعت نعمتان جليلتان في وقت واحد قابلتهما هذه المحنة[1] ، ولولا أساورة الملك ويمن جده لكنت بعرض هلكة ، وعلى ذلك فلو غرقت حتى ذهبت عن جديد الأرض لكان قد أبقى لي الملكُ ذكراً مخلداً ما بقي الضياء والظلام والجنوب والصبّا فسرّ الملك بذلك ، وقال : ما ظننتك بهذا المقدار الذي أنت فيه ، فحشا فاه جوهراً ودراً رائقاً ثميناً ، واستبطنه حتى غلب على اكثر أمره .

وإنما ذكرنا هذا الخبر من أخبار من سلف من ملوك الفرس ليعلم أن أبا بكر الهذلي لم يبتدىء بحال لم يسبقه اليها غيره ، ويتقدمه بها سواه .

أحسن المواقع من الملوك: واحسن المواقع من الملوك الاستماع منها،والأخذ عنها ، وقد كانت حكماء اليونانيين تقول : إن الواجب على من أقبل عليه ملك أو ذو رياسة بحديث أن يصرف قلبه كله الى ذلك ، وإن كان يعرف الحديث الذي يسمعه من الملك ، كأنه لم يسمعه قط ، ويظهر السرور بالفائدة

---

١) في نسخة: هذه النقمة.

من الملك والاستبشار بحديثه ، وإن في ذلك أمرين : احدهما ما يظهر من حسن أدبه ، فإنه يعطي[1] الملك حقه بحسن الاستماع لحديثه والاستغراب له منه كأنه لم يسمعه ، وإظهار السرور والاستفادة منه ، فالنفس الى الفوائد من الملوك والحديث عنهم أشهى واقرب منها الى فوائد السوقة وما اشبهها .

معاوية وابن شجرة الرهاوي : وقد ذكر جماعة من الأخباريين كابن دأب وغيره نحو هذا المعنى عن معاوية بن أبي سفيان ، ويزيد بن شجرة الرهاوي ، وهو ان ابن شجرة كان يساير ذات يوم معاوية وكان آنساً به ، والى حديثه تائقاً ، ومعاوية مقبل عليه يحدثه عن جزعان يوم كان لبني مخزوم وغيرهم من قريش ، كان فيــه حرب عظيمة فني فيه خلق من الناس ، وذلك قبل الإسلام ، وقيل : إن ذلك كان قبل الهجرة ، وكانت لأبي سفيان فيه مكرمــة سابقة في الرياسة ، وهو أنه لما أشرف الفريقان على الفناء صعد على نشز من الأرض ثم صاح بالفريقين ، وأشار بكمه ، فانصرف الفريقان جميعاً انقياداً الى أمره ، وكان معاوية معجباً بهذا الحديث ، فبينا هو يحدثه به ويزيد بن شجرة مقبل عليه ، وقد استخفتهما لذة المحدث والمستمع اذ صك جبين يزيد بن شجرة حجرٌ عائر فأدماه ، فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ، وغير ذلك ، ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، فقال له معاوية : لله انت يا ابن شجرة ، اما ترى ما نزل بك ؟ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا دم يسيل على ثوبك ، قال : أعتق ما أملك إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي ، فما شعرت بشيء مما حدث ، حتى نبهني عليه امير المؤمنين ، فقال معاوية : لقد ظلمك من جعلك في الف من العطاء ، وأخرجك عن عطاء أبناء المهاجرين والجماهير ممن حضر معنا بصفين ، ثم أمر له وهو في مسيره بخمسمائة ألف درهم ، وزاده في عطائه الفاً من الدراهم ، وجعله بين جلده وثوبه .

---

١) في نسخة : يوفي الملك حقه .

تعليق : وقد قال بعض اهل المعرفة والأدب من مصنفي الكتب في هذا المعنى وغيره مما حكيناه عن معاوية وابن شجرة : لئن كان ابن شجرة خدَعَ معاوية في هذا ومعاوية ممن لا يخادع بما مثله إلا كما قال الأول :

من يَنِكِ العير ينك نياكا

وإن كان قد بلغ من بلادة ابن شجرة ، وقلة حسه ، ما وصف بـه نفسه فما كان جديراً بخمسمائة ألف درهم صِلَةً ، وزيادة ألـــف في عطائه ، وما أظن ذلك خفي عن معاوية .

حسن الاستماع : قال المسعودي : وقد قالت الحكماء في هذا وأكثرت ، وأمرت بحسن الاستماع والصمت وأطنبت، فقالوا : لا تحسن المحادثة إلا بحسن الفهم ، وقالوا : تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع هو إمهال المحدث[1] حتى ينقضي حديثه .

من أدب الحديث : ومن أدب الحديث وواجباته: أنْ لا يقتضب اقتضاباً، ولا يهجم عليه ، وأن يتوصل الى إجرائه بما يشاكله ، وأن يستنسب له ما يحسن أن يجري في عرضه حتى يكون بعض المفارضة متعلقاً ببعض ، على حسب ما قالوا في المثـــل : إن الحديث ذو شجون ، يريدون بذلك تشعبه وتفرعه عن أصل واحد الى وجوه من المعاني كثيرة ؛ اذ كان العيش كله في الجليس الممتع ، وقال رجل : والله ما أمل الحديث ، فقال السامع : إنما يمل العتيق لا الحديث .

وقد أكثرت الشعراء من الإغراق في هذا المعنى ، ومن ذلك قول علي بن العباس الرومي :

وشمت كلَّ مـــآربي فكأنَّ أطيبها غَثيثُ
إلا الحديث فإنـــه مثلُ اسمه ابداً حديث

---

(1) في نسخة : وحسن الاستماع هو أشهى الى المحدث .

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول إبراهيم بن العباس :

إن الزمانَ وما تَرَيْنَ بِفَرْقِي صَرَفَ الغواية فانصرفت كريما
وضجرت إلا من لقاء محدث حسن الحديث يزيدني تعليما

وقد ذكر بعض المحدثين من أهل الأدب أن من الأدب عَدَمَ إطالة الحديث من النديم ، وأن أحلى الحديث وأحسنه موقعاً ان تجتنب منه الأحاديث الطِّوَال ذات المعاني المغلقة والألفاظ الحشوية التي ينقضي باقتصاصها زمان المجلس ، وتتعلق بها النفوس ، وتحتسى على أواخرها الكؤوس ، فإن ذلك بمجالس القُصّاص ، اشبه منه بمجالس الخواص .

وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد الله بن المعتز بالله ، ووصف ذلك من اصحاب الشراب على المعاقرة ، فقال :

بين أقداحهم حديثٌ قصير هو سحرٌ ، وما عداه كلام
وكأن السُّقاةَ بين الندامى أَلِفَاتٌ بين السطور قيام

وهذه طريقة من ذهب في هذا المعنى الى استماع الملح .

أول وزير في الدولة العباسية : وكان اول من وقع عليه اسم الوزارة في دولة بني العباس ابو سَلمة حفص بن سليمان الخلاّل الهمداني ، مولى لسبيع ، وكان في نفس ابي العباس منه شيء ؛ لأنه كان حاول في رد الأمر عنهم الى غيرهم ، فكتب ابو مسلم الى السفاح يشير عليه بقتله ؛ ويقول له : قد أحل الله لك دمه ؛ لأنه قد نكث وغير وبدل ، فقال السفاح : ما كنت لأفتتح دولتي بقتل رجل من شيعتي ، لا سيا مثل ابي سلمة ، وهو صاحب هذه الدعوة ، وقد عرض نفسه ، وبذل مهجته ، وانفق ماله ، وناصح إمامه ، وجاهد عدوه ، وكلمه ابو جعفر اخوه وداود بن علي عمه في ذلك ، وقد كان ابو مسلم كتب اليهما يسألهما ان يشيرا على السفاح بقتله . فقال ابو العباس : ما كنت لأفسد كثير إحسانه ، وعظيم بلائه وصالح أيامه بزلّةٍ كانت منه ،

وهي خطرة من خطرات الشيطان ، وغفلة من غفلات الإنسان ، فقالا له : فينبغي يا امير المؤمنين ان تحترس منه ، فإنا لا نأمنه عليك ، فقال : كلا إني لآمنه في ليلي ونهاري وسري وجهري ووحدتي وجماعتي ، فلما اتصل هذا القول من ابي العباس بأبي مسلم أكبره وأعظمه ، وخاف من ناحية ابي سلمة أن يقصده بمكروه ، فوجّه جماعة من ثقات اصحابه في إعمال الحيلة في قتل ابي سلمة ، وقد كان ابو العباس يأنس بأبي سلمة ويسمر عنده ، وكان ابو سلمة فكهاً ممتعاً أديباً عالماً بالسياسة والتدبير ، فيقال : إن ابا سلمة انصرف ليلة من عند السفاح من مدينته بالأنبار ، وليس معه احد ، فوثب عليه اصحاب ابي مسلم فقتلوه ، فلما اتصل خبره بالسفاح انشأ يقول :

الى النار فليذهب، ومن كان مثله على أي شيء فاتنا منه نأسف

وكان ابو مسلم يقال له : أمين آل محمد ، وابو سلمة حفص بن سليمان يدعى وزير آل محمد ، فلما قتل غيلة على ما ذكرنا قال في ذلك الشاعر من ابيات :

إن المساءة قد تسرُّ ، وربما كان السرور بما كرهت جديرا
إن الوزير وزير آل محمد أوْدى، فمن يشناك كان وزيرا

وقد اتينا على خبر مقتله وكيفية امره في الكتاب الأوسط .

مسامرات السفاح : وكان السفاح يعجبه الحادثة ، ومفاخرات العرب من نزار واليمن ، والمذاكرة بذلك ، ولخالد بن صفوان ولغيره من قحطان اخبار حسان ، ومفاخرات ومذاكرات ومنادمات ومسامرات مع ابي العباس السفاح قد اتينا على مبسوطها وما اخترناه من غررها في كتابينا « اخبار الزمان » والأوسط ، فاغنى ذلك عن ذكرها .

ومما ذكر من اخباره واستفاض من اسماره ، ما ذكره البهلول بن العباس عن الهيثم بن عدي الطائي ، عن يزيد الرقاشي ، قال : كان السفاح يعجبه

مسامرة الرجال ، وإني سمرت عنده ذات ليلة ، فقال : يا يزيد ، اخبرني بأظرف[١] ما سمعته من الأحاديث ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، وإن كان في بني هاشم ؟ قال : ذلك أعجب اليّ ، قلت : يا امير المؤمنين ، نزل رجل من تنُوخَ بحي من بني عامر بن صَعْصَعَة ، فجعل لا يحط شيئاً من متاعه إلا تمثل بهذا البيت :

لعمرك ما تبلى سرائر عامرٍ　　من اللؤم ما دامت عليها جلودها

فخرجت اليه جارية من الحي ، فحادثته وآنسته ، وسألته حتى انس بها ، ثم قالت: ممن انت مُتِّعْتَ بك ؟! قال : رجل من بني تميم ، فقالت : اتعرف الذي يقول :

تميم بطُرْق اللؤم اهدى من القطا　　ولو سلكت سُبْلَ المكارم ضلت
ولو ان برغوثاً على ظهر قملة　　يكر على جمعي تميم لولّتِ
ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا　　وما ذبحت يوماً تميم فسمت
أرى الليل يجلوه النهار ، ولا أرى　　عظام المخازي عن تميم تجلت

فقال : لا والله ما أنا منهم ، قالت : فممن أنت ؟ قال : رجل من عجلٍ ، قالت : أتعرف الذي يقول :

أرى الناسَ يُعطُونَ الجزيل ، وإنما　　عطاء بني عجل ثلاثٌ وأربعُ
اذا مات عجليٌّ بأرض فإنما　　يشق له منها ذراع وإصبع

قال : لا والله ما انا من عجل ، قالت : فممن انت ؟ قال : رجل من بني يشكر ، قالت : أتعرف الذي يقول :

إذا يشكريٌّ مَسَّ ثوبك ثوبه　　فلا تذكرن الله حتى تَطَهَّرا

قال : لا والله ما انا من يشكر ، قالت : فممن انت ؟ قال : رجل من

---

١) في نسخة : بأطرب حديث سمعته .

بني عبد القيس ، قالت : أتعرف الذي يقول :

رأيت عبد القيس لاقت ذلا اذا أصابوا بصلا وخلا
ومالحاً مصنعاً قد طلا باتوا يسلون النساء سلاً
سَلَّ النبيط القَصَبَ المبتلاَّ

قال : لا والله ما انا من عبد القيس ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من باهلة ، قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا ازدحم الكرام على المعالي تنحّى الباهليُّ عن الزحام
فلو كان الخليفة باهليا لقصر عن مناوأة الكرام
وعرض الباهلي وان توَقّى عليه مثل منديل الطعام

قال : لا والله ما أنا من باهلة ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من بني فزارة ، قالت : أتعرف الذي يقول :

لا تأمننَّ فزارياً خلوت به على قلوصكَ واكتُبها بأسيار
لا تأمننَّ فزارياً على حمر بعد الذي امتلَّ أير العير في النار
قوم إذا نزل الأضياف ساحتهم قالوا لأمهم : بُولي على النار

قال : لا والله ما انا من فزارة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من ثقيف ، قالت : أتعرف الذي يقول :

أضل الناسبون أبا ثقيف فما لهم أبٌ إلا الضلال
فإن نسبت أو انتسبت ثقيف إلى أحد فذاك هو المحال
خنازير الحُشوش فقتّلوها فإن دماءها لكم حلال

قال : لا والله ما انا من ثقيف ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من بني عبس ، قالت : أتعرف الذي يقول :

إذا عبسية ولدت غلاماً فبشرها بلؤم مستفاد

قال : لا والله ما انا من عبس ، قالت : فممن انت ؟ قال : رجل من ثعلبة ، قالت : أتعرف الذي يقول :

وثعلبة بن قيس شر قوم وألأمهم وأغدرهم بجار

قال : لا والله ما انا من ثعلبة ، قالت : فممن انت ؟ قال : رجل من غنى ، قالت : أتعرف الذي يقول :

إذا غنوية ولدت غلاماً فبشرها بخياط مجيد

قال : لا والله ما انا من غنى ، قالت : فممن انت ؟ قال : رجل من بني مرة ، قالت : أتعرف الذي يقول :

إذا مرية خضبت يداها فزوجها ولا تأمن زناها

قال : لا والله ما انا من بني مرة ، قالت : فممن انت ؟ قال : رجل من بني ضبة ، قالت : أتعرف الذي يقول :

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر كما كل ضبي من اللؤم أزرق

قال : لا والله ما انا من بني ضبة ، قالت : فممن انت ؟ قال : رجل من بجيلة ، قالت : أتعرف الذي يقول :

سألنا عن بجيلة حين حلت لنخبر أين قر بها القرار ؟
فما تدري بجيلة حين تدعى أقحطان ابوها ام نزار
فقد وقعت بجيلة بين بين وقد خلعت كما خلع العذار

قال : لا والله ما انا من بجيلة ، قالت : فممن انت ويحك ؟ ! قال : رجل من بني الأزد ، قالت أتعرف الذي يقول :

إذا أزدية ولدت غلاماً فبشرها بملاح مجيد

قال : لا والله ما انا من الأزد ، قالت : فمن انت ويلك ؟! أما تستحي ؟! قل الحق ، قال : أنا رجل من خُزاعة ، قالت : أتعرف الذي يقول :

إذا افتخرت خزاعة في قديم وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهراً بِزِقّ ، بئس مفتخر الفخور

قال : لا والله ما انا من خُزاعة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من سليم ، قالت : أتعرف الذي يقول :

فما لِسُليم شتّت الله امرها تنيك بأيديها وتعيا أيورها

قال : لا والله ما انا من سليم ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من لقيط ، قالت : اتعرف الذي يقول :

لعمرك ما البحار ولا الفيافي بأوسع من فِقاح بني لقيط
لقيط شر مَن ركب المطايا وأنذل من يدب على البسيط
ألا لعن الإله بني لقيط بقايا سبية من قوم لوط

قال : لا والله ما انا من لقيط ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من كندة ، قالت : اتعرف الذي يقول :

إذا ما افتخر الكنديُّ ذو البهجة والطُّرّة
فبالنسج وبالخف وبالسدل وبالخفره
فدع كِنْدَة للنسج فأعلى فخرها عره

قال : لا والله ما أنا من كِنْدَة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من خَثْعَم ، قالت : أتعرف الذي يقول :

وخَثْعَم لو صَفَرْتَ بها صفيراً لطارت في البلاد مع الجراد

قال : لا والله ما أنا من خَثْعَم ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من طيء ، قالت : أتعرف الذي يقول :

وما طيء إلا نَبيطٌ تجمعت ... فقالت طيانا كلمة فاستمرت
ولو أن حُرقوصاً يمدُّ جناحه ... على جبلَيْ طيٍّ إذا لاستظلت

قال : لا والله ما أنا من طيء، قالت: فمن أنت؟ قال رجل من مُزَينة ، قالت : أتعرف الذي يقول :

وهل مزينة إلا من قُبَيِّلة ... لا يُرتجى كرم فيها ولا دين

قال : لا والله ما أنا من مُزَينة ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من النَخَع ، قالت : أتعرف الذي يقول :

إذ النخع اللئام غدَوْا جميعا ... تأذّى الناس من وفر الزحام
وما تسمو الى مجد كريم ... وما هم في الصميم من الكرام

قال : لا والله ما أنا من النَخَع ، قالت : فمن أنت ؟ قال : رجل من أوْدٍ ، قالت : أتعرف الذي يقول :

إذا نزلتَ بأوْدٍ في ديارهمُ ... فاعلم بأنك منهم لست بالناجي
لا تركنَنَّ إلى كهل ولا حدَث ... فليس في القوم إلا كل عفّاجِ

قال : لا والله ما أنا من أوْدٍ : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من لَخْم ، قالت : أتعرف الذي يقول :

إذا ما انتمى قوم لفخر قديمهم ... تباعَدَ فخر القوم من لخم أجمعا[1]

قال : لا والله ما أنا من لخم ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من جُذَام ، قالت : أتعرف الذي يقول :

١) في نسخة : تباعد فخر الجود عن لخم أجمعا .

إذا كأسُ المدام أديرَ يوماً لمكرمــة تنحّى عن جُذامِ

قال : لا والله ما أنا من جذام ، قالت : فممن أنت ويلك ؟! أمــا تستحي ؟ أكثرت من الكذب ! قال أنا رجل من تَنُوخ ، وهو الحق ، قالت : أتعرف الذي يقول :

إذا تَنُوخٌ قَطَعَت مَنهلا في طلب الغارات والثــار
آبت بخزي من إلهِ العلى وشهرة في الأهل والجــار

قال : لا والله ما أنا من تنوخ ، قالت : فممن أنت ثَكِلَتْكَ أمك ؟! قال: أنا رجل من حِمْير ، قالت : أتعرف الذي يقول :

نُبِّئْتُ حِمْير تهجوني، فقلت لهم: ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلقوا
لأن حمير قوم لا نصاب لهم كالعود بالقاع لا ماء ولا ورق
لا يكثرون وإن طالت حياتهمُ ولو يبول عليهم ثعلبٌ غرقــوا

قال : لا والله ما أنا من حِمْير ، قالت : فممن انت ؟ قال : أنا رجل من يُحَابر ، قالت : أتعرف الذي يقول :

ولو صَرّ صَرّار بأرض يُحابر لماتوا وأضحوا في التراب رميا

قال : لا والله ما أنا من يُحابر ، قالت : فممن أنت ؟ قال : رجل من قُشَيْر ، قالت : أتعرف الذي يقول :

بني قشير قتلتُ سيــدكم فاليوم لا فِــدية ولا قَوَدُ

قال : لا والله ما انا من قشير ، قالت : فممن انت ؟ قال : رجل من بني امية ، قالت : اتعرف الذي يقول:

وَهَى من امية بنيانُها فهان على الله فقدانُهــا
وكانت امية فــيما مضى جريء على الله سلطانهــا .
فلا آل حرب اطاعوا لرسول ولم يتقِ الله مروانها

قال : لا والله ما انا من بني أمية ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من بني هاشم ، قالت : اتعرف الذي يقول :

بني هاشم عودوا الى نخلاتكم فقد صار هذا التمر صاعا بدرهم
فانْ قلتم رهط النبي محمد فانّ النصارى رهط عيسى بن مريم

قال : لا والله ما انا من بني هاشم ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من همدان ، قالت : اتعرف الذي يقول :

اذا همدان دارت يوم حرب رحاها فوق هامات الرجال
رأيتهمُ يحثّون المطايا سراعا هاربين من القتال

قال : لا والله ما انا من همدان ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من قُضاعة ، قالت : اتعرف الذي يقول :

لا يفخرنّ قضاعيٌ بأسرته فليس من يَمَنٍ محضاً ولا مُضَر
مذبذبين فلا قحطان والدهم ولا نزار ، فخلوهم الى سقر

قال : لا والله ما انا من قضاعة ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من شيبان ، قالت : اتعرف الذي يقول :

شيبان قوم لهم عديدٌ فكلهم مُقرف لئيم
ما فيهم ماجد حسيب ولا نجيب ولا كريم

قال : لا والله ما انا من شيبان ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من بني نُمير ، قالت : اتعرف الذي يقول :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
فلو وضعت فِقاحُ بني نمير على خبث الحديد إذاً لذابا

قال : لا والله ما انا من نمير ، قالت : فمن انت ؟ قال : انا رجل من تغلب ، قالت : اتعرف الذي يقول :

لا تطلبنّ خؤولة في تغلب ... فالزنج اكرم منهم أخوالا
والتغلبيُّ اذا تنحنح للقرى ... حكّ استه وتمثل الامثالا

قال : لا والله ما انا من تغلب ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من مُجاشع ، قالت : اتعرف الذي يقول :

تبكي المغيبة من بنات مجاشع ... ولهاً اذا سمعت نهيق حمار

قال : لا والله ما انا من مجاشع ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من كلب ، قالت : اتعرف الذي يقول :

فلا تقربا كلباً ولا باب دارها ... فما يطمع الساري يرى ضوء نارها

قال : لا والله ما انا من كلب ، قالت : فمن انت ؟ قال : انا رجل من تيم ، قالت : أتعرف الذي يقول :

تيميّة مثل انف الفيل مقبلها ... تهدي الرحا ببنان غير مخدوم

قال : لا والله ما انا من تيم ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من جَرْم ، قالت : اتعرف الذي يقول :

تُمنّيني سويقَ الكرم جَرْم ... وما جرم وما ذاك السويق ؟
فما شربوه لما كان حلا ... ولا غالوا بـه في يوم سوق
فلما انزل التحريمُ فيها ... اذا الجرميُّ منها لا يفيق

قال : لا والله ما انا من جرم ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من سليم ، قالت : اتعرف الذي يقول :

اذا ما سليم جئتها لغدائها ... رجعتَ كما قد جئت غرثان جائعا

قال : لا والله ما انا من سليم ، قالت : فمن انت ؟ قال : رجل من الموالي ، قالت : اتعرف الذي يقول :

ألا من اراد الفحش واللؤم والخنا   فعند الموالي الجيد والطّرفان

قال : أخطأتُ نسبي ورب الكعبة ، انا رجل من الخوز ، قالت : اتعرف الذي يقول :

لا بارك الله ربي فيكم ابداً   يا معشرَ الخوز ؛ ان الخوز في النار

قال : لا والله ما انا من الخوز ، قالت : فممن انت ؟ قال : انا رجل من اولاد حام ، قالت : أتعرف الذي يقول :

فلا تنكحنْ اولاد حام ؛ فإنهم   مشاويه خلق الله حاشا ابن أكوع

قال : لا والله ما انا من ولد حام ، لكني من ولد الشيطان الرجيم ، قالت : فلعنك الله ولعن اباك الشيطان معك ، أفتعرف الذي يقول :

ألا يا عباد الله هذا عدوكمْ   وهذا عدوُّ الله ابليس فاقتلوا[1]

فقال لها : هذا مقام العائذ بك ، قالت : قم فارحل خاسئاً مذموماً ، وإذا نزلت بقوم فلا تنشد فيهم شعراً حتى تعرف مَن هم ، ولا تتعرض للمباحث عن مساوىء الناس ، فلكل قوم اساءة وإحسان ، الا رسول رب العالمين ، ومَن اختاره الله على عباده ، وعصمه من عدوه ، وأنت كما قال جرير للفرزدق :

وكنت اذا حللتَ بدار قوم   رحلت بخزيةٍ وتركت عارا

فقال لها : والله لا انشدت ببيته شعر ابدا ، فقال السفاح : لئن كنتَ عملتَ هذا الخبر ونظمت فيمن ذكرت هذه الاشعار فلقد احسنت ، وأنت سيد الكاذبين ، وإن كان الخبر صدقا وكنت فيما ذكرته محقا فإن هذه الجارية العامرية لمن احضر الناس جواباً ، وأبصرهم بمثالب الناس .

قال المسعودي : وللسفاح اخبار غير هذه وأسمار حسان قد اتينا على مبسوطها في كتابينا اخبار الزمان والأوسط .

---

١) في نسخة : عدو نبي الله ابليس ينهق .

ذكر

خلافة ابي جعفر المنصور

موجز : وبويع ابو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب وهو بطريق مكة ، اخذ له البيعة عمّه عيسى بن علي ، ثم لعيسى بن موسى من بعده ، يوم الاحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ،والمنصور يومئذ ابن احدى واربعين سنة ، وكان مولده في ذي الحجة سنة خمس وتسعين ، وكانت امه ام ولد يقال لها سلامة بربرية ، وكانت وفاته يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة الا تسعة ايام ، وهو حاجٌّ عند وصوله الى مكة في الموضع المعروف ببستان بني عامر من جادّة العراق ؛ ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ودفن بمكة مكشوفَ الوجه لأنه كان محرماً ، وقيل : انه مات بالبطحاء عند بئر ميمون ، ودفن بالحجون ، وهو ابن خمس وستين سنة ، والله اعلم .

ذكر

جمل من أخباره، وسيره
ولمع مما كان في أيامه

رؤيا أم المنصور ؛ ذكر عن سلامة أم المنصور أنها قالت: رأيت لما حملت بأبي جعفر المنصور كأنّ أسداً خرج من قُبُلي فاقعى وزأر وضرب بذنبه، فأقبلت اليه الأسد من كل ناحية، فكلما انتهى اليه أسدٌ منها سجد له.

المنصور ورفيق سفر ضرير شاعر : وحدث علي بن محمد المدائني أن المنصور قال: صحبت رجلاً ضريراً الى الشام وكان يريد مروان بن محمد بشعر قاله فيه، قال: فسألته أن ينشدني فأنشدني:

ليت شعري أفاح رائحة المسـ ... ـك وما إن إخال بالخيف إنسي
حين غابت بنو أمية عنه ... والبهاليل من بني عبد شمس
خطباء على المنابر فرسا ... ن عليها، وقالة غير خرس
لا يعابون قائلين، وإن قا ... لوا اصابوا، ولم يقولوا بلبس
وحلوم اذا الحلوم استخفت ... ووجوه مثل الدنانير ملس

قال المنصور: فوالله ما فرغ من شعره حتى ظننت ان العمى قد أدركني، وكان والله ممتع الحديث حسن الصحبة.

قال: وحججت سنة احدى وأربعين ومائة، فنزلت على الحمارة في جبلي زرود في الرمل أمشي لنذر كان عليّ، فإذا انا بالضرير، فأومأت الى من كان معي أن يتأخروا، فتأخروا، ودنوت منه، فأخذت بيده فسلمت عليه، فقال: من انت جعلني الله فداك فما اثبتك معرفة، قلت: رفيقك الى

الشام في أيام بني امية وأنت متوجه الى مروان ، فسلّم عليّ وتنفس وأنشأ يقول :

آمت نساء بني أمية منهم وبناتهم بمضيعة ايتام
نامت جدودهم وأسقط نجمهم والنجم يسقط والجدود نيام
خلت المنابر والأسرّة منهم فعليهم حتى الممات سلام

فقلت له : كم كان مروان اعطاك ؟ فقال : أغناني فلا أسأل احداً بعده، فقلت : كم ؟ فقال : اربعة آلاف دينار وخلع وحملان ، قلت : وأين ذاك ؟ قال : بالبصرة ، قلت : اتثبتني معرفة ؟ فقال : امـا معرفة الصحبة فقد لعمري، وأما معرفة النسب فلا، فقلت : انا ابو جعفر المنصور امير المؤمنين، فوقع عليه الإفكل ، وقال : يا أمير المؤمنين اعذر ، فإن ابن عمك محمداً صلى الله عليه وسلم قال : « جبلت النفوس على حب من احسن اليها ، وبغض من اساء اليها » ، قال أبو جعفر : فهممت والله به ، ثم تذكرت الحرمة والصحبة ، فقلت للمسيب : أطلقه فأطلق ثم بدا لي في مسامرته رأي ؛ فأمرت بطلبه فكأن البيداء ابادته .

المنصور وأهله يتحدثون عن سير بني امية « وحدث الربيع قال: اجتمع عند المنصور عيسى بن علي ، وعيسى بن موسى ، ومحمد بن علي ، وصالح بن علي، وقثم بن العباس، ومحمد بن جعفر، ومحمد بن ابراهيم، فذكروا خلفاء بني امية ، وسيرهم وتدبيرهم ، والسبب الذي به سُلِبوا عزهم ، فقال المنصور : أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي ما صنع ، وأما سليمان فكانت همته بطنه وفرجه ، وأما عمر بن عبد العزيز فكان اعور بين عميان ، وكان رجل القوم هشام، ولم تزل بنو امية ضابطين لما مُهّد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه، ويصونون ما وهب الله لهم منه مع كسبهم معالي الأمور ورفضهم أدانيها ، حتى افضى الأمر الى أبنائهم المترفين ، فكانت همتهم قصد الشهوات، وركوب اللذات ، من معاصي الله عز وجل ؛ جهلاً منهم باستدراجه ، وأمناً منهم

لمكره ، مع اطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحق الله تعالى وحق الرياسة ، وضعفهم عن السياسة ، فسلبهم الله العز ، وألبسهم الذل ، ونفى عنهم النعمة ، فقال صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ، ان عبد الله بن مروان لما دخل ارض النوبة هارباً فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عن حالهم وهيئتهم وما نزل بهم ، وكيف كانت سيرتهم ، فأخبره بجميع ذلك ، فركب الى عبدالله ليسأله عن شيء من امورهم ، والسبب الذي به زالت النعمة عنهم ، وكلمه بكلام سقط عني حفظه ، ثم اشخصه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين ان يدعو به ليحدثه عن أمره فعل ، فأمر المنصور بإحضاره في مجلسه ، فلما مثل بين يديه قال له : يا عبدالله قص عليّ قصتك وقصة ملك النوبة ، قال يا أمير المؤمنين ، قدمت إلى النُّوبَةِ ، فأقمت بها ثلاثاً ، فأتاني ملكها ، فقعد على الارض وقد أعددت له فراشاً له قيمة فقلت له : ما منعك من القعود على فراشنا ؟ فقال : لأني ملك ، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله ، ثم قال : لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا ، قال : فلم تطئون الزرع بدوابكم والفسادُ محرم عليكم في كتابكم ؟ فقلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا لجهلهم ، قال : فلم تلبسون الديباج والحرير والذهب وهو محرم عليكم في كتابكم ودينكم ؟ فقلت : ذهب منا الملك فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا ، فأطرق إلى الارض يقلب يده مرة وينكت في الأرض أخرى ، ويقول : عبيدنا واتباعنا وأعاجم دخلوا علينا في ديننا ، ثم رفع رأسه فقال : ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرم الله ، وركبتم ما عنه نُهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم ؛ فسلبكم الله العز ، والبسكم الذل بذنوبكم ، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها فيكم ، وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم ، وإنما حق الضيافة ثلاث ؛ فتزوّدْ ما احتجتَ إليه وارحل عن أرضي ففعلت ،

فتعجب المنصور وأطرق ملياً فرقّ له وهم بإطلاقه ، فأعلمه عيسى بن علي أن في عنقه بيعة له ، فأعاده إلى الحبس .

وفاة محمد بن جعفر الطالبي : قال المسعودي : ولعشر سنين خلت من خلافة المنصور توفي أبو عبد الله محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، سنة ثمان وأربعين ومائة ، ودفن بالبقيع مع أبيه وجده ، وله خمس وستون سنة ، وقيل : انه سم ، وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع رخامة عليها مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله مُبيد الأمم ، ومحيي الرمم ، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين ، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب ، وعلي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم !

وزراء المنصور : واستوزر أبو جعفر المنصور ابْنَ عطية الباهلي ، ثم استوزر أبا أيوب المورياني الخوزي وكان له بأبي جعفر [1] أسباب : منها أنه كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلّب ، وقد كان سليمان ضرب المنصور بالسوط في ايام الأمويين ، وأراد هتكه ، فخلصه كاتبه أبو أيوب من يده ، فكان ذلك سبب الاتصال به ، فلما استوزره اتَّهمَ بأشياء منها احتجان الأموال وسوء النية فكان ، على الإيقاع به ، وتطاول ذلك ، فكان كلما دخل عليه ظن أنه سيوقع به ، ثم يخرج سالماً ، فقيل : إنه كان معه دهن قد عمل فيه شيئاً من السحر يطليه على حاجبيه إذا أراد الدخول على المنصور ، فسار في العامة دهن أبي أيوب لما ذكرنا ، ثم أوقع به ، واستكتب أبان بن صدقة إلى أن مات .

المنصور يسأل عن تدبيرات هشام بن عبد الملك : وذكر لأبي جعفر تدبير هشام في حرب كانت له فبعث إلى رجل كان ينزل برصافة هشام يسأله

---

١) في نسخة : وكان له بأبي ايوب أسباب .

عن تلك الحرب ، فقدم عليه الرجل ، فقال له : أنت صاحب هشام ؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فأخبرني كيف فعل في حرب دبرها في سنة كذا وكذا ، قال فعل رضي الله عنه فيها كذا وكذا ، وفعل رحمه الله كذا وكذا فأغاظ ذلك المنصور ، فقال له : قم عليك غضب الله ، تطأ بساطي وتترحم على عدوي ؟ فقام الشيخ وهو يقول : إن لعدوك قلادة في عنقي ، ومنّة في رقبتي لا ينزعها إلا غاسلي ، فأمر المنصور برده ، وقال : كيف قلت ؟ قال: إنه كفاني الطلب ، وصان وجهي عن السؤال ، فلم أقف على باب عربي ولا عجمي منذ رأيته ، أفلا يجب لي أن أذكره إلا بخير وأتبعه بثنائي ؟ فقال : بلى ، لله أمٌ نهضت عنك ! أشهد أنك نهيض حرة وغِرَاسُ كريم ثم استمع منه ، وأمر له بجائزة،فقال : يا أمير المؤمنين ، ما آخذها لحاجة ، وما هو إلا أن أتبجح بحبائك وأتشرف بصلتك ، فأخذ الصلة ، فقال له المنصور : مت إذا شئت ، لله أنت ! لو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً ، وقال لجلسائه بعد خروجه عنه : في مثل هذا تحسن الصّنيعة ، ويوضع المعروف ، ويجاد بالمَصُونِ ، وأنّى في عسكرنا مثله ؟

المنصور ومعن بن زائدة : ودخل معن بن زائدة على المنصور ، فلما نظر اليه قال : هيه يا معن ، تعطي مروان بن أبي حفصة مائة الف درهم على قوله :

معن بن زائدة الذي زيدت به ... شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما اعطيته على قوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلناً ... بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعتَ حوزتهُ ،وكنت وقاءه ... من وقع كلّ مُهنّد وسِنان

فقال : احسنت يا معن ، وكان معن من اصحاب يزيد بن عمر بن هُبيرة وكان مستتراً حتى كان يوم الهاشمية ـ وقد كان سعت [1] فيه عدة من

١) في نسخة : وقد كان شغب فيه .

اهل خراسان ـ فإنه حضر وهو مُعتم مُتلثم ، فلما نظر إلى القوم قد وثبوا على المنصور تقدم : ثم جعل يضربهم بالسيف قدامه ، فلما افرجوا وتفرقوا عنه قال : من انتَ ؟ فحسر عن وجهه وقال : انا طلبتُك يا امير المؤمنين معن بن زائدة ، فلما انصرف المنصور آمنهُ وحباه واكرمه وكساه ورتبه .

ودخل معن بن زائدة يوماً على المنصور ، فقال له : ما اسرع الناس الى حسد قومك ! فقال : يا امير المؤمنين

إن الغرانيقَ تلقاها مُحسَّدَة ولن ترى للئام الناس حُسَّادا

المنصور يقع بين يديه سهم كتب عليه شعر وظلامة : وذكر ابن عياش المنتوف ان المنصور كان جالساً في مجلسه المبني على طاق باب خراسان من مدينته التي بناها واضافها الى اسمه ، وسماها مدينة المنصور ، مشرفاً على دجلة ؛ وكان قد بني على كل باب من ابواب المدينة في الأعلى من طاقه المعقود مجلساً يُشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه ، وكانت اربعة ابواب شوارع محدقة وطاقات معقودة ، وهي باقية الى وقتنا هذا الذي هو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، فأول ابوابها باب خراسان ، وكان يسمى باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان ، ثم باب الشام ، وهو تلقاء الشام ، ثم باب الكوفة ، وهو تلقاء الكوفة ، ثم باب البصرة ، وهو تلقاء البصرة ، وقد اتينا على كيفية خبر بناء تلك المدينة ، واختيار المنصور لهذه البقعة بين دجلة والفرات ودجيل والصَّراة ، وهذه انهار تأخذ من الفرات ، واخبار بغداد وعلة تسميتها بهذا الاسم ، وما قاله الناس في ذلك ، وخبر القبة الخضراء وسقوطها في هذا العصر ، وقصة قبة الحجاج الخضراء التي كان الحجاج بناها بواسط العراق ، وبقاؤها الى ذلك الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، في كتابنا الأوسط الذي كتابنا هذا تال له ، فبينما المنصور جالس في هذا المجلس من اعالي باب خراسان اذ جاء سهم عائر حتى سقط بين يديه ، فذعر منه المنصور ذعراً شديداً ثم اخذه فجعل يقلبه فإذا هو مكتوب عليه بين الريشتين :

اتطمع في الحياة الى التّناد وتحسب ان مالك من مَعاد
ستسأل عن ذنوبك والخطايا وتُسأل بعد ذاك عن العباد

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

احسنت ظنك بالأيام إذ حَسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغترت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

هي المقاديرُ تجري في اعنتها فاصبر فليس لها صبرٌ على حال
يوماً تُريك خسيس القوم ترفعه إلى السماء ، ويوماً تخفض العالي

وإذا على جانب السهم مكتوب : همذان منها رجل مظلوم في حبسك ، فبعث من فوره بعدة من خاصته ، ففتشوا الحبوس والمطابق ، فوجدوا شيخاً في بنية من الحبس فيه سراج يسرج وعلى بابه بارية مسبلة ، وإذا الشيخ موثق بالحديد متوجه نحو القبلة يردد هذه الآية (وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون) فسألوه عن بلده ، فقال : همذان ، فحمل ، ووضع بين يدي المنصور ، فسأله عن حاله فأخبره انه رجل من ابناء مدينة همذان، وأرباب نعمها ، وان واليك علينا دخل بلدنا ، ولي ضيعة في بلدنا تساوي ألف ألف درهم ، فأراد أخذها مني ، فامتنعت فكبلني في الحديد ، وحملني وكتب اليك أني عاصٍ ، فطرحت في هذا المكان ، فقال : منذ كم لك في الحبس ؟ قال : منذ أربعة أعوام ، فأمر بفك الحديد عنه ، والإحسان اليه، والإطلاق له ، وأنزله أحسن منزل ، ورده اليه ، فقال له : يا شيخ قد رددْنا عليك ضيعتك بخراجها ما عشت وعشنا ، وأما مدينتك همذان فقد وليناك عليها ، وأما الوالي فقد حكمناك فيه ، وجعلنا أمره اليك ، فجزاه خيراً ، ودعا له بالبقاء ، وقال : يا أمير المؤمنين أما الضيعة فقد قبلتها ، وأما الولاية فلا أصلح لها ، وأما واليك فقد عفوت عنه ، فأمر له المنصور بمال جزيل ،

وبر وابحر ، واستحله وحمله الى بلده مكرماً ، بعد أن صرف الوالي وعاقبه على ما جنى من انحرافه عن سنة العدل وواضحة الحق ، وسأل الشيخ مكاتبته في مهماته وأخبار بلده ، وإعلامه بما يكون من وُلاته على الحروب والخراج ، ثم أنشأ المنصور يقول :

من يصحب الدهر لا يأمن تصَرفه يوماً ، وللدهر إحلاء وإمرار
لكل شيء وإن دامت سلامته اذا انتهى فله لا بُدَّ إقصار

المنصور يستشير في أمر ابي مسلم : وقال المنصور يوماً لسالم بن قتيبة : ما ترى في أمر أبي مسلم ؟ قال : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فقال : حسبك يا ابن قتيبة ، لقد أودعتها أذناً واعية .

وذكر ابن دأب وغيره عن عيسى بن علي قال : ما زال المنصور يشاورنا في جميع أموره حتى امتدحه إبراهيم بن هَرْمة فقال في قصيدة له :

اذا ما أراد الأمر ناجى ضميره فناجى ضميراً غير مختلف العقل
ولم يشرك الأدنين في سر أمره اذا انتقضت بالأصبعين قوى الحبل

ولما أراد المنصور قتل أبي مسلم سقط بين الاستبداد برأيه والمشورة فيه ، فأرقه ذلك ، فقال :

تقَسَّمني أمران لم أمتحنهما بحزم ، ولم تعرك قواي الكراكر
وما ساور الأحشاء مثل دفينة من الهم رَدَّتْهَا عليك المصادر
وقد علمت أبناء عدنان أنني على مثلها مِقْدَامَةٌ متجاسر

خروج عبد الله بن علي : وقد كان عبد الله بن علي خالف على المنصور ، ودعا الى نفسه مَنْ كان معه من أهل الشام وغيرهم ، فبايعوه وزعم أن السفاح جعل الخلافة من بعده لمن انتدب لقتل مروان ، فلما بلغ المنصور ذلك من فعل عبد الله كتب إليه :

سأجعل نفسي منك حيث جعلتها   وللدهر أيام لهن عواقب

ثم بعث إليه بأبي مسلم ، فكانت له معه حروب كثيرة ببلاد نصيبين في الموضع المعروف بدير الأعور ، وصبر الفريقان جميعاً شهوراً على حربهما ، واحتفروا الخنادق ، ثم انهزم عبد الله بن علي فيمن كان معه ، وسار في نفر من خواصه الى البصرة ، وعليها أخوه سليمان بن علي عم المنصور ، فظفر أبو مسلم بما كان في عسكر عبد الله ، فبعث إليه المنصور بيقطين بن موسى لقبض الخزائن ، فلما دخل يقطين على أبي مسلم قال : السلام عليك أيها الأمير ، قال: لا سَلَّم الله عليك يا ابن اللخناء ! أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال ؟ فقال : له ما أبدى هذا منك أيها الأمير ؟ قال : أرسلك صاحبك لقبض ما في يديَّ من الخزائن ، فقال له : امرأته طالق ثلاثا إن كان أمير المؤمنين وجّهني اليك لغير تهنئتك بالظفر ، فاعتنقه أبو مسلم ، وأجلسه إلى جانبه ؛ فلما انصرف قال لأصحابه : والله إني لأعلم أنه قد طلق زوجته ثلاثاً ، ولكنه وَفَّى لصاحبه .

خلاف أبي مسلم للمنصور وقتله : وسار أبو مسلم من الجزيرة وقد أجمع على خلاف المنصور ، واجتاز على طريق خراسان متنكباً للعراق يريد خراسان ، وسار المنصور من الأنبار يريد المدائن ، فنزل برومية المدائن التي بناها كسرى ، وقد قدمنا ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ، وكتب الى أبي مسلم : إني قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتملها الكتاب ، فأقبل فإن مُقامَك عندنا قليل ، فقرأ الكتاب ومضى على حاله ، فسرح إليه المنصور جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البَجَليّ ، وكان واحد أهل زمانه ، وداهية عصره ، وكانت المعرفة بينه وبين أبي مسلم قديمة بخراسان ، فأتاه فقال : أيها الأمير ، ضربت الناس عن عرض لأهل هذا البيت ، ثم تنصرف على هذه الحالة ؟ ما آمَنُ أن يعيبك من هنالك ومن ههنا ، وأن يقال : طلب بثأر قوم ثم نقض بيعتهم ، فيخالفك مَنْ تأمن مخالفته إياك ، وان

الأمر لم يبلغ عند خليفتك ما تكره ، ولا أرى أن تنصرف على هذه الحال ، فأراد أن يجيب الى الرجوع ، فقال له مالك بن الهيثم : لا تفعل ، فقال مالك : ويلك ! لقد بليت بإبليس وما بليت بمثل هذا قط ، يعني الجريري ، فلم يزل به حتى أقبل به على المنصور ، وكان أبو مسلم يجد خبره في الكتب السالفة ونعته وأنه يقتل بالروم ، وكان يكثر من قول ذلك ، وأنه يقتل بالروم على حسب ما وجد في الملاحم وأنه يميت دولة ويحيي أخرى ، فلما دخل على المنصور وقد تلقاه الناس رَحَّبَ به وعانقه وقال له : كدت ان تمضي قبل أن أقضي عليك بما أريد ، قال : فقد أتيت يا أمير المؤمنين فأمر بأمرك ، فأمره بالانصراف الى منزله ، وانتظر فيه الفرص والغوائل ،فركب أبو مسلم الى المنصور مراراً وهو لا يظهر له شيئاً ، ثم ركب وقد أظهر له التجنّي ، فسار أبو مسلم الى عيسى بن موسى ، وكان له فيه رأي جميل ، فسأله الركوب معه الى المنصور ليعذله بحضرته ، فأمره أن يتقدمه الى المنصور فإنه بالأثر ، فتقدم أبو مسلم الى مَضرب المنصور ، وهو على دجلة برومية المدائن ، فدخل وجلس تحت الشراع ، وقيل الرواق ، فأخبر ان المنصور يتوضأ للصلاة ، وكان المنصور قد تقدم الى صاحب حرسه عثمان بن نهيك ، في عدة فيهم شبيب بن رواح المروروذي وأبو حنيفة حرب بن قيس، وأمرهم أن يقوموا خلف السرير الذي كان وراء أبي مسلم وأمرهم أنه إذا عاتبه وظهر صوته لا يظهروا ، فإذا صفق بيد على يد فليظهروا ، وليضربوا عنقه وما أدركوا منه بسيوفهم ، وجلس المنصور ، فقام أبو مسلم من موضعه ودخل فسلم عليه ، فردّ عليه ، وأذن له بالجلوس ، وحادثه ساعة ، ثم أقبل يعاتبه ويقول : فعلت وفعلت ، فقال أبو مسلم : ليس يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني ، فقال له : يا ابن الخبيثة وإنما فعلت ذلك بجدّنا وحظوظنا ولو كان مكانك أمة سوداء لأجزَتْ ، ألست الكاتب إليّ تبدأ بنفسك والكاتب إليّ تخطب آسية بنت علي وتزعم انك ابن سليط بن عبد الله

ابن العباس ؟ لقد ارتقيتَ لا أمَّ لك مُرتقىً صعباً ، فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها ويعتذر إليه ، فقال المنصور.وهو آخر ما كلمه به : قتلني الله إن لم أقتلك ، وذكر له قتله لسليمان بن كثير ، ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى ، فخرج إليه القوم ، فبدره عثمان بن نهيك فضربه ضربة خفيفة بالسيف قطعت نجاد سيف أبي مسلم ، وضربه شبيب بن رواح فقطع رجله ، واعتورته السيوف ، فخلطت أجزاؤه ، وأتوا عليه ، والمنصور يصيح : اضربوا قطع الله أيديكم ، وقد كان أبو مسلم عند أول ضربة قال : استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك ، قال : لا أبقاني الله أبداً إن أبقيتك ! وأي عدو أعدى لي منك ؟

وكان قتله في شعبان من سنة ست وثلاثين ومائة ، وفيها كانت بيعة المنصور ، وهزيمة عبدالله بن علي وادرج ابو مسلم في بساط .

ودخل عيسى بن موسى فقال : يا أمير المؤمنين ، اين أبو مسلم ؟ فقال : قد كان ههنا آنفاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد عرفت طاعته ونصيحته ، ورأى إبراهيم الإمام فيه ، فقال له المنصور : يا أنوَك خلق الله ، ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه ، وها هو ذاك في البساط ، فقال عيسى : إنا لله وإنا اليه راجعون .

ودخل عليه جعفر بن حنظلة فقال له المنصور: ما تقول في أمر ابي مسلم؟ فقال : يا امير المؤمنين ، إن كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل ، فقال المنصور : وفقك الله ! ها هو في البساط ، فلما نظر اليه قتيلاً قال : يا أمير المؤمنين ، عُدَّ هذا اليوم اول خلافتك ، وقد كان السفاح هم بقتله برأي المنصور ثم رجع عن قتله ، وأقبل المنصور على من حضره وابو مسلم بين يديه طريحاً فقال :

زعمت ان الدَّين لا ينقضي ... فاستوف بالكيل أبا مجرم
اشرب بكأس كنت تسقي بها ... أمرَّ في الحلق من العلقم

ودعا المنصور بنصر بن مالك ، وكان على شرطة أبي مسلم ، فقال : استشارك أبو مسلم بالمسير إلي فنهيته ؟ قال : نعم ، قال : ولِمَ ؟ قال : سمعت أخاك إبراهيم الإمام يحدّث عن أبيه قال : لا يزال المرء يزداد في عقله إذا ما مَحَضَ النصيحة لمن شاوره ، فكنتُ له كذلك ، وأنا الآن لك كذلك .

واضطرب أصحاب أبي مسلم ففرقت فيهم الأموال ، وعلموا بقتله ، فأمسكوا رَغبةً ورَهبةً .

خطبة المنصور بعد قتل أبي مسلم : وخطب المنصور الناسَ بعد قتله أبا مسلم فقال : أيها الناس ، لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وَحشة المعصية ، ولا تُسِرُّوا غش الأئمة ، فإن من أسرَّ غشَّ إمامه أظهر الله سريرته في فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه الذي بادر بإعزاز دينه به ، وإعلاء حقه بفلجه ، إنا لم نبخَسكم حقوقكم ، ولم نبخس الدين حقه عليكم ، إن من نازعنا عروة هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح لنا دمه ، ثم نكث بيعته هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه .

الخرمية الفرقة التي تتولى أبا مسلم : ولما نمي قتل أبي مسلم الى خُراسان وغيرها من الجبال اضطربت الخرمية ، وهي الطائفة التي تدعى بالمسلمية القائلون بأبي مسلم وإمامته ، وقد تنازعوا في ذلك بعد وفاته : فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الأرض عدلاً ، وفرقة قطعت بموته وقالت بإمامة ابنته فاطمة ، وهؤلاء يدعون الفاطمية ، وأكثر الخرمية في هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — الكردكية واللودشاهية[1]

---

١) في نسخة : الكوركية والنور ساعية .

وهاتان الفرقتان أعظم الخرمية ، ومنهم كان بابك الخرمي الذي خرج على المأمون والمعتصم بالبذين من أرض الران وأذربيجان ، وسنأتي على خبره وخبر مقتله في أخبار المعتصم فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله ، وأكثر الخرمية ببلاد خراسان والري وإصبهان وأذربيجان وكرج أبي دُلَفَ والبرج الموضع المعروف بالرذ والورسنجان ثم ببلاد الصيروان والصيمرة وأريوجان من بلاد ماسبذان وغيرها من تلك الأمصار ، وأكثر هؤلاء في القرى والضياع وسيكون لهم عند أنفسهم شأن وظهور يراعونه وينتظرونه في المستقبل من الزمان ، ويعرفون هؤلاء بخراسان وغيرها بالباطنية، وقد أتينا على مذاهبهم وذكر فرقهم في كتابنا « المقالات » في أصول الديانات » وإن كان قد سبقنا إلى ذلك مؤلفو الكتب في « المقالات » .

بين الخرمية وجيش المنصور : فاجتمعت الخرمية – حين علمت بقتل أبي مسلم – بخراسان ، فخرج فيهم رجل يقال له بسنفاد من نيسابور يطلب بدم أبي مسلم فسار في عسكر عظيم من بلاد خراسان إلى الري ، فغلب عليها وعلى قومَس وما يليها ، وقبض على ما كان بالري من خزائن أبي مسلم ، فكثر جمع بسنفاد بمن حوله من أهل الجبال وطبرستان ، ولما اتصل خبر مسيرهم بالمنصور سَرَّحَ إليه جهور بن مراد العجلي في عشرة آلاف رجل ، وتلاه بالعساكر ، فالتقوا بين همذان والري على طرف المفازة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وصبر الفريقان جميعاً ، فقتل بسنفاد ، وولى أصحابه فقتل منهم ستون ألفاً وسبي منهم سبايا وذراري كثيرة ، وكان بين خروجه إلى مقتله سبعون ليلة ، وذلك في سنة ست وثلاثين ومائة بعد قتل أبي مسلم بأشهر .

ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) : وفي سنة خمس وأربعين ومائة كان ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم بالمدينة ، وكان قد بويع له في كثير من الأمصار ،

وكان يُدْعَى بالنفس الزكية لزهده ونسكه ، وكان مستخفياً من المنصور ، ولم يظهر حتى قبض المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله وعدتهم ، ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة دعا المنصور إسحاق بن مسلم العقيلي ، وكان شيخاً ذا رأي وتجربة ، فقال له : أشِرْ عليَّ في خارجي خرج علي ، قال : صف لي الرجل ، قال : رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو علم وزهد وورع ، قال : فمن تبعه ! قال : ولد علي وولد جعفر وعَقيل وولد عمر بن الخطاب وولد الزبير بن العوام وسائر قريش وأولاد الأنصار ، قال له : صف لي البلد الذي قام به ، قال : بلد ليس به زَرْع ولا ضَرْع ولا تجارة واسعة ، ففكر ساعة ثم قال : اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال ، فقال المنصور في نفسه: قد خَرِف الرجل، أسأله عن خارجي خرج بالمدينة يقول لي اشحن البصرة بالرجال ، فقال له : انصرف يا شيخ ، ثم لم يكن إلا يسير حتى ورد الخبر أن إبراهيم قد ظهر بالبصرة ، فقال المنصور : عليَّ بالعقيلي ، فلما دخل عليه أدناه ثم قال له : إني كنت قد شاورتك في أمر خارجي خرج بالمدينة فأشرتِ علي أن أشحن البصرة بالرجال أوَكانَ عندك من البصرة علم ! قال : لا ، ولكن ذكرت لي خروج رجل إذا خرج مثلُه لم يتخلّفْ عنه أحد ، ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه فإذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش ، فقلتُ : إنه رجل سيطلب غير موضعه ، ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة ، والشام والكوفة كذلك ، وفكرت في البصرة فخفت عليها منه لخلوها ، فأشرت بشحنها ، فقال له المنصور : أحسنت ، وقد خرج بها أخوه ، فما الرأي في صاحب المدينة ! قال : ترميه بمثله ، إذا قال أنا بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال هذا : وأنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المنصور لعيسى بن موسى : إما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدُّكَ بالجيوش ، وإما أن تكفيني ما أخلّفُ ورائي وأخرج أنا إليه ، فقال عيسى : بل أقيك بنفسي يا أمير المؤمنين ،

وأكون الذي يخرج إليه ، فأخرجه إليه من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألفَيْ راجل ، وأتبعه محمد بن قحطبة في جيش كثيف ، فقاتلوا محمداً بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة ، ولما اتصل بإبراهيم قتل أخيه محمد بن عبد الله وهو بالبصرة صعد المنبر فنعاه وتمثل :

أبا المنازل يا خير الفوارس من   يُفْجَعْ بمثلك في الدنيا فقد فُجِعَا
الله يعلم أني لو خشيتهم   وأوْجَسَ القلب من خوف لهم فزعا
لم يقتلوه ولم أسلم أخيَّ لهم   حتى نموت جميعاً أو نعيش معا

تفرق إخوة محمد بن عبد الله في البلاد : وقد كان تفرق إخوة محمد وولده في البلدان يدعون الى إمامته ؛ فكان فيمن توجه ابنه علي بن محمد الى مصر ، فقتل بها ، وسار ابنه عبد الله الى خراسان فهرب لما طلب الى السِّند . فقتل هناك . وسار ابنه الحسن الى اليمن ؛ فحبس فمات في الحبس ، وسار أخوه موسى الى الجزيرة ، ومضى أخوه يحيى الى الري ثم الى طبرستان ، فكان من خبره في أيام الرشيد ما سنورده فيما يرد من هذا الكتاب ، ومضى أخوه إدريس بن عبد الله الى المغرب فأجابه خلق من الناس ، وبعث المنصور من اغتاله بالسم فيما احتوى عليه من مدن المغرب ، وقام ولده إدريس بن إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن مقامه ، فعُرِف البلد بهم ، فقيل : بلد إدريس بن إدريس ، وقد أتينا على خبرهم عند ذكرنا لخبر عبيد الله صاحب المغرب وبنائه المدينة المعروفة بالمهْدية ، وخبر أبي القاسم ابنه بعده ، وانتقالهم من مدينة سلمية من أرض حمص الى المغرب ، في الكتاب الأوسط ، ومضى إبراهيم أخوه الى البصرة وظهر بها ، فأجابه أهل فارس والأهواز وغيرهما من الأمصار وسار من البصرة في عساكر كثيرة من الزَّيْدية وجماعة ممن يذهب الى قول البغداديين من المعتزلة وغيرهم ، ومعه عيسى بن زيد بن علي بن الحسن ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، فسيَّر اليه المنصور عيسى بن موسى وسعيد بن سلم في العساكر ، فحارب حتى قتل في الموضع

المعروف بباخمرى وذلك على ستة عشر فرسخاً من الكوفة من أرض الطف، وهو الموضع الذي ذكرته الشعراء ممن رثى إبراهيم ، فممن ذكر ذلك دعبل ابن علي الخزاعي، فقال في قصيدة له أولها :

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوة ومنزل وحيٍ مُقفِر العرصات

ومنها قوله فيهم :

قبور بكوفان ، وأخرى بطيبة وأخرى بفخّ ، يا لها صلوات
وأخرى بأرض الجوزجان محلُّها وقبر بباخمرَى لدى الغرَباتِ

وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعمائة رجل ، وقيل : خمسمائة رجل .

وروى بعض الأخباريين عن حماد التركي قال : كان المنصور نازلا في دَيْر على شاطىء دجلة في الموضع الذي يسمّى اليوم الخلد ، ومدينة السلام ، إذ أتى الربيع في وقت الهاجرة ، والمنصور نائم في البيت الذي هو فيه ، وحماد قاعد على الباب والخريطة بيد الربيع ، بخروج محمد بن عبد الله فقال : يا حماد افتح الباب ، فقلت : الساعة هجع أمير المؤمنين ، فقال : افتح ثكِلَتْكَ أمك ، قال : فسمع المنصور كلامه ، فنهض يفتح الباب بيده وتناول منه الخريطة ، فقرأ ما فيها من الكتب وتلا هذه الآية (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعَوْنَ في الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين) ثم أمر بإحضار الناس والقوّاد والموالي وأهـــل بيته وأصحابه ، وأمر حماد التركي بإسراج الخيل ، وأمر سليمان بن مجالد بالتقدم ، والمسيب بن زهير فأخرج الأقوات ثم خرج فصعـد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصـــلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

ما لي أكفكفُ عن سعد ويشتمني وإن شتمت بني سعد لقد سكنوا ؟
جهلا علينا وجُبْناً عـــن عدوهمُ لبئست الخصلتان الجهلُ والجُبُن

أما والله لقد عجزوا عن أمر قمنا له ، فما شكروا القائم ولا حمدوا الكافي ، ولقد مهدوا فاستوعروا ، وغبطوا فغمطوا ، فماذا تحاول مني ؟ أسقى رَنْقاً على كدر ؟ كلا والله ، لأن أموت معززاً أحب الي من أن أحيا مستذلا ، ولئن لم يرض العفو مني ليطلبَنّ ما لا يوجد عندي ، والسعيد من وعظ بغيره ، ثم نزل ، فقال : يا غلام ، قدم ، فركب من فوره الى معسكره ، وقال : اللهم لا تكِلْنا الى خلقك فنضيع ، ولا الى أنفسنا فنعجز فلا تكلنا إلا اليك .

وذكر أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر فاستطابها . فقال : أراد إبراهيم أن يحرمني هذا وأشْبَاهَه .

وذكر أن المنصور قال يوماً لجلسائه بعد قتل محمد وإبراهيم : تا الله ما رأيت رجلا أنصح من الحجاج لبني مروان ، فقام المسيب بن زهير الضبي فقال : يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه ، والله ما خلق الله على جديد الأرض خلقاً أعز علينا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد امرتنا بقتل أولاده فأطعناك . وفعلنا ذلك فهل نصحناك أم لا ؟ فقال له المنصور : اجلس لا جلست .

وقد ذكرنا أنه كان قبض على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنه ومحمد وإبراهيم ابني عبد الله وعلى كثير من أهل بيته ، وذلك في سنة أربع وأربعين ومائة في منصرفه من الحج ، فحملوا من المدينة الى الرَّبَذَةِ من جادة العراق ، وكان ممن حمله مع عبد الله بن الحسن إبراهيمُ بن الحسن ابن الحسن ، وأبو بكر بن الحسن بن الحسن ، وعلي الخير ، وأخوه العباس ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن والحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن ومعهم محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو عبدالله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين بن علي ، وجدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجرد المنصور بالرَّبَذَةِ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فضربه ألف

سوط ، وسأله عن ابني أخيه محمد وإبراهيم ، فأنكر أن يعرف مكانهما ، فسألت جدته العثماني في ذلك الوقت ، وارتحل المنصور عن الربذة وهو في قبة ، وأوهن القوم بالجهد[1] ، فحملوا على المحامل المكشوفة ، فمر بهم المنصور في قبته على الجمازة فصاح به عبد الله بن الحسن : يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر ، ، فصيرهم الى الكوفة ، وحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل ، وخلّى منهم سليمان وعبد الله ابني داود بن الحسن بن الحسن وموسى بن عبد الله بن الحسن والحسن بن جعفر ، وحبس الآخرين ممن ذكرناهم حتى ماتوا ، وذلك على شاطىء الفرات بالقرب من قنطرة الكوفة ، ومواضعهم بالكوفة تُزار في هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وكان قد هدم عليهم الموضع ، وكانوا يتوضئون في مواضعهم ، فاشتدت عليهم الرائحة ، فاحتال بعضُ مواليهم حتى أدخل اليهم شيئاً من الغالية فكانوا يدفعون بشمها تلك الروائح المنتنة ، وكان الورم يبدو في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه.

وذكر من وجه آخر أنهم لما حبسوا في هذا الموضع أشكل عليهم أوقات الصلاه فجزّأوا القرآن خمسة أجزاء ، فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد منهم من حزبه ، وكان عدد من بقي منهم خمسة ، فمات اسماعيل بن الحسن ، فترك عندهم حتى جيَّفَ ، فصعق داود بن الحسن فمات ، وأتي برأس إبراهيم بن عبدالله فوجه به المنصور مع الربيع إليهم ، فوضع الرأس بين أيديهم وعبد الله يصلي فقال له إدريس أخوه : أسرع في صلاتك يا أبا محمد ، فالتفت إليه وأخذ الرأس فوضعه في حجره وقال له : أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم ، والله لقد كنت — ما علمتُكَ — من الذين قال الله عز وجل فيهم : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يَصلون ما أمر الله به أن يوصل — الى آخر الآية) فقال له الربيع : كيف أبو القاسم في نفسه ؟

---

١) في ة : وأ فسخوتق القوم في الحديد .

قال : كما قال الشاعر :

فتىً كان يحميه من الذل سَيفُه ويكفيه أن يأتي الذنوب اجتنابها

ثم التفت الى الربيع فقال له : قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام ، ومن نعيمك أيام ، والملتقى يوم القيامة ، قال الربيع : فما رأيت المنصور قط أشد انكساراً منه في الوقت الذي بلّغته فيه هذه الرسالة. فأخذ هذا المعنى العباس بن الأحنف فقال :

فإن تلحظي حالي وحالَكِ مرةً بنظرة عين عن هوى النفس تحجب
ترَيْ كل يوم مرّ من بؤس عيشتي تمر بيوم من نعيمك يُحسب

قال المسعودي : ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته صعد المنبر بالهاشمية ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا اهل خراسان ، انتم شيعتنا وأنصارنا ، واهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا ، لم تبايعوا خيراً منا ، إن ولد ابن أبي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير . فقام فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فما أفلح ، وحكم الحكمين ؛ فاختلفت عليه الأمة ، وافترقت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعتُه وأنصاره وثقاته فقتلوه ، ثم قام بعده الحسن بن علي رضي الله عنه فوالله ما كان برجل ، عُرضت عليه الأموال فقبلها ، ودسّ إليه معاوية إني أجعلك وليّ عهدي ، فخلعه وانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غداً أخرى ، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة السوء ، وأشار الى الكوفة ، فوالله ما هي لي بحرب فأحاربها ، ولا هي لي بسلم فأسالمها ، فرق الله بيني وبينها ! فخذلوه وأبرؤوا أنفسهم منه ، فأسلموه حتى

قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغروه ، فلما اظهروه واخرجوه أسلموه ، وقد كان أبي محمد بن علي ناشده الله في الخروج ، وقال له : لا تقبل اقاويل اهل الكوفة فإنا نجد في علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكناسة ، وأخشى ان تكون ذلك المصلوب ، وناشده الله بذلك عمي داود وحذره رحمه الله غدر اهل الكوفة ، فلم يقبل ، وتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة ، ثم وثب بنو أمية علينا فابتزونا شرفنا ، واذهبوا عزنا ، والله ما كان لهم عندنا ترة يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ، ومرة بالشراة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا الله شرفنا وعزنا بكم ، يا اهل خراسان ، ودفع بحقكم اهل الباطل وأظهر لنا حقنا ، واصار إلينا أمرنا وميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق في قراره ، واظهر الله مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا ، حسداً منهم لنا وبغياً علينا ، بما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه ، وجبناً من بني أمية ، وجراءة علينا ، إني والله يا اهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر من جهالة ولا عن ظنة ولقد كنت يبلغني عنهم بعض السقم ، ولقد كنت سميت لهم رجالاً فقلت : قم انت يا فلان ، فخذ معك من المال كذا وكذا ، وقم انت يا فلان فخذ معك من المال كذا وكذا ، وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوا المدينة فلقوهم فدسوا ذلك المال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم لي ، فاستحللت به دماءهم ، وحلت عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي ، ثم قرأ في درج المنبر (وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا في شك مريب) .

بين المنصور والربيع: قال المسعودي: وقال المنصور للربيع يوماً: اذكر حاجتك، قال: يا أمير المؤمنين حاجتي أن تحبّ الفضل ابني، فقال له: ويحك! إن المحبة إنما تقع بأسباب، قال: يا أمير المؤمنين، قد أمكنك الله من إيقاع السبب، قال: وما ذاك؟ قال: تُفْضِل عليه، فإنك اذا فعلت ذلك أحبك، واذا أحبك أحببته، قال: والله قد أحببته قبل إيقاع السبب، ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شيء؟ قال: لأنك اذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه، وصغر عندك كبير إساءته، وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان، وحاجته اليك كحاجة الشفيع العريان.

وقال المنصور يوما للربيع: ويحك يا ربيع! ما أطيب الدنيا لولا الموت، قال له: ما طابت إلا بالموت، قال: وكيف ذلك؟ قال: لولا الموت لم تقعد هذا المقعد، قال: صدقت.

بين المنصور وعمرو بن عبيد: وذكر إسحاق بن الفضل قال: بينا أنا على باب المنصور اذ أتى عمرو بن عُبَيْد فنزل عن حماره، وجلس، فخرج اليه الربيع، فقال له: قم أبا عثمان، بأبي انت وأمي! فلما دخل على أبي جعفر أمر أن تفرش له لبود بقربه، وأجلسه اليه بعد ما سلم. ثم قال: يا أبا عثمان، عِظْني بموعظة، فوعظه بمواعظ، فلما أراد النهوض قال: أمرنا لك بعشرة آلاف، قال: لا حاجة لي فيها، قال أبو جعفر: والله لتأخذنها قال: لا والله لا آخذها، وكان المهدي حاضراً، فقال: يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت عمرو الى أبي جعفر فقال: مَنْ هذا الفتى؟ قال: هذا محمد ابني، وهو المهدي، وهو ولي عهدي، قال: أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار، ولقد سميته باسم ما استحقه عملا، ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه، ثم أقبل عمرو على المهدي فقال: نعم يا ابن أخي، اذا حلف أبوك أحنثه عمك؛ لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك، فقال له المنصور: هل لك من حاجة يا أبا عثمان؟ قال:

نعم ، قال : ما هي ؟ قال : أن لا تبعث الي حتى آتيك ، قال : اذاً لا نلتقي ، قال : هي حاجتي ، فمضى وأتبعه المنصور بطرفه ، ثم قال :

كلكم يمشي رُوَيْدْ كلكم يطلب صَيْدْ
غير عمرو بن عبيد

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور بعدما بايع للمهدي ، فقال له : يا أبا عثمان هذا ابن أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطّدْتَ له الأمور ، وهي تصير اليه ، وأنت عنه مسئول ، فاستعبر المنصور وقال له : عظني يا عمرو ، قال : يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الذي أصبح في يديك لو بقي في يد غيرك لم يصل اليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده ، وأنشد :

يا أيها ذا الذي قد غرَّهُ الأمل ودون ما يأمل التنغيص والأجل
ألا ترى إنما الدنيا وزينتها كمنزل الركب حلّوا ثمّتَ ارتحلوا
حتوفها رَصَدٌ ، وعيشها نكد وصفوها كدر ، وملكها دُوَلُ
تظل تقرع بالروعات ساكنها فما يسوغ له لين ولا جدل
كأنه للمنايا والردى غرَضٌ تظل فيه بنات الدهر تنتضل
والنفس هاربة ، والموت يَرْصُدُها وكل عثرة رجل عندها زلل
والمرء يسعى لما يبقى لوارثه والقبر وارث ما يسعى له الرجل

موت عمرو بن عبيد : ومات عمرو بن عبيد في أيام المنصور سنة أربع وأربعين ومائة ، وقيل : سنة خمس وأربعين ومائة ، ويكنى أبا عثمان، وهو عمرو بن عبيد بن باب ، مولى بني تميم ، وكان جده باب من سَبْي كابل من رجال السند ، وكان شيخ المعتزلة في وقته ومفتيها ، وله خطب ورسائل وكلام كثير في العدل والتوحيد وغير ذلك . وقد أتينا على أخباره والغرر من كلامه ومناظراته في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » .

وفي سنة إحدى وأربعين ومائة شخص المنصور الى بيت المقدس فصلى فيه لنذر كان عليه وانصرف .

موت هشام بن عروة : وفي سنة ست وأربعين ومائة مات هشام بن عروة ابن الزبير وهو ابن خمس وثمانين ، وكان اذا أسمعه رجل كلاماً قال : أنا أرفع نفسي عنك ، ثم نازع علي بن الحسن ، فأسرع اليه هشام ، فقال له علي : إني أدعوك الى ما كنت تدعو اليه .

موت أبي حنيفة النعمان وجماعة : وفي سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت مولى تَيْم اللات من بكر بن وائل في أيام المنصور ببغداد ، توفي وهو ساجد في صلاته ، وهو ابن تسعين سنة[١] وفيها مات عبد الملك ابن عبد العزيز بن جُرَيْج المكي، مولى خالد بن أسيد ، ويكنى أبا الوليد، وهو ابن سبعين سنة ، وفيها مات محمد بن إسحاق بن يسار مولى قيس بن مَخْرمَة من بني المطلب ، ويكنى أبا عبد الله ، ويقال : مات سنة إحدى ، ويقال : سنة اثنتين وخمسين ومائة .

وفي سنة سبع وخمسين مات الاوزاعي ، ويكنى أبا عمرو عبد الرحمن بن عمرو من أهل الشام ، وإنما كان منزله فيهم - أعني الأوزاع - ولم يكن منهم ، وذلك بدمشق فأضيف إليهم ، وكان من سبي أهل اليمن في آخر أيام المنصور ، وله تسعون سنة[١] .

وفي أيام المنصور مات ليث بن أبي سليم الكوفي ، مولى عنبسة بن أبي سفيان ، سنة ثمان وخمسين ومائة وفي سنت ست وخمسين ومائة مات سَوّار ابن عبد الله القاضي ، وفي سنة أربع وخمسين ومائة مات أبو عمرو بن العلاء في أيام المنصور .

مقتل عبد الله بن علي ، عم المنصور : وطال حبس عبد الله بن علي

---

١) في نسخة : وهو ابن سبعين سنة .

بأمر المنصور ، وأقام في محبسه تسع سنين ، وقيل غير ذلك فلما أراد المنصور الحجّ في سنة تسع وأربعين ومائة حوّله من عنده إلى عيسى بن موسى ، وأمره بقتله ، وأن لا يعلم بذلك أحداً ، فبعث عيسى بن موسى إلى ابن أبي ليلى وابن شبرمة ، فشاورهما في ذلك ، فقال ابن أبي ليلى : امضِ بما أمرك به أمير المؤمنين ، وقال ابن شبرمة : لا تفعل ، فأبى أن يقتله ، وأظهر لأبي جعفر أنه قتله ، وشاع ذلك ؛ فكلم بنو علي المنصورَ في أخيهم عبد الله فقال لهم : هو عند عيسى بن موسى ، فلما قدموا مكة أتوا عيسى بن موسى فسألوه عنه ؛ فقال : قد قتلته ، فرجعوا إلى أبي جعفر ، فقالوا : زعم عيسى أنه قد قتله ، فأظهر أبو جعفر الغضب على عيسى ، وقال : يقتل عمي والله لأقتلنه ، وكان أبو جعفر أحبّ أن يكون عيسى قتله فيقتله به فيستريح منهما جميعاً ، قال : فدعا به ، فقال : لِمَ قتلت عمي ؟ قال : أنت أمرتني بقتله ، قال لم آمرك بذلك، فقال : هذا كتابُكَ إليّ فيه ، قال : لم أكتبه ، فلما رأى الجدّ من المنصور ، وتخوف على نفسه قال هو عندي لم أقتله ، قال : ادفعه إلى أبي الأزهر المهلب بن أبي عيسى ، فدفعه إليه ، فلم يزل عنده محبوساً ، ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ومعه جارية له فبدأ بعبد الله فخنقه حتى مات ، ثم مدّه على الفراش ، ثم أخذ الجارية ليخنقها فقالت : يا عبد الله،قتلة غير هذه، فكان أبو الأزهر يقول:ما رحمت أحداً قتلته غيرها، فصرفت وجهي عنها ، وأمرت بها فخنقت ، ووضعتها معه عَلَى الفراش ، وأدخلت يدها تحت جنبه ويده تحت جنبها كالمعتنقين ، ثم أمرت بالبيت فهدم عليهما، ثم أحضرنا القاضي ابن علاثة وغيره فنظروا إلى عبد الله والجارية معتنقين على تلك الحال ، ثم أمر به فدفن في مقبرة أبي سويد بباب الشام من بغداد في الجانب الغربي .

قال المسعودي: وذكر عبدالله بن عياش المنتوف قال: قال المنصور يوماً ونحن

عنده : أتعرفون جباراً أول اسمه عين، قتل جباراً أول اسمه عين، وجباراً أول اسمه عين، وجباراً أول اسمه عين؟ قال : قلت : نعم يا أمير المؤمنين، عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال المنصور : أفتعرفون خليفة أول اسمه عين قتل جباراً أول أسمه عين، وجباراً أول أسمه عين، وجباراً أول اسمه عين؟ قلت : نعم أنت يا أمير المؤمنين، قتلت عبد الرحمن بن مسلم، وعبد الجبار بن عبد الرحمن، وعمك عبد الله بن علي سقط عليه البيت، قال فما ذنبي ان كان سقط عليه البيت؟ قلت : لا ذنب لك، فتبسم ثم قال : هل تحفظ الأبيات التي قالتها زوجة الوليد بن عبد الملك أخت عمرو ابن سعيد حين قتل عبد الملك أخاها؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين، خرجَتْ في اليوم الذي قتل فيه أخوها عمرو وهي حاسرة تنشد :

أيا عين جودي بالدموع على عمرو   عشيّةَ تُبتَزُّ الخلافةَ بالقهر
غدرتم بعمرو يا بني خيط باطل   وكلكمُ يبني البيوت على غدر
وما كان عمرو عاجزاً، غير أنه   أتته المنايا بغتةً وهْوَ لا يدري
كأن بني مروان إذ يقتلونه   خَشاشٌ من الطير اجتمعن على صقر
لحى الله دنيا تعقب النار أهلها   وتهتك ما بين القَرابة من ستر
ألا يا لقومي للوفاء وللغدر   وللمغلقين الباب قسراً على عمرو
فرُعْنا وراح الشامتون عشية   كأن على أعناقهم فلق الصخر

قال ابن عياش : فقال المنصور : فما الأبيات التي بعث بها عمرو بن سعيد إلى عبد الملك بن مروان؟ قال : قلت نعم يا أمير المؤمنين كتب اليه :

يريدُ ابنُ مروان أموراً أظنها   ستحمله مني على مركب صعب
لينقض عهداً كان مروان شدّه   وأدرك فيه بالقطيعة والكذب
فقدمته قبلي، وقد كنت قبله   ولولا انقيادي كان كرب من الكرب

وكان الذي أعطيت مروان هفوةً غلبت بها رأياً، وخطباً من الخطب
فإن تنفذوا الأمر الذي كان بيننا فكلنا جميعاً بالسهولة والرحب
وإن يعطها عبدُ العزيز ظلامةً فأولى بها منّا ومنه بنو حرب

وفاة المنصور : وكان مولد المنصور في السنة التي مات فيها الحجاج بن يوسف ، وهي سنة خمس وتسعين ، وكان يقول : ولدت في ذي الحجة ، وأعذرت في ذي الحجة ، ووليت الخلافة في ذي الحجة ، وأحسب المنية تكون في ذي الحجة ، فكان كما ذكر .

وحدث الفضل بن الربيع قال : كنت مع المنصور في السفر الذي مات فيه فنزل منزلا من المنازل ، فبعث إليّ وهو في قبة ووجهه الى الحائط ، فقال لي : ألم أنهك أن تدع العامة يدخلون هذه المنازل فيكتبوا فيها ما لا خير فيه ؟ قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ! قال : أما ترى على الحائط مكتوباً :

أبا جعفرٍ حانت وفاتك ، وانقضت سنوك ، وأمرُ اللهِ لا بدّ نازلُ
أبا جعفرٍ ، هل كاهنٌ أو منجّمٌ يردُّ قضاء الله ، أم أنت جاهل !

قال : قلت والله ما أرى على الحائط شيئاً ، وإنه لنقي أبيض ، قال : الله ؟ قلت : الله ، قال : إنها والله إذاً نفسي نعيت الى الرحيل ، بادر بي الى حرم ربي وأمنه هارباً من ذنوبي وإسرافي على نفسي ، فرحلنا وقد ثقل ، حتى اذا بلغنا بئر ميمون ، قلت له : هذه بئر ميمون ، وقد دخلت الحرم، قال : الحمد لله ، فتوفي بها .

صفات المنصور : وكان المنصور من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وكان يعطي الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزماً ، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعاً ، وكان كما قال زياد : لو أن عندي ألف بعير وعندي بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره ،

وخلف أبو جعفر ستمائة الف الف درهم وأربعة عشر الف الف دينار ، وكان مع هذا يضن بماله ، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه على ان له الرؤوس والأكارع والجلود ، وعليه الحطب والتوابل ، ومن كرمه أنه وصل عمومته وهم عشرة في يوم واحد بعشرة آلاف درهم ، وأسماؤهم : عبد الله بن علي ، وعبد الصمد بن علي ، واسماعيل بن علي ، وعيسى بن علي، وداود بن علي ، وصالح بن علي ، وسليمان بن علي ، وإسحاق بن علي ، ومحمد ابن علي ، ويحيى بن علي ، وكان يعمل في بناء مدينة بغداد التي بناها وعرفت به في كل يوم خمسون الف رجل .

اولاده : وكان له من الولد : المهدي وجعفر ، وأمهما أم موسى الحميرية ، وتوفي جعفر في حياة أبيه المنصور ، وسليمان وعيسى ويعقوب وجعفر الأصغر، من كردية ، وصالح الملقب بالمسكين ، وبنت تسمى عالية .

قال المسعودي : وللمنصور أخبار حسان مع الربيع وعبد الله بن عياش وجعفر بن محمد وعمرو بن عبيد وغيرهم ، وله خطب ومواعظ وسير وسياسات في الملك، قد أتينا على أكثرها في كتابينا أخبار الزمان والأوسط، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً تدلك على ما سبق في كتبنا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر

خلافة المهدي محمد بن عبدالله بن محمد بن علي

ابن عبد الله بن العباس

موجز : ويكنى أبا عبد الله ، وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله ابن ذي سهم بن أبي سَمرْح ، من ولد ذي رُعَين من ملوك حِمْير .

أخذ له البيعة بمكة الرَّبيعُ مولاه يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمانٍ وخمسين ومائة ، وأتاه بنعي أبيه وبيعته منارةُ مولاه ، فأقام يومين بعد ذلك، ثم خطب الناس فنعى أباه ودعا إلى بيعته وبويع بيعة العامة، وكان مولده سنة سبع وعشرين ومائة ، وخرج من مدينة السلام في سنة تسع وستين ومائة يريد بلاد قرماسين من بلاد الدِّينَوَر ،وقد وصف له طيب ماسبذان من بلاد السيروان وجرجان ، فعدل إلى الموضع المعروف بأرزن والران ، فمات بقرية يقال لها ردين ليلة الخميس لسبع بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة ، فكانت خلافته عشر سنين وشهراً وخمسة عشر يوماً ، وقبض وله ثلاث وأربعون سنة ، وصلى عليه هرون الرشيد ، وكان موسى الهادي غائباً بجرجان ، وقيل : إنه مات مسموماً في قطائف أكلها ، ولبست حُسنة جاريتهُ وغيرها من حشمه المسوحَ والسواد جزعا عليه، فقال في ذلك أبو العتاهية :

رُحْنَ في الوَشْيِ وأصبحــنَ عليهــنّ المسُــوحُ
كل نَطّاح وإن عــا ش ، له يومــاً نَطوُحُ
لســتَ بالبــاقي ولو عُمّــرْتَ مــا عُمّرَ نوحُ
فَعلى نفسكَ نُحْ إن كنتَ لا بُــدَّ تنوحُ

ذكـــر
جمل من أخباره وسيره ، ولمـــع مما كان في أيامه

المهدي وشريك القاضي : ذكر الفضل بن الربيع قـال : دخل شريك القاضي على المهديّ يوماً ، فقال له : لا بد أن تجيبني إلى خصلة من ثـلاث خصال ، قال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : إما أن تلي القضاء ، أو تحدّث ولدي وتعلمهم ، أو تأكل عندي أكلة ، ففكر ثم قال : الأكلة أخفهن على نفسي ، فاحتبسه وقدم إلى الطباخ أن يصلح له ألواناً من المخ المعقود بالسكر الطبرزذ والعسل، فلما فرغ من غدائه قال له القيم على المطبخ: يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً ،قال الفضل بن الربيع: فحدثهم والله شريكٌ بعد ذلك ، وعلم أولادهم ، وولي القضاء لهم ، ولقد كتب بأرزاقه إلى الجهبذ فضايقه في النقص ، فقال له الجهبذ : إنك لم تبع بزاً ، قال له شريك : بلى والله لقد بعت أكبر من البز ، لقد بعت ديني .

المهدي وعمرو بن الربيع يجوعان في طريقهما للصيد : وقال الفضل بن الربيع : خرج المهدي متنزهاً ومعه عمرو بن بزيع مولاه ، وكان شاعراً ، فانقطع عن العسكر ، والناس في الصيد ، وأصاب المهديّ جوع شديد، فقال لعمرو : ويحك ! ارتَدْ لي إنساناً نجد عنده ما نأكل، فما زال عمرو يطوف إلى أن وجد صاحب مَبْقَلة وإلى جانبها كوخ له ، فصعد إليه فقال له : هل عندك شيء يؤكل ؟ قال : نعم ، رقاق من خبز شعير وربيثة ، وهذا البقل والكراث ، فقال له المهدي : إن كان عندك زيت فقد أكملت ، قال : نعم عندي فضلة منه ، فقدم إليهما ذلك ، فأكلا أكلا كثيراً ، وأمعن المهدي حتى لم يبق فيه فضل،فقال لعمرو : قل شعراً تصف به ما نحن فيه، فقال عمرو :

إنَّ من يُطعِمُ الرثيثة بالزيـــت وخُبْزَ الشعير بالكُسُرَّات
لحقيقٌ بِصَفْعَةٍ أو بثنتيـــن لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال المهدي : بئس والله ما قلت ؛ ولكن أحسن من ذلك :

لحقيقٌ ببدرة أو بثنتيـــن لحسن الصنيع أو بثلاث

ووافى العسكر ، ولحقته الخزائن والخدم والموكب ، فأمر لصاحب المبقلة بثلاث بدر دراهم .

ومرة اخرى يجوع المهدي في طريقه للصيد : قال : وعار[1] به فرسه مرة أخرى ، وقد خرج للصيد ، فدفع إلى خباء أعرابي وهو جائع ، فقال : يا أعرابي هل عندك قِرًى فإني ضيفك ؟ قال : أراك طريراً جسيماً عمياً ، فان احتملت الموجود قربنا لك ما يحضرنا ، قال : هات ما عندك فأخرج له خبز ملة ، فأكلها ، وقال : طيبة ، هات ما عندك فاخرج اليه لبناً في كرش فسقاه ؛ فشرب ، وقال : طيب ، هات ما عندك فأخرج له فضلة نبيذ في ركوة ، فشرب الأعرابي واحداً وسقاه ، فلما شرب قال المهدي : أتدري من أنا ؟ قال : لا والله ، قال : أنا من خدم الخاصة ، قال : بارك الله في موضعك وحباك من كنت ، ثم شرب الأعرابي قدحاً وسقاه ، فلما شرب قال له : يا أعرابي أتدري من انا ؟ قال : نعم ذكرت أنك من خدم الخاصة ، قال : لست كذلك، قال : فمن أنت ؟ قال : أنا أحد قوّاد المهدي ، قال : رحُبت دارك ، وطاب مزارك ، ثم شرب الأعرابي قدحاً وسقاه،فلما شرب الثالث قال : يا أعرابي ، اتدري من أنا ؟ قال : نعم، زعمت انك أحد قواد المهدي ، قال : فلست كذلك قال : فمن أنت ؟ قال : أمير المؤمنين بنفسه، فأخذ الأعرابي ركوته فوكاها ، فقال له المهدي : اسقنا ، قال : لا والله لا تشرب منها جرعة فما فوقها ، قال: ولم ؟ قال: سقيتك قدحاً[2] فزعمت انك

١) في نسخة : وغار به .
٢) في نسخة : سقيتك واحداً .

من خدم الخاصة ، فاحتملناها لك ، ثم سقيناك آخر فزعمت أنك احد قواد المهدي فاحتملناها لك ، ثم سقيناك الثالث فزعمت انك امير المؤمنين ، لا والله ما آمن أن اسقيك الرابع فتقول : إنك رسول الله ، فضحك المهدي ، وأحاطت به الخيل ، فنزل إليه أبناء الملوك والأشراف،فطار قلب الأعرابي، فلم يكن همه إلا النجاة بنفسه ، وجعل يشتد في عدوه ، فقال له المهدي : لا بأس عليك ، وأمر له بصلة جزيلة من مال وكسوة وبزة وآلة ، فقال : أشهد أنك صادق ، ولو ادعيت الرابعة والخامسة لخرجت منها ، فضحك المهدي منه حتى كاد ان يقع عن فرسه حين ذكر الرابعة والخامسة ، وجعل له رزقاً ، وألحقه بخواصه .

وزراء المهدي : وكان وزيره أبو عبيدالله معاوية بن عبدالله الأشعري ،وهو جد محمد بن عبد الوهاب الكاتب وكان كاتبه قبل الخلافة ، فقتل المهدي ابناً لأبي عبيدالله على الزندقة ، فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه فعزله وعاش أبو عبيدالله الى سنة سبعين ومائة ، ثم اختص المهدي يعقوب بن داود السلمي، وخرج كتابه على الدواوين : إن أمير المؤمنين قد آخاه ، وكان يصل اليه في كل وقت دون الناس كلهم ، ثم اتهمه بشيء من أمر الطالبيين ، فهمّ بقتله ، ثم حبسه فبقي في حبسه الى أيام الرشيد، فأطلقه الرشيد ، وقد قيل في أمره انه كان يرى الإمامة في الأكبر من ولد العباس ، وان غير المهدي من عمومته كان أحق بها منه .

خصال المهدي واعماله : وكان المهدي محبباً الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم[1] ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وإنصاف المظلوم ، وبسط يده في الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور ، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار،سوى ما جباه في أيامه ،

---

١) في نسخة : برد المظالم .

فلما فرغت بيوت الأموال أتى ابو حارثة النهري خازن بيوت أمواله ، فرمى بالمفاتيح بين يديه ، وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ؟ ففرق المهدي عشرين خادماً في جباية الأموال(١) ، فوردت الأموال بعد أيام قلائل فتشاغل ابو حارثة النهري بقبضها وتصحيحها عن الدخول على المهدي ثلاثة أيام فلما دخل عليه قال: ما أخرك؟ فقال: الشغل بتصحيح الأموال ، فقال: أنت اعرابي أحمق كنت تظن ان الأموال لا تأتينا اذا احتجنا اليها، قال ابو حارثة : ان الحادثة اذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه في استخراج الأموال وحملها ، وقيل : انه فرق في عشرة ايام من صلب ماله عشرة آلاف ألف درهم ، فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه خطيباً فقال : وللمهدي أشباه ، فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ، والأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، فأما القمر الزاهر فأشبه منه حسنه وبهاه ، وأما الربيع الباكر فأشبه منه طيبه وهواه ، وأما الأسد الخادر فأشبه منه غرته ومضاه ،وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وسخاه.

الخيزران وامرأة مروان بن محمد: وكانت الخيزران ام الهادي والرشيد في دارها المعروفة اليوم بأشناس ، وعندها أمهات اولاد الخلفاء وغيرهن من بنات بني هاشم ، وهي على بساط أرمني ،وهن على نمارق ارمنية ، وزينب بنت سليمان بن علي اعلاهن مرتبة ، فبينا هن كذلك اذ دخل خادم لها فقال : بالباب امرأة ذات حسن وجمال في أطمار رثة تأبى ان تخبر باسمها وشأنها غيركن ، وتروم الدخول عليكن ، وقد كان المهدي تقدم الى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان بن علي ، وقال لها : اقتبسي من آدابها ، وخذي من اخلاقها ، فانها عجوز لنا قد ادركت اوائلنا ، فقالت الخيزران للخادم: ائذن لها ، فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال في اطمار رثة ، فتكلمت فأوضحت عن بيان على لسان فقالوا لها : من انت ؟ قالت : انا مزنة امرأة مروان بن محمد ، وقد أصارني الدهر الى ما ترين(٢) ، ووالله ما الأطمار الرثة التي عليّ إلا

---

١) في نسخة : في استحثاث الأموال . ٢) في نسخة : وقد صار بي الدهر .

عارية ، وانكم لما غلبتمونا على هذا الأمر وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطة العامة على ما نحن فيه من الضرر على بادرة الينا تزيل موضع الشرف ،فقصدناكم لنكون في حجابكم على أية حالة كانت ، حتى تأتي دعوة من له الدعوة، فاغرورقت عينا الخيزران ونظرت اليها زينب بنت سليمان بن علي ، فقالت لها : لا خفف الله عنك يا مزنة ، اتذكرين وقد دخلتُ عليك بحران وأنت على هذا البساط بعينه ، ونساء قرابتكم على هذه النمارق، فكلمتك في جثة إبراهيم الإمام ، فانتهرتني وأمرت باخراجي ، وقلت : ما للنساء والدخول على الرجال في آرائهم ؟ فوالله لقد كان مروان أرعى للحق منك ؛ لقد دخلت اليه فحلف أنه ما قتله ، وهو كاذب ، وخيرني بين أن يدفنه أو يدفع إليّ جثته ، فاخترت جثته ؛ وعرض عليّ مالاً فلم اقبله ؛ فقالت مزنة : والله ما نظن هذه الحالة أدنتني الى ما ترينه إلا بالفعال التي كانت مني؛ وكأنك استحسنته فحرضت الخيزران على فعل مثله انما كان يجب ان تحضيها على فعل الخير وترك المقابلة بالشر ؛ لتحرز بذلك نعيمها ، وتصون بها دينها ؛ ثم قالت لزينب : يا بنت عم ؛ كيف رأيت صنيع الله بنا في العقوق فأحببت التأسي بنا؛ ثم ولت باكية وكرهت الخيزران ان تخالف زينب فيها فغمزت الخيزران بعض جواريها ، فعدلت بها الى بعض المقاصير وأمرت بتغيير حالها والاحسان اليها ، فلما دخل المهدي عليها — وقد انصرفت زينب وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه في كل عشية — قصت عليه الخيزران قصتها، وما أمرت به من تغيير حالها ؛ فدعا بالجارية التي ردتها ؛ فقال لها : لما رددتيها الى المقصورة ما الذي سمعتها تقول؟ قالت : لحقتها في الممر الفلاني وهي تبكي في خروجها مؤتسية وهي تقرأ (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ؛ ثم قال للخيزران : والله والله لو لم تفعلي بها ما فعلت ما كلمتك ابداً ، وبكى بكاء كثيراً ، وقال : اللهم اني اعوذ بك من زوال

النعمة ؛ وأنكرَ فعل زينب ، وقال :لولا انها اكبر نسائنا لحلفت ألا اكلمها؛ ثم بعث اليها بعض الجواري الى مقصورتها التي أخليت لها ، وقال للجارية : اقرئي عليها السلام مني وقولي لها يا بنت عم ان اخواتك قد اجتمعن عندي؛ ولولا اني أغمك لجئناك ؛ فلما سمعت الرسالة علمت مراد المهـدي ؛ وقد حضرت زينب بنت سليمان ؛ فجاءت مزنة تسحب أذيالها ؛ فأمرها بالجلوس؛ ورحب بها واستدناها ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان بن علي ، ثم تفاوضوا اخبار اسلافهم ، وأيام الناس ، والدول وتنقلهـا ، فما تركت لأحد في المجلس كلاماً ؛ فقال لها المهـدي : يا بنت عم ، والله لولا اني لا احب أن أجعل لقوم انت منهم من امرنا شيئاً لتزوجتك ، ولكن لا شيء أصْوَنُ لك من حجابي ، وكونك مع اخواتك في قصري : لك مـا لهن وعليك ما عليهن ، الى ان يأتيك امر مَنْ له الأمر فيما حكم به على الخلق ، ثم اقطعها مثل ما لهن من الاقطاع وأخدمها وأجازها ، فأقامت في قصره الى أن قبض[1] المهدي وأيام الهادي وصدراً من أيام الرشيد، وماتت في خلافته، لا يفرق بينها وبين نساء بني هاشم وخواص حرائرهم وجواريهم فلما قبضت جـزع الرشيد والحرم[2] جزعاً شديداً .

عبدالله بن عمرو بن عتبة يعزي المهدي ويهنئه : وحدثنـا الرياشي عن الأصمعي : دخل عبدالله بن عمرو بن عتبة على المهدي يعزيه بالمنصور ، فقال : آجر الله امير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله له فيما خلّفه فيه ، ولا مصيبة اعظم من فقد إمام والد ، ولا عقبى أجلّ من خلافة الله على اولياء الله ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية .

عتبة الجارية وأبو العتاهية : ولما كثر تشبيب ابي العتاهية بعتبة جارية الخيزران شكت الى مولاتها ما يلحقها من الشناعة ، ودخل المهـدي وهي

---

١) في نسخة : الى ان قضى المهدي . ٢) في نسخة : والخدم .

تبكي بين يدي الخيزران ، فسألها عن خبرها ، فأخبرته ، فأمر باحضار أبي العتاهية ، فأدخل اليه ، فلما وقف بين يديه قال : انت القائل في عتبة :

الله بيني وبين مـــولاتي أبدتْ لي الصد والملامات

ومتى وصلتك حتى تشكو صدها عنك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما قلت ذلك بل انا الذي أقول :

يا ناق حثي بنا ولا تهني نفسك فيما ترين راحـــات
حتى تجيئي بنا الى ملك توجـّــه الله بالمهـــابات
يقول للريح كلما عصفت: هل لك يا ريح في مباراتي
عليه تاجان فوق مفرقه تاج جمال وتاج إخبات

قال : فنكس المهدي رأسه ، ونكت بالقضيب الذي كان في يده ثم رفع رأسه فقال : أنت القائل :

ألا ما لسيدتي ما لهـــا أدلت فأحمل إدلالهـــا ؟
وجارية من جواري الملو ك قد اسكن الحسن سربالها

قال : وما علمك بما حواه سربالها ؟ فأجابه معارضاً له فيه :

اتته الخلافة منقـــادة اليـــه تجرر أذيالهـــا
فلم تك تصلـح إلا له ولم يـــك يصلح إلا لها

ثم سأله عن أشياء ، فأفحم أبو العتاهية في الجواب ، فأمر المهدي بجلده نحواً من حد ، وأخرج مجلوداً ، فلقيته عتبة وهو على تلك الحال ، فقال :

بخ بخ يا عتب من أجلكم قد قتل المهدي فيكم قتيلا

فتغرغرت عيناها ، وفاض دمعها ، وصادفت المهدي عند الخيزران ، فقال : ما لعتبة تبكي ؟ قالوا له : رأت ابا العتاهية مجلوداً ، وقال لها كيت وكيت ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، ففرقها ابو العتاهية على مَن كان بالباب ، فكتب صاحب الخبر بذلك، فوجه اليه : ما حملك على ان أكرمتك

بكرامة فقسمتها ؟ قال : ما كنت لآكل ثمن من أحببت ، فوجه اليه بخمسين ألفاً أخرى ، وحلف عليه أن لا يفرقها ، فأخذها وانصرف .

من أبي العتاهية الى المهدي : قال المبرد : أهدى أبو العتاهية الى المهدي في يوم نوروز أو مهرجان برنية صينية فيها ثوب ممسك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية :

نفسي بشيء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهديُّ يكفيها
إني لأيأس منها ثم يُطمِعني ... فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهم أن يدفع اليه عتبة ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ، مع حرمتي وحقي وخدمتي تدفعني الى بائع جرار يكتسب بالشعر ؟ فبعث اليه : أما عتبة فلا سبيل لك اليها ، وقد أمرنا لك بملء البرنية مالا ، فخرجت عتبة وهو يناظر الكتاب ، ويقول : إنما أمر لي بدنانير ، وهم يقولون : بدراهم ، فقالت: أما لو كنت عاشقاً لعتبة لشغلت عن العَيْن والوَرِق .

من طرف أبي العتاهية : وكان أبو العتاهية وهو إسماعيل بن القاسم بائع جرار ، وكان من أسهل الناس لفظاً وأقدرهم على وزن الكلام ، وكان حلو الألفاظ ، حتى إنه يتكلم بالشعر في جميع حالاته ، ويخاطب به جميع أصناف الناس ، قد جعله شعراً ونثاراً .

واجتمع أبو نواس وجماعة ، فدعا أحدهم بماء فشرب ثم قال :

عَذُبَ الماء وطابا

ثم قال أجيزوا فترددوا فلم يحضر أحد ما يجانسه في سهولته وقرب مأخذه حتى جاء أبو العتاهية فقال : فيم أنتم ؟ فأعلموه وأنشدوه القسم ، فقال :

حبذا الماء شراباً

ومن مختار شعره في عتبة :

بالله يا حلوة العينين زوريني ... قبل الممات ، وإلا فاستزيريني

هذان أمران ، فاختاري أحبهما إليك، أو لا فداعي الموت يدعوني
إن شئت موتاً فأنت الدهرَ مالكةٌ روحي، وإن شئت أن أحيا فأحييني
يا عُتْبَ ما أنت إلا بدعة خلقت من غير طين، وخَلْقُ الناس من طين
إني لأعجب من حب يقربني ممن يباعدني عنه ويُقْصيني
لو كان ينصفني مما كلفت به اذاً رضيت وكان النصف يرضيني
يا أهل ودي إني قد لطفت بكم في الحب جهدي ولكن لا تبالوني
الحمد لله قد كنا نظنكم من أرحم الناس طراً بالمساكين
أما الكثير فلا أرجوه منك، ولو أطمَعْتِني في قليل كان يكفيني

ومن مختار شعره فيها قوله :

ألا يا عتب يا قمر الرصافهْ ويا ذات الملاحة والنظافهْ
رُزِقْتِ مودتي، ورزقت عطفي، ولم أرزق فديتك منك رأفهْ
وصرتُ من الهوى دَنِفاً سقيماً صريعاً كالصريع من السُّلافه
أظلُّ اذا رأيتك مستكيناً كأنك قد بعثت عليَّ آفه

ومما اخترناه من شعره واستحسنه ذوو الحجا قوله :

ما أغفل الناس عن بلائي وعن عنائي وعن شقائي
يلومني الناسُ في حبيب والناس لا يعرفون دائي
يا لهف نفسي على غليل أصبح في كفه شفائي
صيرني حُبُّه غريباً في غير أرضٍ ، ولا سماء
قد بلغ الجُهْدُ بي مَدَاه فما اصطباري ؟ وما عزائي؟
أنت بلائي ، وأنت دائي وأنت تدْرينَ ما دوائي
والله ما تذْكَرين إلا فاضت دموعي على ردائي
تبارك الله ، ما دعاكم يا أهل وُدّي الى جفائي ؟
فأنتمُ الهم في صباحي وأنتمُ الهم في مسائي

إني على ما لقيت منكم لمعجَبٌ منكم بدائي
شتّان ما بينكم وبيني في نصح حبي ، وفي وفائي
منحتكم صَبْوتي وودي فكان ذا منكمُ جزائي

وحدث المبرد محمد بن يزيد أن رَيطة ابنة أبي العباس السفاح وجهت إلى عبد الله بن مالك الخزاعي في شراء رقيق للعتق ، وأمرت جاريتها عتبة — وكانت لها ثم صارت إلى الخيزران بعدها — أن تحضر ذلك ، فانها لجالسة إذ جاء أبو العتاهية في زي متنسك فقال : جعلني الله فداك ! أنا شيخ ضعيف كبير لا يَقوَى على الخدمة، فان رأيت أعزك الله ان تأمري بشرائي وعتقي فعلت مأجورة ، فأقبلت على عبدالله ، فقالت : إني لأرى هيئة جميلة وضعفاً ظاهراً ، ولساناً فصيحاً ورجلا بليغا ، فاشتره وأعتقه ، فقال : نعم فقال أبو العتاهية : أتأذنين لي أصلحك الله في تقبيل يدك شكراً لك على جميل فعلك وما أوليتني فأذنت له ، فقبّلَ يدها والصرف ، فضحك عبدالله ابن مالك ، وقال : أتدرين مَنْ هذا ؟ قالت : لا ، قال : هذا أبو العتاهية، وإنما احتال عليك حتى قبل يدك فسترَتْ وجهها خجلا ، وقالت : سَوْأة لك يا أبا العباس ، أمثلك يعبث ؟ إنما اغتررنا بكلامك ، وقامت فلم تعد اليه .

ولأبي العتاهية أشعار حسان سنذكرها في أخبار من يرد من الخلفاء ، وسنذكر لمعاً من اخباره وما استحسناه من أشعاره وذكر وفاته ولو لم يكن لأبي العتاهية سوى هذه الأبيات التي أبان فيها عن صدق الإخاء ومحض الوفاء لكان مبرزاً على غيره ، ممن كان في عصره وهي :

ان أخاكَ الصّدق من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك شتت شمل نفسه كي يجمعك[١]

---

١) في نسخة : شتت فيك شمله ليجمعك .

وهذه الصفة في عصرنا معدومة ، ومستحيل وجودها ، ومتعذر كونها ، ومتعسر رؤيتها .

محمد المهدي والشرقي بن القطامي : وروى ابن عياش وابن دأب أن المنصور كان قد ضمّ الشرقي بن القطامي الى المهدي ، حين خلفه بالري ، وامره أن يأخذه بحفظ ايام العرب ، ومكارم الأخلاق ، ودراسة الأخبار ، وقراءة الأشعار ، فقال له المهدي ذات ليلة : يا شرقي أرح قلبي بشيء يلهيه قال : نعم أصلح الله الأمير ، ذكروا انه كان في ملوك الحيرة ملك له نديمان قد نزلا من قلبه منزلة مكينة[1] ، وكانا لا يفارقانه في لهوه وأنسه ومنامه ويقظته ، ومقامه وظعنه ، وكان لا يقطع أمراً دونهما ، ولا يصدر إلا عن رأيهما ، فغبر بذلك دهراً طويلا ، فبينا هو ذات ليلة في شربه ولهوه إذ غلب عليه الشرابُ فأزال عقله ، فدعا بسيفه وانتضاه ، وشدّ عليهما فقتلهما ، وغلبته عيناه فنام ، فلما أصبح سأل عنهما فأخبر بما كان منه ، فأكبّ على الأرض عاضا لها تأسفاً عليهما وجزعاً لفراقهما ، وامتنع من الطعام والشراب ، ثم حلف لا يشرب شراباً يزعج قلبه ما عاش ، وواراهما وبنى على قبريهما قبة ، وسماهما الغريَّيْنِ ، وسن أن لا يمر بهما أحد من الملك فمن دونه إلا سجد لهما ، وكان إذا سن الملك منهم سنة توارثوها ، وأحيَوْا ذكرها ولم يميتوها ، وجعلوها عليهم حكما واجباً ، وفرضاً لازماً ، وأوصى بها الآباء أعقابَهمْ ، فغبر الناس بذلك دهراً طويلا ، لا يمر بقبريهما أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما ، فصار ذلك سنة لازمة وأمراً كالشريعة والفريضة ، وحكم فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يحكم له بخصلتين يجاب إليهما كائنتا ما كانتا ، قال : فمر يوماً قصّار معه كارة ثياب وفيها مُدُقَّتُه ، فقال الموكلون بالغريَّيْنِ للقصار : اسجد ، فأبى أن يفعل ، فقالوا

---

(١) في نسخة « منزلة نفسه » .

له : اذاك مقتول ان لم تفعل ، فأبى ، فرفعوه الى الملك ، وأخبروه بقصته ، فقال : ما منعك ان تسجد ؟ قال : سجدت ولكن كذبوا علي ، قال : الباطل قلت ، فاحتكم في خصلتين فانك مجاب اليها ، واني قاتلك بعد ، قال: لا بد من قتلي بقول هؤلاء علي ؟ قال : لا بد من ذلك ، قال : احتكم ان أضرب رقبة الملك بمدقتي هذه ، قال له الملك : يا جاهل ، لو حكمت علي أن اجري على من تخلف وراءك ما يغنيهم كان اصلح لهم ، قال : ما احكم الا بضربة لرقبة الملك ، فقال الملك لوزرائه: ما ترون فيا حكم به هذا الجاهل. قال: نرى أن هذه سنة انت سننتها وأنت اعلم بها في نقض السنن من العار والنار وعظم الإثم ، وايضاً أنك متى نقضت سنة نقضت اخرى ، ثم يكون ذلك لمن بعدك كما كان لك ، فتبطل السنن ، قال : فارغبوا الى القصار ان يحكم بما شاء ويعفيني من هذه ، فإني اجيبه الى ما شاء الله ولو بلغ حكمه شطر ملكي ، فرغبوا اليه ، فقال : ما أحكم الا بضربة في عنق الملك ، قال : فلما رأى الملك ذلك وما عزم عليه القصار قعد له مقعداً عاما وأحضر القصار ، فأبدى مدقته وضرب بها عنق الملك فأوهنه وخر مغشياً عليه ، فأقام وقيذاً ستة أشهر[١] ، وبلغت به العلة الى أن كان يسقى الماء بالقطر ، فلما أفاق وتكلم وأكل وشرب واستقل سأل عن القصار ، فقيل : إنه محبوس ، فأمر بإحضاره ، فحضر ، فقال : لقد بقيت لك خصلة فاحكم بها ، فإني قاتلك لا محالة إقامة للسنة ، قال القصار : فإذا كان لا بد من قتلي فاني أحكم أن أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى ، فلما سمع ذلك خر على وجهه من الجزع ، وقال : ذهبت نفسي والله إذاً ، ثم قال للقصار : ويلك!! دع عنك ما لا ينفعك فانه لم ينفعك منه ما مضى ، واحكم بغيره وأنفذه لك كائناً ما كان ، قال : ما أرى حقي إلا في ضربة أخرى ، فقال الملك

١) في نسخة : فأقام لما به سنة .

لوزرائه : ما ترون ؟ قالوا : تموت على السنة اصلح لك، قال: ويلكم !! إن ضرب الجانب الآخر ما شربت الماء البارد ابداً لأني أعلم ما قد نالني ،قالوا : فما عندنا حيلة ، فلما رأى ما قد أشرف عليه ، قال للقصار : أخبرني ، ألم أكن قد سمعتك تقول يوم أتى بك الموكلون بالغَرِيَّيْن انك قد سجدت وأنهم كذبوا عليك ، قال : قد كنت قلت ذلك فلم أصدق ، قال :فكنت سجدت؟ قال : نعم ، فوثب الملك من مجلسه وقبل رأسه ، وقال : أشهد أنك صادق وأنهم كذبوا عليك ، وقد وليتك موضعهم ، وجعلت اليك بأسهم وأمرهم في تأديبهم ؛ فضحك المهدي حتى فحص برجليه ، وقال : أحسنت ، ووصله .

المهدي ومروان بن أبي حفصة : قال الهيثم بن عدي : كنت في مجلس المهدي ، فأتاه الحاجب فقال : ابن ابي حفصة بالباب ، فقال : لا تأذن له فانه منافق كذاب . فكلمه الحسن بن قحطبة فيه ، فأدخله ، فقال له المهدي: يا فاسق[1] ألست القائل في معن :

جبلٌ تلوذ به نزار كلها ... صَعْبُ الذرى متمنع الأركان

قال : بل أنا الذي أقول فيك يا أمير المؤمنين :

يا ابنَ الذي ورث النبيَّ محمداً ... دون الأقارب من ذوي الأرحام

وأنشده الأبيات كلها ، فرضي عنه وأجازه .

بين المهدي وسفيان الثوري : وقال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي وأتى سفيان الثوري فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ، ولم يسلم تسليم الخلافة ، والربيع قائم على رأسه متكىء على سيفه يرقب أمره ، فأقبل المهدي بوجه طلق وقال له : يا سفيان ، تفر منا ههنا وههنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكم فيَّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ، فقال

---

١) في نسخة : يا منافق .

له الربيع : يا أمير المؤمنين ، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ ائذن لي أن أضرب عنقه ، فقال له : اسكت ويلك ، ما يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم ، اكتبوا بعهده على قضاء الكوفة ، على ان لايعترض عليه في حكم ، فكتب عهده ودفعه اليه ، فأخذه وخرج ورمى به في الدجلة وهرب ، فطلب في كل بلد ، فلم يوجد .

رؤيا المهدي قبيل وفاته : وقال علي بن يقطين : كنا مع المهدي بماسبذان ، فقال لي يوماً : أصبحت جائعاً فأتني بأرغفة ولحم بارد ، ففعلت ، فأكل ثم دخل البهو ونام ، وكنا نحن في الرواق ، فانتبهنا لبكائه ، فبادرنا اليه مسرعين ، فقال : أما رأيتم ما رأيت ؟ قلنا : ما رأينا شيئاً ، قال : وقف عليّ رجل لو كان في ألف رجل ما خفي عليّ صوته ولا صورته فقال :

كأني بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه ربعه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجة ... وملك الى قبر عليه جنادله
فلم يبق الا ذكره وحديثه ... تنادي عليه معولات حلائله

قال علي : فما أتت على المهدي بعد رؤياه إلا عشرة أيام حتى توفي .

وفاة زفر بن الهذيل وجماعة من العلماء : قال المسعودي : وكانت وفاة زفر بن الهذيل الفقيه صاحب أبي حنيفة النعمان بن ثابت سنة ثمان وخمسين ومائة ، وفيها كانت بيعة المهدي كما قدمناه .

ومات سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري بالبصرة ، وكان من تميم ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ويكنى أبا عبدالله ، في أيام المهدي ، وذلك في سنة احدى وستين ومائة .

ومات ابن أبي ذئب ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة ، ويكنى أبا الحارث ، بالكوفة سنة تسع وخمسين ومائة ، وذلك في أيام المهدي .

وفي سنة ستين ومائـة مات شعبة بن الحجاج ، ويكنى أبا بسطام ، وهو

مولى لبني شقرة من الأزد ، وفيها توفي عبد الرحمن بن عبدالله المسعودي ،وفي سنة ست وستين ومائة مات حماد بن سَلَمة في أيام المهدي .

قال المسعودي : وللمهدي أخبار حسان ، ولما كان في أيامه من الكوائن والحروب وغيرها ، قد أتينا على مبسوطه في الكتاب الأوسط ، وكذلك من مات في سُلطانه من الفقهاء وأصحاب الحديث وغيرهم ، وبالله التوفيق .

ذكر
خلافة موسى الهادي

موجز : وبويع موسى بن محمد الهادي يوم الخميس لسبع بَقينَ من المحرم ، وهو ابن أربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر ، صبيحة الليلة التي كانت فيها وفاة والده المهدي ، وذلك في سنة تسع وستين ومائة ، وتوفي بعيساباذ نحو مدينة السلام سنة سبعين ومائة ، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر ، وكان يكنى أبا جعفر ، وأمه الخيزران بنت عطاء ، أم ولد حرشية ، وهي أم الرشيد ، وأتته البيعة وهو ببلاد طبرستان وجرجان في حرب كانت هناك ، فركب البريد وقد أخذ له أخوه هارون البيعة وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

لما أتتْ خير بني هاشم ... خلافة الله بجرجـــان
شمّر للحرب سرابيـــلهُ ... برأي لا غُمرٍ ولا وان

ذكر

جمل من اخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه

اوصاف الهادي : كان موسى قاسي القلب، شرس الأخلاق، صعب المرام، كثير الأدب، محباً له، وكان شديداً شجاعاً، بطلا، جواداً، سخياً.

مثل من شجاعته : حدث يوسف بن ابراهيم الكاتب، وكان صاحب ابراهيم ابن المهدي، عن ابراهيم، أنه كان واقفاً بين يديه وهو على حمار له ببستانه المعروف به ببغداد إذ قيل له : قد ظفر برجل من الخوارج، فأمر بإدخاله، فلما قرب منه الخارجي اخذ سيفاً من بعض الحرس، فأقبل يريد موسى، فتنحيت وكلُّ مَنْ معي عنه، وانه لواقف على حماره ما يتحلحل، فلما ان قرب منه الخارجي صاح موسى : اضربا عنقه، وليس وراءه أحد، فأوهمه، فالتفت الخارجي لينظر، وجمع موسى نفسه ثم ظهر عليه[1] فصرعه، فأخذ السيف من يده، فضرب عنقه، قال : فكان خوفنا منه أكثر من الخارجي، فوالله ما أنكر علينا تنحينا ولا عذلنا على ذلك، ولم يركب حماراً بعد ذلك اليوم، ولا فارقه سيفه.

بين الهادي وعيسى بن دأب : وكان عيسى بن دأب يجالسه، وكان من أهل الحجاز وكان أكثر أهل عصره أدباً وعلماً ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم، وكان الهادي يدعو له متكأ، ولم يكن غيره يطمع منه في ذلك، وكان يقول له : ياعيسى ما استطلت بك[2] يوماً ولا ليلة، ولا غبت عني إلا ظننت أني لا أرى غيرك.

جريمة غلام سندي : وذكر عيسى بن دأب أنه رفع الى الهادي أن رجلا

---

١) في نسخة : ثم ظفر عليه.

٢) في نسخة : ما استبطأت.

من بلاد المنصورة — من بــلاد السند من أشرافهم وأهل الرياسة فيه. من آل المهلب بن أبي صفرة — ربى غلاماً سندياً أو هندياً ، وأن الغــلام هَوِيَ مولاته ، فراودها عن نفسها ، فأجابته ، فدخل مولاه فوجدها معه، فجبّ ذكَر الغلام وخَصاه ، ثم عالجه الى ان برىء فأقام مدة ، وكان لمولاه ابنان، احدهما طفلٌ والآخر يافع، فغاب الرجل عن منزله وقد اخذ السنديُ الصبيين فصعد بهما الى أعالي سور الدار الى ان دخل مولاه فرفع رأسه فاذا هو بابنيه مع الغلام على السور فقال : يا فلان ، عرضت ابني للهلاك ؛ فقال : دعْ ذا عنك ، والله لو لم تجبَّ نفسك بحضرتي لأرمين بهما ، فقــال له : الله الله فيّ وفي ابنيّ ، قال : دع عنك هذا ، فوالله ما هي الا نفسي ، وإني لأسمح بهــا من شرْبة ماء ، وأهوى ليرمي بهما ، فأسرع مولاه فأخذ مدية فجب نفسه ، فلما رأى الغلام أنه قد فعل رمى بالصبيين فتقطعا ، وقال : ذاك الذي فعلت لفعلك بي ، وقَتْلُ هذين زيادة ، فأمر الهادي بالكتاب إلى صاحب السند بقتل الغلام وتعذيبه بأفظع ما يمكن من (١) العــذاب ، وأمر بإخراج كل سندي في مملكته ، فرخص السند في أيامه حتى كانوا يتداولون بالثمن اليسير.

وزراء المهدي : وكان الهادي قد استوزر الربيع ، وضم إليه ما كان لعمر ابن بزيع من الزمام ثم إنه ولى عمر بن بزيع الوزارة وديوان الرسائل ، وأفرد الربيع بالزمام ، فمات الربيع في هذه السنة، وقيل : إن الهادي سقاه شربة لأجل جارية كان قد وهبها له المهدي كانت قبل ذلك للربيع ، وقيل غير ذلك.

ظهور الحسين بن علي بن الحسن : وظهر في أيامه الحسين بن علي بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وهو المقتول بفخ ، وذلك على ستة أميال من مكة ، يوم التروية وكان على الجيش الذي حاربه جماعة من بني هاشم : منهم سليمان بن أبي جعفر ، ومحمد بن سليمان بن علي ، وموسى ابن عيسى ، والعباس بن محمد بن علي ، في أربعة آلاف فارس ؛ فقتل الحسين

---

٢) في نسخة : بأفظع ما يكون من العذاب .

وأكثر من كان معه ، وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السباع والطير، وكان معه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، فأسر في هذا اليوم وضربت رقبته بمكة صبراً ، وقتل معه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي ، وأسر الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وضرب عنقه صبراً[1] ، واخذ لعبدالله بن الحسن بن علي وللحسين بن علي الأمان ، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، وقتلا بعد ذلك ، فسخط الهادي على موسى بن عيسى لقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن وترك المصير به اليه ليحكم فيه بما يرى ، وقبض اموال موسى ، واظهر الذين اتوا بالرأس الاستبشار ، فبكى الهادي وزجرهم ، وقال : اتيتموني مستبشرين كأنكم اتيتموني برأس رجل من الترك او الديلم ، انه رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا ان أقل جزائكم عندي الا اثيبكم شيئاً .

من مراثي الحسين بن علي صاحب فخ : وفي الحسين بن علي صاحب فخّ ، يقول بعض شعراء ذلك العصر من ابيات :

فلأبكينّ على الحسيـــن بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي أثووه ليس له كفن
تركوا بفخّ غدوة في غير منزلة الوطن
كانوا كراما قتلوا لا طائشين ولا جُبُن
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن
هُديَ العبادُ بجدهم فلهم على الناس المنن

طاعة الهادي لأم الخيزران : وكان الهادي كثير الطاعة لأم الخيزران ، مجيباً لها فيما تسأل من الحوائج للناس ، فكانت المواكب لا تخلو من بابها ؛ ففي ذلك يقول ابو المعافي :

يا خيزران هنَاكِ ثم هنَاكِ ان العباد يسوسهم ابناكِ

---

1) في نسخة : فضربت رقبته صبرا .

فكلمته ذات يوم في أمر ، فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلا ، فاعتلّ عليها بعلة ، فقالت : لا بد من اجابتي ، قال : لا افعل ، قالت : فاني قد ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك ، فغضب الهادي ، وقال : ويلٌ لابن الفاعلة ؛ قد علمت أنه صاحبها، والله لا قضيتها لك ، قالت: اذا والله لا اسألك حاجة أبداً ، قال : اذ والله لا ابالي وحمي وقامت وهي مغضبة ، فقال : مكانك ، فاستوعبي كلامي ، والله ، والا نفيت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي ، او من خاصتي ، او من خدمي ، لأضربنّ عنقه ، ولأقبضنّ ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ، ما هذه المراكب التي تغدو الى بابك كل يوم ؟ اما لك مغزل يشغلك ، او مُصحف يذكرك ، او بيت يصونك ؟ اياك ثم اياك ان تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمّي ، فانصرفت وما تعقل ما تطأ ؛ فلم تنطق عنده بحلو ولا مر بعدها .

اخذ العباسيون ثأر بني هاشم من بني مروان : وذكر ابن دأب ، قال : دعاني الهادي في وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعوني في مثله ، فدخلت اليه ، فاذا هو جالس في بيت صغير شتوي، وقدامه جزء صغير[1] ينظر فيه ، فقال لي : يا عيسى ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : اني أرقت في هذه الليلة ، وتداعت الي الخواطر واشتملت علي الهموم ، وهاج لي ما جرت اليه بنو امية من بني حرب وبني مروان في سفك دمائنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا عبدالله بن علي قد قتل منهم على نهر ابي فطرس فلاناً وفلاناً حتى أتيت على تسمية أكثر من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد بن علي قد قتل منهم بالحجاز في وقت واحد نحو ما قتل عبدالله بن علي ، وهو القائل بعد سفكه دماءهم :

ولقد شفى نفسي وابرأ سُقمها أخذي بثأري من بني مروان
ومن آل حرب ،ليت شيخي شاهد سفكي دماء بني ابي سفيان

---

١) في نسخة : وقدامه دفتر ينظر فيه .

قال ابن دأب : فسر والله الهادي ، وظهرت منه اريحية ، فقال : يا عيسى داود بن علي هو القائل ذلك والقائل لمن ذكرت بالحجاز ، ولقد اذكرتنيها ، حتى كأني ما سمعتها ، قلت : يا أمير المؤمنين ، وقد قيل : إنها لعبد الله بن علي ، قالها على نهر أبي فطرس ، قال : قد قيل ذلك .

بعض فضائل مصر وبعض أخبارها وبعض عيوبها : قال ابن دأب : ثم تغلغل بنا الكلام والحديث الى أخبار مصر وعيوبها وفضائلها وأخبار نيلها ، فقال لي الهادي : فضائلها أكثر ، قلت : يا أمير المؤمنين هذه دعوى المصريين لها بغير برهان أوردوه ، والبينة على الدعوى، وأهل العراق يأبَوْنَ هذه الدعوى ، ويذكرون ان عيوبها أكثر من فضائلها ، قال : مثل ماذا ؟ قلت : يا أمير المؤمنين من عيوبها أنها لا تمطر ، وإذا أمطرت كرهوا ذلك ، وابتهلوا إلى الله بالدعاء وقد قال الله عز وجل (وهو الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بين يدي رحمته) فهذه رحمة عجلـة لهذا الخلق وهم لها كارهون ، وهي لهم ضارة غير موافقة لا يزكو عليها زرعهم ولا تخصب عليها أرضهم ، ومن عيوبها الريح الجنوبية التي يسمونها المريسيّة ، وذلك أن أهل مصر يسمون أعالي الصعيد إلى بلاد النوبة مَريس ، فإذا هبت الريح المريسية — وهي الجنوبية — ثلاثة عشر يوماً تباعاً ، اشترى أهل مصر الأكفان والحنوط وأيقنوا بالوباء القاتل ، والبلاء الشامل [1] ، ثم من عيوبها اختلاف هوائها لأنهم في يوم واحد يغيرون ملابسهم مراراً كثيرة ، فيلبسون القُمُصَ مرة ، والمبطنات أخرى ، والحشو مرة ، وذلك لاختلاف جواهر الساعات بها ، ولتباين مَهابّ الهواء فيها في سائر فصول السنة من الليل والنهار ،وهي تمير ولا تمتار ، فإذا أجدبوا هلكوا . وأما نيلها فكفاك الذي هو عليه من الخلاف لجميع الأنهار ، من الصغار والكبار ، وليس بالفرات ولا الدجلة ولا

---

١) في نسخة : والموت الشامل .

نهر بلخ ولا سيحان ولا جيحان شيء من التماسيح ، وهي في نيل مصر ضارة بلا منفعة ومفسدة غير مصلحة ؛ وفي ذلك يقول الشاعر :

أظهرْتُ للنيل هِجْراناً ومَقْلِيةً   إذ قيل لي إنما التمساح في النيل
فمن رأى النيل رَأْيَ العين من كثب   فما أرى النيل إلا في النواقيل

قال : ويحك ! ما النواقيل التي ترى النيل فيها ؟ قلت : القلال والكيزان يسمونها بهذا الاسم ، قال : وما مراد الشاعر فيما وصف ؟ قال : لأنه لا يتمتع بالماء إلا في الآنية ؛ لخوف مباشرة الماء في النيل من التمساح ؛ لأنه يختطف الناس وسائر الحيوان ؛ قال : إن هذا النهر قد منع هذا النوع من الحيوان مصالح الناس منه ، وقد كنت متشوقاً إلى النظر إليها ، فلقد زهدتني عنها بوصفك لها .

مدينة دنقلة : قال ابن دأب : ثم سألني الهادي عن مدينة دنقلة ، وهي دار مملكة النوبة ، كم المسافة بينها وبين أسوان ؟ قلت : قد قيل أربعون يوماً على شاطىء النيل عمائر متصلة .

بين البصرة والكوفة : قال ابن دأب : ثم قال لي الهادي : إيهاً يا ابن دأب ، دع عنك ذكر المغرب وأخباره ، وهلم بنا إلى ذكر فضائل البصرة والكوفة وما زادت به كل واحدة منها على الأخرى ، قال: قلت : ذكر عن عبدالملك بن عمير ، أنه قال : قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة مع مصعب بن الزبير ، فما رأيت (١) شيخاً قبيحاً إلا ورأيت في وجه الأحنف منه شبهاً ؛ كان صَعْل الرأس ، أجْنَى العين ، أغضَف الأذن ، بارِقَ العين ، ناتىء الوجه ، مائل الشِّدْق ، متراكب الأسنان ، خفيف العارضين ، أحْنَف الرِّجْل ، ولكنه كان إذا تكلم جَلّى عن نفسه ، فجعل يفاخرنا ذات يوم بالبصرة ونفاخره بالكوفة ، فقلنا : الكوفة أغذى وأمرأ وأفسح وأطيب ،

---

١) في نسخة : فما رأيت شيئاً .

فقال له رجل : والله ما أشبه الكوفة إلا بشابة صبيحة الوجه كريمة الحسب ولا مال لها ؛ فإذا ذكرت ذكرت حاجتها ، فكفّ عنها طالبها ، وما أشبه البصرة إلا بعجوز ذات عوارض موسرة ، فإذا ذكرت ذكر يسارها ،وذكرت عوارضها ، فكفّ عنها طالبها ، فقال الأحنف : أما البصرة فإن أسفلها قصَب ، وأوسطها خشَب ، وأعلاها رُطب ، نحن أكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً ، ونحن أكثر قنداً ونقداً ؛ والله ما آتي البصرة إلا طائعاً ، ولا أخرج منها إلا كارهاً ؛ قال : فقام إليه شاب من بكر بن وائل فقال : يا أبا بحر ؛ بِمَ بلغت في الناس ما بلغت ؟ فوالله ما أنت بأجلهم ، ولا بأشرفهم[1] ولا بأشجعهم ؛ قال : يا ابن أخي ؛ بخلاف ما أنت فيه ؛ قال : وما ذاك ؟ قال : بتركي ما لا يَعْنيني كا عناك من أمري ما لا ينبغي أن يعنيك .

قال المسعودي : ولابن دأب مع الهادي أخبار حِسَان يطول ذكرها ، ويتسع علينا شرحها ، ولا يتأتى لنا إيراد ذلك في هذا الكتاب ؛ لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والايجاز بحذف الأسانيد وترك إعادة الألفاظ .

ولأهل البصرة وأهل الكوفة ومَنْ شرب من دجلة مناظرات كثيرة في مياههم ومنافعها ومضارها . منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة ، فقالوا : ماؤكم كَدِر زَهِك زَفِر؛ فقال لهم أهل البصرة : من أين يأتي ماءنا الكَدَرُ وماء البحر صافٍ وماء البطيحة صافٍ؛ وهما يمتزجان وسط بلادنا؟! قال الكوفيون : من طباع الماء العذب الصافي إذا خالط ماء البحر صار جميعاً إلى الكدورة ؛ وقد يُرَوَّق الإنسان ماء أربعين ليلة ، فإن جعل منه شيئاً في قارورة أزْبَدَ وتكدَّر .

وقد افتخر أهل الكوفة بمائهم — الذي هو الفرات — على ماء دجلة ، وهو ماء البصرة ! فقالوا : ماؤنا أعذب المياه وأغذاها ، وهو أصح للأجسام من ماء دجلة ، والفرات خير من النيل ؛ فأما دجلة فإن ماءها يقطع شهوة

---

١) في نسخة : ولا بأكرمهم .

الرجال ، ويذهب بصهيل الخيل ، ولا يذهب بصهيلها إلا مع ذهاب نشاطها ونقصان قواها ، وإن لم يتدسم النازلون عليها أصابهم قحول في عظامهم(١) ويبس في جلودهم ، وسائرُ من نزل من العرب على دجلة لا يكادون يسقون خيلهم منها ويسقونها من الآبار والرَّكَاء ، لاختلاط مياهها واختلاف أنواعها إذ ليست بماء واحد لمصب الأنهار إليها كالزابَيْنِ وغيرهما ، وسبيلُ المشروب غير المأكول ؛ لأن اختلاف المآكل غير ضار ؛ واختلاف الاشربة كالخمر والنبيذ (٢) وغيره من الانبذة إذا شربه الإنسان كان ضاراً ، وإذا كان فضيلة مائنا على دجلة فما ظنك بفضيلته على ماء البصرة وهو يختلط بماء البحر ، ومن الماء المستنقع في أصول القصب المروي ، وقد قال الله تعالى : (هذا عذب فُرات ، وهذا مِلْحٌ أجاج) . والفرات أعذب المياه عذوبة ، وإنما اشتق الفرات لكل ماء عذب من ماء الكوفة .

وقد طعن أيضاً أهل الكوفة على أهل البصرة ، فقالوا : البصرة أسرع الأرض خراباً ، وأخبثها تراباً ، وأبعدها من السماء ، وأسرعها غرقاً .

وقد أجاب أهل البصرة أهل الكوفة عما سألوا عنه وعابوهم به ، وكذلك من شرب من دجلة ، وعابوا اهل الكوفة ، وذكروا عيوبها ، وما يؤثر عن سكانها من الشح على المأكول والمشروب والغدر وقلة الوفاء .

وقد أتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وكذلك أتينا على خواص الارض والمياه ، وفصول السنة ، وانقسام الاقاليم ، وما لحق بهذه المعاني ، فيما سلف من كتبنا على الشرح والايضاح ، وذكرنا في هذا الكتاب من جميع ذلك لمعاً .

فلنرجع الآن إلى أخبار الهادي ونعدل عن هذا السانح .

رغبة الهادي في خلع الرشيد من ولاية العهد : وقد كان الهادي أراد أن

---

١) في نسخة : اصابهم نحول في أجسامهم .

٢) في نسخة : كالخمر ونبيذ التمر .

يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ، ويجعلها لابنه جعفر بن موسى ، وحبس يحيى بن خالد البرمكي ، وأراد قتله ، فقال له يحيى وكان القيم بأمر الرشيد: يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان ما أسأل الله أن يعيذنا منه ، وأن لا يبلغناه ، ويَنسأ في أجل أمير المؤمنين ، أيظن أن الناس يُسلمون لجعفر ابن أمير المؤمنين الأمر ولم يبلغ الحنث (١) ، ويرضون به لصلاتهم وحجّهم وغزوهم ؟ قال : ما أظن ذلك ؛ قال : فتأمن أن يسمو إليها جلة أهل بيتك فتخرج من ولد أبيك إلى غيرهم؟ فتكون قد حملت الناس على النكث، وهوّنت عليهم أيمانهم، ولو تركت بيعة أخيك على حالها وبُويعَ لجعفر بعده كان آكد ، فاذا بلغ مبلغ الرجال سألت أخاك أن يقدمه على نفسه ، قال: نبهتني والله على أمر لم أكن قد انتبهت له ، ثم عزم بعد ذلك على خلعه رضي أم كره ، وأمر بالتضييق عليه في الأكثر من أموره فأشار عليه يحيى أن يستأذنه في الخروج إلى الصيد ، وأن يطيل التشاغل بذلك ، فان مدة موسى قصيرة على ما أوجبته قضية المولد ، واستأذنه الرشيد ، فأذن له ، فسار الى شاطىء الفرات من بلاد الأنبار وهيت ، وتوسط البر مما يلي السماوة ، وكتب الهادي إليه يأمره بالقدوم فأكثر الرشيد التعلل ، وبسط الهادي لسانه في شتمه ، وسنح للهادي الخروج نحو بلاد الحديثة ، فمرض هناك ، وانصرف وقد ثقل في العلة فلم يجسر أحد من الناس على الدخول عليه إلا صغار الخدم ، ثم أشار اليهم أن يحضروا الخيزران أمه، فصارت عند رأسه ، فقال لها : أنا هالك في هذه الليلة ، وفيها يلي أخي هرون ، وأنت تعلمين ما قضى به أصل مولدي بالري ، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى ، مما أوجبته سياسة الملك ، لا موجبات الشرع من برك ، ولم أكن بك عاقا ، بل كنت لك صائناً وبراً واصلا ، ثم قضى قابضاً على يدها ، واضعاً لها على صدره .

وكان مولده بالري ، وكذلك مولد هرون الرشيد ، فكانت تلك الليلة

---

١) في نسخة : ولم يبلغ الحلم .

فيها وفاة الهادي ، وولاية الرشيد ، ومولد المأمون .

الهادي ورجل ذو ذنوب : ويقال : إن الهادي أوقف بين يديه رجلا من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة ، فجعل الهادي يذكره ذنوبه ، فقال له الرجل يا أمير المؤمنين ، اعتذاري مما تقرعني به ردٌّ عليك ؛ وإقراري بما ذكرت يوجب ذنباً عليّ ولكني أقول :

فإنْ كنتَ تَرْجُو في العقوبةِ رَاحَـــةً
فلاَ تَزْهَدَنْ عِنْدَ المعَافاةِ في الأجْرِ

فأطلقه ووصله .

بين الهادي والرشيد : وحدّث عدة من الأخباريين من ذوي المعرفة بأخبار الدولة ، أن موسى قال لهارون أخيه : كأني بك تحدثُ نفسك بتمام الرؤيا ، وتؤمل ما أنت عنه بعيد ، ومن دون ذلك خَرْطُ القَتَاد ، فقال له هارون يا أمير المؤمنين من تكبر وضع ، ومن تواضع رفع ، ومن ظلم خذل ، وإن وصل الأمر[1] إليّ وصَلْتُ مَنْ قطعت ، وبررت من حرمت ، وصيرت أولادك أعلى من أولادي ، وزوجتهم بناتي ، وقضيت بذلك حق الامام المهديّ ؛ فانجلى عن موسى الغضب ؛ وبان السرور في وجهه ، وقال : ذلك الظن بك يا أبا جعفر ؛ ادْنُ مني ، فقام هارون فقبّل يده ، ثم ذهب ليعود إلى مجلسه ، فقال موسى : والشيخ الجليل ، والملك النبيل ، لا جلستَ إلا معي في صدر المجلس ؛ ثم قال: يا خَزّاني ! احمل إلى أخي الساعة ألف ألف دينـــار ، فإذا فتح الخراج فاحمل إليه نصفه ؛ فلما أراد هارون الانصراف قُدّمت دابته إلى البساط .

رؤيا المهدي لولديه الهادي والرشيد : قال عمرو الرومي : فسألت الرشيد عن الرؤيا ، فقال : قال المهدي : رأيت في منامي كأني دفعت الى موسى

---

١) في نسخة : وان أفضى الأمر الي .

قضيباً ، والى هارون قضيباً ، فأما قضيب موسى فأوْرَقَ أعلاه قليلاً ، وأما قضيب هارون فأورق من أوله الى آخره ، فقص الرؤيا على الحكم ابن إسحاق الصيمري ، وكان يعْبرُها ، فقال له : يملكان جميعاً ؛ فأما موسى فتقل أيامه ، وأما هارون فيبلغ آخر ما عاش خليفة ، وتكون أيامه أحسن الأيام ، ودهره أحسن الدهور .

قال عمرو الرومي : فلما أفضت الخلافة الى هارون زوّج حمدونة ابنته من جعفر بن موسى ، وفاطمة من اسماعيل بن موسى ، ووفى له ما وعده .

حاز الهادي سيف عمرو بن معديكرب (الصمصامة) : وحدث عبد الله ابن الضحاك ، عن الهيثم بن عدي ، قال : وهب المهدي موسى الهادي سيف عمرو بن معديكرب الصَّمْصامة ، فدعا به موسى بعد ما ولي الخلافة ، فوضعه بين يديه ، ومِلْءُ مكتل دنانير [1] ، وقال لحاجبه : ائذن للشعراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا في السيف ، فبدأهم ابن يامين البصري فقال :

حَازَ صَمْصَامةَ الزُّبَيْديِّ عمرو
مِن جميعِ الأنامِ مُوسى الأمينُ
سَيْفُ عمرو ، وكان فيما سمعْنا
خَيرَ ما أُغمِدَتْ عليهِ الجفونُ
أوقدَتْ فوقَه الصواعقُ ناراً
ثم شابت فيهِ الذُّعافَ المَنُونُ
واذا ما شهَرْته تبهر الشمسَ ضياءً فلم تكدْ تَستَبينُ
وكأنَّ الفِرنْدَ والجوهر الجا ريَ في صفحتيه ماء معين
ما يبالي إذا الضريبة حانت أشمال سَطت بهِ أمْ يمينُ ؟

١) في نسخة : ودعا بمكتل .

وهي أبيات كثيرة ، فقال له الهادي : لك السيف والمكتل ، فخذهما ؛ ففرق المكتل على الشعراء ، وقال : دخلتم معي وحرمتم من أجلي ، وفي السيف عوض ، ثم بعث اليه الهادي فاشترى منه السيف بخمسين ألفاً .

وللهادي أخبار حسان وإن كانت أيامه قصُرت ، وقد أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وبالله التأييد .

ذكر

خلافة هارون الرشيد

موجز : وبويع هارون الرشيد بن المهدي يوم الجمعة صبيحة الليلة التي مات فيها الهادي ، بمدينة السلام ، وذلك لاثنتي عشر ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، ومات بطوس بقرية يقال لها سناباذ[١] ، يوم السبت لأربع ليال خلونَ من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر ، وقيل : ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً ، ووليَ الخلافة وهو ابن احدى وعشرين سنة وشهرين ، ومات وهو ابن اربع وأربعين سنة وأربعة أشهر .

---

١) في نسخة : يقال لها ساباذ .

ذكر

جمل من اخباره ، وسيره

ولمع مما كان في أيامه

الرشيد يستوزر يحيى بن خالد البرمكي : ولما أفضت الخلافة الى الرشيد دعا بيحيى بن خالد فقال له : يا أبت ، أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويُمنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر ، ودفع خاتمه إليه ، ففي ذلك يقول الموصلي :

ألم تر ان الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون اشرق نورها
بيمن امين الله هارون ذو الندى فهرون واليها ، ويحيى وزيرها

وماتت ريطة بنت أبي العباس السفاح لشهور خلت من أيام الرشيد، وقيل: في آخر ايام الهادي ، وماتت الخيزران ام الهادي والرشيد في سنة ثلاث وسبعين ومائة ، ومشى الرشيد امام جنازتها ، وكانت غلة الخيزران مائة ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، وفيها مات محمد بن سليمان ، وقبض الرشيد أمواله بالبصرة وغيرها ، فكان مبلغها نيفا وخمسين الف الف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ، وكان محمد بن سليمان يغل كل يوم مائة ألف درهم .

محمد بن سليمان وسوار القاضي يعترضهما مجنون : وحكي ان محمد بن سليمان ركب يوماً بالبصرة وسوّار القاضي يسايره في جنازة ابنة عم له ، فاعترضه مجنون كان بالبصرة يعرف برأس النعجة ، فقال له : يا محمد ، أمن

العدل أن تكون غلتك[١] في كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه ؟ ثم التفت الى سوّار فقال : ان كان هذا عدلا فأنا أكفر به ، فأسرع اليه غلمان محمد ، فكفّهم عنه ، وأمر له بمائة درهم ، فلما انصرف محمد وسوار معه اعترضه رأس النعجة فقــال له : لقد كرم الله منصبك ، وشرف أبوتك ، وحسن وجهك ، وعظم قدرك ، وأرجو ان يكون ذلك لخير يريده الله بك ، ولأن يجمع الله لك الدارين ، فدنا منه سوّار ، فقال : يا خبيث ، ما كان هذا قولك في البداءة ، فقال له : سألتك بحق الله وبحق الأمير إلا ما أخبرتني في أي سورة هذه الآية (فإن أعطُوا منهــا رَضوا وإن لم يُعطَوْا منها إذا هم يسخطون) قال : في براءة ، قال : صدقت ، فبرىء الله ورسوله منك ، فضحك محمد بن سليمان حتى كــاد يسقط عن دابته .

ولما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار دخل اليه عبد الصمد بن شبيب بن شبة ، فقال له محمد : كيف ترى بنائي ؟ قال : بنيت أجَلّ بناء ، بأطيب فناء ، وأوسع فضاء ، وأرقّ هواء ، على أحسن ماء ، بين صراري وحيــان وظباء ، فقال محمد : بناء كلامك أحسن من بنائنا ، وقيل : إن صاحب الكلام والباني للقصر هو عيسى بن جعفر ، على ما حدث به محمد بن زكرياء الغلابي ، عن الفضل بن عبد الرحمن بن شبيب بن شبة ، وفي هذا القصر يقول ابن أبي عيينة :

زُرْ واديَ القصر نعم القصر والوادي لا بدّ من زَوْرة من غير ميعاد
زره فليس له شبه يُقاربه من منزل حاضر إن شئت أو باد
ترقى قراقــيره والعيس واقفة والضب والنون والملاح والحادي

موت الليث بن سعد : وفي سنة خمس وسبعين ومائة مات الليث بن سعد ،

---

١) في نسخة : أن تكون غلتك .

المصري ، الفهمي [١] ، ويكنى أبا الحارث ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ، وكان قد حج سنة ثلاث عشرة ومائة وسمع من نافع .

موت شريك النخعي القاضي : وفي سنة خمس وسبعين ومائة مات شريك ابن عبد الله بن سنان النخعي القاضي ، وكان يكنى أبا عبد الله ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ،وكان مولده ببخارى ،وليس بشريك بن عبد الله بن أبي أنمر الليثي ، لأن ابن أبي أنمر مات في سنة أربعين ومائة ، وإنما ذكرنا ذلك لأنهما يتشابهان في الآباء والامهات ، وبينهما تسع وثلاثون سنة ، وكان شريك بن عبد الله النخعي يتولى القضاء بالكوفة أيام المهدي ، ثم عزله موسى الهادي ، وكان شريك مع فهمه وعلمه ذكياً فطناً ، وكان قد جرى بينه وبين مصعب بن عبد الله كلام بحضرة المهدي فقال له مصعب : أنت تنتقص أبا بكر وعمر ، فقال : والله ما انتقص جدَّكَ وهو دونهما .

وذُكِر معاوية عند شريك بالحلم ، فقال : ليس بحليم من سفه الحق وقاتل علي بن أبي طالب .

وشم من شريك رائحة النبيذ ، فقال له أصحاب الحديث : لو كانت هذه الرائحة منا لاستحيينا ، فقال : لأنكم أهل الريبة .

موت مالك بن انس الامام : ومات في أيام الرشيد أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر ، الأصبحي ، وهو ابن تسعين سنة ، وحمل به ثلاث سنين ، وذلك في ربيع الاول ، وقيل : إنه صلى عليه ابن أبي ذئب ، على ما ذكر من التنازع في وفاة ابن أبي ذئب ، وذكر الواقدي أن مالكاً كان يأتي المسجد ، ويشهد الصلوات والجمع والجنائز ، ويعود المرضى ، ويقضي الحقوق ، ثم ترك ذلك كله ، ثم قيل له فيه ، فقال : ليس كل إنسان يقدر أن يتكلم بعذره .

---

١) في نسخة : اليمني .

وسعي به الى جعفر بن سليمان ، وقيل له : إنه لا يرى أيمان بيعتكم شيئاً ، فضربه بالسياط ، ومدّ لذلك حتى انخلع [١] كتفاه .

حماد بن زيد : وفي السنة التي مات فيها مالك كانت وفاة حماد بن زيد ، وهي سنة تسع وسبعين ومائة .

ابن المبارك : وفي سنة إحدى وستين ومائة مات عبد الله بن المبارك ، المروزي ، الفقيه ، بهيت بعد منصرفه من طرسوس .

القاضي ابو يوسف : وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة مات أبو يوسف يعقوب ابن إبراهيم القاضي ، وهو ابن تسع وستين سنة ، وهو رجل من الأنصار ، وولي القضاء سنة ست وستين ومائة في أيام خروج الهادي الى جرجان ، وأقام على القضاء الى أن مات خمس عشرة سنة .

قال المسعودي : وقد كانت أم جعفر كتبت مسألة إلى أبي يوسف تستفتيه فيها ، فأفتاها بما وافق مرادها على حسب ما أوجبته الشريعة عنده وأداه اجتهاده إليه ، فبعثت إليه بحق فضة فيه حقان من فضة في كل حق لون من الطيب ، وجام ذهب فيه دراهم ، وجام فضة فيه دنانير ، وغلمان وتخوت من ثياب ، وحمار وبغل ، فقال له بعض من حضره : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » فقال أبو يوسف: تأولت الخبر على ظاهره والاستحسان قد منع من إمضائه ، ذاك إذ كان هدايا الناس التمر واللبن ، لا في هذا الوقت وهدايا الناس اليوم العين والوَرِقُ وغيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

بين عبدالله بن مصعب الزبيري وموسى بن عبد الله بن الحسن الطالبي بحضرة الرشيد : وذكر الفضل بن الربيع قال : صار إليّ عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير ، فقال : إن موسى بن عبدالله بن الحسن

---

(١) في نسخة : انخلعت كتفاه .

ابن الحسن بن علي قد أرادني على البَيْعة له فجمع الرشيد بينهما، فقال الزبيري لموسى : سعيتم علينا وأردتم نقض دولتنا ، فالتفت إليه موسى فقال : ومَنْ أنتم ؟ فغلب على الرشيد الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف حتى لا يظهر منه (١) ، ثم قال موسى : يا أمير المؤمنين ، هذا الذي ترى المشنع عليّ خرج والله مع أخي محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي على جدك المنصور ، وهو القائل من أبيات :

قوموا ببيعتكم ننهَضْ بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بني حسن

في شعر طويل ، وليس سعايته يا أمير المؤمنين حُباً لك ، ولا مراعاة لدولتك ، ولكن بغضاً لنا جميعاً أهل البيت ، ولو وجد من ينتصر به علينا جميعاً لكان معه ، وقد قال باطلاً ، وأنا مستحلفه ، فان حلف أني قلت ذلك فدمي لأمير المؤمنين حلال ، فقال الرشيد : احلف له يا عبدالله ، فلما أراده موسى على اليمين تلكأ وامتنع ، فقال له الفضل : لم تمتنع وقد زعمت آنفاً أنه قال لك ما ذكرته ؟ قال عبد الله : فأنا أحلف له ، قال موسى : قل تقلَّدْتُ الحول والقوة دون حول الله وقوته إلى حولي وقوتي ان لم يكن ما حكيته عني حقاً ، فحلف له ، فقال موسى : الله أكبر ، حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن جده عليّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث » والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ، وها أنا يا أمير المؤمنين بين يديك وفي قبضتك ، فتقدم بالتوكيل علي ، فان مضت ثلاثة أيام ولم يحدث على عبدالله ابن مصعب حادث فدمي لأمير المؤمنين حلال ، فقال الرشيد للفضل ، خذ بيد موسى فليكن عندك حتى أنظر في أمره .

قال الفضل : فوالله ما صليت العصر من ذلك اليوم حتى سمعت الصراخ من دار عبد الله بن مصعب ، فأمرت من يتعرف خبره ، فعرفت أنه قد

---

١) في نسخة : لئلا يظهر منه .

أصابه الجذام ، وأنه قد تورم واسْودّ ، فصرت إليه ، فوالله مـــا كدت أعرفه لأنه قد صار كالزق العظيم ثم اسودّ حتى صار كالفحم ، فصرت الى الرشيد فعرفته خبره ، فما انقضى كلامي حتى أتى خـــبر وفاته ، فبادرت بالخروج ، وأمرت بتعجيل أمره والفراغ منه [١] ، وتوليت الصـلاة عليه . فلما دَلـّوْه في حفرته لم يستقر فيها حتى انخسفت به وخرجت منه رائحـة مفرطة النتن ، فرأيت أحمال شوك تمر في الطريق فقلت: عليّ بذلك الشوك، فاتيت به، فطرح في تلك الوهدة ، فما استقر حتى انخسفت ثانية،فقلت: علي بألواح ساج ، فطرحت على موضع قبره ، ثم طرح التراب عليها ، وانصرفت إلى الرشيد فعرفته الخـــبر وما عاينت من الأمر فاكـــثر التعجب من ذلك ، وأمرني بتخلية موسى بن عبد الله رضي الله عنه ، وأن أعطيـــه ألف دينار . وأحضر الرشيد موسى فقال له : لم عدلت عن اليمين المتعارفـة بين الناس ؟ قال :: لأنا روينا عن جدنا رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « مَن حلف بيمين مجّد الله فيها استحيا الله من تعجيل عقوبته . ومـا من احد حلف بيمين كاذبة نازع الله فيها حوله وقوته الا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث . »

وقيل : ان صاحب هذا الخبر هو يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي اخو موسى بن عبدالله ، رضوان الله عليهم .

وكان يحيى قد سار الى الديلم مستجيراً ؛ فباعه صاحب الديلم من عامل الرشيد بمائة الف درهم فقتل ، رحمه الله !

وقد روي من وجه آخر – على حسب تباين النسخ وطرق الرواية في ذلك في كتب الانساب والتواريخ – ان يحيى ألقي في بركة فيها سباع قد جوعت، فأمسكت عن اكله ، ولاذت بناحية ، وهابت الدنو اليه [٢]، فبني عليه ركن بالجص والحجر وهو حي .

---

١) في نسخة : والفراغ من شأنه . ٢) في نسخة : وهابت الدنو منه .

ظهور محمد بن جعفر ثم هربه الى المغرب : وقد كان محمد بن جعفر بن يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه سار الى مصر ، فطلب ، فدخل المغرب ، واتصل ببلاد تاهرت السفلى ، واجتمع إليه خلق من الناس ، فظهر فيهم بعدل وحسن استقامة فمات هنالك مسموماً ، وقد أتينا على كيفية خبره وما كان من أمره في كتاب « حدائق الأذهان ، في أخبار أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وتفرقهم في البلدان » .

الرشيد يحج آخر حجة : وفي سنة ثمانية وثمانين ومائة حج الرشيد ،وهي آخر حجة حجها ، فذكر عن أبي بكر بن عياش – وكان من علية اهل العلم – أنه قال وقد اجتاز الرشيد بالكوفة في حال منصرفه من هذه الحجة :لا يعود الى هذه الطريق ، ولا خليفة من بني العباس بعده أبداً ، فقيل له : أضَرْبٌ من الغيب ؟ قال : نعم ، قيل : بوحي ؟ قال : نعم ، قيل : اليك ؟ قال:لا ، الى محمد صلى الله عليه وسلم . وكذلك أخبر عنه علي عليه السلام المقتول في هذا الموضع ، وأشار الى الموضع الذي قتل فيه علي بالكوفة ، رضي الله عنه .

موت الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني : وفي سنة تسع وثمانين ومائة – وذلك في ايام الرشيد – مات علي بن حمزة الكسائي صاحب القراءات ،ويكنى أبا الحسن ، وكان قد شخص مع الرشيد الى الري.فمات بها ، وكذلك مات محمد بن الحسن الشيباني القاضي ، ويكنى ابا عبدالله ، ودفن بالري وهو مع الرشيد ، وتطير من وفاة محمد بن الحسن لرؤيا كان رآها في نومه .

يحيى بن خالد : وفي هذه السنة كانت وفاة يحيى بن خالد بن برمك .

سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح : وفي سنة ثمان وثمانين ومائة كان سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، فحدث يموت بن المزرع عن الرياشي قال : سمعت الأصمعي يقول : كنت عند الرشيد ، وأُتِيَ بعبد الملك بن صالح يرفل في قيوده ، فلما

نظر اليه قال : هيه يا عبد الملك ، كأني والله أنظر اليك وشؤبوبها قد همع ، وإلى عارضها قد لمع ، وكأني بالوعيد قد أقلع عن براجم بلا معاصم ، ورؤس بلا غلاصم ، مهلا مهلا بني هاشم ، والله سهل لكم الوعر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أزمّتها ، فخذوا حذركم[1] مني قبل حلول داهية خبوْط باليد والرجل ، فقال له عبدالملك : أفذاً أتكلم أم توأماً ؟ فقال : توأماً ، قال : فاتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك ، وراقبه في رعاياك التي استرعاك ، قد سهلت لك والله الوعور ، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور ، وكنت كما قال أخو جعفر بن كلاب :

ومقام ضيّق فرّجته ... بلسان أو بيان أو جدَلْ

لو يقوم الفيل أو فيّاله ... زلّ عن مثل مقامي او رحل

قال : فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقام[2] عبد الملك عند الرشيد فقال له : يا عبد الملك ، بلغني أنك حقود ، فقال : أصلح الله الوزير ! إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي إنهما لباقيان في قلبي ، فالتفت الرشيد الى الأصمعي ، فقال : يا أصمعي حررها فوالله ما احتجّ أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ، ثم أمر به فردّ الى محبسه ، ثم التفت الى الأصمعي فقال : والله والله يا أصمعي لقد نظرتُ الى موضع السيف من عنقه مراراً ، يمنعني من ذلك إبقائي على قومي في مثله .

أهديت للرشيد سمكة فمنعها عنه ابن بختيشوع الطبيب : حدث يوسف ابن إبراهيم بن المهدي ، قال : حدثني سليمان الخادم الخراساني مولى الرشيد ، أنه كان واقفاً على رأس الرشيد بالحيرة وهو يتغدّى إذ دخل عليه عون العبادي ، وكان صاحب الحيرة ، وفي يده صحفة فيها سمكة منعوتة بالسمن فوضعها بين يديه ومعه محبس قد اتخذ لها ، فحاول الرشيد أكل شيء منها

---

١) في نسخة : فخذوا حذاركم .

٢) في نسخة : أن يضع من مقدار .

فمنعه جبريل بن بختيشوع ، وأشار جبريل الى صاحب المائدة أن يشيلها عن المائدة ويعزلها له ، ففطن له الرشيد فلما رفعت المائدة وغسل الرشيد يده وخرج جبريل أمرني الرشيد باتباعه وأن أكبسه في منزله وهو يأكل فارجع اليه بخبره ، ففعلت ما أمرني به .وأحسب أن أمري لم يخف على جبريل فيا تبينت من تحرزه ، فإنه صار الى موضع من دار عون ، ودعا بالطعام فأحضر لـــه ، وفيه السمكة ، فدعا بأقداح ثلاثة ، فجعل في واحد منها قطعة من السمك وصب عليها خمراً من خمر طيرناباذ — وهي قرية بين الكوفة والقادسية ذات كروم وأشجار ونخل ورياض تخرقها الأنهار من كل البقاع [1] من الفرات، شرابها موصوف بالجودة كوصف القطربلي — فصبه على السمكة وقال : هذا أكل جبريل ، وجعل في قدح آخر قطعة منها ، وصب عليها ماء بثلج شديد البرودة ، وقال : هذا اكل أمير المؤمنين أعزه الله إن لم يخلط السمك بغيره، وجعل في القدح الثالث قطعة من السمكة ، وجعل قطعاً من اللحم من ألوان مختلفة ، من شواء ومن حلوى ومن بوارد وبقول ، ومن سائر ما قدم اليه من الألوان ، من كل واحد منها جزءاً يسيراً مثل اللقمة واللقمتين ، وصب عليها ماء بثلج، وقال : هذا أكل امير المؤمنين إن خلط السمك بغيره ، من الطعام ودفع الثلاثة الأقداح الى صاحب المائدة وقال : احتفظ بها الى أن ينتبه أمير المؤمنين أعزه الله ، ثم اقبل جبريل على السمكة فأكل منها حتى تضلع ، وكان كلما عطش دعـا بقدح من الخمر الصرف فشربه ، ثم نام [2] ، فلما انتبه الرشيد من نومه سألني عما عندي من خبر جبريل ، وهل أكل من السمكة شيئاً أم لم يأكل ! فأخبرته بالخبر ، فأمر بإحضار الأقداح الثلاثة فوجد ما في القدح الاول—وهو الذي ذكر جبريل أنه أكله وصب عليه الخمر الصرف — قد تفتت وانماع واختلط ، ووجد ما في القدح الثاني — الذي قال جبريل إنه أكل أمير المؤمنين وصب عليه الماء بالثلج — قد ربا وصار على

---

١) في نسخة : من كل العقاب .　　　٢) في نسخة : ثم قام .

النصف مما كان ، ونظر الى القدح الثالث الذي قال جبريل. وهذا أكل أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره — قد تغيرت رائحته وحدثت له سهوكة شديدة كاد الرشيد أن يتقيأ حين قرب منه ، فأمرني بحمل خمسة آلاف دينار الى جبريل وقال : من يلومني على محبة هذا الرجل الذي يدبرني بهذا التدبير، فأوصلت اليه المال .

رؤيا للرشيد يؤمر بالتخلية عن موسى بن جعفر : وذكر عبد الله بن مالك الخزاعي — وكان على دار الرشيد وشرطته — قال : أتاني رسول الرشيد في وقت ما جاءني فيه قط ، فانتزعني من موضعي ومنعني من تغيير ثيابي ، فراعني ذلك منه فلما صرت إلى الدار سبقني الخادم ، فعرّف الرشيد خبرتي ، فأذن لي في الدخول عليه ، فدخلت ، فوجدته قاعداً على فراشه ؛ فسلمت فسكت ساعة ، فطار عقلي وتضاعف الجزع عليّ ثم قال لي : يا عبد الله ، أتدري لم طلبتك في هذا الوقت ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين، قال : إني رأيت الساعة في منامي كأن حبشياً قد أتاني ومعه حربة فقال لي : إن لم تخلّ عن موسى بن جعفر الساعة وإلا نحرتك بهذه الحربة ، فاذهب فخلّ عنه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أطلق موسى بن جعفر ؟ ثلاثا ، قال : نعم ، أمض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر وأعطه ثلاثين ألف درهم ، وقل له .. إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما تحب وإن أحببت المضي[1] إلى المدينة فالإذن في ذلك إليك ، قال : فمضيت إلى الحبس لأخرجه ، فلما رآني موسى وثب إلي قائما وظن أني قد أمرت فيه بمكروه ؛ فقلت : لا تخف ، وقد أمرني أمير المؤمنين بإطلاقك ، وأن أدفع إليك ثلاثين ألف درهم ، وهو يقول لك : إن أحببت المقام قبلنا فلك ما تحب ، وإن أحببت الانصراف إلى المدينة فالأمر في ذلك مطلق إليك . وأعطيته الثلاثين ألف درهم ، وخليت سبيله ، وقلت : لقد رأيت من أمرك عجباً ، قال : فإني أخبرك : بينا أنا نائم إذ أتاني النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

---

١) في نسخة : وان أحببت الانصراف — الخ .

يا موسى ، حبست مظلوماً فقل هذه الكلمات فإنك لا تبيت هذه الليلة في الحبس ، فقلت : بأبي وأمي ما أقول؟ فقال : قل يا سامع كل صوت[١]، ويا سابق الفوت ، ويا كاسي العظام لحما ومنشرها بعد الموت ، أسألك بأسمائك الحسنى وباسمك الاعظم الأكبر المخزون المكنون الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين ، يا حليما ذا أناة لا يقوى على أناته ، ياذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ، ولا يحصى عددا ، فرج عني ، فكان ما ترى .

ابراهيم بن المهدي يغني لاسود : وذكر حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال : قال ابراهيم بن المهدي : حججت مع الرشيد فبينا نحن في الطريق وقد انفردتُ أسيرُ وحدي وأنا على دابتي، إذ غلبتني[٢]عيناي فسلكتْ بي الدابة غير الطريق، فانتبهت وأنا على غير الجادّة، فاشتدّ بي الحر، فعطشْتُ عطشاً شديداً، فارتفع لي خباء، فقصدته،فإذا بقبة وبجنبها بئر ماء بقرب مَزْرَعة، وذلك بين مكة والمدينة، ولم أر بها إنسياً ؛ فاطلعت في القبة فإذا أنا بأسود نائم فأحس بي ففتح عينيه كأنهما إجّانتَا دم ، فاستوى جالساً ، وإذا هو عظيم الصورة ، فقلت: يا أسود، اسقني من هذا الماء ، فقال : يا أسود اسقني من هذا الماء ، حاكياً لي ، وقال : إن كنت عطشاناً فانزل واشرب ، وكان تحتي برذون خبيث نفور ، فخشيت أن أنزل عنه فينفر ، فضربت رأس البرذون ، وما نفعني الغناء قط إلا في ذلك اليوم ، وذلك أني رفعت عقيرتي وأنا أغني :

كفنُوني إن مت في درْع أرْوى واستقوا لي من بئر عُرْوةَ ماء
فلها مربع بجنب أجاج ومصيف بالقصر قصر قباء
سخنة في الشتاء ، باردة في الصيف بدْرٌ في الليلة الظلماء

فرفع الأسود رأسه الي وقال : أيما أحب إليك : أن أسقيك ماء وحده ، أو ماء أو سويقا ؟ قلت : الماء والسويق ، فأخرج قعْباً له فصبّ السويق

---

١) في نسخة : يا سامع الصوت . ٢) في نسخة : اذ حملتني عيناي .

في القدح فسقاني ، وأقبل يضرب بيده على رأسه وصدره ، ويقول : واحَرّ صدراه ، واثارات اللهب في فؤادي . يا مولاي زدني وأنا أزيدك ، وشربت السويق ، ثم قال لي : يا مولاي ، إن بينك وبين الطريق أميالا ، ولست أشك أنك تعطش ، لكن املأ قربتي هذه واحملها قدامك ، فقلت : افعل ، قال : فملأ قربته وسار قدامي وهو يحجل في مشيته غير خارج عن الإيقاع فإذا أمسكت لأستريح أقبل علي فقال : يا مولاي ، أما عطشت ، فأغنيه النصب ، إلى أن أوقفني على الجادة ، ثم قال لي : سر رعاك الله ولا سلبك ما كساك من هذه النعم ، بكلام عجمي معناه هذا الدعاء ، فلحقت بالقافلة والرشيد كان قد فقدني ، وقد بث البُخت والخيل في البر يطلبونني ، فسرّ بي حين رآني ، فأتيته ، فقصصت عليه الأمر ، فقال : علي بالأسود ، فما كان إلا هنيهة حتى مثل بين يديه ، فقال له : ويلك ! ما حر صدرك ؟ فقال : يا مولاي ميمونة ، قال : ومن ميمونة ؟ قال : بنت حبشية ، قال : ومن حبشية ؟ قال : بنت بلال يا مولاي ، فأمر من يستفهمه ، فاذا الأسود عبد لبني جعفر الطيار ، وإذا السوداء التي يهواها لقوم من ولد الحسن بن علي ، فأمر الرشيد بابتياعها له ، فأبى مواليها أن يقبلوا لها ثمنا ، ووهبوها للرشيد، فاشترى الأسود وأعتقه ، وزوجه منها ، ووهب له من ماله بالمدينة حديقتين وثلثمائة دينار .

ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً وبين يديه حمامة تلتقط حبا ، فقال له: صفها وأوجز ، فقال كأنما تنظر من ياقوتتين ، وتلتقط بدرتين ، وتطأ على عقيقتين ، وأنشدونا لبعضهم :

هتفت هاتفـــــة آ ذنهـــا إلفٌ ببين
ذات طوق مثل عطف الـ ـنون أقنى الطرفين
وتراها ناظرة نحـــ ـوك من ياقوتتين
ترجع الأنفـــاس من ثـ ـقـ ـبين كاللؤلؤتين
وترى مثـــل البساتيـ ـن لها قادمتين

ولها لحيان كالصد غين من عرعرتين
ولها ساقان حمرا وان مثل الوردتين [1]
نسجت فوق جناحيـــها لهـــا برنوستين
وهي طاوسية اللـــون بنان المنكبين
تحت ظل من ظلال الــأيك صافي الكتفين
فقدَتْ إلفاً فناحت من تباريح وبين
فهي تبكيه بلا دمــع جمود المقتلين
وهي لا تصبغ عينا ها كما تصبغ عين

بين الرشيد ومعن بن زائدة : ودخل معن بن زائدة على الرشيد وقد كان وجد عليه ، فمشى فقارب الخطو[2] ، فقال له هرون : كبرت والله يا معن ، قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين، قال : وإن فيك على ذلك لبقية، قال : هي لك يا امير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد ، قال : على اعدائك يا أمير المؤمنين ، فرضي عنه وولاه .

قال :وعرض كلامه هذا على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة فقال: ويح هذا ! ما ترك لربه شيئاً .

وقال الرشيد يوماً لمعن بن زائدة : إني قد اعددتك لأمر كبير ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد اعد لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطة بطاعتك ، وسيفاً مشحوذاً على عدوك ، فان شئت فقل ، وقيل : إن هذا الجواب من كلام يزيد بن مزيد .

بين الرشيد والكسائي : وقال الكسائي : دخلت على الرشيد ، فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبتُ للقيام ، فقال : اقعد ، فلم أزل عنده حتى خفّ عامة من كان في مجلسه ، ولم يبق إلا خاصته ، فقال لي : يا علي ، ألا تحب

---

١) في نسخة : حمراوان كالمرجانتين . ٢) في نسخة : فمشى متقارب الخطو .

ان ترى محمداً وعبدالله ؟ قلت : مـــا اشوقني اليهما يا أمـــير المؤمنين ، وأسرني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما ، فأمر باحضارهما ، فلم ألبث أن اقبلا ككوبي أفق يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضا أبصارهما ، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس ، فسلما على أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فأمرهما بالدنو منه فدنوا فصير محمداً عن يمينه وعبدالله عن يساره ، ثم أمرني ان استقرأهما واسألهما ؛ ففعلت ، فما سألتهما عن شيء إلا احسنا الجواب فيه والخروج منه ، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ، ثم قال لي : يا علي ، كيف ترى مذهبهما وجوابهما؟ فقلت : يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر :

أرى قمري مجد وفرعي خلافة يزينهما عرق كريم ومحتد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت في الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغر ، نافذ[1] الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما ثم قلت لهما : هل ترويان من الشعر شيئاً ؟ فقالا : نعم ، ثم أنشدني محمد :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوافقه شكلي
واجعل مالي دون عرضي جنّة لنفسي، ومفضال بما كان من فضل

ثم أنشد عبدالله :

بكرت تلومك مطلع الفجر ولقد تلوم بنير ما تدري
ملك الأمـــور عليّ مقتدر يُعطِي إذا ما شاء من يُسر
ولرب مغتبط بمرزئـــة ومفجع بنوائـــب الدهر
وترى قناتي حـــين يغمدها عض الثقاف بطيئة الكسر

---

١) في نسخة : أبوهما أعز نافذ الأمر .

فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء واغصان هذه الشجرة المباركة أذرب ألسنا ولا أحسن الفاظاً ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا منهما ، ودعوت لهما دعاء كثيراً ، وأمّن الرشيد على دعائي ، ثم ضمهما اليه ، وجمع يده عليهما ، فلم يبسطها حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج ، فلما خرجا أقبل علي فقال : كأنك بهما وقد حُمّ القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله ، قد تشتت كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء ، وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النساء ، ويتمنى كثير من الأحياء انهم في عداد الموتى ، قلت : أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رؤي في أصل مولدهما او لأثر وقع لأمير المؤمنين في مولدهما ؟ فقال: لا والله إلا بأثر واجب حملته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء .

وصية الرشيد لمؤدب الامين الاحمر النحوي : قال الأحمر النحوي : بعث اليّ الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين ، فلما دخلت قال : يا احمر ، ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، اقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدأه ، وامنعه الضحك الا في اوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا اليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها ، من غير ان تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مساحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

العماني عند الرشيد يحرضه على تجديد العهد للامين : ويقال : ان العماني الشاعر قام بحضرة الرشيد خطيباً فلم يزل يقرظ محمداً ويحرضه على تجديد العهد له ، فلما فرغ من كلامه قال له : أبشر يا عماني بولاية العهد له ، فقال : اي

والله يا أمير المؤمنين سرور المشب بالغيث ، والمرأة النزور بالولد ، والمريض المدنف بالبرء[١] ، لأنه نسيج وحده ، وحامي مجده ، وشبيه جده ، قال : فما تقول في عبدالله ؟ قال : مرعى ولا كالسعدان ، فتبسم الرشيد وقال : قاتله الله ! من اعرابي ما اعرفه بمواضع الرغبة ، أما والله اني لأتعرف في عبدالله حزم المنصور ؛ ونسك المهدي ، وعز نفس الهادي ، والله لو شاء الله ان انسبه الى الرابعة لنسبته اليها .

حرص الرشيد على ولاية عهده : قال الأصمعي : بينا انا أسامر الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكي أخرى ثم أنشأ يقول :

قلد امور عباد الله ذا ثقة ... مُوَحَّدَ الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة اقوام ذوي شطط ... لا يفهمون اذا ما معشر فهموا

. فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد امراً عظيماً،ثم قال لمسرور الخادم : علي بيحيى،فما لبث ان اتاه،فقال:يا ابا الفضل ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية والإسلام جذع،والايمان جديد،وكلمة العرب مجتمعة، قد آمنها اللهُ تعالى بعد الخوف ؛ وأعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتدّ عامة العرب على أبي بكر، وكان من خبره ما قد علمت ، وإن أبا بكر صَيَّر الأمر الى عمر ، فسلّمت الأمة له ، ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر شُورى ، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها ، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره الى مَنْ أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم ، وفيه مـــا فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء في رأيه ؛ وعبد الله المرضي

---

١) في نسخة : بالعافية .

الطريقة ، الأصيل الرأي ، الموثوق به في الأمر العظيم ؛ فإن مِلْتُ الى عبد الله أسخطت بني هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية . فأشِرْ عليَّ في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر ، فقال : يا أمير المؤمنين إن كل زلة مستقالة وكل رأي يتلافى[1] خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا ؛ فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة فأمرني بالتنحي ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد.

ودخلت أم جعفر على الرشيد فقالت : ما انصفت ابنك محمداً حيث ولَّيته العراق وأعرَيته عن العدد والقواد ، وصيرت ذلك الى عبد الله دونه ، فقال لها : وما أنت وتمييز الأعمال واختبار الرجال ؟ إني ولَّيت ابنك السِّلْم ، وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم ومع هذا فإنا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولا نتخوف عبد الله على ابنك إن بويع .

وفي سنة ست وثمانين ومائة خرج الرشيد حاجاً ومعه وليّا عهده : الأمين والمأمون ، وكتب الشرطين بينهما وعلقهما في الكعبة .

الرشيد يعلق كتاب العهد في الكعبة : وحكي عن إبراهيم الحَجَبي أن الكتاب لما رُفع ليعلق بالكعبة وقع ، فقلت في نفسي : وقع قبلَ أن يرتفع، إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه .

وحكي عن سعيد بن عامر البصري قال : حججت في هذه السنة وقد استعظم الناسُ أمر الشرط والأيمان في الكعبة ، فرأيت رجلا من هذيل يقود بعيره وهو يقول :

---

١) في نسخة : وكل أمر يتلافى .

وبيعة قد نكثت أيمانها   وفتنة قد سُعِّرَت نيرانها

فقلت له : ويحك ما تقول ؟! قال : أقول إن السيوف ستُسَلّ ، والفتنة ستقع ، والتنازع في الملك سيظهر ؛ قلت : وكيف ترى ذلك ؟ قال : أما ترى البعير واقفاً والرجلان يتنازعان والغرابان قد وقعا[1] على الدَّم والتطخا به ، والله لا يكون آخِرُ هذا الأمر إلا محاربة وشراً .

ويروى أن الأمين لمَّا حلفَ للرشيد بما حلفَ له به ، وأراد الخروج من الكعبة رَدَّ جعفر بن يحيى ، وقال له : فإن غدرتَ بأخيك خَذَلك الله ، حتى فعل ذلك ثلاثاً في كلها يحلف له ، وبهذا السبب اضطغنت أم جعفر على جعفر بن يحيى ، فكانت أحَدَ من حَرَّضَ الرشيد على أمره ، وبعثه على ما نزل به .

قال المسعودي : وفي سنة سبع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون كان أمره إليه ، إن شاء أن يقرّه أقرّه ، وإن شاء أن يخلعه خلعه .

وفاة الفضيل بن عياض : وفي هذه السنة – وهي سنة سبع وثمانين ومائة – توفي الفُضَيْلُ بن عياض ويكنى أبا علي ، وكان مولده بخراسان ، وقدم الكوفة ، وسمع من المنصور بن المعتمر وغيره ، ثم تعبد وانتقل إلى مكة فأقام بها إلى أن مات .

حدث سفيان بن عيينة قال : دعانا الرشيد ، فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعاً رأسه بردائه ، فقال لي : يا سفيان ، أيهم أمير المؤمنين ؟ فقلت: هذا ، وأومأت إلى الرشيد ، فقال له أنت يا حسن الوجه ، الذي أمْرُ هذه الأمة في يدك وعنقك ؟ لقد تقلدت أمراً عظيماً ، فبكى الرشيد ، ثم أتى كل رجل منا ببدرة ، فكلٌّ قبلها إلا الفضيل ، فقال له الرشيد : يا أبا علي،

---

١) في نسخة : قد وقفا على الدم .

إن لم تستحلها فأعطها ذا دين ، وأشبع بها جائعاً ، واكس بها عرياناً ، فاستعفاه منها ، فلما خرجنا قلت له : يا أبا علي أخطأت ، ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البر ؛ فأخذ بلحيتي ثم قال : يا أبا محمد ؛ أنت فقيه البلد والمنظور إليه وتغلط مثل هذا الغلط ؟ لو طابت لأولئك لطابت لي .

موت موسى بن جعفر الطالبي : وقبض موسى بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ببغداد مسموماً ، لخمس عشرة سنة خلت من ملك الرشيد ، سنة ست وثمانين ومائة ، وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وقد ذكرنا في رسالة بيان أسماء الأئمة القطعية من الشيعة : أسماءهم ، وأسماء أمهاتهم ومواضع قبورهم ، ومقادير أعمارهم ، وكم عاش كل واحد منهم مع أبيه ، ومن أدرك من أجداده عليهم السلام .

من شعر العتابي في الرشيد : ولكلثوم العتابي في الرشيد من أبيات:

إمامٌ لهُ كفٌ يَضُمُّ بَنانُها عَصَا الدّينِ ممنوع مِنَ البر عودها
وعَيْنٌ محيطٌ بالبَرِيّةِ طَرْفُها سواءٌ عليها قربُها وبعيدها
وأسمعَ يقظاناً يبيت مُناجياً له في الحشا مُسْتَودَعاتٍ يكيدها
سَميعٌ إذا ناداه مِنْ قَعْرِ كُرْبَةٍ مُنادٍ كَفَتْهُ دعوة لا يُعيدها

العتابي ينال من أبي نواس : حدث يموت بن المزرع قال : حدثني خالد عن عمرو بن بحر الجاحظ قال :

كان كلثوم العتابي يضع من قدر أبي نواس ، فقال له راوية أبي نواس يوماً : كيف تضع مِنْ قدر أبي نواس وهو الذي يقول :

إذا نحنُ أثنينا عليكَ بصالحٍ فأنتَ الذي نُثْني وفوقَ الذي نُثْني
وإن جَرَتِ الألفاظُ مِنّا بِمِدْحَةٍ لغيركَ إنساناً فأنتَ الذي نَعْني

قال العتابي : هذا سرقةٌ ، قال : ممن ؟ قال : من أبي الهذيل الجمحي قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول :

وإذا يقال لبعضهم نِعْمَ الفتى ... فابنُ المُغيرَة ذلك النعم
عَقُمَ النساءُ فلا يَجِئْنَ بمثله ... إن النساءَ بمثله عُقْمُ

قال : فقد أحسن في قوله :

فتَمَشَّتْ في مفاصلهم ... كتَمَشِّي البرء في السَّقَمِ

قال : سرقه أيضاً، قال له : وممن ؟ قال : من شَوْسَةَ الفقعسي، قال : حيث يقول ماذا ؟ قال حيث يقول :

إذا ما سَقِيمٌ حَلَّ عنها وكاءها ... تصَعَّدَ فيه بُرْؤها وتصَوَّبا
وإنْ خالَطَتْ منه الحشا خِلْتَ أنه ... على سالِفِ الأيام لم يَبْقَ موصبا

قال : فقد أحسن في قوله :

وما خُلِقَتْ إلّا لِبَذْلٍ أكُفُّهُمْ ... وأقْدامُهُمْ إلّا لأعوادِ مِنبَرِ

قال : قد سرقه أيضاً ، قال : ممن ؟ قال : من مروان بن أبي حفصة قال : حيث يقول ماذا ! قال حيث يقول :

وما خُلِقَت إلا لبذلٍ أكفهمُ ... وألسُنُهُمْ إلا لتَحبير مَنْطِقِ
فيوماً يُبارُونَ الرِّياحَ سَماحَةً ... ويوماً لبذلِ الخاطِبِ المتشدِّقِ

قال : فسكت الرَّواية ، ولو أتى بشعره كله لقال سرقه .

أبو العتاهية وعتبة : وحدث أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال : كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد في عُتْبَة ، فوعده بتزويجها وأنه يسألها في ذلك : فإن أجابت جهزها وأعطاه مالاً عظيماً ، ثم إن الرشيد سَنَحَ له شغل استمر به ، فحجب أبو العتاهية عن الوصول إليه ، فدفع إلى مسرور الخادم الكبير ثلاث مراوح فدخل بها على الرشيد وهو يتبسم ، وكانت مجتمعة فقرأ على واحدة منها مكتوباً :

ولقد تَنَسَّمْتُ الرياحَ لحاجَتي ... فإذا لها مِنْ رَاحَتَيْهِ نَسِيمُ

فقال : أحسن الخبيث ، وإذا على الثانية :

أعْلَقْتُ نفسي من رجائك ماله عَنَقٌ يحثُّ إليك بي ورسيم

فقال : قد أجاد ، وإذا على الثالثة :

ولربما اسْتَيْأَستُ ثم أقول لا إن الذي ضَمِنَ النجاحَ كريم

فقال : قاتله الله !! ما أحسن ما قال ، ثم دعا به ، وقال : ضمنت لك يا أبا العتاهية وفي غد نقضي حاجتك إن شاء الله ، وبعث إلى عتبة إن لي إليك حاجة فانتظريني الليلة في منزلك ، فأكبرت ذلك وأعظمته ، وصارت إليه تستعفيه ، فحلف أن لا يذكر لها حاجته إلا في منزلها ، فلما كان في الليل سار إليها ومعه جماعة من خواص خدمه ، فقال لها : لست أذكر حاجتي أو تضمنين قضاءها ، قالت : أنا أمَتُكَ وأمرك نافذ فيّ ما خلا أمر أبي العتاهية فإني حلفت لأبيك رضي الله عنه بكل يمين يحلف بها بر وفاجر وبالمشي إلى بيت الله الحرام حافية كلما انقضت عني حجّة وجبت عليّ أخرى لا أقتصر منها على الكفارة وكلما أفدت شيئاً تصدقت به إلا ما أصلي فيه ، وبكت بين يديه ، فرقّ لها ورحمها وانصرف عنها ، وغدا عليه أبو العتاهية وهو لا يشك في الظفر بها ؛ فقال له الرشيد : والله ما قصّرْتُ في أمرك ، ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لي بذلك ، وشرح له الخبر[1] ، قال أبو العتاهية : فلما أخبرني بذلك مكثت ملياً لا أدري أين أنا ، ثم قلت : الآن يئست منها إذ رَدّتْكَ ، وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدك ، فلبس أبو العتاهية الصوف ، وقال في ذلك من أبيات :

قَطَّعْتُ مِنْكِ حَبَائِلَ الآمالِ وحَطَطْتُ عن ظهْرِ المَطيّ رحالي

وَوَجَدْتُ بَرْدَ اليأسِ بَيْنَ جوَانِحِي فَغَنِيت عن حِلٍّ وعن تَرْحَالِ

---

١) في نسخة : وشرح له الأمر .

وذكر أنه لمّا اتصلَ بالرشيد قول أبي العتاهية في عُتبة :

ألا إن ظَبْياً للخليفةِ صادني وما لي على ظبي الخليفة مِنْ عدوي

غضب الرشيد وقال : أسخر منا فعبث ، وأمر بحبسه ، فدفعه إلى تَنجاب صاحب عقوبته ، وكان فظّاً غليظاً ، فقال أبو العتاهية :

تَنجاب لا تَعْجَلْ عليَّ فليسَ ذا مِنْ رَأْيِهِ
ما خِلْتُ هذا في مَخَا يلِ ضَوءِ بَرْقِ سَمَائِهِ

وكان من أشعاره في الحبس بعد ما طال مكثه .

إنما أنت رحمةٌ وسَلامَةْ زادكَ اللهُ غِبْطَةً وكرامَهْ
قيل لي قد رَضِيت عنّي ، فمن لي أن أرَى لي على رضاكَ علامَهْ

فقال الرشيد : لله أبوه ! لو رأيته ما حبسته ، وإنما سمحت نفسي بحبسه لأنه كان غائباً عني ، وأمر بإطلاقه .

وأبو العتاهية الذي يقول :

نُرَاعُ لِذِكْرِ الموتِ ساعةَ ذِكْره ونَعْتَرُّ بالدُّنيا فنلهُو ونلعبُ
ونحن بَنُو الدنيا خُلِقنا لغيرها وما كنت فيهِ فهو شيءٌ مُحَبَّبُ

وهو الذي يقول أيضاً :

حُتُوفُهَا رصَدٌ ، وعيشُهَا رَنَقٌ وكَدُّها نكد ، ومُلْكُها دُوَلُ

وهو الذي يقول :

المرءُ في تأخيرِ مُدَّتِهِ كالثوب يَبْلَى بعد جِدَّتِهِ
عجباً لمنتبه بضيع ما يحتاج فيه ليوم رقدتهِ

وقال :

لا تأمن الدنيا على غدرها كم غدَرَتْ قبلُ بأمثالكا
قد أجمع الناس على ذمها وما أرى منهم لها تاركا

وقال :

إنمـا أنت مستعير لمـا سو ف تردّنّ ، والمُعارُ يُرَدّ
كيف يهوى امرؤ لذاذة أيا م عليه الأنفاس فيها تعد !!

وقال :

حياتك أنفاس تعدُّ ، فكلما مضى نفَسٌ منها نقصت به جُزءا
يُميتُكَ ما يحييك في كل ساعة ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهزءا

وقال :

ألا يا موت لم أر منك بدا أتيت بما يخيف ولا تحـابي
كأنك قد هجمت على مشيبي كما هجم المشيب على شبابي

وقال :

نسيت الموت فيما قـد نسيت كأني لم أجِدْ أحَـداً يموت
أليس الموت غاية كل حي فما لي لا أبادر ما يفوت

وقال :

وَعَظَتْكَ أجداث صُمُتْ وبكتك ساكنة خفت
وتكلمت عـن أعْظُمٍ تبلى وعـن صور سبت
وأرتك قبرك في القبـو ر وأنت حَيٌّ لم تمـت

وقال :

ومشيد داراً ليسكن ظلها سكن القبورَ ، ودَارَه لم يسكن

اسحاق الموصلي يغني للرشيد : حدث اسحاق بن إبراهيم الموصلي قال : بينا أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه إذ طرب لغنائي ، وقال : لا تبرح ، ولم أزل أغنيه حتى نام ، فأمسكت ، ووضعت العـود في حجري ، وجلست مكاني ، فإذا بشاب صبيح الوجه ، حسن القدّ عليه مقطعات خز وهيئة جميلة ،

فدخل وسلم وجلس ، فجعلت أعجب من دخوله في ذلك الوقت الى ذلك الموضع بغير استئذان ، ثم قلت في نفسي : عسى بعض ولد الرشيد ممن لا نعرفه ولم نره ، فضرب بيده الى العود ، فأخذه ووضعه في حجره وجسّه ، فرأيت أنه جس أحسن خلق الله ، ثم أصلحه إصلاحاً ما أدري ما هو ، ثم ضرب ضرباً ، فما سمعت أذني صوتاً أجود منه ، ثم اندفع يغني :

ألا علّلاني قبل أن نتفرقــا
وهات اسقني صرفاً شراباً مُروّقا
فقد كاد ضوء الصبح أن يفضَحَ الدجى
وكاد قميص الليل أن يتمزقا

ثم وضع العود من حجره ، وقال : يا عاضّ بظر أمه ، إذا غنيت فغن هكذا ثم خرج ، فقمت على أثره ، فقلت للحاجب : من الفتى الذي خرج الساعة ؟ فقال : ما دخل هنا أحد ولا خرج ، قلت : نعم الساعة مرّ بين يديّ فتىً صفته كيت وكيت ، قال : لا والله ما دخل أحد ولا خرج ، فبقيت متعجباً ، ورجعت الى مجلسي ، وانتبه الرشيد فقال : ما شأنك ؟ فحدثته القصة ، فبقي متعجباً ، وقال : لقد صادفت شيطاناً، ثم قال : أعد عليّ الصوت ، فأعدته عليه ، فطرب طرباً شديداً ، وأمر لي بجائزة ، وانصرفت .

جماعة المغنين عند الرشيد : وحدث إبراهيم الموصلي قال : جمع الرشيد ذات يوم المغنين ، فلم يبق أحد من الرؤساء إلا حضر ، وكنت فيهم ، وحضر معنا مسكين المدني ، ويعرف بأبي صدقة ، وكان يوقع بالقضيب ، مطبوعاً حاذقاً ، طيب العشرة ، مليح البادرة ، فاقترح الرشيد ـ وقد عمل فيه النبيذ ـ صوتاً ، فأمر صاحب الستارة ابنَ جامع أن يغنيه ؛ ففعل ، فلم يطرب عليه . ثم فعل مثل ذلك بجماعة ممن حضر ، فلم يحرك منه أحد ، فقال صاحب الستارة لمسكين المدني : يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت فغنه ،

قال إبراهيم : فاندفع فغناه ، فأمسكنا جميعاً مُتعجبين من جراءة مثله على الغناء بحضرتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة ، قال إبراهيم : فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول وقد رفع صوته يا مسكين أعده . فأعاده بقوة ونشاط واجتماع قلب، فأحسن فيه كل الإحسان ؛ فقال الرشيد: أحسنت والله يا مسكين وأجملت ، ورفعت الستارة بيننا وبينه . قال مسكين : يا أمير المؤمنين إن لهذا الصوت خبراً عجيباً ؛ قال : وما هو ؟ قال : كنت عبداً خيّاطاً لبعض آل الزبير ، وكان لمولاي عليّ ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين فإذا دفعت ضريبتي تصرفت في حوائجي ، وكنت مولعاً بالغناء محباً له فخيطتُ يوماً قميصاً لبعض الطالبيّين ، فدفع إليّ درهمين وتغديت عنده وسقاني أقداحاً ، فخرجت وأنا جذلان ، فلقيتني سوداء على رقبتها جرّة وهي تغني هذا الصوت ، فأذهلني عن كل مهمٍ ، وأنساني كل حاجة ، فقلت: بصاحب هذا القبر والمنبر إلا ألقيت علي هذا الصوت ، فقالت: وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك إلا بدرهمين ، فأخرجت والله يا أمير المؤمنين الدرهمين فدفعتهما إليها ، فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت ، فما زالت تردده حتى كأنه مكتوب في صدري ، ثم انصرفتُ الى مولاي ، فقال لي : هلمّ خراجك ، فقلت : كان وكان ، فقال : يا ابن اللخناء ، ألم أتقدم إليك أني لا أقبل لك عذراً في حبة تكسرها ؟ وبَطَحَني وضربني خمسين جريدة بأشد ضرب يكون وحلق لحيتي ورأسي ، فبتُّ يا أمير المؤمنين من أسوأ خلق الله حالاً ، وأنسيت الصوت بما نالني ، فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذي لقيتها فيه ، وبقيت متحيراً لا أعرف اسمها ولا منزلها ، إذ نظرت بها مقبلة ، فأنسيت كل ما نالني وملت إليها ، فقالت : أنسيت الصوت وربّ الكعبة ، فقلت : الأمر كما ذكرت ، وعرفتها ما مر بي من حلق الرأس واللحية ، فقالت : وحق القبر ومن فيه لا فعلت إلا بدرهمين ، فأخرجت جامي ورهنته على درهمين ، فدفعتهما إليها ، فأنزلت الجرة عن

رأسها واندفعت ، فمرت فيه ثم قالت : كأني بك وقد أخذت مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار ، من الخليفة ، ثم اندفعت تغنيه وتوقع على جرتها ، فلم تزل تردده حتى رسخ في صدري ، ثم مضت ، وانصرفت الى مولاي وجلاً ، فقال : هلم خراجك ، فلويت لساني ، فقال : يا ابن اللخناء ، ألم يكفك ما مر عليك بالامس، فقلت : إني أعرفك أني اشتريت بخراجي أمس واليوم هذا الصوت ، واندفعت أغنيه ، فقال لي : ويحك !! معك مثل هذا الصوت منذ يومين ولم تعلمني، امرأته طالق لو كنت قلته أمس لأعتقتك فأما حلق الرأس واللحية فلا حيلة لي فيها ، وأما خراجك فقد وهبه الله لك إلى أن ينبت شعرك ، قال : فضحك الرشيد وقال : ويلك !! ما أدري أيما أحسن : حديثك ، أم غناؤك ؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء ، فقبضه وانصرف ، والشعر :

قف بالمنازل ساعة فتأمل ... هل بالديار لرائد من منزل ؟
ما بالديار من البلى فلقد أرى ... فلسوف أحمل للبلى في محمل

الرشيد يجري حلبة الخيل : وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقة ، فلما أرسلت ، سار الى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى اليه الخيل ، فوقف على فرسه وكان في أوائلها سوابق من خيله يقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه ، فتأملها فقال : فرسي والله ، ثم تأمل الآخر فقال : فرس ابني المأمون ، قال : فجاءا يحتكان أمام الخيل وكان فرسه السابق وفرس المأمون الثانية ، فسر بذلك ، ثم جاء الخيل بعد ذلك ، فلما انقضى المجلس وهمّ بالانصراف قال الأصمعي – وكان حاضراً وقد تبيّن سرور الرشيد – للفضل بن الربيع : يا أبا العباس ، هذا يوم من الأيام فأحب ان توصلني الى أمير المؤمنين ، وقام الفضل فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا الأصمعي يذكر شيئاً من أمر الفرسين يزيد الله به أمير المؤمنين سروراً ، قال : هاته ، فلما دنا قال : ما عندك يا أصمعي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، كنت وابنك اليوم في فرسيكما كما قالت الخنساء :

تجارى أباه فأقبلا وهما | يتنازعان ملاءة الحضر
وهما كأنهما وقد برزا | صقران قد حطا على وكر
برزت صفيحة وجه والده | ومضى على غلوائه يجري
أولى فأولى أن يقاربه | لولا جلال السن والكبر

طبق سمك يتكلف ألف درهم : حدث إبراهيم بن المهدي قال : استزرت الرشيد بالرقة ، فزارني ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جام قريص مثل قريص السمك ، فاستصغر القطع ، وقال : لم صغر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنة السمك ، قال : فيشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ، فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام باكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً دون أن يحضره ألف درهم فلما حضر المال أمر ان يتصدق به . وقال : أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم ، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال : اخرج من دار أخي ، ثم انظر أول سائل تراه فادفعه إليه ، قال إبراهيم : وكان شراء الجام على الرشيد بمائتين وسبعين ديناراً ، فغمزت بعض خدمي للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير إليه، ففطن الرشيد فقال له : يا غلام اذا دفعته الى سائل فقل له يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه باقل من مائتي دينار فإنه خير منها ، ففعل الخادم ذلك، فوالله ما أمكن خادمي أن يخلصه من السائل إلا بمائتي دينار .

أحسن الاسماء وأسمجها : وقال إبراهيم بن المهدي ، كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة وهو يريد نحو الموصل والمدادون يعدون ، والشطرنج بين أيدينا ، فلما فرغنا قال لي الرشيد : يا إبراهيم ما أحسن الأسماء عندك ؟ قلت : اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فما الثاني بعده؟ قلت : اسم

هرون اسم أمير المؤمنين ، قال: فما أسمجها؟ قلت: إبراهيم؛ فزأرني[1] وقال: ويلك !! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرحمن جل وعز ، قلت : بشؤم هذا الاسم لقي ما لقي من نمروذ ، قال : وإبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت: لا جَرَمَ لما سمي بهذا الاسم لم يَعِشْ، قال : فإبراهيم الإمام ، قلت : بحرفة اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النورة ، وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد خلع ، وإبراهيم بن عبدالله بن الحسن قتل ، ولم أجد أحداً سمي بهذا الاسم إلا رأيته مقتولاً أو مضروباً أو مطروداً ، فما انقضى كلامي حتى سمعت ملاحاً على بعض الحرّاقات يهتف بأعلى صوته : يا إبراهيم يا عاض كذا وكذا من أمه مدّ ، فالتفت إليّ الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، أصدقت قولي إن أشأم الأسماء إبراهيم فضحك حتى فحص برجله.

أدب مخاطبة الأمراء : قال : وكنت يوماً عنده فاذا رسول عبدالله قد أتى ، ومعه أطباق خيزران عليها مناديل ، ومعه كتاب ، فجعل الرشيد يقرأ الكتاب ويقول : بَرّه الله ووصله فقلت : يا أمير المؤمنين من هذا الذي أطنبت في شكره حتى نشركك في جميل شكره ؟ قال : هذا عبدالله بن صالح ، ثم كشف المنديل ، فإذا أطباق بعضها فوق بعض : في أحدها فستق ، وفي الآخر بندق ، الى غير ذلك من الفاكهة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما في هذا البر ما يستحق به هذا الدعاء ، إلا أن يكون في الكتاب شيء قد خفي عليّ ، فنبذه إلي ، فاذا فيه : دخلت يا أمير المؤمنين بستاناً لي في داري عمرته بنعمتك ، وقد أينعت فواكهه ، فأخذت من كل شيء ، وصيرته في أطباق قُضْبان ووجهته الى أمير المؤمنين ليصل إليّ من بركة دعائه مثل ما وصل إليّ من نوافل بره ؛ قلت : ولا والله ما في هذا أيضاً ما يستحق به هذا ، فقال : يا غبي أما ترى كيف كنى بالقضبان عن

---

١) في نسخة : فزجرني .

الخيزران إعظاماً لأمّنا رحمها الله تعالى .

رجل يتعرض للرشيد بقصة فيثيبه بأربعة آلاف دينار : ويروى أنه وقف رجل من بني أمية للرشيد على الطريق وبيده كتاب كالقصة ، فاذا فيه أربعة أبيات ، وهي :

يا أمين الله ، إني قائلٌ قولَ ذي لب وصدق وحسب
لكمُ الفضل علينا ، ولنا بكمُ الفضل على كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشماً وهما بعد لأم ولأب
فصِلِ الأرحام منا ، إنما عبدُ شمسٍ عمُّ عبد المطلب

فاستحسن ذلك الرشيد فأمر له لكل بيت بألف دينار، وقال: لو زدتنا لزدناك .

السكر أطيب او المشان : وكان الرشيد ذات يوم وأبو يوسف القاضي وعبد الوهاب الكوفي في مجلسه ، فتذاكروا الرطب ، فقال ابو يوسف : السكر أطيب من المشان ، وقال عبد الوهاب : المشان أطيب ، فقال الرشيد : ليحضر الطعام، ودعا بعدة من بني هاشم كانوا هناك، فأقبلوا جميعاً على السكر وتركوا المشّان، فقال الرشيد قضَوْا عليك يا أبا عبد الرحمن وهم لا يعلمون؛ فقال أبو عبد الرحمن : إني لم أر مشان قط أردأ من هذا ، فقال له أبو يوسف : هكذا هما إذا اجتمعا .

تعزية وتهنئة : ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد ، فقال له الحاجب إن أمير المؤمنين قد أصيب في هذه الليلة بولد وولد له ولد ، فعزوهن ، فلما مثل قال : يا أمير المؤمنين ، سرك الله فيما ساءك ، وجعل هذه لهذه ثواباً للصابر وجزاء للشاكر .

علة الرشيد : ولما اشتدت علة الرشيد وصار إلى طوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هون عليه الأطباء علته ، فأرسل إلى متطبب فارسي كان هناك، فأراه

ماءه مع قوارير شتى فلما انتهى إلى قارورته قال : عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك فليوص ؛ فانه لا برء له من هذه العلة ، فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين :

ان الطبيب بطبـــه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور القضا
ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرىء مثله فيما مضى ؟

واشتد ضعفه ، وأرجف الناس بموته فدعا بحمار ليركبه ، فلما صار عليه سقطت فخذاه فلم يثبت على السرج ، فقال : أنزلوني صدق المرجفون ، ثم دعا بأكفان فاختار منها ما أراد ، وأمر بحفر قبر ، فلما اطلع فيـه قال : (ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه) ثم دعا بأخي رافع ، فقال : أزعجتموني حتى تجشمت هذه الأسفار مع علتي وضعفي ، وكان أخو رافع ابن الليث ممن خرج عليه ، قال : لأقتلنك قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك ، ثم ثم أمر ففصل عضواً عضواً ، واستأمن رافع بعد ذلك على المأمون ؛ وقـــد ذكرنا خبره في غير هذا الكتاب؛ثم دعا من كان بعسكره من بني هاشم فقال: إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بال ، وقد نزل بي ما ترون وأنا أوصيكم بثلاث : الحفظ لأمانتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم ؛ وانظروا محمداً وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردُّوه عن بغيه وقبحوا له بغيه[1] ونكثه ، وأقطع في ذلك اليوم أموالاً كثيرة وضياعاً ورباعاً .

شعر لابي العتاهية يبكي الرشيد : قال الرياشي: قال الأصمعي : دخلت على الرشيد وهو ينظر في كتاب ودموعه تنحدر على خديه ؛ فظللت قائماً حتى سكن وحان منه التفاتة فقال : اجلس يا أصمعي ، أرأيت ما كان ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ، ورمى بقرطاس فاذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جليل ؛ وهو :

---

١) في نسخة « وقبحوا له غدره »

هل أنت مُعتبرٌ بمن خَليَّتْ منه غداة مضى دساكره
وبمن أذل الموت مصرعه فتبرأت منه عشائره
وبمن خلتْ منه أسرَّتُهُ وبمن خلت منه منابره
أين الملوك وأين غيرهم ؟ صاروا مصيراً أنت صائره
يا مُؤثر الدنيا بلذته والمستعد لمن يفاخره
نَلْ ما بدا لك أن تنالَ من الدنيا فان الموت آخره

ثم قال الرشيد : كأني والله أُخاطب بذلك دون الناس ، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى مات .

قال المسعودي : قد ذكرنا جملا وجوامع من أخبار الرشيد فيا سلف من كتبنا ، وفي هذا الكتاب ، ولم نذكر فيا سلف من اخبار الرشيد في هذا الكتاب شيئاً من اخبار البرامكة ، فلنذكر الآن جملا من اخبارهم في باب نفرده له ، نذكر فيه السعود من أيامهم والنحوس ، وإن كنا قد اتينا على سائر أخبارهم والزُّهر من ايامهم فيا سلف من كتبنا ، والله ولي التوفيق .

ذكر
جمل من أخبار البرامكة
وما كان منهم في أيامهم

اسماهم خالد بن برمك : لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله ، لا يحيى في رأيه ووفور عقله ولا الفضل في جوده وبراعته ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته ، ولا محمد بن يحيى في سروره وبعد همته ، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه ، وفيمن ذكرنا يقول أبو الغول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهم | أربعة سيد ومتبوع
الخير فيهم اذا سألت بهم | مفرق فيهم ومجموع

سبب نكبتهم : ولما أفضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة ، فاحتازوا[1] الأموال دونه حتى كان يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه ، وكان إيقاعه بهم في سنة سبع وثمانين ومائة ، واختلف في سبب ذلك ، فقيل : احتياز الأموال ، وأنهم أطلقوا رجلا من آل أبي طالب كان في أيديهم ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

الفضل بن يحيى يتشاغل بالصيد فيزجره أبوه بأمر الرشيد : ويحكى أنه ورد على الرشيد يوماً كتاب صاحب البريد بخراسان ، ويحيى بن خالد بين يديه ، يذكر فيه أن الفضل بن يحيى يتشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر في أمور الرعية ، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى ، وقال له : يا أبت

---

١) في نسخة : فاحتجنوا .

إقرأ هذا الكتاب ، واكتب اليه كتاباً يردعه عن مثل هذا ، فمد يده الى دواة الرشيد وكتب الى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد : حفظك الله يا بني ، وأمتع بك ، قد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره ، فعاود ما هو أزيَنُ بك ، فإنه من عاد الى ما يزينه ويشينه لم يعرفه أهل دهره الا به ، والسلام ، وكتب في أسفله هذه الأبيات :

إنصَبْ نهاراً في طِلاب العلا واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل بدا مقبلا واستترت فيه وجوه العيوب
فبادرِ الليل بما تشتهي فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً يستقبل الليل بأمر عجيب
ألقى عليه الليل أستاره فبات في لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفةٌ يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر الى ما يكتب يحيى فلما فرغ قال له : أبلغت يا أبت ، فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهاراً الى أن انصرف عن عمله .

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : كنت عند الرشيد يوماً ، وأحضر البرامكة الشرابَ ، وأحضر يحيى بن خالد جارية فغنت :

أرقت حتى كأني أعشق الأرقا وذبت حتى كأن السقم لي خلقا
وفاض دمعي على قلبي فأغرقه يا من رأى غرقا في الماء محترقا

فقال الرشيد : لمن هذا ؟ فقيل : لخالد بن يزيد الكاتب ، قال : علي به ، قال خالد : فاحضرت ، فقال للجارية : أعيدي ، فاعادت ، فقال لي : لمن هذا ؟ فقلت : لي يا أمير المؤمنين ، فبينا نحن كذلك إذ أقبلت وصيفة معها تفاحة عليها مكتوب بغالية :

سرورك ألهاك عن موعدي فصيرت تفاحتي تذكره

فاخذ الرشيد تفاحة اخرى وكتب عليها :

تقاضيت وعدي ولم أنسه فتفاحتي هذه معذره

ثم قال له يا خالد ، قل في هذا شيئاً فقال :

تفاحة خرجت بالدر من فيها أشهى إليّ من الدنيا وما فيها
بيضاء في حمرة غلت بغالية كانما قطفت من خدّ مُهديها

جعفر البرمكي عند الاصمعي : حدث الجاحظ عمن أخبره عن أنس بن أبي شيخ ، قال : ركب جعفر بن يحيى ذات يوم ، وأمر خادماً له أن يحمل معه ألف دينار ، وقال له : سأجعل طريقي على الأصمعي ، فاذا حدثني فرأيتني ضحكت فاجعلها بين يديه ، ونزل جعفر عند الأصمعي ، فجعل الأصمعي يحدثه بكل أعجوبة ونادرة تطرب وتضحك ، فلم يضحك ، وخرج من عنده ؛ فقال له أنس بن أبي شيخ : رأيت منك عجباً ، أمرت بألف دينار للأصمعي وقد حركك بكل مضحكة وليس من عادتك أن ترد الى بيت مالك ما قد خرج عنه ، فقال له: ويحك ! إنه قد وصل اليه من أموالنا مائة ألف درهم قبل هذه المرة ، فرأيت في داره حُبّاً مكسوراً وعليه دراعة خلَق ، ومقعداً وسخا ، وكل شيء رأيته عنده رثا ، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه ،وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مدحه وهجائه ، فعلى أي وجه أعطيه اذا كانت الصنيعة لم تظهر عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ؟

وفي الرشيد وجعفر بن يحيى يقول الشاعر :

ليهن الرشيد خلافاته وأمر الذي قد وهى عقده
أضاف الى بيعة بيعةً فقام بها جعفر وحدَهُ
بنو برمكٍ أسسوا ملكه وشدّوا لوارثه عهدَهُ

مجلس عند يحيى بن خالد : وقد كان يحيى بن خالد ذا علم ومعرفة وبحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل

الآراء والنحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور، والقدم والحدوث، والإثبات والنفي، والحركة والسكون، والمماسّة والمباينة ، والوجود والعدم، والجر والطفرة ، والأجسام والأعراض، والتعديل والتجريح ونفي الصفات وإثباتها ، والاستطاعة والأفعال، والكمية والكيفية ، والمضاف ، والإمامة أنص هي أم اختيار ، وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع ، فقولوا الآن في العشق على غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ما سنح له فيه وخطر إيراده بباله .

حديث لهم عن العشق : فقال علي بن هيثم وكان إمامي المذهب من المشهورين من متكلمي الشيعة : أيها الوزير ، العشق ثمرة المشاكلة ، وهو دليل تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ، ورقة الصنيعة ، وصفاء الجوهر وليس يحد لسعته ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمي ، وهو خارجي المذهب وهم الشراة : أيها الوزير ، العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين ، وامتزاج الشكلين ، وله نفوذ في القلب كنفوذ صَيّب المُزْنِ في خلل الرمل ، وهو ملك على الخصال تنقاد له العقول ، وتستكين له الآراء .

وقال الثالث : وهو محمد بن الهذيل العلاف ، وكان معتزليّ المذهب وشيخ البصريين : أيها الوزير ، العشق يختم على النواظر، ويطبع على الأفئدة، مرتعه في الأجساد ، ومسرعة في الأكباد ، وصاحبه متصرف الظنون ، متغير الأوهام ، لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع اليه النوائب ، وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية[1] من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون في الطبع ، وطلاوة توجد في الشمائل ، وصاحبه جواد لا يُصغي الى

---

١) في نسخة : ونغبة من حياض الثكل .

داعية المنع ، ولا يسنح به نازعُ العذل .

وقال الرابع – وهو هشام بن الحكم الكوفي شيخ الإمامية في وقته وكبير الصنعة في عصره – : أيها الوزير ، العشق حِبَالة تصبها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص في النوائب، فإذا عَلِقَ المحب في شبكتها ونشب في أثنائها فأبعد به أن يقوم سليما أو يتخلص وشيكا،ولا يكون إلا من اعتدال الصورة، وتكافؤ في الطريقة ، وملاءمة في الهمة ، له مقتل في صميم الكبد ومهجة القلب ، يعقد اللسان الفصيح ويترك المالك مملوكا والسيد خَوَلا حتى يخضع لعبد عبده .

وقال النظّام إبراهيم بن يَسار المعتزلي وكان من نظار البصريين في عصره : أيها الوزير العشق أرق من السراب وأدبُّ من الشراب ، وهو من طينة عَطِرة عجنت في إناء الجلالة ، حلو المجتنى ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد خبلا قاتلا ، وفسادا معضلا ، لا يطمع في إصلاحه، له سحابة غزيرة تهمي على القلوب ، فتعْشِب شغفا ، وتثمر كلفا ، وصريعهُ دائم اللوعة، ضيق المتنفس، مُشارف الزمن ، طويل الفكر ، إذا أجنحه الليل أرق ، وإذا أوضحه النهار قلق ، بصومه البلوى ، وإفطاره الشكوى .

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومَنْ يليهم ، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مر دليل عليه.

العشق وعلة وقوعه : قال المسعودي ، تنازع الناس ممن تقدم وتأخر في ابتداء وقوع الهوى وكيفيته ، وهل ذلك من نظر وسماع ، واختيار واضطرار ، وما علة وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ؟ وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه ؟

فقال بقراط : هو امتزاج النفسين، كما لو امتزج الماء بماء مثله عسر تخليصه بحيلة من الاحتيال ، والنفس ألطف من الماء ، وأرقُّ مسلكا ، فمن أجل ذلك لا تزيله الليالي ، ولا تخلقه الدهور ولا يدفعه دافع دق عن الأوهام

مسلكه ، ويخفي عن الأبصار موضعه وحارت العقول عن كيفية تمكنه غير ان ابتداء حركته من القلب ، ثم تسير الى سائر الأعضاء ، فتظهر الرّعدة في الأطراف ، والصفرة في الألوان ، واللجلجة في الكلام ، والضعف في الرأي والويل والعثار حتى ينسب صاحبه إلى النقص .

وذهب بعض الأطباء إلى أن العشق طمع يتولد في القلب وينمى وتجتمع إليه مواد من الحرص فإذا قوي زاد بصاحبه الاهتياج واللجاج والتمادي في التفكر والأماني والهيمان والأحزان وضيق الصدر وكثرة الفكر وقلة الطعم وفساد العقل ويبس الدماغ ، وذلك أن التمادي في الطمع للدّم محرق ، فإذا احترق استحال الى السوداء ، فاذا قويت جلبت الفكر فتستعلي الحرارة ، وتلتهب الصفراء ، ثم تستحيل الصفراء الى الفساد فتلحق حينئذ بالسوداء ، وتصير مادة لها ، فتقوى ، ومن طبائع السوداء الفكر ، فاذا فسد الفكر اختلطت الكيموسات بالفساد ، ومع الاختلاط تكون الفدامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون ولا يتم فحينئذ يشتد ما به ، فيموت أو يقتل نفسه ، وربما شهق فتخفى روحه أربعاً وعشرين ساعة فيظن أنه مات فيقبرونه حياً ، وربما تنفّس الصّعداء فتخفى روحه في تامور قلبه ، وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت ، وربما ارتاح وتشوق بالنظر ويرى من يحب فجأة ، وأنت ترى العاشق إذا سمع ذِكْرَ من يحب كيف يهرب دمه ويحول لونه .

وقال بعضهم : إن الله خلق كل روح مدورة على هيئة الكرة ، وجزأها أنصافاً ، وجعل في كل جسد نصفاً ، فكلُّ جسدٍ لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه كان بينهما عِشْقٌ ضرورةٍ للمناسبة القديمة ، وتفاوت أحوال الناس في ذلك من القوة والضعف على قدر طبائعهم .

ولأهل هذه المقالة خطب طويل فيما ذكرنا ، وان النفوس نورية جوهر بسيط نزل من علو الى هذه الأجساد فسكنها ، وأن النفوس تلي بعضاً على حسب مجاورتها في عالم النفس في القرب والبعد ، وذهب الى هذا المذهب

جماعة ممن يظهر الإسلام ، واعتلّوا بدلائل من القرآن والسنن ودلائل القياس عند أنفسهم . من ذلك قوله عز وجل : (يأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) قالوا : فالرجوع الى الحال لا يكون إلا بعد كون متقدم ، ثم قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه سعيد بن أبي مريم قال : أخبرنا يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأرواح جنود مجندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

وذهب إلى هذا القول جماعة من الأعراب ، ففي ذلك يقول جميل بن عبد الله بن مَعْمَر العذري في بثينة :

تعلّقَ روحي رُوحَها قبل خلقنا ومن قبل ما كُنّا نِطَافاً ، وفي المهدِ
فزاد كما زدنا ، فاصبح ناميـا وليس وإن مُتْنا بمنتقض العهد
ولكنه باقٍ على كل حـالة وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

وقال جالينوس : المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهما في العقل ، ولا تقع بين الأحمقين وإن كانا شكلين في الحمق ، لأن العقل يجري على ترتيبٍ فيجوز أن يتفق فيه اثنان على طريق واحدة ، والحمق لا يجري على ترتيبٍ : ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان .

وقَسَّمَ بعض العرب الهوى فقال :

ثلاثة أحبَاب فحبٌ علاقـةٌ وحُبٌ تِملّاقٌ ، وحبٌ هو القتل

وقال الصوفية من البغداديين : إن الله عز وجل إنما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوونه ، ليشق عليهم سخطه ، ويسرّهم رضاه ، فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله ؛ إذ كان لا مثل له ، ولا نظير وهو خالقهم غير محتاج إليهم ، ورازقهم مبتدئا بالمن عليهم فإذا أوجبوا على أنفسهم طاعة سواه كان تعالى أحرى أن يتبع رضاه .

وللباطنية المتصوفة في هذا كلام كثير وخطب طويل .

وقال أفلاطون : ما أدري ما الهوى ، غير أنه جنون إلهي ، والهوى لا محمود ولا مذموم .

وكتب بعض ظرفاء الكتّاب إلى أخ له : إني صادفت منك جوهر نفسي ، فأنا غير محمود على الانقياد إليك بغير زمام ؛ لأن النفس يتبع بعضها بعضا .

وللناس ممن خلف وسلف من الفلاسفة والفلكيين والإسلاميين وغيرهم كلام كثير في العشق ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » ومن أباده الحدثان ، من الأمم الماضية والأجيال الخالية ، والممالك الدائرة ، وإنما خرجنا مما كنا فيه آنفا من أخبار البرامكة عند ذكرنا العشق ، فتغلغل بنا الكلام إلى إيراد لمع مما قيل في ذلك .

فنرجع الآن إلى ما كنا فيه من أخبارهم ، واتّساق أيامهم ، وانتظامها لهم بالسعود ، ثم انعكاسها إلى النحوس .

الرشيد يزوج أخته العباسة لجعفر البرمكي : ذكر ذو معرفة بأخبار البرامكة أنه لما بلغ جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرمك ويحيى بن خالد والفضل وغيرهم من آل برمك ما بلغوا من الملك ، وتناهوا إليه من الرياسة ، واستقامت لهم الأمور حتى قيل : ان أيامهم عروس وسرور دائم لا يزول ، قال الرشيد لجعفر بن يحيى : ويحك يا جعفر !! إنه ليس في الأرض طلعة أنا بها آنس ، ولا إليها أميل ، وأنا بها أشد استمتاعا وأنسا مني برؤيتك ، وإن للعباسة أختي مني موقعا ليس بدون ذلك ، وقد نظرت في أمري معكما ، فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتني ناقص الحظ والسرور منك [1] يوم أكون معها ، وكذلك حكمي منك في يوم كوني معك دونها ، وقد رأيت شيئاً يجتمع لي به السرور ، وتتكاثف لي به اللذة

---

١) في نسخة : ضائع الحظ ناقص السرور — الخ .

والأنس، فقال : وفقك الله يا أمير المؤمنين اوعزم لك على الرشيد في أمورك كلها ! قال الرشيد قد زوجتكها تزويجاً تملك به مجالستها والنظر إليها والاجتماع بها في مجلس أنا معكما فيه لا سوى ذلك ، فزوجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر إليه في ذلك ، وأشهد له مَنْ حضره من خدمه وخاصة مواليه، وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يخلو بها، ولا يجلس معها ، ولا يظله وإياها سَقْفُ بيتٍ إلا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما ؟ فحلف له جعفر على ذلك ، ورضي به وألزمه نفسه ، وكانوا يجتمعون على هذه الحالة التي وصفناها وجعفر في ذلك صارف بصره عنها ، مزور بوجهه هيبة لأمير المؤمنين ، ووفاء بعهده وأيمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه وعَلِقَتْه العباسة ، وأضمرت الاحتيال عليه وكتبت إليه رقعة ، فردَّ رسولها وشتمه وتهدَّده ، وعادت فعاد بمثل ذلك ، فلما استحكم اليأس عليها[1] قصدت لأمه ، ولم تكن بالحازمة، فاستمالتها بالهدايا من نفيس الجواهر والألطاف ، وما أشبه ذلك من كثرة المال وألطاف الملوك ، حتى إذا ظنت أنها لها في الطاعة كالأمة ، وفي النصيحة والإشفاق كالوالدة ، ألقت إليها طرفاً من الأمر الذي تريده ، وأعلمتها ما لها في ذلك من حميد العاقبة، وما لابنها من الفخر والشرف بمصاهرة أمير المؤمنين، وأوهمتها أن هذا الأمر إذا وقع كان به أمان لها ولولدها من زوال النعمة وسقوط مرتبته ، فاستجابت لها أم جعفر ، ووعدتها بإعمال الحيلة في ذلك ، وأنها تلطف لها حتى تجمع بينهما ؛ فأقبلت على جعفر يوماً فقالت له : يا بني ، قد وُصفت لي وصيفة في بعض القصور من تربية الملوك قد بلغت من الأدب والمعرفة والظَّرْفِ والحلاوة مع الجمال الرائع والقدّ البارع والخصال المحمودة ما لم ير مثله ، وقد عزمت على اشترائها لك ، وقد قرب الأمر بيني وبين مَالكها ، فاستقبل جعفر كلامها بالقبول ، وعَلِقت بذلك قلبه ، وتطلعت

---

١) في نسخة : فلما استحكم يأسها منه .

إليها نفسه ، وجعلت تمطُله ، حتى اشتد شوقه ، وقويت شهوته ، وهو في ذلك يلح عليها بالتحريك والاقتضاء ، فلما علمت أنه قد عجز عن الصبر واشتد به القلق قالت له : أنا مُهدِيتها اليك ليلة كذا وكذا ، وبعثت الى العباسة فأعلمتها بذلك ، فتأهبت بمثل ما تتأهب به مثلها وسارت اليها في تلك الليلة ، وانصرف جعفر في تلك الليلة من عند الرشيد ، وقد بقيّ في نفسه من الشراب فضلة لما قد عزم عليه ، فدخل منزله ، وسأل عن الجارية فخبر بمكانها ، فأدخلت على فتى سكران لم يكن بصورتها عالما ، ولا على تخلقها واقفاً ، فقام إليها فواقعها فلما قضى حاجته منها قالت له : كيف رأيت حيل بنات الملوك ؟ قال : وأي بنات الملوك تعنين ؟ وهو يرى أنها من بعض بنات الروم ، فقالت له : أنا مولاتك العباسة بنت المهدي ، فوثب فزعاً قد زال عنه سكره ورجع إليه [1] عقله ، فأقبل على أمه وقال : لقد بعتني بالثمن الرخيص ، وحملتني على المركب الوعر ، فانظري ما يؤول إليه حالي ، وانصرفت العباسة مشتملة منه على حمل ، ثم ولدت غلاماً ، فوكلت به خادماً من خدمها يقال له رياش وحاضنة تسمى برة ، فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجّهت الصبي والخادم والحاضنة الى مكة ، وأمرتها بتربيته ، وطالت مدة جعفر ، وغلب هو وأبوه وإخوته على أمر المملكة ، وكانت زبيدة أم جعفر زوج الرشيد من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها ، وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حرم الرشيد ويمنعهن من خدمة الخدم ، فشكت زبيدة الى الرشيد ، فقال ليحيى بن خالد : يا أبت ، ما بال أم جعفر تشكوك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أمتّهم أنا في حرمك وتدبير قصرك عندك ؟ فقال : لا والله ، فقال : لا تقبل قولها ، قال الرشيد : فلست أعاودك ، فازداد يحيى لها منعاً ، وعليها في ذلك غلظة ، وكان يأمر بقفل أبواب الحرم بالليل ، ويمضي بالمفاتيح الى منزله ، فبلغ ذلك من أم

---

١) في نسخة : وفارقه عقله .

جعفر كل مبلغ ، فدخلت ذات يوم على الرشيد فقالت : يا أمير المؤمنين ، ما يحمل يحيى على ما لا يزال يفعله من منعه إياي من خدمي ووضعه إياي في غير موضعي ؟ فقال لها الرشيد : يحيى عندي غير متهم في حرمي ، فقالت : ان كان كذلك لحفظ ابنه مما أرتكبه ، فقال : وما ذاك ؟ فخبرته بالخبر وقصّت عليه قصة العباسة مع جعفر ، فسقط في يده ، وقال لها : هل لك على ذلك من دليل أو شاهد ؟ قالت : وأي دليل أدل من الولد ؟ قال : وأين الولد ؟ قالت : قد كان هنا ، فلما خافت ظهور أمره وجّهته الى مكة فقال لها : أفيعلم هذا أحد غيرك؟ قالت : ما في قصرك جارية إلا وقد علمت به ، فأمسك عن ذلك ، وطوى عليه كشحاً ، وأظهر أنه يريد الحج،فخرج هو وجعفر بن يحيى ، وكتبت العباسة الى الخادم والحاضنة أن يخرجا بالصبي الى اليمن ، فلما صار الرشيد الى مكة وكَّلَ مَنْ يثق به بالفحص والبحث عن أمر الصبي والداية والخادم ، فوجد الأمر صحيحاً ، فلما قضى حجه ورجع أضمر في البرامكة على إزالة نعمهم ، فأقام ببغداد مُدَيدة ، ثم خرج الى الأنبار ، فلما كان في اليوم الذي عزم فيه على قتل جعفر دعا بالسندي بن شاهك ، فأمره بالمضي الى مدينة السلام والتوكيل بدور البرامكة ودور كُتّابهم وأبنائهم وقراباتهم وأن يجعل ذلك سراً من حيث لا يكلم به أحداً حتى يصل الى بغداد ثم يُفضي بذلك لمن يثق به من أهله وأعوانه ، فامتثل السندي ذلك وقعد الرشيد وجعفر عنده فيموضع يعرف في الأنبار بالعمر[1]، فأقاما يومها بأحسن هيئة وأطيب عيش ، فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد حتى ركب مشيعاً له ثم رجع الرشيد فجلس على كرسي ، وأمر بما كان بين يديه فرفع فمضى جعفر الى منزله وفيه فضلة من الشراب ، ودعا بأبي زكار المغني الطنبوري وابن أبي شيخ كاتبه ، ومُدَّت ستارة وجلس جواريه خلفها يضربن ويغنين ، وأبو زكار يغنيه :

١) في نسخة : بالقمر .

ما تريدُ الناس مِنّا ما تنامُ الناس عنا
إنمــا همّتهم أنْ يُظهروا ما قد دَفنّا

وأمر الرشيد من ساعته ياسراً خادمـــه المعروف برخلة فقال له : إني أندبك لأمر ما أرى محمداً ولا القاسم له اهلا ولا موضعاً ، ورأيتك به مستقلا ناهضاً ، فحقق ظني ، واحذر أن تخالف أمري فيكون ذلك سبباً لسقوط منزلتك عندي وفساد حالك لدي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أمرتني أن أدخل السيف في بطني وأخرجه من ظهري بين يديك لفعلت ، فمُرْني بأمرك فإني والله مسرع ، فقال : ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكي ؟ قال : يا أمير المؤمنين وهل أعرف سواه ؟ أو يُنكر مثل جعفر؟ قال: ألم تر تشييعي إياه عند خروجه ؟ قال : بلى ، قال : فامض الساعة اليه فأتني برأسه على أي حالة تجده عليها ، فارتج على ياسر الكلام وأخذته رِعْدَة ووقف لا يحير جواباً ، فقال : يا ياسر ، ألم أتقدم اليك بترك الخلاف عليّ ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن الخطب أجلُّ من ذلك ، والأمر الذي ندبني اليه أمير المؤمنين وددت لو أني كنت مت قبل أن يجري على يدي منه شيء ؛ فقال : دع عنك هذا وامض لما قد أمرتك ؛ فمضى ياسرٌ حتى دخل على جعفر وهو على حال لهوه ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أمرني فيك بكيت وكيت ، فقال جعفر : إن أمير المؤمنين يمازحني بأصناف من المزاح فأحسب أن هذا جنس منه ، فقال : والله ما رأيته إلا جاداً ، قال : فإن يكن الأمر كما قلت فهو اذاً سكران ، قال : لا والله ما افتقدت من عقله شيئاً ، ولا ظننته شرب نبيذاً في يومه مع ما رأيت من عبادته ، قال له : فإن لي عليك حقوقاً لم تجد لها مكافأة في وقت من الأوقات إلا هذا الوقت، قال : تجدني الى ذلك سريعاً إلا فيما خالف أمير المؤمنين ، قال : فارجع اليه فأعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به فإن أصبح نادماً كانت حياتي على يديك جارية ، وكانت لك عندي نعمة مجددة وإن أصبح على مثل هـذا الرأي نفذت ما أمرت به في

غد ، قال : ليس الى ذلـــك سبيل ، قال : فأصير معك الى مضرب أمير المؤمنين حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك[١]، فاذا أبديت عذراً ولم يقنع إلا بمصيرك اليه برأسي خرجت فأخذت رأسي من قرب ، قال له : أما هذا فنعم ، فمضيا جميعاً الى مضرب الرشيد فدخل اليه ياسر فقال : قـــد أخذت رأسه يا أمير المؤمنين ، وها هو ذا بالحضرة ، فقال له : ائتني به وإلا والله قتلتك قبله[٢] ، فخرج فقال له : أسمعت الكلام ؟ قال : فشأنك وما أمرت به ، فأخرج جعفر من كمه منديلا صغيراً فعصب به عينيه ومدّ رقبته فضربها ياسر وأدخل رأسه الى الرشيد، فلما رأى الرأس بين يديه أقبل عليه، وجعل يذكره بذنوبه ، ثم قال : يا ياسر ائتني بفلان وفلان فلمـا أتى بهم قال لهم : اضربوا عنق ياسر ، فاني لا أقدر أن أنظر الى قاتل جعفر .

وقال الأصمعي : وجته الي الرشيد في تلك الليلة ، فلما أدخلت اليه قال : يا اصمعي ، قد قلت شعراً فاسمعه ، قلت : نعم يا امير المؤمنين ، فأنشد :

لو ان جعفر هابَ أسباب الرّدى ... لنجا بمهجتـــه طمرٌ مُلجَمُ
ولـكان من حذَر المنون بحيثُ لا ... يسمو اليه به العُقابُ القَشْعَمُ
لكنه لمـــا تقاربَ وقتـــه ... لم يدْفع الحدَثان عنه مُنَجّمُ

قال الأصمعي : ورجعت الى منزلي فلم أصر اليه حتى تحدث الناس بقتل جعفر ، وأصيب على باب قصر علي بن عيسى بن ماهان بخراسان في صبيحة الليلة التي قتل فيها جعفر وأوقع بالبرامكة مكتوب بقلم جليل :

إن المساكين بنو بَرْمَك ... صُبّتْ عليهم غِيَرُ الدهر
إن لنـــا في أمرهم عبرةً ... فليعتبر ساكنُ ذا القصر

مدة سلطان البرامكة ورثاء الشعراء لهم : قال المسعودي : وكان مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف[٣] هارون الرشيد

---

١) في نسخة : ومراجعتك اياه ، فاذا أبليت وبينت عذرا ولم يقنع — الخ .
٢) في نسخة : عجلتك قبله .
٣) في نسخة : منذ استخلف هارون .

إلى ان قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما ، وقد رثتهم الشعراء بمراث كثيرة ، وذكرت أيامهم فمن ذلك قول علي بن أبي معاذ :

يا ايُّها المغترُّ بالدهر والدهر ذو صرف وذو غَدْر
لا تأمن الدهرَ وصوْلاته وكن من الدهر على حِذْر
إن كنت ذا جهل بتصريفه فانظر الى المصلوب بالجسر
فإن فيه عبرة ؛ فاعتبر يا ذا الحِجَا والعقل والفكر
وخذ من الدنيا صفى عيشها واجري مع الدّهر كما يجري
كان وزير القائم المرْتضى وذا الحِجا والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها إليه في البرّ وفي البحْر
يشيِّدُ الملكَ بآرائه وكان فيه نافذَ الأمْر
فبينا جعفرُ في مُلكه عشيّة الجمعة بالعَمْر
يطيرُ في الدنيا بأجناحه يأمل طولَ الخُلد والعُمْر
إذ عثرَ الدهرُ به عثرة ، يا ويلنا من عثرة الدهر
وزلت النّعلُ به زلة كانت له قاصمَة الظهر
فغودرَ البائسُ في ليلة السبت قتيلا مَطلع الفجْر
واصبح الفضل بن يحيى وقد أُحيطَ بالشيخ وما يدري
وجيء بالشيخ وأولادِه يحيى معاً في الغلّ والأسْر
والبرْمَكيِّين وأتباعهم من كان في الآفاقِ والمصْر
كأنما كانوا على مَوعد كموعد الناس إلى الحشر
وأصبحوا للناس أحدُوثة سبحان ذي السلطان والأمر

وممن رثاهم فاستحسن قوله اشجعُ السّلمي ، فقال من قصيدة :

الانَ أرحنَا واستراحَتْ ركابُنا
وأمسكَ منْ يجْدي ومنْ كان يجْتَدي

فقُلْ للمطايا قد أمِنْتِ من السُّرَى
وطيّ الفيافي فدْفداً بعد فدْفد
وقل للعطايا بعد فضل : تعطّلي وقل للرزايا : كل يوم تجدّدي
ودونكَ سيفاً برمكياً مُهنّداً أصيبَ بسيف هاشميٍّ مُهنّد
وقال فيهم سَلم الخاسر :
خوَتْ أنجُمُ الجدْوى وَشلّتْ يَدُ النّدى
وغاضتْ بحارُ الجودِ بعد البَرامِكِ
هَوَتْ أنجمٌ كانت لأبناء بَرمَكٍ
بها يَعرفُ الهادي قويمَ المسالِكِ

وقال فيهم صالح الأعرابي :
لقد خان هذا الدهر ابناء برمكٍ وأيّ ملوكٍ لم تخنْها دهورُها
ألم يَكُ يحيى واليَ الأرض كلها فأضحى كمن وارَتْه منها قبورها

وقال فيهم أبو حزرة الأعرابي ، وقيل أبو نواس :
ما رمى الدهر آل برمكٍ لمّا أن رمى مُلكهُمْ بأمرٍ بديع
إن دهراً لم يَرْعَ حقاً ليحيى غير راعٍ حقاً لآل الربيع

وقال فيهم بعض الشعراء فأحسن :
يا بني برمك واهاً لكم ولأيامكم المقتَبَلَهْ
كانت الدنيا عروساً بكم وهي اليوم ثكولٌ أرملهْ

وقال أشجع فيهم :
ولّى عن الدنيا بنو بَرْمكٍ فلو توالى الناس ما زادا
كأنما أيامهم كلها كانت لأهل الأرض أعيادا
ولآخر فيهم من أبيات :
كأن أيامهم من حسن بهجتها مواسم الحج والأعياد والجُمَع

وقال منصور النمري :

أندُبْ بني برمك لدنيا تبكي عليهم بكلِّ وادِ
كانت بهم برهة عروساً فأصبحت اليوم في حدادِ

وقال دعبل الخزاعي :

ألم ترَ صرْفَ الدهر في آل برمك وفي ابن نهيك والقرون التي تخلو
لقد غرَس القوم النخيل تمكناً فما حصدا إلا كما حصد البقل

وقال أشجع فيهم أيضاً :

قد سار دهر ببني برمك ولم يَدَعْ فيهم لنا بُقْيا
كانوا أولي الخير وهم أهله فارتفع الخير عن الدنيا

ولما قتل جعفر وقبض على يحيى والفضل ، وضيق عليهما المحابس ، واشتد بهما الجهد ، وترادف عليهما البلاء قال الفضل بن يحيى يذكر ما هما فيه :

إلى الله فيما نابَنا نرفع الشكوى ففي يده كشف المضرَّة والبَلوى
خرجنا من الدنيا ونحن مِنْ اهلها فلا نحنُ في الاموات فيها ولا الأحيا
إذا جاءنا السَّجَّان يوماً لحاجة عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا

وكان الرشيد كثيراً ما ينشد بعد نكبة البرامكة :

إنَّ استهانتها إذا وقعت لبِقدْر ما تعلو بها رُتبُهْ
وإذا بَدتْ للنمل أجنحة حتى يطيرَ فقد دنا عَطَبُهْ

وقال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي : دخلت على والدتي يوم نَحْر ، فوجدتها وعندها امرأة برزة متكلمة في أثواب رثة فقالت لي :أتعرف هذه؟ قلت : لا ، قالت : هذه عبادة أم جعفر بن يحيى ، فأقبلت عليها بوجهي أحدثها وأعظمها ثم قلت لها : يا أماه ما أعجب ما رأيت ؟ قالت : يا بني لقد أتى عليّ عيدٌ مثل هذا وأنا على رأسي أربعمائة وصيفة، وإني لأعدُّ ابني عاقاً لي ولقد أتى عليّ هذا العيد وما أتمنى سوى جلد شاتين أفترش أحدهما وألتحف الآخر ، قال : فدفعت اليها خمسمائة درهم ، فكادت تموت فرحاً

بها ، ولم تزل تختلف الينا حتى فرّق الموت بيننا .

وحكي عن بعض عمومة الرشيد أنـه صار الى يحيى بن خالد عند تغيُّر الرشيد له قبل الإيقاع بهم ، فقال له : ان أمير المؤمنين قد أحب جمـع الأموال ، وقد كثر ولده فهو يريد أن يعقد لهم الضياع ، وقد كثر عليك وعلى أصحابك عنده، فلو نظرت الى ضياعهم وأموالهم فجعلتهـا لولد أمير المؤمنين ، وتقربت اليه بها رجوت أن يكون لك السلامة ، وأن يرجع لك أمير المؤمنين ، فقال له يحيى : والله لأن تزول النعمة عني أحبُّ اليّ من ان أزيلها عن قوم كنت سببها إليهم .

وذكر الخليل بن الهيثم الشعبي – وكان قد وكله الرشيد بيحيى والفضل في الحبس – قال : أتاني مسرور الخادم ومعه جماعة من الخدم ، ومع خادم منهم منديل ملفوف ، فسبق إلى نفسي أن الرشيد قد تعطف عليهم ، فوجه إليهم بلطف ، فقال لي مسرور : أخرج الفضل بن يحيى ، فلما مثل بـين يديه قال له : إن أمير المؤمنين يقول لك : إني قد أمرتك أن تصدقني عن أموالـكم فزعمت أنك قـد فعلت، وقد صح عندي أنك أبقيت لك أموالاً، وقد أمرت مسروراً إن لم تطلعه عليها أن يضربك مائتي سوط ، فقـال له الفضل : قتلتَني والله يا أبا هاشم ، فقال له مسرور : يا أبا العباس أرى لك أنك لا تؤثر مالك على مهجتك (١) ، فإني لا آمن ان أنفذ ما أمرت به فيك أن آتي على نفسك ، فرفـع الفضل رأسه إلى السماء وقال له : يا أبا هاشم ، ما كذبت بأمير المؤمنين ، ولو كانت الدنيا لي وخيرت بين الخروج منها وبين أن اقرع مقرعة لاخترت الخروج منها ، وأمير المؤمنين يعلم وأنت تعلم أنا كنا نصون أعراضنا بأموالنا ، وكيف صرنا اليوم نصون أموالنـا منكم بأنفسنا ؟ فإن كنت أمرت بشيء فامض له ، فأمر بالمنديل فنفض ،

١) في نسخة : لا تؤثر مالك على نفسك .

فسقط منه أسواط بأثمارها ، فضرب مائتي سوط ، وتولى ضربه اولئك الخدم، فضربوه أشد الضرب الذي يكون بغير[1] معرفة ، فكادوا يأتون على نفسه، فخفنا عليه الموت ، فقال الخليل بن الهيثم لوكيله المعروف بأبي يحيى : إن هنا رجلا قد كان في الحبس وهو بصير بالعلاج لمثل هذا أو شبهه ، فصر إليه واسأله ان يعالجه ، قال : فأنهيت إليه ذلك ، فقـال : لعلك تريد ان تعالج الفضل بن يحيى ، فقد بلغني ما صنع به ؟ فقلت : إياه اريد ؛ قال : فامض بنا إليه حتى اعالجه ؛ فلما رآه قال : أحسبه ضربه خمسين سوطاً ، قال : إنه ضربه مائتي سوط ، قال : مـــا اظن إلا ان هذا أثر خمسين سوطاً ، ولكن يحتاج أن ينام على باريّة وأدوسَ صدره ساعـــة ، فجزع الفضل من ذلك ، ثم أجاب إليه ، ففعل ذلك به ، ولم يزل يـــدوس صدره ، ثم أخذ بيده فجذبه حتى اقامه عن البارية ، فتعلق بها من لحم ظهره شيء كثير ، ثم جعل يختلف إليه ويعالجه إلى ان نظر يوماً إليه فخرَّ ساجداً ، فقلت : ما لك ؟ فقال : يا أبا يحيى ، قد برىء أبو العباس ، ادْنُ مـــني حتى ترى ، قال : فدنوت منه فأراني في ظهره لحماً نابتاً ، ثم قال لي . أتحفظ قولي هذا أثرُ خمسين سوطاً ؟ قلت : نعم ، قال : والله لو ضُربَ ألف سوط ما كان اثرها بأشد من ذلك الأثر ، وإنما قلت ذلـــك لكي تقوى نفسه فيعينني على علاجه ، فلما خرج الرجلُ قال لي الفضلُ : يا ابا يحيى ، قد استجت عشرة آلاف درهم ، فَسِرْ إلى المعروف بالنسائي واعلمه حاجتي إليها ، قـــال : فأتيته بالرسالة ، فأمر بحملها إليه ، فقال : يا أبا يحيى ، أحب ان تمضي بها الى هذا الرجل ، وتعتذر إليه وتسأله قبول ما وجهت به ، قـــال : فمضيت إليه فوجدته قاعداً على حصير وطنبور له معلق ودساتيج فيها نبيـــذ وأداة رثة ، فقال : ما حاجتك يا أبا يحيى ؟ فأقبلت أعتذر عن الفضل ، وأذكر ضيق الأمر عليه ، وأعلمته بما وجه بـــه إليه ، فامتعض من ذلك ونخر حتى

---

١) في نسخة : بغير مغفرة .

أفزعني ، وقال : عشرة آلاف درهم ، يرددها ؛ فجهدت كل الجهد أن يقبلها فأبى ؛ فصرت الى الفضل ، فأعلمته ، فقال لي : استقلّها والله ، ثم قال لي الفضل: أحب أن تعود الى النسائي ثانية وتعلمه أني احتجت الى عشرة آلاف درهم اخرى ؛ فإذا دفعها إليك فسر بالكل[1] إلى الرجل ، قال : فقبضت من النسائي عشرة آلاف اخرى ورجعت الى الرجل ومعي المال ، وعرفته الخبر ، فأبى ان يقبل شيئاً منه ، فقال : انا اعالج فتى من الأبناء بكرام ؟ اذهب عني ، فوالله لو كانت عشرين ألف دينار ما قبلتها ؛ فرجعت الى الفضل وأخبرته الخبر ، فقال لي : يا أبا يحيى ، حدثني بأحسن ما رأيت او بلغك من افعالنا ، قال : فجعلت احدثه ملياً ، فقال : دع عنك هذا ، فوالله ان ما فعله هذا الرجل أحسن من كل ما فعلناه في أيامنا كلها .

وقتل جعفر بن يحيى وهو ابن خمس وأربعين سنة ، وقيل : اقل من ذلك ، ومات يحيى بن خالد بالرقة في سنة تسع وثمانين ومائة على ما قدمنا.

قال المسعودي : وللرشيد اخبار حسان وسير ، وقد قدمنا ذكرها فيما سلف من كتبنا في ذكر اخبار ملوك الروم بعد ظهور الإسلام ، وما كان بينه وبين نقفور[2] فيما تقدم من هذا الكتاب ، وللبرامكة اخبار حسان وما كان منهم من الإفضال بالمعروف واصطناع المكارم ، وغير ذلك من عجائب أخبارهم وسيرهم وما مدحتهم الشعراء به ، ومراثيهم ، وقد اتينا على جميع ذلك في كتابينا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وإنما نورد في هذا الكتاب لمعاً من الأخبار لم يتقدم لها إيراد في ما تقدم من كتبنا ، وكذلك ذكرنا بدء أخبارهم قبل ظهور الإسلام وكونهم على بيت النوبهار ، وهو بيت النار ببلخ المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ، وعلة تسميته بَرْمَك ، وخبر برمك الأكبر مع ملوك الترك ، وخبرهم بعد ظهور الإسلام ، وما كان

---

١) في نسخة : فسر بالعشرين ألفا الى الرجل . ٢) في نسخة : يعفور .

منهم في ايام بني أمية كهشام بن عبد الملك وغيره وما كان منهم في أيام المنصور ، واكتفينا بما ذكرناه في هذا الكتاب من هذه التلويحات من اخبارهم واللمع من آثارهم .

ذكر
خلافة محمد الأمين

موجز : وبويع محمد بن هارون في اليوم الذي مات فيه هارون الرشيد ، وهو يوم السبت لأربع ليالٍ خلون من جمادى الاولى ، بطُوس ، سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وتقدم ببيعته رجاء الخادم ، وكان القيم ببيعته الفضل بن الربيع ، وكان محمد يكنى بأبي موسى . وأمه زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر بالرصافة ، وكان مولده بالرصافة . وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وستة أشهر وثلاثة عشر يوماً . ودفنت جثته ببغداد . وحمل رأسه الى خراسان . وكانت خلافته أربع سنين وستة اشهر ، وقيل . تسعة أشهر ، وقيل : ثمانية أشهر وستة أيام ، على حسب ما وجدنا من اختلاف التواريخ وتباينها . وقيل : إن محمداً أفضت الخلافة اليه وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وسبعة اشهر وأحد وعشرين يوماً وكان أصغر من المأمون بستة اشهر ، وكانت أيامه في الحصار من خلعه الى مقتله سنة ونصفاً وثلاثة عشر يوماً ، حبس فيها يومين .

ذكر

جمل من أخباره وسيره

ولمع مما كان في أيامه

كيف جاءه خبر الولاية : قبض الرشيد والمأمون بمرو وبعث صالح بن الرشيد رجاء الخادم مولى محمد الأمين ، إلى محمد ، فأتاه بالخبر في اثني عشر يوماً الى مدينة السلام يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة .

رؤيا زبيدة أيام حملت بالامين وعند مولده وبعده : وذكر جماعة من الأخباريين وممن عني بأخبار العباسيين كالمدائني ، والعتبي وغيرهما أن زبيدة رأت في المنام ليلة علقت بمحمد كأن ثلاث نسوة دخلن عليها وهي بمجلس فقعدت اثنتان عن يمينها وواحدة عن يسارها ، فدنت إحداهن ، فجعلت يدها على بطن أم جعفر ، ثم قالت : ملك ضخم عظيم البذل ثقيل الحمل ، نكد الأمر ، ثم فعلت الثانية كما فعلت الأولى ، وقالت : ملك ناقص الجد ، مفلول الحد ، ممذوق الود ، تجور أحكامه ، وتخونه أيامه ، ثم فعلت الثالثة كما فعلت الثانية ، وقالت : ملك قصاف ، عظيم الإيلاف ، كثير الخلاف ، قليل الإنصاف ، قالت : فاستيقظت وأنا فزعة ، فلما كان في الليلة التي وضعت فيها محمداً دخلن عليّ وأنا نائمة كما كن دخلن ، فقعدن عند رأسي ، ونظرن في وجهي ، ثم قالت إحداهن : شجرة نضرة ، وريحانة حسنة [1] ، وروضة زاهرة ، ثم قالت الثانية : عين غدقة ، قليل لبثها ، سريع فناؤها ، عجل ذهابها ، وقالت الثالثة : عدو لنفسه ، ضعيف في بطشه ، سريع الى غشه ، مُزال عن عرشه ، فاستيقظت من نومي وأنا فزعة بذلك ، وأخبرت بذلك بعض قهارمتي فقالت : بعض ما يطرق النائم ، وعبث من عبث

---

١) في نسخة : وريحانة جنية .

التوابـع ، فلما تم فصاله أخذت مرقدي ليلة ومحمد أمامي في مهده ، إذ بهن قد وقفن على رأسي وأقبلن على ولدي محمد، فقالت إحداهن : ملك جبار ، متلاف مهذار ، بعيد الآثار ، سريـع العثـار ، ثم قالت الثانية : ناطق مخصوم ، ومحارب مهزوم ، وراغب محروم ، وشقي مهموم ، وقالت الثالثة: احفروا قبره ، ثم شقوا لحده ، وقدموا أكفانه ، وأعدوا جهازه فان موته خير من حياته ، قالت : فاستيقظت وأنا مضطربة وَجِلة ، وسألت مفسري الأحلام والمنجمين ، فكل يخبرني بسعادته وحياتـه وطول عمره ، وقلبي يأبى ذلك، ثم زجرت نفسي وقلت : وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحتراز واقع القدر ، أويقدر أحد أن يدفع عن أحبابه الأجل ؟

موت ابن عياش : وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة مات أبو بكر بن عياش الكوفي الأسدي وهو ابن ثمان وتسعين سنة ، بعد موت الرشيد بثماني عشرة ليلة .

عزم الامين على خلع أخيه : ولما هم محمد بخلع المأمون شاور عبدالله بن حازم ، فقال له : أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تكون أول الخلفاء نكث عهده ، ونقض ميثاقه ، واستخف بيمينه ، فقـال : اسكت أسكَتَ الله فاك ؛ فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأياً حيث يقول : لا يجتمـع فحلان في هجمة [1] ، وجمع القواد وشاورهم فأتبعوه في مراده الى أن بلغ الى هرثمة بن حازم فقـال : يا أمير المؤمنين ، لن ينصحك من كذبك : ولن يغشك من صدقك ، لا تجرىء القواد على الخلـع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك ، فان الغادر مخذول، والناكث مفلول ، ودخل علي بن عيسى بن ماهان ، فتبسم محمد وقال : لكن شيخ هذه الدعوة، وباب هذه الدولة ، لا يخالف إمامه ، ولا يوهن طاعته ، ثم رفعه الى موضع ما رفعه اليه فيما مضى ، فـكان علي بن عيسى أول من أجاب الى خلع المأمون،

١) في نسخة : أجمة .

فسيره في جيش عظيم نحو خراسان فلما قرب من الري قيل له : ان طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن أن طاهراً لا يثبت له فقال والله ما طاهر الا شوكة من أغصاني وشرارة من ناري ، وما مثل طاهر يؤمر على جيش ، وما بينه وبين الموت الا ان تقع عينه على سوادكم، فان السخال لا تقوى على نطاح الكباش، والثعالب لا تقدر على لقاء الأسد ، فقال له ابنه : ابعث طلائع وارتد موضعاً لعسكرك ، فقال : ليس مثل طاهر يستعدُّ له بالمكايد ويستظهر له بالاحتراز والتحفظ ، انَّ حال طاهر يؤدي الى أمرين : اما ان يتحصن بالري فيثب به اهلها ويكفونا مؤنته ، او يخليها ويدبر راجعاً ، لو قد قربت خيولنا منه، فقال له ابنه: ان الشرارة ربما صارت ضراماً، فقال: اسكت ان طاهراً ليس قرناً في هذا الموضع ، وإنما تحترس الرجال من أقرانها . وسار علي بن عيسى حتى دنت عساكره من الري ؛ وتبين ما عليه طاهر من الجد وأهبة الحرب وضم الأطراف ، فعدل الى رُستاق من رساتيق الري متياسراً عن الطريق ، فنزل به ، وانبسطت عساكره ، واقبل طاهر في نحو من اربعة آلاف فارس فاشرف على عساكر علي بن عيسى وتبين كثرتها وعدة ما فيها ، فعلم ان لا طاقة له بذلك الجيش ، فقال لخواص من معه : نجعلها خارجية ، وكردَسَ خيله كراديس ، وصمد في نحو القلب في سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان ، وخرج اليه من القلب العباس بن الليث مولى المهدي ، وكان فارساً ، فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فانثنى العباس وانضم المعروف بداود سياه الى علي بن عيسى وقد اختلط الناس ، فضربه ضربة فأتى عليه، وكان علي في ذلك الوقت على برذون كميت أرجل ، وتمالأ على رأسه الرجال، وتنازعوا في خاتمه ورأسه ، فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجي ، وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته ، وآخر على خاتمه ، وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعاً للعباس بن الليث ، وبذلك سمي طاهر ذا اليمينين ؛ لجمعه يَدَيه على السيف .

وذكر أحمد بن هشام - وكان من وجوه القواد - قال : جئت الى مضرب طاهر وقد توهم أني قُتِلْتُ في المعركة ومعي رأس علي وقد شد ، فقال : البشري ، هذه خصلة من رأس علي مع غلامي في المخلاة ، فطرحه قُدّامه ، ثم أتى بجثته ، وقد شدّت يداه ورجلاه ، كما يفعل بالدواب اذا ماتت ، فأمر به طاهر فألقي في بئر ، وكتب الى ذي الرياستين الفضل بن سهل بالخبر ، فكان في الكتاب : أطال الله بَقَاكَ ، وكَبَتَ أعداك ، كتابي اليك ، ورأس علي بن عيسى بين يدي وخاتمه في أصبعي ، والحمد لله رب العالمين ؛ فسر المأمون بذلك ، وسُلِّم عليه في ذلك الوقت بالخلافة .

وقد كانت أم جعفر لا تعلق من الرشيد ، فشاور بعض مجالسيه من الحكماء وشكا ذلك اليه ، فأشار عليه بأن يُغيرّها ، فان ابراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة فلم تكن تعلق منه ، فلما وهبت له هاجر علقت منه بإسماعيل فغارت سارة عند ذلك ، فعلقت بإسحاق ، فاشترى الرشيد أم المأمون ، فاستخلاها ، فعلقت بالمأمون ، فغارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد .

قال المسعودي : وقد قدمنا التنازع في ذلك - أعني قصص ابراهيم ، ماعيل واسحاق عليهم السلام - وقول من ذهب الى ان إسحاق هو المأمور بذبحه ، ومن قال : بل اسماعيل ، وما ذكر كل فريق منهم في ذلك ، وقد تناظر في ذلك السلف والخلف فمن ذلك ما جرى بين عبد الله بن عباس وبين مولاه عكرمة ، وقد قال عكرمة : من المأمور بذبحه ؟ فقال : اسماعيل ، واحتج بقول الله عز وجل : (ومن وراء اسحاق يعقوب) ألا ترى أنه بشّر إبراهيم بولادة اسحاق فكيف يأمره بذبحه ، فقال له عكرمة : أنا أوجدك (1) أن الذبيح اسحاق من القرآن ، واحتج بقول الله عز وجل : (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى

---

1) في نسخة : أنا أراخذك .

آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم وإسحاق) فنعمته على إبراهيم : أن نجاه من النار ، ونعمته على اسحاق : أن فداه بالذبح ، وكانت وفاة عكرمة مولى ابن العباس سنة خمس ومائة ، ويكنى أبا عبدالله ، مات في اليوم الذي مات فيه كثيّر عزة ، فقال الناس : مات عظيم الفقهاء وأهل العلم وكبير الشعراء ، وفيها كانت وفاة الشعبي .

الامين ينصب مجلس غناء وهو محاصر : وحدث يوسف بن إبراهيم الكاتب قال : حدثني ابو إسحاق إبراهيم بن المهدي ، قال : بعث إليّ الأمينُ محمدٌ وهو محاصَر ، فصرت إليه ، فإذا هو جالس في طارمة خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة ، وإذا سليمان بن ابي جعفر المنصور معه في جوف الطارمة ، وهي قبة كان اتخذ لها فراشاً مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من انواع الإبريسم ، فسلمت فإذا قدّامه قدح بلور محروز فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال ، وبين يدي سليمان قدح مثله ، فجلست بإزاء سليمان ، فأتيت بقدح كالأول والثاني ، قال : فقال : إنما بعثت إليكما لما بلغني قدوم طاهر بن الحسين الى النهروان ، وما قد صنع في امرنا من المكروه ، وقابلَنا به من الإساءة ، فدعوتكما لأفرج بكما وبحديثكما ، فأقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح ، ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً ؛ قال : فتطيَّرتُ من اسمها ونحن على تلك الحال ، فقال لها : غنّينا ، فوضعت العود في حجرها وغنت :

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً وأكثرَ حزماً منك ضُرّج بالدّم

فتطير من قولها ، ثم قال لها : اسكتي قبّحك الله ، ثم عاد الى ما كان عليه من الغم والإقطاب ، فأقبلنا نحادثه ونبسطه ، الى ان سلا وضحك ، ثم أقبل عليها وقال لها : هاتِ ما عندك ، فغنت :

هُمُ قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبُه

فأسكتها وزأرها[١] وعاد الى حالته الأولى ، فسليناه حتى عاد الى الضحك ، فأقبل عليها الثالثة فقال : غني فغنت :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيسٌ ولم يسمُر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا   صروفُ الليالي والجدودُ العواثر

وقيل : بل إنها غنت :

أما وربِّ السكون والحرَكْ   ان المنايا كثيرة الشرك

فقال لها : قومي عني فعل الله بك كذا وكذا وصنع بك ، فقامت فعثرت بالقدح الذي كان بين يديه فكسرته ، فانهرق الشراب ، وكانت ليلة قمراء ، ونحن على شاطىء دجلة في قصره المعروف بالخلد ، فسمعنا قائلا يقول : (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) قال ابن المهدي : فقمت وقد وثب ، فسمعت منشداً من ناحية القصر ينشد هذين البيتين :

لا تعجبَنّ من العجَب   قد جاء ما يقضي العجب
قد جاء امر فادحٌ   فيه لذي عجب عجب

قال : فما قعدنا معه بعدها الى ان قتل .

وكان الأمين معجبا بأم ولده نظم وهي أم موسى الذي كان سماه الناطق بالحق ، وأراد خلع المأمون والعقدَ له من بعده ، فهلكت ام موسى نظم ، فجزع عليها جزعاً شديداً ، فلما اتصل الخبر بأم جعفر زبيدة قالت : احملوني الى أمير المؤمنين ، فحملت إليه ، فاستقبلها وقال : يا سيدتي ماتت نظم ، فقالت :

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللهفُ   ففي بقائك مما قد مضى خلف
عوّضت موسى فهانت كل مرزئة   ما بعد موسى على مفقودة أسف

---

١) في نسخة : وزجرها .

لهو الامين وقت الحصار : وذكر ابراهيم بن المهدي قال : استأذنت على الامين يوماً ، وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه ، فأبوا ان يأذنوا لي بالدخول عليه ، الى ان كابرت[1] ودخلت ، فإذا هو قد تطلع الى دجلة بالشباك ، وكان في وسط قصره بركة عظيمة لها مخترق الى الماء في دجلة ، وفي المخترق شباك حديد ، فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم ، والغلمان قد انتشروا الى تفتيش الماء وهو كالواله ، فقال لي وقد ثنيت بالسلام وكررت: لا تدري[2] يا عمي ؟ فمقرطتي قد ذهبت في البركة الى دجلة ، والمقرطة : سمكة كانت قد صيدت له وهي صغيرة فقرّطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در ، وقيل : ياقوت ؛ قال : فخرجت وأنا آيس من فلاحه ، وقلت: لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت .

صفات الامين : وكان محمد في نهاية الشدة والقوة والبطش والبهاء والجمال ، الا انه كان عاجز الرأي ، ضعيف التدبير ، غير مفكر في أمره .

وحكي انه اصطبح يوماً ، وقد كان قد خرج أصحاب اللبابيد والحراب على البغال – وهم الذين كانوا يصطادون السباع – الى سبع كان بلغهم خبره بناحية كوثى والقصر ، فاحتالوا في السبع الى ان أتوا به في قفص من خشب على جمل بُخْتي ، فحُطّ بباب القصر وأدخل ، فمثل في صحن القصر والأمين مصطبح ، فقال : خلوا عنه وشيلوا باب القفص ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه سبع هائل أسود وحش ، فقال : خلوا عنه ، فشالوا باب القفص ، فخرج سبع أسود له شعر عظيم مثل الثور ، فزأر وضرب بذنبه الى الارض فتهارب الناس ، وغلقت الأبواب في وجهه ، وبقي الأمين وحده جالساً في موضعه غير مكترث بالأسد ، فقصده الأسد حتى دنا منه ، فضرب الأمين بيده إلى مرفقة أرمنية ، فامتنع منه بها ، ومد السبع يده اليه ، فجذبها

---

١) في نسخة : كابرت .

٢) في نسخة : لا تؤذوني فمقرطتي .

الأمين وقبض على أصل أذنيه ، وغمزه ثم هَزَّه أو دفع به الى خلف فوقع السبع ميتاً على مؤخره ، وتبادر الناسُ الأمينَ فإذا أصابعه ومفاصل يديه قد زالت عن مواضعها ، فأتي بجبر فردّ عظام أصابعه الى مواضعها ، وجلس كأنه لم يعمل شيئاً ، فشقوا بطن الأسد فإذا مرارته قد انشقت عن كبده .

نبوءة بخلع الامين : وحكي أن المنصور جلس ذات يوم ودخل اليه بنو هاشم من أهله؛ فقال لهم وهو مستبشر: أما علمتم أن محمداً المهدي ولد البارحة له ولد ذكر وقد سميناه موسى؟ فلما سمع القوم ذلك وجموا وكأنما حثا في وجوههم الرماد ، وسكتوا ولم يُحيروا جواباً ، فنظر اليهم المنصور فقال لهم : هذا موضع دعاء وتهنئة ، وأراكم قد سكتم ثم استرجع ، فقال لهم كأني بكم لما أخبرتكم بتسميتي إياه موسى اغتممتم به ، لأن المولود المسمى بموسى بن محمد هو الذي على رأسه تختلف الكلمة وتسفك الدماء وتنتهب الخزائن ، ويضطرب الملك ، ويقتل أبوه ، وهو المخلوع من الخلافة ، ليس هو ذا ، لا ، ولا هذا زمانه ، والله إن جدّ هذا المولود -- يعني هرون الرشيد -- لم يولد بعد قال : فدعوا له وهنوه وهنوا المهدي ، وكان هذا موسى الهادي أخا الرشيد .

وكان العهد الذي كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون وأودعه الكعبة أن الغادر منهما خارجٌ من الأمر ، أيهما غدر بصاحبه ، والخلافة للمغدور به .

وذكر ياسر خادم أم جعفر ، وكان من خواصّها ، أنه لما أحيط بمحمد دخلت عليه أم جعفر باكية ، فقال لها : مه ، إنه ليس بجزع النساء وهلعهن عُقِدَتْ التيجان، وللخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع ، وراءك وراءك.

ويقال : إن محمداً قصف[1] عند طاهر ، فبينا طاهر في بستانه اذ ورد كتاب من محمد بخطه ، فاذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم أنه ما قام

١) في نسخة : ان محمداً كان متضمناً عند طاهر .

لنا مذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه منا إلا السيف ، فانظر لنفسك أو دع ، قال : فلم يزل والله يتبين موقع الكتاب من طاهر ، فلما رجع الى خراسان أخرجه الى خاصته ، وقال لهم : والله ما هـــذا كتاب مضعوف ، ولكنه كتاب مخذول .

ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء الى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — مَنْ أبوه وأمه من بني هاشم ، إلا عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ومحمد بن زُبَيْدَة .

وفي محمد بن زُبَيْدَة يقول أبو الغول :

ملك أبوه وأمه من نبْعَة منها سِرَاجُ الأمة الوهَّاجُ
شربت بمكة من ذرى بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج

وفي سنة أربع[1] وتسعين ومائة كان ابتداؤه بالغدر بالمأمون .

عبد الملك بن صالح بن علي : وفي سنة سبع وتسعين ومائة مات بالرقة عبد الملك بن صالح بن علي في أيام الأمين وكان عبد الملك أفصح ولد العباس في عصره ، يقال : إن الرشيد لما اجتاز ببلاد مَنْبج من أرض الشام نظر الى قصر مشيد ، وبستان مُغْتَمّ بالأشجار كثير الثمار ، فقال لعبد الملك : لمن هذا القصر ؟ قال : هو لــك ولي بك يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف بناء القصر ؟ قال : دون منازلك وفوق منازل الناس ، قال : فكيف مدينتك ؟ قال : عذْبة الماء ، باردة الهواء ، صلبة الموطأ ، قليلة الأدواء ، قال : كيف ليلها ؟ قال : سَحَر كله ، وقال له : يا أبا عبد الرحمن ما أحسن بلادكم ! قال: فكيف لا تكون كذلك وهي تربة حمراء ، وسنبلة صفراء ، وشجرة خضراء ، فيافي فيح ، وجبال وضيح ، بين قيصوم وشيح ، فالتفت الرشيد الى الفضل ابن الربيع فقال : ضرب السياط أهْوَنُ علي من هذا الكلام .

---

١) في نسخة : سبع وتسعين ومائة .

ولما سمي محمد ابنه « موسى الناطق بالحق » وأخذ له العهد على الناس الفضلُ بن الربيع وزيرُه ، وموسى يومئذ لا ينطق بأمر ، ولا يعرف حسناً ولا يعقل قبيحاً ولا يخلو من الحاجة الى من يخدمه في ليله ونهاره ويقظته ومنامه وقيامه وقعوده ، واحضنه علي بن عيسى بن ماهان قال في ذلك رجل أعمى من أهل بغداد يعرف بعلي بن أبي طالب :

أضاع الخلافةَ غِشُّ الوزير ورفسْقُ الإمام ورأي المشير
وما ذاك إلا طريق الغرور وشر المسالك طُرقُ الغرور
فعال الخليفة أعجوبة وأعجب منه فعال الوزير
وأعجب من ذا وذا أننا نبايع للطفل فينا الصغير
ومَنْ ليس يُحسِن مسح أنفه ولم يخل من متنه حجرُ ظِئرْ
وما ذاك إلا بباغٍ وغاوٍ يريدان نقضَ الكتاب المنير
وهذان لولا انقلاب الزمان أفي العير هذان أم في النفير
ولكنها فتن كالجبال ترتع فيها بصنع الحقير

ولما قتل طاهر بن الحسين علي بن عيسى بن ماهان سار فنزل حلوان ، وذلك على خمسة أيام من مدينة السلام ، فتعجب الناس من زيادة أمره ، وإدبار أصحاب الأمين وهزيمتهم على كل حال ، وأيقنت القلوب بغلبة طاهر وظهور المأمون ، وأسقط في يدي الفضل بن الربيع وأصحابه ، فقال الشاعر الأعمى في ذلك ، وكان مأمونياً متعصباً على محمد بن زبيدة مع المأمون ، وكان من أهل بغداد ومقامه بها ، من أبيات :

عجبتُ لمعشر يَرجُون نُجحاً لأمرٍ ما تتم له الأمور
وكيف يتم ما عقدوا وراموا وأسُّ بنائهم منه الفُجُورُ
أهاب الى الضلال بهم غويّ وشيطان مواعده غرور
يصيب بهم ويلعب كل لعب كما لعبت بشاربها الخمور

وكادوا الحق والمأمون غدراً ... وليس بمفلح أبداً غَدُورُ
هو العدل النجيب البَرُّ فينا ... تضمن حبه منا الصدور
وعاقبة الأمور له يقيناً ... به شهد الشريعة والزبور
فيملِكُ أربعينَ لها وثاء ... تتم به الأهلة والشهور
فكيدوا أجمعين بكل كيد ... وكيدكم له فيه السرور

وبلغ محمداً فجمع قواده وبطانته عندما ظهر من أمر طاهر ، وشاورهم وقال : أحضروا لي غناءكم كما احضرت خراسان لعبدالله غناءها ، وكانت كما قال اعشى ربيعة :

ثم ما هابوا ولكن قدموا ... كبش غارات اذا لاقى نطحْ

اما والله لقد حدثت بأحاديث الأمم السالفة ، وقرأت كتب حروبها وقصص من اقام دولها ، فما رأيت في حديثهم[1] حديثاً لرجل منهم ـوابيـ كهذا الرجل في اقدامه وسياسته ، وقد قصدني واجترأ علي ، وتلى الهامة العظيمة من الجند وبجمع القواد وساسة الحروب ، فهاتوا اليوم ما عندكم ، فقالوا : يُبْقِي الله امير المؤمنين يكفيه كما كَفَى الخلفاء قبله بَغْيَ من بَغَى عليهم .

ولما انهزم جيش محمد بين يدي طاهر ولم يقم له قائمة منهم قال سليمان ابن ابي جعفر : لعن الله الغدار ، ماذا جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه ، وابعد الله نسبه من اهل الفضل ، ما اسرع ما انتصر الله للمأمون بكبش المشرق يعني طاهراً وفي ذلك يقول الشاعر :

تبًّا لذي الآثام والمتزندق ... ماذا دعاه الى العظيم الموبِق
والغدر بالبر الزكي أخي التقى ... والسائس المأمون غير الأخرق
زين الخلافة والإمامة والنهى ... اهل السماحة والندى المتدفق

---

١) في نسخة : فما رأيت في ذلك كله حديثاً لرجل منهم .

إن تغدروا جهلا بوارث احمد ووصيّ كل مسدد وموفق
فالله للمأمون خير مؤازر والماجد القمقام كبش المشرق

من الامين الى طاهر بن الحسين : ولما احيط بمحمد من الجانب الشرقي والغربي ، وكان هرثمة بن اعين نازلا مما يلي النهروان بالقرب من باب خراسان ، وثلاثة ابواب ، وطاهر من الجانب الغربي مما يلي الياسرية وباب المحول والكناسة ، جمع قواده فقال : الحمد لله الذي يضع من يشاء بقدرته ويرفع ، والحمد لله الذي يعطي بقدرته من يشاء ويمنع ، والحمد لله الذي يقبض ويبسط واليه المصير ، احمده على نوائب الزمان ، وخذلان الأعوان ، وتشتت الحال ، وكسوف البال ، وصلى الله على محمد رسوله وآله وسلم ، وقال : اني لأفارقكم بقلب موجع ، ونفس حزينة ، وحسرة عظيمة ، وإني محتال لنفسي ، فاسأل الله ان يلطف بي بمعونته ، ثم كتب الى طاهر : أما بعد ، فإنك عبد مأمور تنصحت فنصحت ، وحاربت فنصرت ، وقد يغلب الغالب ، ويخذل المفلح ، وقد رأيت الصلاح في معاونة أخي ، والخروج اليه من هذا السلطان ، اذ كان أولى به وأحق ، فأعطني الأمان على نفسي وولدي وأمي وجدتي وخدمي وحاشيتي وأنصاري وأعواني حتى أخرج اليك وأتبرأ من هذا الأمر الى اخي ، فان رأى الوفاء لي بأمانك وإلا كان أولى وأحق ، قال : فلما قرأ طاهر الكتاب قال : الآن لما ضيق خناقه ، وهيض جناحه ، وانهزم فساقه ؟ لا والذي نفسي بيده حتى يضع يده في يدي وينزل على حكمي ، فعند ذلك كتب الى هرثمة يسأله النزول على حكم أمانه.

وقد كان المخلوع جهز جماعة من رجاله من الأبناء وغيرهم ممن استأمن اليه لدفع المأمونية عنه ، فمالوا نحو هرثمة ، وكان طاهر بن الحسين يمد هرثمة بالرجال ، ولم يلقَ هرثمة مع ذلك كثير كيد ، فلما مال من ذكرنا الى حرب هرثمة وعلى الجيش بشر وبشير الأزديان بعث اليهما طاهر يتوعّدُهما ، فلم يأمنا صولته ، لإشرافه على الفتح ، فخليا عن الجيش ، وانفض الجمع ، وكان طاهر قد نزل

في البستان المعروف بباب الكبّاش الطاهري ؛ ففي ذلك يقول بعض العيّارين من أهل بغداد ومن اهل السجون :

لنا من طاهر يومٌ عظيمُ الشأن والخطب
علينا فيه بالأنجا د عن هرثمة الكلب
ومنا لأبي الطيب يوم صادق الكرب
أتاه كل طرّار ولص كان ذا نقب[1]
وعريان على جنبيه آثار من الضرب
اذا ما يحلّ من شرق اتيناه من الغرب

وضاق الأمر بمحمد الأمين ففرق [2] في قواده المحدثين دون غيرهم خمسمائة ألف درهم وقارورة غالية ، ولم يعطِ قدماء أصحابه شيئاً ، فأتت طاهراً عيونه وجواسيسه بذلك ، فراسلهم وكاتبهم ، ووعدهم ومنّاهم ، وأغرى الأصاغر بالقادة ، حتى غضبوا لذلك ، وشغبوا على الأمين ، وذلك يوم الاربعاء لست ليالٍ خلون من ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائة ، فقال رجل من المشغبة على الأمين :

قل لأمين الناس في نفسه ما شتّت الجند سوى الغاليه
وطاهر — نفسي فدى طاهر — برُسْله والعُدّة الكافيه
أضحى زمامُ الملك في كفه مقابلاً للفئة الباغيه
يا ناكثاً أسلمه نكثه عيوبهُ من خبثه فاشيه
قد جاءك الليث بشدّاته مستكلباً في أسد ضاريه
فاهرب فلا مهرب من مثله إلا الى النار أو الهاويه

ونقل طاهر من الياسرية ، فنزل في باب الأنبار ، وحاصر أهل بغداد ، وغاديء القتال وراوحهُ ، حتى توا كل الفريقان ، وخربت الديار ، وعفت

١) في نسخة : أتاه كل كرار .
٢) في نسخة : وأتى محمداً المال ففرق في قواده ـ الخ.

الآثار ، وغلت الأسعار ، وذلك في سنة ست وتسعين ومائة ، وقاتل الأخ أخاه والابن أباه ، هؤلاء محمدية وهؤلاء مأمونية ، وهدمت المنازل ، وأحرقت الديار ، وانتهبت الأموال ، فقال الأعمى في ذلك المعروف بعلي أبي طالب :

تقطّعت الأرحام بين العشائر ... وأسلمهم أهل التقى والبصائر
فذاك انتقام الله من خلقه بهم ... لما اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة ... ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
ولم نستمع من واعظ ومُذكّر ... فينجع فينا وَعْظُ ناه وآمر
فنبكي على الإسلام لما تقطعت ... رجاه ، ورَجّى خيرها كل كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم ... فمن بين مقهور ذليل وقاهر
وصار رئيس القوم يحمل نفسه ... وصار رئيساً فيهمُ كلُّ شاطر
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة ... ولا يستطيع البَرُّ دفعاً لفاجر
فمن قائم يدعو الى الجهد عامداً ... ومن اول قد سن عنا لآخر
تراهم كأمثال الذئاب رأت دماً ... فأمّته لا تلوي على زجر زاجر
إذا هدم الأعداء أول منزل ... بسعيهمُ قاموا بهدم الأواخر
فأصبحت الأغنام بين بيوتهم ... تحثهم بالمُرْهفات البواتر
وأصبح فسّاق القبائل بينهم ... تشد على أقرانها بالخناجر
فنبكي لقتلى من صديق ، ومن أخ ... كريم ، ومن جار شفيق مجاور
ووالدة تبكي بحزن على ابنها ... فيبكي لها من رحمةٍ كل طائر
وذات حليل أصبحت وَهْيَ أيّمٌ ... وتبكي عليه بالدموع البوادر
تقول له : قد كنت عزاً وناصراً ... فغيب عني اليوم عزّي وناصري
وأبْتُ لإحراق وَهَدْم منازل ... وقتل وإنهاب اللُّهى والذخائر
وابراز رَبّات الخدور حواسراً ... خرجن بلا خُمْر ولا بمآزر

تراها حيارى ليس تعرف مذهباً ... نوافر أمثال الظباء النوافر
كأن لم تكن بغداد أحسن منظراً ... ومَلهىً رأته عين لاهٍ وناظر
بلى ، هكذا كانت فأذهب حسنها ... وبدّد منها الشمل حكم المقادر
وحلّ بهم ما حل بالناس قبلهم ... فأضحوا أحاديثاً لبادٍ وحاضر
أبغداد ، يا دار الملوك ، ومجتنى ... صنوف المنى ، يا مستقرّ المنابر
ويا جنة الدنيا ، ويا مطلب الغنى ... ومستنبط الأموال عند المتاجر
أبيني لنا : أين الذين عهدتهم ... يحلون في روض من العيش زاهر ؟
وأين الملوك في المواكب تغتدي ... تشبه حسناً بالنجوم الزواهر ؟
وأين القضاة الحاكمون برأيهم ... لورد أمور مشكلات الأوامر ؟
أو القائلون الناطقون بحكمة ... ورَصْف كلام من خطيب وشاعر
وأين مراح للملوك عهدتها ... مزخرفة فيها صنوف الجواهر
ترشّ بماء المسك والوَرْد أرضها ... يفوح بها من بعد ريح المجامر
وراح الندامى فيه كل عشية ... الى كل فياض كريم العناصر
ولهو قيانٍ تستجيب لنغمها ... اذ هو لبّاها حنين المزاهر
فما للملوك الغُرّ من آل هاشم ... وأشياعهم فيها اكتفوا بالمفاخر
يروحون في سلطانهم وكأنهم ... يروحون في سلطان بعض العشائر
تخاذل عما نالهم كبراؤهم ... فنالهمُ بالكره أيدي الأصاغر
فأقسم لو أن الملوك تناصروا ... لذلّت لها خوفاً رقاب الجبابر

قف على ألقاب قادة الجيش (الضباط) : وبعث هرثمة بن أعين بزهير ابن المسيب الضبيّ من الجانب الشرقي ، فنزل الماطر مما يلي كلواذا ، وعشّر ما في السفن من أموال التجار الواردة من البصرة وواسط ، ونصب على بغداد المنجنيقات ، ونزل في رقة كلواذا والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصمد نحوه خلق من العيّارين وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عُراة في أوساطهم التبابين والميازر ، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ ، ودَرَقاً

من الخوص والبواري قد قُيّرت وحشيت بالحصى والرمل ، على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده ، فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والأمير ، وناس عُراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ، ومقاود قد اتخذت لهم ، ولجم وأذناب من مكانس ومذابّ ، فيأتي العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة على رؤوسهم خوذ الخوص ودَرَقُ البواري ، ويأتي النقيب والقائد والأمير كذلك ، فتقف النظارة ينظرون الى حربهم مع أصحاب الخيول الفُرَّه الجواشن والدروع والتجافيف والسواعد والرماح والدرق التبتية ؛ فهؤلاء عراة وهؤلاء على ما ذكرنا من العدّة فكانت للعراة على زهير ، وأتاه المدد من هرثمة ، فانهزمت العراة ، ورمتت بهم خيولهم : وتحاصروا جميعاً ، وأخذهم السيف ، فقتل منهم خلق ، وقتل من النظارة خلق ، فقال في ذلك الأعمى (١) ، وذكر رَمْيَ زهير بالمنجنيق :

لا تقرب المنجنيق والحجرا ... وقد رأيت القتيل إذ قبرا
باكرَ كيلا يفوته خبر ... راح قتيلاً وخلَّف الخبرا
أرادَ ألا يقال كان لهم ... أمر فلم يدر ما به أمرا
يا صاحب المنجنيق ما فعلت ... كفاك ؟ لم تُبقيا ولم تذرا
كان هواه سوى الذي أمرا ... هيهات أن يغلب الهوى القدرا

فلما ضاق الأمر بالأمين في أرزاق الجند ضرب آنية الذهب والفضة سراً ، وأعطى رجاله ، وتحيز الى طاهر الحربية وغيرها من الأرباض مما يلي باب الأنبار ، وباب حرب ، وباب قطربل ، فصارت الحرب في وسط الجانب

---

١) في نسخة : فقال في ذلك بعضهم .

الغربي ، وعملت المنجنيقات بين الفريقين وكثر الحريق والهدم ببغداد والكرخ وغيره من الجانبين ، حتى درست محاسنها ، واشتد الأمر ، وتنقل الناس من موضع إلى موضع ، وعم الخوف ، فقال الشاعر :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زماناً قرة العين ؟
ألم يكن فيك قوم كان قربهمُ وكان مسكنهم زيناً من الزين ؟
صاح الزمان بهم بالبين فانقرضوا ماذا لقيت بهم من لوعة البين ؟
استودع الله قوماً ما ذكرتهم إلا تحدّر ماء الدمع من عيني
كانوا ففرّقهم دهر وصدّعهم والدهر يصدع ما بين الفريقين

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين اربعة عشر شهراً ، وضاقت بغداد بأهلها ، وتعطلت المساجد ، وتركت الصلاة ، ونزل بها ما لم ينزل بها قط مثله ، مذ بناها ابو جعفر المنصور ، وقد كان لأهل بغداد في ايام حرب المستعين والمعتز حرب نحو هذا من خروج العيارين الى الحرب وقد اتخذوا خيلا منهم وأمراء كالملقب بنينويه خالويه وغيرهم ، يركب الواحد منهم على واحد من العيارين ويسير الى الحرب في خمسين ألف عراة ، ولم ينزل بأهل بغداد شر من هذا الحرب حرب المأمون والمخلوع ، وقد استعظم أهل بغداد ما نزل بهم في هذا الوقت في سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة من خروج ابي اسحاق المتقي لله عنهم ، وما كان قبل هذا الوقت من البريديين ، وابن رائق وتوزون التركي ، وما دفعوا اليه من الوحشة بخروج ابي محمد الحسن بن ابي الهيجاء عبدالله بن حمدان الملقب بناصر الدولة وأخيه علي بن عبدالله الملقب بسيف الدولة عليهم ، لبعد العهد مما حلّ بالمنازل بها ، وطول السنين ، وغيبة ذلك عنهم وبعدهم منه ، وتقدم مثل اولئك العيارين الذين كانوا في ذلك العصر ، واشتد الأمر بين المأمونية والعراة وغيرهم من اصحاب المخلوع ، وحوصر محمد في قصره من الجانب الغربي ، فكان بينهم في بعض الأيام وقعة تفانى فيها خلق كثير من الفريقين ، فقال في ذلك حسين الخليع :

لنا النصر بعون الله والكرة لا الفره
وللمراق اعدائك يوم السوء والبره
وكأس يلفظ الموت كريه طعمها مره
سقونا وسقيناهم ولكن لهم اخره
أمينَ الله ثق بالله تُعْطَ الصبر والنصره
كِل الأمر الى الله كلاك الله ذو القدره
كذاك الحرب احياناً علينا ولنا مره

وقعة دار الرقيق: وكانت وقعة اخرى عظيمة بشارع دار الرقيق هلك فيها خلق كثير، وكثر القتل في الطرق والشوارع، ينادي هذا بالمأمون والآخر بالمخلوع، ويقتل بعضهم بعضا، وانتهبت الدور، فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة بما يسلم معه الى عسكر طاهر فيأمن على نفسه وماله، وفي ذلك يقول الشاعر:

بكتْ عيني على بغداد لما فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدّلنا هموماً من سرور ومن سعة تبدلنا بضيق
اصابتنا من الحساد عين فأفنت اهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسراً ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي: يا صحابي وقائلة تنادي: يا شقيقي
وحوراء المدامع ذات دَلّ مضمّخة المجاسد بالخلوق
تنادي بالشفيق؛ فلا شفيق وقد فقد الشفيق مع الرفيق
وقوم اخرجوا من ظل دنيا متاعهمُ يباع بكل سوق
ومغترب بعيد الدار مُلقىً بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً فما يدرون من أي الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه وقد هرب الصديق عن الصديق
ومهما أنسَ من شيء تولى فإني ذاكر دار الرقيق

صرامة العراة : وسأل قائد من قواد خراسان طاهراً ان يجعل له الحرب في يومها له فيه ، ففعل طاهر له ذلك ، فخرج القائد وقد حقرهم ، وقال : ما يبلغ من كيد هؤلاء ، ولا سلاح معهم ، مع ذوي البأس والنجـــدة والسلاح والعدة؟ فبصر به بعض العراة وقد راماه مدة طويلة حتى فنيت سهام القائد، وظن ان العريان فنيت حجارته ، فرماه بحجر بقيت في المخلاة ، وقد حمل عليه القائد ، فما اخطأ عينه ، وثناه بحجر آخر ، فكاد يصرع القائـــد عن فرسه ، ووقعت البيضة عن رأسه ، فكرّ راجعا وهو يقول : ليس هؤلاء بناس ، هؤلاء شياطين ، ففي ذلك يقول أبو يعقوب الخريمي :

الكرخ اسواقه معطـــلة ... يستن عيّارهـــا وعابرها
خرّجت الحرب من أراذلهم ... أسود غيل علّت قساورها

وقال علي الأعمى :

خرّجَتْ هذه الحروب رجالا ... لا لقحطان ، لا ، ولا لنزار
معشر في جواشن الصوف يغدو ... ن إلى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار إذا ما الــ ... ــأبطال عاذوا من القنا بالفرار
واحدٌ منهم يشدّ على ألــ ... ـــفين عريان ما له من إزار
ويقول الفتى إذا طعن الطعـــ ... ــنة : خذْها من فتى العيار

الوقائع الحاسمة : واشتد القتال في كل يوم ، وصبر الفريقان جميعاً ، وصار حامية المخلوع وجنده العراة أصحاب خوذ الخوص ودرق البواري ، وضايق طاهر القوم ، وأقبل يقتطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، ويصير في حيزه أهل تلك الناحية معاونين له في حربه ، وأقبل الهدم يكثر فيما ليس من حيزه ، ثم جعل يحفر الخنادق بينه وبين أصحاب المخلوع في مواضع الدور والمنازل والقصور ، وأصحاب طاهر في قوة وإقبال ، وأصحاب المخلوع في نقص وإدبار ، وأصحاب طاهر يهدمون ، وأصحاب المخلوع يأخذون بعض

الدور من الخشب وأثواب وغير ذلك ، وينهبون المتاع ، فقال رجل من الحمدية :

لنا كل يوم ثلمة لا نسدها يزيدون فيما يطلبون وننقص
إذا هدّموا داراً أخذنا سُقوفها ونحن لأخرى مثلها نتربص
يثيرون بالطبل القنيص، وإن بدا لهم وجهُ صيدٍ من قريب تقنصوا
وقد أفسدوا شرقَ البلاد وغربها علينا فما ندري الى أين نشخص
إذا حضروا قالوا بما يبصرونه وإن لم يروا شيئاً قبيحاً تخرصوا
وقد رخصت قراؤنا في قتالهم وما قتل المقتول إلا المرخص

ولما نظر طاهر الى صبر أصحاب المخلوع على هذه الحال الصعبة قطع عنهم موادّ الأقوات وغيرها من البصرة وواسط وغيرهما من الطرق ، فكان الخبز في حد المأمونية عشرين رطلا بدرهم ، وفي حد الحمدية رطل بدرهم ، وضاقت النفوس وأيسوا من الفرج ، واشتد الجوع ، وسر من سار إلى حيز طاهر ، وأسف من بقي مع المخلوع ، وتقدم طاهر في سائر أصحابه من مواضع كثيرة، وقصد باب الكباش [1] ، فاشتد القتال ، وتبادرت الرؤوس ، وعمل السيف والنار ، وصبر الفريقان ، وكان القتل أعم في أصحاب طاهر ، وفَنِيَ خلق من العراة اصحاب مخالي الحجارة والآجُرّ وخوذ الخوص ودرق الحصر والبواري ورماح القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر ، وكان ذلك في يوم الأحد ؛ ففي ذلك يقول الأعمى :

وقعة يوم الأحدِ كانت حديثَ الأبدِ
كم جَسدٍ أبصرته مُلقىً وكم من جَسدِ
وناظر كانت له مَنِيَّة بالرصَدِ
أتاه سهم عائر فشقَّ جوف الكبد

---

١) في نسخة : وتوجه نحو باب الكناس ، واشتد الجلاد .

وآخـــر ملتهـب مثل التهـاب الأسد
وقائل : قد قتـلوا ألـفاً ولمـا يزد
فقائل : أكثر ، بل مـا لهـمُ من عدد
قلت لمطعون وفيـه طعنة لم تشـد :
من أنت ؟ يا ويلك يا مسكين من محمد
فقال : لا من نسب دانٍ ، ولا من بلد
ولا أنا للغي قـا تلتُ ولا للرشد
ولا لشيء عـاجل يصير منه في يدي

ولما ضاق بمحمدٍ الحالُ واشتد به الحصار أمر قائداً من قواده يقال له ذريح أن يتبع أصحاب الاموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم ، وقرّن معه آخر يعرف بالهرش ، فكانا يهجمان على الناس ، ويأخذان بالظنة ، فاجتبيا بذلك السبب أموالاً كثيرة ، فهرب الناس بعلة الحج ، وفرّ الأغنياء من ذريح والهرش ففي ذلك يقول عليُّ الأعمى :

أظهَروا الحج ومـا يبغونه بل من الهرش يريدون الهرب
كم أناس أصبحوا في غبطة رَكضَ الليل عليهم بالعطب
كل مَنْ زار ذريـح بيته لقِيَ الذلَّ ووافاه الحَرَبْ

في شعر له طويل .

ولما عم البلاد أهل الستر اجتمع التجار بالكرخ على مكاتبة طاهر أنهم ممنوعون منه ومن الخروج إليه ، ومغلوبٌ عليهم وعلى أموالهم ، وأن العُراة والباعة هم الآفـــة ، فقال بعضهم : إنكم ان كاتبتم طاهراً لم تأمنوا صولة المخلوع بذلك ، فدعوهم فإن الله مهلكهم ، وقال قائلهم :

دعوا أهل الطريق فمن قريب تنـالهمُ مخاليب الصقور
فتهتك حُجْبَ أكباد شداد وشيكاً ما تصير إلى القبور
فان الله مهلكهم جميعـاً لأسبـاب التمرد والفجور

وثارت العُراة ذات يوم في نحو مائة ألف بالرماح والقصب والطرادات من القراطيس على رؤوسها ، ونفخوا في بوقات القصب وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من الحمدية ، وزحفوا من مواضع كثيرة نحو المأمونية ، فبعث إليهم طاهر بعدة قواد وأمراء من وجوه كثيرة ، فاشتد الجلاد ، وكثر القتل ، وكان للعُراة على المأمونية الى الظهر ، وكان يوم الاثنين ، ثم ثارت المأمونية على العُراة من أصحاب محمد ؛ ففرق منهم وقتل وأحرق نحو عشرة آلاف ، وفي ذلك يقول الشاعر الأعمى :

بالأمير الطاهر بن الحسين صبحونا صبيحة الاثنين
جمعوا جمعهم فثار إليهم كل صُلْب القناة والساعدين
يا قتيل العُراة مُلقىً على الشط تطاه الخيول في الجانبين
ما الذي كان في يديك إذا ما اصطلح الناس أية الخلتين
أوزيرٌ أم قائد ، بل بعيد أنتَ من ذين موضع الفرقدين
كم بصيرٍ غدا بعينين كي ينظر ما حالهم فراح بعين
ليس يخطئون ما يريدون ما إن يقصدوا منهم سوى الناظرين

واشتد الأمر بمحمد المخلوع، فباع ما في خزائنه سراً، وفرق ذلك أرزاقا فيمن معه ، ولم يبقَ معهم ما يعطيهم ، وكثرت مطالبتهم إياه ، وضيق عليه طاهر ، وكان نازلاً بباب الأنبار في بستان هنالك ، فقال محمد : وددت أن الله قتل الفريقين جميعاً ؛ فما منهم إلا عدو : مَنْ معي ومَن عليّ ؛ أما هؤلاء فيريدون آمالي ، وأما أولئك فيريدون نفسي ، وقال :

تفرّقوا ودَعوني يا معشر الأعوان [1]
فكلكم ذو وجوه كثيرة الألوان
وما أرى غير إفْك وتُرّهات الأماني

---

١) في نسخة : تفرقوا أو دعوني .

ولست أملك شيئاً فسائلوا إخـــواني
فالويـل فيا دهاني من نازل البستان

يعني طاهر بن الحسين .

ولما اشتد الأمر عليه وجدّ به ونزل هرثمة بن أعـــين بالجانب الشرقي ، وطاهر بالجانب الغربي ، وبقي محمد في مدينة أبي جعفر ، شاور من حضره من خواصه في النجاة بنفسه ؛ فكل أدلى برأي ، وأشار بوجه ؛ فقال قائل منهم : تكاتب ابن الحسين وتحلف له بما يثق به أنك مفوض أمرك إليـه ، لعله أن يجيبك الى ما تريد منه ، فقال : ثكلتك أمك ! لقد أخطأت الرأي في طلبي المشورة منك ، أما رأيت ثأر رجـــل لا يؤول الى عـذر[1] ؟ وهـــل كان المأمون لو اجتهد لنفسه وتولّى الأمر برأيه بالغاً عشر ما بلغه له طاهر ؟ ولقد دسسْت وفحصتُ عن رأيه ؛ فمـــا رأيته يطلب إلا تأثيل المكارم ، وبُعْدَ الصيت والوفاء ، فكيف أطمـــع في استذلاله بالأموال وفي غدره والاعتماد في عقله ؟ ولو قد أجاب إلى طاعتي وانصرف إليّ ، ثم ناصبني جميعُ الترك والديلم ما اهتممت بمناصبتهم ، ولكنت كما قال أبو الأسود الدؤلي في الأزد عند إجارتها زياد بن أبيه :

فلمـــا رآهم يطلبون وزيره وساروا إليه بعد طول تمَادِ
أتى الأزْدَ إذ خاف التي لا بقـَا لها عليه ، وكان الرأي رأي زياد
فقالوا له : أهلا وسهلا ومرحباً أصَبْتَ فكاشفْ من اردت وعَادِ
فأصبح لا يخشى من الناس كلهم عدواً ، ولو مالوا بقوة عـــاد

والله لوددت أنه أجابني إلى ذلك فأبحته خزائني،وفـوّضْتُ إليه ملكي ، ورضيت بالمعاش تحت يديه ، ولا أظنني مقلته ، ولو كانت لي ألف نفس . فقال السندي : صدقت والله يا أمير المؤمنين، ولو أنـــك أبوه الحسين بن

---

[1]) في نسخة : لا يؤول الى غدر .

٣٤٨٨ ح

مصعب ما استبقاك ، فقال محمد : وكيف لنا بالخلاص إلى هرثمة ولات حين مناص ! وراسل هرثمة ، ومال إلى جنبته ، فوعده هرثمة بكل ما أحبّ ، وأنه يمنعه ممن يريد قتله ؛ وبلغ ذلك طاهراً ، فاشتد عليه وزاد غيظه وحنقه[1] ووعده هرثمة أن يأتيه في حراقة إلى مشرعة باب خراسان فيصير به إلى عسكره هو ومن أحبّ ، فلما همّ محمد بالخروج في تلك الليلة — وهي ليلة الخميس ، لخمس ليال بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة — دخل إليه الصعاليك من أصحابه ،وهم فتيان الأبناء والجند ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، ليس معك من ينصحك ، ونحن سبعة آلاف رجل مقاتلة ، وفي إصطبلك سبعة آلاف فرس يحمل كل منا على فرس ونفتح بعض أبواب المدينة ، ونخرج في هذه الليلة ،فما يُقدِمُ علينا أحد إلى أن نصير إلى بلد الجزيرة وديار ربيعة ، فنجبي الأموال ، ونجمع الرجال ، ونتوسط الشام وندخل مصر ، ويكثر الجيوش والمال ، وتعود الدولة مقبلة جديدة ، فقال هذا : والله الرأيُ ، فعزم على ذلك وهمّ به وجنَح إليه ، وكان لطاهر في جوف دار الأمين غلمانٌ وخدَم من خاصة الأمين يبعثون إليه بالأخبار ساعة فساعة ، فخرج الخبر إلى طاهر من وقته ، فخاف طاهر وعلم أنه الرأي إن فعله ، فبعث إلى سليمان بن أبي جعفر وإلى ابن نهيك والسندي بن شاهك — وكانوا مع الامين — إن لم تزيلوه عن هذا الرأي لأخربَنّ دياركم وضياعكم ولأزيلَنّ نعمكم ولأتلفَنّ[2] نفوسكم ، فدخلوا على الأمين في ليلتهم ، فأزالوه عن ذلك الرأي ، وأتاه هرثمة في الحرّاقة إلى باب خراسان ، ودعا الأمين بفرس يقال له الزهيري ، أغر محجل أدهم محذوف ، ودعا الأمين بابنيه موسى وعبد الله فعانقهما وشمهما وبكى ، وقال : الله خليفتي عليكما ، فلست أدري أألتقي معكما بعدها أو لا ؛ وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود ، وقدّامه شمعة ، حتى أتى باب خراسان إلى المشرعة والحراقة قائمة فنزل ودخل الحراقة ، فقبل هرثمة بين

---

١) في نسخة : وزاد غضباً . ٢) في نسخة : وأزيل نعمكم وأتلف .

عينيه ، وقد كان طاهر نمي إليه خروجه فبعث بالرجال من الهروية وغيرهم والملاحين في الزوارق على الشط ، فدفعت الحراقة ، ولم يكن مع هرثمة عدة من رجاله،فأتى أصحاب طاهر عُراة فغاصوا تحت الحراقة فانقلبت بمن فيها، فلم يكن لهرثمة شاغل إلا أنْ نجا بحُشَاشة نفسه ، فتعلق بزورق وصعد إليه من الماء ومضى إلى عسكره من الجانب الشرقي ، وشق محمد ثيابه عن نفسه ، وسَبَحَ فوقع نحو السراة إلى عسكر قرين الديراني غلام طاهر فأخذه بعض السواس حين شم منه رائحة المسك والطيب ، فأتى به قريناً فاستأذن فيه طاهراً ، فأتاه الإذن في الطريق وقد حمل الى طاهر فقتل في الطريق وهو يصيح : إن لله وإنا إليه راجعون ، أنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخو المأمون ، والسيوفُ تأخذه حتى بَرَدَ ؛ وأخذوا رأسه ، وكانت ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

وذكر أحمد بن سلام — وقد كان مع الأمين في الحراقة حين انقلبت[1] — فسبح فقبض عليه بعض أصحاب طاهر وأراد قتله ، فأرغبه في عشرة آلاف درهم ، وأنه يحملها اليه في صبيحة تلك الليلة ، قال : فأدخلت بيتاً مظلماً فبينا أنا كذلك إذ دخل عليّ رجل عُريان عليه سراويل وعمامة قد تلثم بها، وعلى كتفه خرقة فجعلوه معي ، وتقدموا إلى مَن في الدار في حفظنا ، فلما استقر في الدار حسر العمامة عن وجهه فإذا هو محمد ، فاستعبرت واسترجعت فــيما بيني وبين نفسي ، وجعل ينظر إليّ ثم قال : أيهم أنت ؟ قلت : أنا مولاك يا سيدي ، قال : وأي الموالي أنت ؟ قلت : أحمد بن سلام ، قال : أعرفك بغير هذا ، كنت تأتيني بالرقة [2] ؟ قلت : نعم ، ثم قال : يا أحمد ، قلت : لبيك يا سيدي ، قــال : ادنُ مني وضُمَّني اليك فإني أجد وَحشة شديدة ، قال : فضممته إليّ ، فإذا قلبه يخفق خفقاناً شديداً ، ثم قــال : أخبرْني عن أخي المأمون أحيٌّ هو ؟ قلت له: فهذا القتال عمن إذن؟ قال :

---

١) في نسخة : حين أصيبت . ٢) في نسخة : أكنت بالحراقة .

قبحهم الله ! ذكروا أنه مات ، قلت : قبح الله وزراءك ! فهم أوردوك هذا المورد ، فقال لي : يا أحمد ليس هذا موضع عتاب ؛ فلا تقل في وزرائي إلا خيراً فما لهم ذنب ، ولست بأول مَن طلب أمراً فلم يقدر عليه ، قلت : ألبس إزاري هذا وارم بهذه الخرقة التي عليك ، فقال : يا أحمد من كان حاله مثل حالي فهذه له كثير ، ثم قال لي : يا أحمد ما أشك أنهم سيحملونني الى أخي أفترى أخي قاتلي ؟ قلت : كلا ، إن الرحم ستعطفه عليك ، فقال لي : هيهات ! المُلْكُ عقيم لا رحم له ، فقلت له : إن أمان هرثمة امانُ أخيك ؛ قال : فلقنته الاستغفار وذكر الله ، فبينا نحن كذلك إذ فتح باب البيت فدخل علينا رجل عليه سلاح فاطّلع في وجه محمد مستثبتاً له ، فلما أثبته معرفة خرج وأغلق الباب وإذا هو محمد الطاهري ؛ قال : فعلمت ان الرجل مقتول ؛ وقد كان بقي عليّ من صلاتي الوتر ، فخفت أن أقتل ولم أوتر ، فقمت لأوتر ، فقال لي : يا أحمد لا تبعد مني وَصَلِّ بقربي ، فإني أجد وحشة شديدة ، فدنوت منه ، فلمّا ما لبثنا حتى سمعنا حركة الخيل ودقّ باب الدار ، ففتح الباب فإذا قوم من العجم بأيديهم السيوف مُصْلَتَة ، فلما أحس بهم محمد قام قائماً وقال : إنا لله وإنا اليه راجعون ، ذهبت والله نفسي في سبيل الله ، أما من حيلة ؟ أما من مغيث ؟ وجاءوا حتى قاموا على باب البيت الذي نحن فيه ، وجعل بعضُهم يقول لبعض : تقدم ، ويدفع بعضهم بعضا : فأخذ محمد بيده وسادة وجعل يقول : أنا ابن عم رسول الله ، أنا ابن هارون الرشيد ، انا اخو المأمون ، الله الله في دمي ، فدخل عليه رجل منهم مولى لطاهر فضربه بالسيف ضربة وقعت في مقدم رأسه ، وضرب محمد وجهه بالوسادة التي كانت في يده ، واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده ، فصاح بالفارسية : قتلني الرجل ، فدخل منهم جماعة فنخسه أحدهم بسيفه في خاصرته ، وكبّوه فذبحوه من قفَاه ، وأخذوا رأسه ، ومضوا به الى طاهر.

وقد قيل في كيفية قتله غير هذا ، وقد اتينا على التنازع في ذلك في

الكتاب الاوسط .

وأتي بخادمه كوثر ، وكان حظيته ، معه الخاتم والبُرْدُ والسيف والقضيب ، فلما أصبح طاهر أمر برأسه ، فنصب على باب من ابواب بغداد يعرف بباب الحديد نحو قَطْرُبُلّ في الجانب الغربي ، الى الظهر ، ودفنت جثته في بعض تلك البساتين .

ولما وضع رأس الأمين بين يدي طاهر قال : اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء ،وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ، وحُمِل الرأس الى خراسان إلى المأمون في منديل والقطنُ عليه والأطلية ، فاسترجع المأمون وبكى واشتد تأسفه عليه ؛ فقال له الفضل بن سهل : الحمد لله يا أمير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة ، فان محمداً كان يتمنى أن يراك بحيث رأيته [١] ، فأمر المأمون بنصب الرأس في صحن الدار على خشبة ، وأعطى الجند ، وأمر كل من قبض رزقه أن يلعنه ، فكان الرجل يقبض ويلعن الرأس ، فقبض بعض العجم عطاءه فقيل له : العن هذا الرأس ، فقال : لعن الله هذا ولعن والديه، وما ولدا وأدخلهم في كذا وكذا من أمهاتهم، فقيل له : لعنت أمير المؤمنين، وذلك بحيث يسمعه المأمون منه فتبسّم وتغافل ، وأمر بحط الرأس ، وترك ذلك المخلوع ، وطيب الرأس وجعله في سفط ، ورده الى العراق فدفن مع جثته ، ورحم الله أهل بغداد وخلصهم مما كانوا فيه من الحصار والجزع والقتل ، ورثاه الشعراء ، وقالت زبيدة أم جعفر والدته :

أودى بإلفك من لم يترك الناسا فامنح فؤادك عن مقتولك الياسا
لمّا رأيتُ المنايا قد قصدنَ له أصبن منه سواد القلب والراسا
فبتُّ متكئاً أرعى النجوم له إخال سنته في الليل قرطاسا
والموت دانٍ له ، والهم قارنه حتى سقاه التي أودى بها الكاسا

---

١) في نسخة : بحيث أراكه الله .

رزئته حين باهَتْ الرجالَ به . وقد بنيت بـه للدهر آساسا
فليس من مات مردوداً لنا أبداً . حتى يردّ علينا قبـلـه ناسا

ورثته زوجته لُبابة ابنة علي بن المهدي ، ولم يكن دخل بها ، فقالت:

أبكيك لا للنعيم والأنس . بل للمعالي والسيف والترس
أبكي على سيد فجعت به . أرملني قبل ليلة العرس
يا مالكاً بالعراء مطّرحاً . خانته أشراطه مع الحراس (١)

ولما قتل محمد دخل الى زبيدة بعض خدمها فقال لها : ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد ؟! فقالت : ويلك !! وما أصنع ؟ فقال : تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان ، فقالت : اخسأ لا أم لك ، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال ؟ ثم أمرت بثيابها فسودت ، ولبست مسحاً من شعر ، ودعت بدواة وقرطاس وكتبت الى المأمون :

لخير إمام قام من خير عنصر . وأفضل راقٍ فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم . وللملك المأمون من أم جعفر
كتبتُ وعيني تستهل دموعها . اليك ابن عمي من جفوني ومحجري
أصبتُ بأدنى الناس منك قرابة . ومَنْ زال عن كبدي فقلّ تصبّري
أتى طاهر ، لا طهّرَ الله طاهراً ، . وما طاهر في فعله بمُطهّر
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً . وأنهب أموالي وأخرَبَ أدوُري
يعز على هارون ما قد لقيتُهُ . وما نالني من ناقص الخلق أعور
فان كان ما أسدى لأمر أمرته . صبرت لأمر من قدير مقدر

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال : اللهم إني أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما بلغه قتل عثمان « والله ما قتلت ، ولا أمرت ، ولا رضيت » اللهم جلّلْ قلب طاهر حزناً ؟

---

١) في نسخة : يا مالكاً بالعراق مطرحاً .

قال المسعودي : وللمخلوع أخبار وسير غير ما ذكرنا قد أتينا عليها في كتابينا في « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن ذكرها في هذا الكتاب ، والله – سبحانه – ولي التوفيق .

ذكر
خلافة المأمون

موجز : وبويع المأمون عبدُ الله بن هارون ، وكُنْيته أبو جعفر ، وأمه باذغيسية ، واسمها مراجل ، وقيل : ان كنيته أبو العباس ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة وشهرين ، وتوفي بالبديدون على عين القشيرة [1] ، وهي عين يخرج منها النهر المعروف بالبديدون ، وقيل : ان اسمها بالرومية أيضاً رقة ، وحمل الى طرسوس ، فدفن بها على يسار المسجد ، سنة ثماني عشرة ومائتين ، وهو ابن تسع وأربعين سنة ، فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة، منها أربعة عشر شهراً كان يحارب أخاه محمداً بن زُبيْدَة على ما ذكرنا، وقيل : سنتان وخمسة أشهر ، وكان أهل خُراسان في تلك الحروب يسلّمون عليه بالخلافة ، ويُدّعى له على المنابر في الأمصار والحرمين والكور والسهل والجبل مما حواه طاهر وغلبَ عليه ، ويسلّم على محمد بالخلافة مَنْ كان ببغداد خاصة لا غيرها .

---

١) في نسخة : المشيرة .

ذكر

جمل من أخباره وسيره ، ولمع مما كان في أيامه

المأمون والفضل بن سهل : وغلب على المأمون الفضل بن سهل ، حتى ضايقه في جارية أراد شراءها ، فقتله ، وادعى قوم أن المأمون دَسَّ عليه من قتله ، ثم سلم عليه الوزراء بعد ذلك : منهم أحمد بن خالد الأحول ، وعمرو بن مسعدة ، وأبو عبادة ، وكل هؤلاء سلم عليهم برسم الوزارة .

عمرو بن مسعدة : ومات عمرو بن مسعدة سنة سبع عشرة ومائتين ، فعرض لماله ، ولم يعرض لمال وزير غيره ، وغلب على المأمون آخراً الفضلُ ابن مروان ، ومحمد بن يزداذ .

علي بن موسى الرضا : وفي خلافته قُبض علي بن موسى الرضا مسموماً بطوس ، ودفن هنالك . وهو يومئذ ابن تسع وأربعين سنة وستة أشهر ، وقيل غير ذلك .

المأمون وعمه ابراهيم : وهجا المأمون إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة عمَّه ، وكان المأمون يظهر التشيع ، وابن شكلة التسنن ، فقال المأمون :

إذا المُرْجِيُّ سرَّك أن تراه يَمُوتُ لحينه من قبل موْتِهْ
فجَدِّدْ عنده ذكرى عَلِيٍّ وصَلِّ على النبي وآل بيته

فأجابه ابراهيم راداً عليه :

إذا الشّيعيُّ جَمْجَمَ في مقال فسرَّكَ أن يبوح بذات نَفْسِهْ
فصَلِّ على النبي وصاحِبَيْهِ وَزِيرَيْهِ وجارَيْهِ بِرَمْسِهْ

ولإبراهيم بن المهدي مع المأمون أخبار حسان ، هي موجودة في كتاب الأخبار لإبراهيم بن المهدي .

المأمون وأبو دلف : ودخل أبو دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلِيُّ على المأمون ، فقال له : يا قاسم ، ما أحسن أبياتك في صفة الحرب ، ولذاذتك بها ، وزهدك في المغنيات ؟ قال : يا أمير المؤمنين أي أبيات هي ؟ قال : قولك :

لِسَلُّ السيوف وشَقُّ الصفوف ونقضِ التراب وضرب القُلَلْ

قال : ثم ماذا يا قاسم ؟ قال :

ولبس العَجاجة والخافقات تُريكَ المنايا بروس الأسَلْ[1]
وقد كشفَتْ عن شَبا نابها عروس المنية بين الشعَلْ
وجاءت تهادى وأبناؤها كأنْ عليهم شروق الطّفلْ
خَروس نَطوق اذا استنطقت جهول يطيش على من جهل
اذا خطبت أخذت مهرها رؤوسا تساقَطُ بين القلل
ألذ وأشهى من المسمعات وشرب المدامة في يوم طلّ
أنا ابن الحسام ، وتربُ الصفّاح ، وربيب المنون ، وقرب الاجل

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذه لذتي مع أعدائك ، وقوّتي مع أوليائك ، ويدي معك ، ولئن استلذّ مستلذ شيئاً من المعاقرة ملتُ الى المصادمة والمحاربة ، قال : يا قاسم ، اذا كان هذا النمط من الأشعار شأنك واللذة لذتك ، فماذا تركت للوسنان مما خلفت ، وأظهرت له من قليل ما سترت ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، وأي أشعاري ؟ قال : حيث تقول :

أيها الراقد المؤرّقُ عيني نَمْ ، هنيئاً لك الرقاد اللذيذ
علم الله أن قلبيَ مما قد جنَتْ مُقلتاك فيه وقيذُ

---

١) في نسخة : برؤوس القلل .

قال : يا أمير المؤمنين ، سهوة بعد سهرة غلبت ، وذلك قسم متقدم ، وهذا ظن متأخر ، قال : يا قاسم ، ما أحسن ما قال صاحب هذين البيتين :

أذمُّ لك الأيام في ذات بيننا وما للّيالي في الذي بيننا عُذْرُ
اذا لم يكن بين المحبين زَوْرَة سوى ذكر شيء قدمضى درس الفكر

فقال أبو دلف : ما أحسن ما قال يا أمير المؤمنين !! هذا السيد الهاشمي والملك العباسي، قال : وكيف أدتك الفطنة، ولم تداخلك الظنة، حتى تحققت أني صاحبها ، ولم يداخلك الشك فيها ، قال : يا أمير المؤمنين ، إنما الشعر بساط صوف ، فمن تخلّط الشعر بنقيّ الصوف ظهر رونقه عند التصنيف ، ونار ضوءه عند التأليف .

من كلمات المأمون : وكان المأمون يقول ، يغتفر كل شيء إلا القدْح في الملك ، وإفشاء السر ، والتعرض للحرم .

وقال المأمون : أخّر الحرب ما استطعت ، فان لم تجد منها بداً فاجعلها في آخر النهار .

وذكر أنه من كلام أنوشروان .

وكان المأمون يقول : أعيَتِ الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يُدبر ، واذا أدبر أن يُقبل .

ولما تأتى الملك للمأمون وخلص قال : هذا جسيم لولا أنه عديم ، وهذا ملك لولا أنه بعده هُلْك، وهذا سرور لولا أنه غرور، وهذا يوم لو كان يوثق بما بعده .

وكان المأمون يقول : البشر مَنظرٌ مونــــق ، وخلق مشرق ، وزابرع للقلوب ، ومحلٌ مألوف ، وفضل منتشر ، وثناء بسيط ، وتحف للأحرار، وذرع رحيب ، وأول الحسنات ، وذريعة الى الجاه ، وأحمد للشيَم ، وباب لرضى العامة ، ومفتاح لمحبة القلوب .

وكان المأمون يقول : سادة الناس في الدنيا الأسخياء ، وفي الآخرة الأنبياء [١] وإن الرزق الواسع لمن لا يستمتع به بمنزلة طعام على ميزاب البخل : لو كان طريقاً ما سلكته ، ولو كان قميصاً ما لبسته .

وحضر المأمون إملاكاً لبعض أهل بيته ، فسأله بعض مَنْ حضر أن يخطب ، فقال : الحمد لله ، المحمود الله ، والصلاة على المصطفى رسول الله ، وخير ما عمل به كتاب الله ، قال الله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يُغنيهم الله من فضله ، والله واسع عليم) ولو لم يكن في المناكحة آية محكمة ولا سنة مُتّبعة إلا ما جعل الله في ذلك من تأليف البعيد والقريب لسارع اليه الموفّق المصيب ، وبادر اليه العاقل النجيب ، وفلان مَنْ قد عرفتموه في نسب لم تجهلوه ، خطب إليكم فتاتكم فلانة ، وبذل لها من الصداق كذا وكذا ، فشفّعوا شافعنا ، وأنكحوا خاطبنا ، وقولوا خيراً تحمدوا عليه وتؤجروا ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

بين ثمامة ويحيى بن اكثم عند المأمون : وذكر ثمامة بن أشرس قال : كنا يوماً عند المأمون [٢] ، فدخل يحيى بن أكثم وكان قد ثقل عليه موضعي منه ، فتذاكرنا شيئاً من الفقه ، فقال يحيى في مسألة دارت : هذا قول عمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عمرو وجابر . قلت : أخطأوا كلهم ، وأغفلوا وجه الدلالة ، فاستعظم مني ذلك يحيى وأكبره ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا يخطّىء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم ، فقال المأمون : سبحان الله !! أكذا يا ثمامة ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ان هذا لا يبالي ما قال ولا ما شنّع به ، ثم أقبلت عليه فقلت : ألست تزعم أن الحق في واحد عند الله عز وجل ؟ قال : نعم ، قلت : فزعمت أن تسعة

(١ في نسخة : الأتقياء . ٢) في نسخة : في مجلس المأمون .

أخطأوا وأصاب العاشر ، وقلت أنا : أخطأ العاشر ، فما أنكرت ؟ قال : فنظر المأمون إليّ وتبسم ، وقال : لم يعلم أبو محمد أنك تجيب هذا الجواب ، قال يحيى : وكيف ذلك ؟ قلت : ألست تقول : إن الحق في واحد ؟ قال: بلى ، قلت : فهل يُخلي الله عز وجل هذا الحق من قائل يقول به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا ، قلت : أفليس من يخالفه ولم يقل به فقد أخطأ عندك الحق ؟ قال : نعم ، قلت : فقد دخلت فيما عِبْتَ ، وقلت بما أنكرت وبه شنعت ، وأنا أوضح دلالة منك ، لأني خطأتهم في الظاهر ، وكل مصيب عند الله الحق ، وإنما خطأتهم عند الخلاف وأدتني الدلالة الى قول بعضهم ، فخطأت من خالفني ، وأنت خطأت من خالفك في الظاهر وعند الله عز وجل .

وفد الكوفة والمأمون : وقدم وَفْدُ الكوفة الى بغداد ، فوقفوا للمأمون ، فأعرض عنهم ، فقال شيخ منهم : يا أمير المؤمنين ، يَدُك أحق يدٍ بتقبيل ؛ لعلوها في المكارم ، وبعدها من المآثم ، وأنت يوسفي [1] العفو في قلة التثريب ، مَنْ أرادك بسوء جعله الله حصيد سيفك ، وطريد خوفك ، وذليل دولتك ، فقال : يا عمرو ، نِعْمَ الخطيب خطيبهم ، أقضِ حوائجهم فقضيت .

المأمون والزنادقة ومعهم طفيلي : وذكر ثمامة بن أشرس قال : بلغ المأمون خبر عشرة من الزنادقة ممن يذهب إلى قول ماني ، ويقول بالنور والظلمة ، من أهل البصرة ، فأمر بحملهم اليه بعد أن سُمّوا واحداً واحداً ، فلما جمعوا نظر اليهم طُفيْلي فقال : ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع فدخل في وَسَطهم ، ومضى معهم ، وهو لا يعلم بشأنهم ، حتى صار بهم الموكلون الى السفينة ، فقال الطفيلي : نزهة لا شك فيها ، فدخل معهم السفينة ، فما كان

---

١) في نسخة : وأنت توسع العفو المذنب .

بأسرع من أن جيء بالقيود ، فقيد القوم والطفيلي معهم ، فقال الطفيلي : بلغ أمر تطفيلي إلى القيود ، ثم أقبل على الشيوخ فقال : فديتكم أيش أنتم؟ قالوا : بل أيش أنت ؟ ومن أنت من إخواننا ؟ قال : والله ما أدري غير أني والله رجل طفيلي خرجت في هذا اليوم من منزلي فلقيتكم فرأيت منظراً جميلا وعوارض حسنة وبزة ونعمة [1] فقلت : شيوخ وكهول وشباب جمعوا لوليمة ، فدخلت في وسطكم ، وحاذيت بعضكم كأني في جملة أحدكم ، فصرتم الى هذا الزورق ، فرأيته قد فُرش بهذا الفرش ومهد ورأيت سفراً مملوءة وجُرُباً وسلالاً ، فقلت : نزهة يمضون إليها الى بعض القصور والبساتين ، ان هذا اليوم مبارك ، فابتهجت سروراً ، إذ جاء هذا الموكل بكم فقيدكم وقيدني معكم ، فورد عليّ ما قد أزال عقلي ، فأخبروني ما الخبر ، فضحكوا منه وتبسموا وفرحوا به وسُرُّوا ، ثم قالوا : الآن قد حصلت في الإحصاء ، وأوثقت في الحديد ، وأما نحن فمانية غمز بنا الى المأمون ، وسندخل اليه ، ويسائلنا عن أحوالنا ، ويستكشفنا عن مذهبنا ، ويدعونا الى التوبة والرجوع عنه بامتحاننا بضروب من المحن : منها اظهار صورة ماني لنا ، ويأمرنا أن نتفُلَ عليها ، ونتبرأ منها ، ويأمرنا بذبح طائر ماء ، وهو الدُّرَّاج ، فمن أجابه الى ذلك نجا ، ومن تخلف عنها قتل ، فاذا دعيت وامتحنت فأخبر عن نفسك واعتقادك على حسب ما تؤدّيك الدلالة الى القول به ، وأنت زعمت أنك طفيلي ، والطفيلي يكون معه مداخلات وأخبار ، فاقْطَعْ سفرنا هذا الى مدينة بغداد بشيء من الحديث وأيام الناس ، فلما وصلوا الى بغداد وأدخلوا على المأمون جعل يدعو بأسمائهم رجلا رجلا فيسأله عن مذهبه ، فيخبره بالإسلام ، فيمتحنه ويدعوه الى البراءة من ماني ويظهر له صورته ويأمره أن يَتْفُل عليها والبراءة منها ، وغير ذلك ، فيأبون ، فيمرهم على السيف ، حتى بلغ الى الطفيلي بعد فراغه

---

١) في نسخة : وعوارض حسنة ونعمة ظاهرة .

من العشرة ، وقد استوعبوا عدة القوم ، فقال المأمون للموكلين : مَنْ هذا ؟ قالوا : والله ما ندري ، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا بـه ، فقال له المأمون : ما خبرك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إمرأتي طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئاً ، وإنما أنا رجل طفيلي ، وقصّ عليه خبره من أوله إلى آخره ، فضحك المأمون ، ثم أظهر له الصورة ، فلعنها وتبرأ منها ، وقال : أعطونيها حتى أسلح عليها ، والله ما أدري ما ماني : أيهودياً كان أم مسلماً ، فقال المأمون : يؤدَّبُ على فرط تطفله ومخاطرته بنفسه .

وكان إبراهيم بن المهدي قائماً بين يدي المأمون ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هَبْ لي ذنبه وأحدثك بحديث عجب في التطفيل عن نفسي ، قال : قـل يا إبراهيم .

ابراهيم بن المهدي يتطفل : قال : يا أمير المؤمنين ، خرجت يوماً فمررت في سكك بغداد متطرفاً ، حتى انتهيت الى موضع ، فشممت رائحة أبازير من جناح في دار عالية ، وقدور قد فاح قتارها ، فتاقت نفسي اليها ، فوقفت على خيّاط فقلت : لمن هذه الدار ؟ فقال : لرجل من التجار مَن البزازين ، قلت : ما اسمه ؟ قال : فلان بن فلان ، فرفعت طرفي الى الجناح ، فإذا فيه شباك ، فنظرت الى كف قد خرجت من الشباك ومعصم ما رأيت أحسن منها قط ، فشغلني يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور ، فبقيت باهتاً وقد ذُهِلَ عقلي ، ثم قلت للخياط : هو ممن يشرب النبيذ ؟ قال : نعم ، وأحسب أن عنده اليوم دعوة ، ولا ينادم إلا تجاراً مثله ، مستورين ، فأنا كذلك إذ اقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب ، فقال لي الخياط : هذان منادماه ، قلت : ما اسماهما وما كُناهما ؟ فقال : فلان وفلان ، فحركت دابتي حتى دخلت بينهما ، وقلت : جعلت فداكما قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله ، وسايرتهما حتى انتهينا الى الباب ، فقدّماني، فدخلت ودخلا ، فلمـا رآني صاحب المنزل لم يشكّ إلا أني منهما بسبيل ،

فرحب وأجلسني في أجل موضع ، فجيء يا أمير المؤمنين بالمائدة وعليها خبز نظيف ، وأتينا بتلك الألوان : فكان طعمها أطيب من رائحتها ، فقلت في نفسي : هذه الألوان قد أكلتها ، وبقي الكف والمعصم ، ثم رفع الطعام فغسلنا أيدينا ، ثم صرنا الى مجلس المنادمة ، فإذا هو أنبلُ مجلس وأجلُّه فرش ، وجعل صاحب المجلس يلطف بي ويقبل علي بالحديث ، والرجلان لا يشكان أنه مني بسبيل ، وإنما كان ذلك الفعل منه بي لمّا ظنّ أني منهما بسبيل،حتى إذا شربنا أقداحاً خرجت علينا جارية تتثنى كأنها غصنُ بانٍ ، فسلمت غير خجلة ، وهيئت لها وسادة ، وأتي بعُود فوضع في حجرها ، فجسته فتبينت الحذق في جسها ، ثم اندفعت تغني :

توهّمها طرْفي فآلم خدها فصار مكان الوهم من نظري أثْرُ
وصافحها كفي فآلم كفها فمن لمس كفي في أناملها عقْرُ
ومرّتْ بقلبي خاطراً فجرحتها ولم أر شيئاً قط يجرحه الفكر

فهيجت والله يا أمير المؤمنين عليّ بلابلي ، وطربت لحسن غنائها وحذقها، ثم اندفعت تغني :

أشرْت اليها : هل علمت مودتي فردّتْ بطرف العين: إني على العهد
فحدت عن الإظهار عمداً لسرها وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

فصحت السلامة ، وجاءني من الطرب ما لا أملك معه النفس ولا الصبر ، واندفعت تغني :

أليس عجيباً أن بيتاً يضمني وإياك لا نخلو ولا نتكلمُ
سوى أعين تشكو الهوى بجفونها وترجيع أحشاء على النار تضرم
إشارة أفواه ، وغمز حواجب وتكسير أجفان ، وكفٍّ يسلّم

فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على حذقها ، ومعرفتها بالغناء ، وإصابتها معنى الشعر ، وأنها لم تخرج من الفن الذي ابتدأته ، فقلت : بقي عليك يا جارية شيء ، فغضبت وضربت بعودها الارض ، ثم قالت : متى كنتم

تحضرون مجالسكم البُغَضَاء ؟ فندمت على ما كان مني ، ورأيت القوم قد تغيروا إليّ ، فقلت : أليس ثَمّ عود ؟ قالوا : بلى يا سيدنا ، فأتيت بعود ، فأصلحت من شأنه ما أردت ، واندفعت أغني :

ما للمنازل لا يُجِبنَ حزينا ؟ أصممن أم بعد المدى فبلينا ؟
راحُوا العشية روحة مذكورة إن متن متن ، وإن حيين حيينا

فما استتممته جيداً حتى خرجت الجارية فأكبّت على رجلي تقبلها ، وهي تقول : المعذرة والله لك يا سيدي ، فما سمعت من يغني هذا الصوت مثلك ، وقام مولاها وكل من كان عنده فصنعوا كصنعها ، وطرب القوم واستحثوا الشرب فشربوا بالطاسة ثم اندفعتُ أغني :

أبالله هل تَنْسينَ لا تذكرينني وقد سَجَمَتْ عيناي من ذكرك الدّما
الى الله أشكو بُخلها وسماحتي لها عسل مني وتبذل عَلقما
فردّي مُصاب القلب أنت قتلته ولا تاركيه ذاهل العقل مغرما
الى الله أشكو أنها أجنبية وأنّي لها بالود ما عشت مكرما

فجاء من طرب القوم يا أمير المؤمنين ما خشيت أن يخرجوا من عقولهم ، فأمسكت ساعة ، حتى اذا هدأ القوم اندفعت أغني الثالثة :

هذا محبك مَطويٌ على كمده صَبٌ ، مدامعُه تجري على جسده
له يَدٌ تسأل الرحمنَ راحته مما به ، ويَدٌ أخرى على كبده
يا من رأى كلِفاً مستهتراً أسفاً كانت منيته في عينه ويده

فجعلت الجارية يا أمير المؤمنين تصيح : السلامة ، هذا والله الغناء يا مولاي ، وسكر القوم ، وخرجوا من عقولهم ، وكان صاحب المنزل جيد الشراب ونديماه دونه ، فأمر غلمانه مع غلمانهم بحفظهم وصرفهم الى منازلهم ، وخلوت معه فشربنا أقداحاً ، ثم قال : يا سيدي ، ذهب والله ما خلا من أيامي باطلا ، اذ كنت لا أعرفك ، فمن أنت يا مولاي ؟ فلم يزل يلح عليّ حتى أخبرته فقام فقبل رأسي ، وقال : يا سيدي ، واني أعجب أن يكون

هذا الأدب الا لمثلك ، واذا أنا منذ اليوم مع الخلافة ولا أعلم ، وسألني عن قصتي وكيف حمَلتُ نفسي على ما فعلته ، فأخبرته خبر الطعام والكف والمعصم ، فقال : يا فلانة ، لجارية له ، قولي لفلانة تنزل ، فجعل ينزل إليَّ جواريه واحدة واحدة ، فأنظر الى كفها وأقول : ليست هي ، حتى قال : والله ما بقي غير أمي وأختي ، ولأنزلنها إليك ، فعجبت من كرمه وسَعَةِ صدره ، فقلت له : جعلت فداك ، ابدأ بالأخت قبل الأم ، فعسى أن تكون صاحبتي ، فقال : صدقت ، ففعل ، فلما رأيت كفها ومعصمها قلت : هي هي ، جعلت فداك ، فأمر غلمانه من فوره فصاروا الى عشرة مشايخ من جلّة جيرانهم فأحضروا ، وجيء ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم ، ثم قال : هذه أختي فلانة ، وأنا أشهدكم أني قد زوجتها من سيدي ابراهيم بن المهدي ، وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم ، فرضيت وقبلت النكاح ، ودفعت اليها البدرة الواحدة ، وفرقت الأخرى على المشايخ ، وقلت لهم : اعذروا فهذا الذي حضرني في هذا الوقت ، فقبضوها وانصرفوا ، ثم قال : يا سيدي أمهد لك بعض البيوت تنام مع أهلك ، فأحشمني والله يا أمير المؤمنين ما رأيت من كرمه وسعة صدره ، فقلت : بل أحضر عمارية وأحملها الى منزلي ، فقال: افعل ما شئت ، فأحضرت عمارية وحملتها الى منزلي ، فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل الي من الجهاز ما ضاق عنه بعض دوري .

فتعجب المأمون من كرم ذلك الرجل وأطلق الطفيلي ، وأجازه بجائزة حسنة وأمر إبراهيم بإحضار ذلك الرجل ، فصار يعد [١] من خواص المأمون وأهل مودته ، ولم يزل معه على أفضل الأحوال السارة في المنادمة وغيرها .

اسحاق الموصلي وكلثوم العتابي عند المأمون : وذكر المبرد وثعلب قالا : كان كلثوم العتّابي واقفاً بباب المأمون ، فجاء يحيى بن أكثم ، فقال له

١) في نسخة :فصار يعد .

العتابي : إنْ رأيت أن تعلم أمير المؤمنين بمكاني ، قال : لست بحاجب ، قال: قد علمت ، ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل مِعْوانٌ ، قال : سلكت بي غير طريقي ، قال : إن الله قد ألحقك بجاه ونعمة منه ، فهما مقبلان عليك بالزيادة إن شكرت ، وبالتقتير إن كفرت ، وأنا لك اليوم خيرٌ منك لنفسك ، أدعوك لما فيه زيادة نعمتك وأنت تأبى ذلك ، ولكل شيء زكاة ، وزكاة الجاه بَذله للمستمين ، فدخل يحيى فأخبر المأمون الخبر ، فأدخل اليه العتابي ، وفي المجلس إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، فأمره بالجلوس ، وأقبل يسأله عن أحواله وشأنه ، فيجيبه بلسان ناطق ، فاستظرفه المأمون ، وأخذ في مداعبته، فظن الشيخ أنه قد استخف به، فقال : يا أمير المؤمنين،الإيناس قبل الإبساس ، فاشتبه عليه قوله فنظر الى إسحاق فغمزه بعينه ثم قال : ألف دينار ، فأتي بها فوضعت بين يدي العتّابي ، ثم دعا إلى المفاوضة ، وأغرى المأمون إسحاق بالعبث به ، فأقبل إسحاق يعارضه في كل باب يذكره ويزيد عليه ، فعجب منه ، وهو لا يعلم أنه إسحاق ، ثم قال : أيأذن أمير المؤمنين في مسألة هذا الرجل عن اسمه ونسبه ؟ فقال : افعل : فقال له العتابي : من أنت ؟ وما اسمك ؟ قال : أنا من الناس واسمي كل بصل ! فقال له العتابي : أما النسبة فقد عرفت ، وأما الاسم فمنكر ، وما كل بصل من الأسماء ؟ فقال له إسحاق : ما أقلّ إنصافك ، وما كلثوم ؟ والبصل أطيب من الثوم ، قال العتابي : قاتلك الله ! ما أملحك !! ما رأيت كالرجل حلاوة ، أفيأذن أمير المؤمنين في صِلته بما وصلني به فقد والله غلبني ؟ فقال له المأمون : بل ذلك مُوَفّر عليك ونأمر له بمثله ، فانصرف إسحاق الى منزله ، ونادمه بقية يومه .

العتابي : وكان العتابي من أرض جند قنسرين والعواصم ، وسكن الرقة من ديار مُضَر ، وكان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان وملوكية

المجالسة وبراعة المكاتبة وحلاوة المخاطبة وجَوْدة الحفظ [١] وصحة القريحة على ما لم يكن كثير من الناس في عصره .

وذكر أنه قال : كاتب الرجل لسانه ، وحاجبه وجهه ، وجليسه كله ، ونظم في ذلك شعراً فقال :

لسان الفتى كاتبه ... ووَجْهُ الفتى حاجبه
ونَدْمانه كلّـــه ... وكلٌّ له واجبـــه

وذكر عنه أنه قال : إذا وليت عملاً فانظر مَنْ كاتبك ، فإنما يعرف مقدارك مَنْ بعد عنك بكاتبك ، واستعقل حاجبك ، فإنمـــا يقضي عليك الوفود قبل الوصول اليك بحاجبك ، واستكرم واستطرب جليسك ونديمك، فإنما يوزَن الرجل بمن معه .

بين كاتب ونديم : وقد فاخر كاتب نديما فقال الكاتب : أنا معونة وأنت مؤونة ، وأنا للجد وأنت للهزل ، وأنا للشدة وأنت للذة، وأنا للحرب وأنت للسلم ، فقال النديم : أنا للنعمة وأنت للنقمة ، وأنا للحظوة وأنت للمهنة ، وتقوم وأجلس ، وتحتشم وأنا مؤنس ، تدأب لحاجتي ، وتشقى بمـــا فيه سعادتي ، وأنا شريك وأنت معين ، وأنا قرين وأنت تابـع [٢] ، وانما سميت نديماً للندم على مفارقتي .

وللعتابي أخبار حسان ، وتصنيفات ملاح ، في ذكرها خروج عمـا اليه قصدنا ، ونحوه يمّمنا ، وإنما ذكرنا عنه هذه الفصول لتغلغل الكلام بنا إليها وتشعبه نحوها .

رجل يرفع قصة للمأمون : وحكى الجوهري عن العتبي ، عن عبـــاس الديري ، قال : رفع رجل قصة إلى المأمون ، وسأله أن يأذن له في الدخول عليه ، والاستماع منه ، فأذن له ، فدخل فسلم ، فقال له المأمون : تكـلـم

---

١) في نسخة : وجودة الخط .

٢) في نسخة : وأنا نائم وأنت قرين .

بحاجتك ، قال أخبر أمير المؤمنين أن مصائب الدهر وأعاجيب الأيام ومحن الزمان قصدتني فأخذت مني ما كانت الدنيا أعطتني ، فلم تبق لي ضيعة إلا خربت ، ولا نهر إلا اندقر[1] ، ولا منزل إلا تهدّم ، ولا مال إلا ذهب ، وقد أصبحتُ لا أملك سَبَداً ولا لَبَداً ، وعليّ دَيْن كثير ، ولي عيال وأطفال وصبية صغار ، وأنا شيخ كبير ، قد قعدت بي المطـالب ، وكبرت عني المكاسب ، وبي حاجة إلى نظر أمير المؤمنين وعطفه ، قال فبينما هو في الكلام إذ ضرّط ، فقال:وهذا يا أمير المؤمنين من عجائب الدهر ومحنته،ولا والله ما ظهر مني قط إلا في موضعه ؛ فقال المأمون لجلسائه : ما رأيت قط أقوى قلباً ولا أربطَ جأشاً ولا أشد نفساً من هذا الرجـــل ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم مُعجّلة .

المأمون وأبو العتاهية : قال أبو العتاهية : وَجّه إليّ المـــأمون يوماً فصِرْتُ إليه فألفيته مطرقاً متفكراً مغموما ، فأحجمت عن الدنو إليه وهو على تلك الحال،فرفع رأسه وأشار بيده أن أدْنُ،فدنوت،فأطرق مليا ثم رفع رأسه فقال : يا إسماعيل ، شأن النفس الملل ، وحب الاستطراف ، والأنس بالوحدة ، كما نأنس بالألفة ، قلت أجل يا أمير المؤمنين ، ولي في هذا بيت شعر ، قال : وما هو ؟ قلت :

لا يُصْلح النفس إذ كانت مصرفة إلا التنقّلُ من حال الى حال

قال : أحسنت زدني ، فقلت : لا أقدر على ذلك ، وآنسته بقية يومه ، وأمر لي بمال ، فانصرفت .

المأمون ورجل عامي : ويحكى أن المأمون أمر بعض خواصّه من خدمه أن يخرج فلا يرى أحداً في الطريق إلا أتى به كائناً مَنْ كان من رفيع أو خسيس ، فأتاه برجل من العامة ، فدخل وعنده المعتصم أخوه ويحيى بن أكثم

---

١) في نسخة : الا أبدى .

ومحمد بن عمرو[1] الرومي ، وقد طبخ كل واحد منهم قدراً ، فقال محمد بن إبراهيم الطاهري للرجل العامي : هؤلاء من خواص أمير المؤمنين فأجبهم عما يسألون ، فقال المأمون : الى أين خرجت في هذا الوقت وقد بقي عليك من الليل ثلاثُ ساعاتٍ ؟ فقال : غرني القمر ، وسمعت تكبيراً فلم أشك أنه أذان ، فقال له المأمون : اجلس ، فجلس ، فقال له المأمون : قد طبخ كل واحد منا قِدْراً هوذا يقدم اليك من كل واحد منها قَدْراً فذق ذلك فأخبر عن فضائلها وما ترى من طيبها ، فقال : هاتوا ، فقدمت في طبق كبير كلها موضوعة عليه لا تميز بينها ، ولكل واحدة ممن طبخها علامة ، فبدأ فذاق قدراً طبخها المأمون فقال : زه ، وأكل منها ثلاث لقمات ، وقال : أما هذه فكأنهامسكة وطباخها حكيم نظيف ظريف مليح،ثم ذاق قدر المعتصم،فقال: هذه والله فكأنها والأولى من يد واحدة خرجتا ، وبحكمة متساوية طبختا ، ثم ذاق قدر محمدبن عمرو الرومي فقال: وهذه قِدْرُ طباخٍ ابن طباخ أجاد ما أحكمه،ثم ذاق قدر يحيى بن أكثم القاضي فأعرض بوجهه،وقال:شه،هذه والله جعل طباخها فيها مكان بصلها خرا ، فضحك القوم وذهب بهم الضحك كلَّ مَذْهبٍ ، ومحمد يحادثهم ويطايبهم ويتلهّى معهم ، وطايبوا معه ، فلما برق الفجر قال له المأمون : لا يخرجنَّ منك ما كنا فيه ، وعلم أنه علم بهم،فوصله بأربعة آلاف دينار[2] ، وقسّط له على أصحاب القدور كل واحد منهم على قدر مرتبته ، وقال : إياك ان تعود الى الخروج في مثل هذا الوقت مرةً أخرى، فقال لا أعدمكم الله الطبيخ ولا أعدمني الخروج! فسألوه عن تجارته، وعرفوا منزله ، وجعل يعدُّ في خدمة المأمون وخدمة الجميع ، وصار في جملتهم .

عي المأمون عن جواب ثلاثة : وحدث أبو عباد الكاتب — وكان خاصاً

---

١) في نسخة : محمد بن عمر .

٢) في نسخة :بأربعة آلاف درهم .

بالمأمون — قال : قال لي المأمون : ما أعياني إلا جواب ثلاثة أنفس : صرت الى أم ذي الرياستين أعزيها عنه فقلت :لا تأسي عليه ولا تحزني لفقده ، فإن الله قد أخلف عليك مني ولداً يقوم لك مقامه ، فما كنت تنبسطين اليه فيه فلا تنقبضين عـــني منه ، فبكت ، ثم قالت : يا أمير المؤمنين ، وكيف لا أحزن على ولد أكسبني ولداً مثلك ؟ وأتيت برجل قد تنبأ فقلت له : مَنْ أنت ؟ قال : موسى بن عمران عليه السلام ، فقلت : ويحك ! إن موسى بن عمران عليه السلام كانت له آياتٌ ودلالاتٌ بانَ بهـا أمره ، منها أنه ألقى عصاه فابتلعت كيْدَ السَّحَرة ، ومنها إخراجه يده من جيبه وهي بيضاء ، وجعلت أعدد عليه ما أتى به موسى بن عمران عليه السلام من دلائل النبوة، وقلت له : لو أتيتني بشيء واحد من علاماته او آية من آياتــه كنت أول من آمن بك ، وإلا قتلتك ، فقال : صدقت ، إلا أني أتيت بهذه العلامات لما قال فرعون أنا ربكم الأعلى ، فإن قلت أنت كذلك أتيتك من العلامات بمثل ما أتيته به ، والثالثة أن أهل الكوفة اجتمعوا يَشْكُون عاملا كنت أحمد مذهبه وأرتضي سيرته ، فوجّهت اليهم إني أعلم سيرة الرجل ، وأنا عازم على القعود لكم في غداة َغـدٍ ، فاختاروا رجلا يتولى المناظرة عنكم ، فأنا أعلم بكثرة كلامكم ، فقالوا : ما فينا من نرتضيه لمناظرة أمير المؤمنين، إلا رجل أطروش ، فإن صبر أمير المؤمنين عليه تفضل بذلك ، فوعدتهم الصبر عليه ، وحضروا من الغد ، فأمرت بالرجال فدخلوا والأطروش ، فلما مثل بين يديَّ أمرتهم بالجلوس، ثم قلت له : ما تشكو من عاملكم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، هو شر عامل في الأرض ، أما في أول سنة ولينا فإنا بعنا أثاثاتنا وعقارَنا ، وفي السنة الثانية بعنا ضياعنا وذخائرنا ، وفي السنة الثالثة خرجنا عن بلدنا فاستغثنا بأمير المؤمنين ليرحــم شكوانا ويتطوَّلَ علينا بالأمر بصرفه عنا ، فقلت له : كذبت(١) لا أمان لك ، بل هو رجل أحمدْتُ سيرتَهُ ومذهبه ،

---

١) في نسخة : كذبت ، لا أم لك .

وارتضيت دينه وطريقته ، واخترته لكم لمرفقي بكثرة سخطكم على عمالكم ، قال : يا أمير المؤمنين ، صدقْتَ وكذبْتُ انا ! ولكن هذا العامل الذي ارتضيت دينه وأمانته وعفته وعدله وإنصافه ، كيف خصصتنا به هذه السنين دون البلاد التي قد ألزمك الله عز وجل من العناية بأمورها مثل ما ألزمك من العناية بأمرنا ! فاستعمله على هذه البلاد حتى يشملهم من إنصافه وعدله مثل الذي شملنا ، فقلت له ، قم في غير حفظ الله ، فقد عزلته عنكم.

مناظرة المأمون للفقهاء : وكان يحيى بن أكثم يقول : كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء فاذا حضر الفقهاء ومَنْ يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد ، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجدّدوا الوضوء ، ومن خفّه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها ، فاذا فرغوا أتوا بالمجامرة فبخروا وطيبوا ، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة ، وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك الى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون ، قال : فإنه يوماً لجالسٌ اذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ، ويطلب الدخول للمناظرة ، فقلت : إنه بعض الصوفية ، فأردت بأن أشير أن لا يؤذن له ، فبدأ المأمون فقال : ائذن له ، فدخل رجل عليه ثيابٌ قد شمرها ونعله في يده ، فوقف على طرف البساط فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال المأمون : وعليك السلام ، فقال : أتأذن لي في الدنو منك ؟ قال : ادْنُ ، فدنا ، ثم قال : اجْلِسْ ، فجلس ، ثم قال: أتأذن في كلامك؟ فقال : تكلم بما تعلم أن لله فيه رضا ، قال : أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته أباجتماع من المسلمين عليك ، ورضاً منك ، أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم بسلطانك ؟ قال : لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم ، إنما

كان يتولّى أمر المسلمين سلطان قبلي احْمَدَه المسلمون[1] إما على رضا واما على كره ، فعقد لي ولآخر معي ولاية هذا الأمر بعده في أعناق مَنْ حضره من المسلمين ، فأخذ على من حضر بيتَ الله الحرام من الحاجّ البَيْعَةَ لي ولآخر معي فأعطوه ذلك اما طائعين واما كارهين ، فمضى الذي عقد له معي على هذه السبيل التي مضى عليها ، فلما صار الأمر اليّ علمت أني احتاج الى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الرضا ، ثم نظرت فرأيت أني متى تخلّيْتُ عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام ومرج عهدهم ، وانتقضت أطرافه ، وغلب الهرج والفتنة ، ووقع التنازع ، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى ، ولم يحج أحد بيته ، ولم يجاهد في سبيله ، ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويَسُوسهم ، وانقطعت السبل ، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ، ومجاهداً لعدوهم ، وضابطاً لسبلهم ، وآخذاً على أيديهم ، الى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضا به ، فأسلّم الأمر اليه ، وأكون كرجل من المسلمين وأنت أيها الرجل رسولي الى جماعة المسلمين ، فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت اليه من هذا الأمر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وقام ، فأمر المأمون عليّ ابن صالح الحاجب بأن ينفذ في طلبه[2] مَنْ يعرف مقصده ، ففعل ذلك ثم رجع وقال : وجهت يا أمير المؤمنين من اتبع الرجل فمضى الى مسجد فيه خمسة عشر رجلاً في هيئته وزيه ، فقالوا له : لقيت الرجل ؟ فقال : نعم ! قالوا : فما قال لك ؟ قال : ما قال لي الا خيراً ، ذكر أنه ضبط أمور المسلمين الى أن تأمن سُبُلُهم ، ويقوم بالحج والجهاد في سبيل الله ، ويأخذ للمظلوم من الظالم ، ولا يعطل الأحكام ، فاذا رضي المسلمون برجل وسلم

---

١) في نسخة : احتمله المسلمون .
٢) في نسخة : أن يوجه من يتبعه حتى يعلم أين يقصد .

الأمر اليه وخرج اليه منه ، قالوا : ما نرى بهذا بأساً ، وافترقوا ، فأقبل المأمون على يحيى ، فقال : كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب ، فقلت : الحمد لله الذي ألهمك يا أمير المؤمنين الصواب والسداد في القول والفعل .

يحيى بن أكثم قاضي البصرة : قال المسعودي : وكان يحيى بن أكثم قد ولي قضاء البصرة قبل تأكد الحال بينه وبين المأمون ، فرفع إلى المأمون أنه أفسد أولادهم بكثرة لواطه ، فقال المأمون : لو طعنوا عليه في أحكامه قبل ذلك منهم ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد ظهرت منه الفواحش وارتكاب الكبائر، واستفاض ذلك عنه ، وهو القائل يا أمير المؤمنين ، في صفة الغلمان وطبقاتهم ومراتبهم في أوصافهم قوله المشهور ؛ فقال المأمون : وما الذي قال ؟ فدفعت إليه القصة فيها جُمَلٌ مما رمي به وحكي عنه في هذا المعنى ، وهو قوله :

أربعة تَفْتِنُ ألحاظهم فعين من يعشقهم ساهره
فواحد دنياه في وجهه منافق ليست له آخره
وآخر دنيـــاه مفتوحة من خَلْفِهِ آخرة وافره
وثالث قـد حاز كلتيهما قد جمع الدنيا مع الآخره
ورابع قد ضاع ما بينهم ليست له دنيا ولا آخره

فأنكر المأمون ذلك في الوقت واستعظمه ، وقال : أيكم سمع هذا منه ؟ قالوا : هذا مستفاض من قوله فينا يا أمير المؤمنين ، فأمر بإخراجهم عنه ، وعزل يحيى عنهم .

في يحيى وما كان عليه بالبصرة يقول ابن أبي نعيم :

يا ليت يحيى لم يلده أكْثَمُهْ ولم تطأ أرض العراق قَدَمُهُ
ألْوَطُ قاض في العراق نعلمه أي دواة لم يلقها قلمـــه
وأي شِعْب لم يلجه أرقمه

وضرب الدهر ضربانه فاتصل يحيى بالمأمون ونادمه ، ورخّص له في أمور كثيرة ، فقال له يوماً : يا أبا محمد ، من الذي يقول :

قاض يرى الحدّ في الزناء ، ولا يرى على من يلوط من باس

قال : ذلك ابن أبي نعيم يا أمير المؤمنين ، وهو القائل :

أميرُنا يرتشي ، وحاكمنا يلوط ، والرأس شر ما راس
قاض يرى الحد في الزناء ، ولا يرى على من يلوط من باس
ما أحسب الجور ينقضي وعلى الـ أمة والٍ من آل عباس

فأطرق المأمون خجلا ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : ينفى ابن أبي نعيم إلى السند .

وكان يحيى إذا ركب مع المأمون في سفر ركب معه بمنطقة وقَبَاء وسيف بمعاليق وساسية[١] وإذا كان الشتاء ركب في أقْبِيَةِ الخزّ وقلانس السمّور والسروج المكشوفة ، وبلغ من إذاعته ومجاهرته باللواط أن المأمون أمره أن يفرض لنفسه فرضاً يركبون بركوبه ويتصرفون في أموره ، ففرض أربعمائة غلام مُرْداً اختارهم حسان الوجوه ، فافتضح بهم ، وقال في ذلك راشد بن إسحاق يذكر ما كان من أمر يحيى في الفرض :

خليليّ انظرا متعجّبَيْنِ لأظرف منظر مَقَلَتْهُ عيني
لفرضٍ ليس يقبل فيه إلا أسيل الخد حلو المقلتين
وإلا كلُّ أشقر أكْثَمِيّ قليل نبات شعر العارضين
يقدم دون موقف صاحبيه بقدر جماله وبقبح ذين
يقودهُمُ إلى الهيجاء قاضٍ شديد الطعن بالرمح الرُّدَيْنِي
إذا شهد الوغى منهم شجاع تجدّل للجبين ولليدين

---

١) في نسخة : وشاشية .

يقودهم على علم وحلم ليوم سلامة لا يوم حَيْن
وصار الشيخ منحنياً عليه بمدمجه يجوز الركبتين
يغادرهم إلى الأذقان صرعى وكلهم جريح الخصيتين

وفيه يقول راشد أيضاً :

وكنا نرجّي أن نرى العدل ظاهراً فأعقبنا بعد الرجاء قُنُوطُ
متى تصلح الدنيا ويصلح أهْلُهَا وقاضي قضاة المسلمين يلوط ؟

وكان يحيى بن أكثم بن عمرو بن أبي رباح من أهل خراسان من مدينة مرو ، وكان رجلا من بني تميم ، وسخط عليه المأمون في سنة خمس عشرة ومائتين وذلك بمصر ، وبعث به إلى العراق مغضوباً عليه ، وكان قد كتب الحديث وتفقّه للبصريين كعثمان البَتّيّ وغيره ، وله مصنفات في الفقه وفي فروعه وأصوله ، وكتاب أفرده سماه بكتاب «التنبيه» يردّ فيه على العراقيين وبينه وبين أبي سليمان أحمد بن أبي دُؤاد بن علي مناظرات كثيرة .

وفاة الامام الشافعي ، وفي خلافة المأمون كانت وفاة أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد الله بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف الشافعي ، في رجب ليلة الجمعة ، وذلك سنة أربع ومائتين ، ودفن صبيحة الليلة ، وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وصلى عليه السري بن الحكم أميرُ مصر يومئذ ، كذلك ذكر عكرمة بن محمد ابن بشر عن الربيع بن سليمان المؤذن ، وذكر أيضاً محمد بن سفيان بن سعيد المؤذن وغيرهما عن الربيع بن سليمان مثل ذلك، ودفن الشافعي بمصر بحومة[1] قبور الشهداء في مقبرة بني عبد الحكم ، وبين قبورهم وعند رأسه عمود من الحجر كبير ، وكذلك عند رجليه ، وعلى العالي الذي عند رأسه حفر قد كتب فيه في ذلك الحجر « هذا قبر محمد بن إدريس الشافعي أمين الله » وما

---

١) في نسخة : نحو قبور الشهداء .

ذكرنا فمشهور بمصر ، والشافعي يتفق نسبه مع بني هاشم وبني أمية في عبد مناف ، لأنه من ولد المطلب بن عبد مناف ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « نحن وبنو المطلب كهاتين » ، وأشار بأصبعيه مضمومتين ، وقد كانت قريش حاصَرَتْ بني المطلب مع بني هاشم في الشِّعْبِ .

وحدثني فقير بن مسكين عن المزني بهذا ، وكان فقير يحدث عن المزني ، وكان سماعنا من فقير بن مسكين بمدينة أسوان بصعيد مصر ، قال : قال المزني : دخلت على الشافعي غـداة وفاته ، فقلت له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، ولإخوني مفارقاً ، وبكأس المنية شاربا ، ولا أدري إلى الجنة تصير روحي فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ، وأنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جَعَلْتُ الرجا مني لعفوك سُلَّما
تعاظمني ذنبي ، فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

أبو داود الطيالسي وابن الكلبي : وفي هذه السنة التي مات فيها الشافعي — وهي سنة أربع ومائتين — مات أبو داود سليمان بن داود الطيالسي ، وهو ابن إحدى وتسعين سنة ، وفيها مات هشام بن محمد بن السائب الكلبي .

المأمون ورجل يدعي النبوة : وادعى رجل النبوة بالبصرة أيام المأمون ، فحمل إليه مُوثَقاً بالحديد ، فمثل بين يديه ، فقال له : أنت نبي مرسل ؟ قال : أما الساعة فأنا مُوثَقٌ ، قال : ويلـك !! مَنْ غرك ؟ قال : أبهذا تخاطب الأنبياء ؟ أما والله لولا أني مُوثَقٌ لأمرت جبريل أن يُدَمْدِمها عليكم ؟ قال له المأمون : والموثق لا تجاب له دعوة ؟ قال : الأنبياء خاصة اذا قيدت لا يرتفع دعاؤها ، فضحك المأمون ، وقـال : من قيدك ؟ قال : هذا الذي بين يديك ، قال : فنحن نطلقك وتأمر جبريل أن يدمدمها ، فإن أطاعك آمنا بك وصدقناك ، فقال : صدق الله إذ يقول : (فلا يؤمنوا حتى

يروا العذاب الأليم) إن شئت فافعل ، فأمر بإطلاقه ، فلما وجد راحة العافية ، قال : يا جبريل ، ومَدَّ بهـــا صوته ، ابعثوا من شئتم فليس بيني وبينكم الآن عمل ، غيري يملك الأموال وأنا لا شيء معي ، ما يذهب لكم في حاجة إلا كشخان فأمر بإطلاقه والإحسان اليه .

المأمون ورجل يدعي انه ابراهيم الخليل : وحدث ثُمَامة بن أشرس قال: شهدت مجلساً للمأمون وقد أتي برجل ادعى أنــه إبراهيم الخليل ، فقال له المأمون : ما سمعت بأجرأ على الله من هذا ، قلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في كلامه ، قال : شأنك وإياه ، قلت : يا هذا إن إبراهيم عليه السلام كانت له براهين ، قال : وما براهينه ؟ قلـت : أضْرِمَتْ له النار وألقي فيها فكانت عليه برداً وسلاماً ، فنحن نُضْرِمُ لك ناراً ونطرحك فيها فإن كانت عليك برداً وسلاماً كما كانت عليه آمَنَّا بك وصدقناك ، قال: هات ما هو ألينُ علي من هذا ، قلت : فبراهين موسى عليه السلام ، قال : وما هي ؟ قلت : ألقى العصا فــاذا هي حية تسعى تَلْقَفُ ما يأفكون ، وضرب بها البحر فانفلق ، وبياض يده من غير سوء ، قال : هذا أصعب ، ولكن هات ما هو ألين عليّ من هذا ، قلت: فبراهين عيسى عليه السلام ، قال: وما براهينه ؟ قلت : إحياء الموتى ، فقطع الكلام في براهين عيسى وقال: جئْتَ بالطامَّةِ الكبرى ، دعني من براهين هذا ، قلت : فلا بد من براهين ، قال : ما معي من هذا شيء ، وقد قلت لجبريل إنكم توجهونني الى شياطين فأعطوني حجة أذهب بها وإلا لم أذهب ، فغضب جبريل عليه السلام عليّ ، وقال : جئت بالشر من ساعة ، اذهب أولا فانظر ما يقول لـــك القوم ، فضحك المأمون وقال : هذا من الأنبياء التي تصلح للمنادمة .

وفي سنة ثمان وتسعين ومائة خَلَعَ المأمون أخــاه القاسم ابن الرشيد من ولاية العهد .

خروج ابي السرايا وابن طباطبا وقوم من العلويين : وفي سنة تســـع

وتسعين ومائة خرج أبو السرايا السري بن منصور الشيباني بالعراق ، واشتد أمره ، ومعه محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ، وهو ابن طَبَاطبا ، ووثب بالمدينة محمد بن سليمان بن داود ابن الحسن بن الحسن بن علي رحمهم الله ، ووثب بالبصرة علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي عليهم السلام ، وزيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، فغلبوا على البصرة .

وفي هذه السنة مات ابن طباطبا الذي كان يدعو اليه ابو السرايا ، وأقام أبو السرايا مكانه محمد بن محمد بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي .

وظهر في هذه السنة باليمن – وهي سنة تسع وتسعين ومائة – إبراهيم ابن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي ، وظهر في أيام المأمون بمكة ونواحي الحجاز محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رحمهم الله ، وذلك في سنة مائتين ، ودعا لنفسه ، واليه دعت السبطية[1] من فرق الشيعة وقالت بإمامته وقد افترقوا فرقاً : فمنهم مَنْ غلا ، ومنهم من قصر ، وسلك طريق الإمامية ، وقد ذكرنا في كتاب « المقالات في أصول الديانات » وفي كتاب « أخبار الزمان » من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة ، في الفن الثلاثين من أخبار خلفاء بني العباس ومن ظهر في أيامهم من الطالبيين ، وقيل : إن محمد بن جعفر هذا دعا في بدء أمره وعنفوان شبابه الى محمد بن ابراهيم بن طباطبا صاحب أبي السرايا ، فلما مات ابن طباطبا – وهو محمد بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن – دعا لنفسه ، وتسمّى بأمير المؤمنين ، وليس في آل محمد ممن ظهر لإقامة الحق ممن سلف وخلف قبله وبعده مَنْ تسمى بأمير المؤمنين غير محمد بن جعفر هذا ، وكان يسمى بالديباجة ؛ لحسنه وبهائه ، وما كان عليه من البهاء والكمال وكان له بمكة ونواحيها قصص حمل فيها الى المأمون بخراسان ، والمأمون يومئذٍ بمَرْو ،

---

١) في نسخة : السمطية .

فأمنه المأمون ، وحمله معه الى جرجان فلما صار المأمون مات محمد بن جعفر ، فدفن بها ، وقد أتينا على كيفية وفاته وما كان من أمره وغيره من آل أبي طالب ومقاتلهم ببقاع الارض في كتابنا « حدائق الأذهان » في أخبار آل أبي طالب ومقاتلهم في بقاع الأرض .

ظهور ابن الافطس : وظهر في أيام المأمون ايضاً بالمدينة الحسين بن الحسن ابن علي بن علي بن الحسين بن علي ، وهو المعروف بابن الأفطس ، وقيل : انه دعا في بدء أمره الى ابن طباطبا ، فلما مات ابن طباطبا دعا الى نفسه والقول بإمامته وسار الى مكة فأتى الناس وهم بِمِنًى ، وعلى الحاج داود بن عيسى بن موسى الهاشمي ، فهرب داود ، ومضى الناس الى عرفة ، ودفعوا الى مُزْدَلفة بغير إنسان عليهم من ولد العباس ، وقد كان ابن الأفطس وافى الموقف بالليل ، ثم صار إلى المزدلفة والناس بغير إمام فصلى بالناس ، ثم مضى الى منى ، فنَحَر ودخل مكة وجرد البيت مما عليه من الكسوة إلا القَبَاطي البيض فقط .

الظفر بأبي السرايا : وفي سنة مائتين ظفر حماد المعروف بالكندغوش بأبي السرايا ، فأتى به الحسن بن سهل ، فقتله وصلبه على الجسر ببغداد ، وقد أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » على خبر أبي السرايا وخروجه وما كان منه في خروجه وقتله عبدوس بن محمد بن أبي خالد ومن كان معه من قواد الأبناء واستباحته عسكره .

قال المسعودي : وفي سنة مائتين بعث المأمون برجاء بن أبي الضحاك وياسر الخادم الى علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي الرضا لإشخاصه ، فحمل اليه مكرما ، وفيها أمر المأمون بإحصاء ولد العباس من رجالهم ونسائهم وصغيرهم وكبيرهم ، فكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً .

المأمون وعلي بن موسى الرضا : ووصل الى المأمون أبو الحسن علي بن

موسى الرضا ، وهو بمدينة مَرْوَ ، فأنزله المـــأمون أحسن انزال ، وأمر المأمون بجميع خواص الأولياء ، وأخبرهم أنه نظر في ولد العباس وولد علي رضي الله عنهم ، فلم يجد في وقته احداً افضل ولا أحـــق بالأمر من علي بن موسى الرضا ، فبايع له بولاية العهد ، وضرب اسمه على الدنانير والدراهم ، وزوج محمد بن علي بن موسى الرضا بابنته أم الفضل ، وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام وأظهر بدلاً من ذلك الخضرة في اللباس والأعلام وغير ذلك ، ونمي ذلك الى مَن بالعراق من ولد العباس ، فأعظموه اذ علموا ان في ذلك خروج الأمر عنهم ، وحـــج بالناس ابراهيم بن موسى بن جعفر اخو الرضا بأمر المأمون ، واجتمع مَن بمدينة السلام من ولد العباس ومواليهم وشيعتهم على خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي المعروف بابن شِكلة ، فبويع له يوم الخميس لخمس ليال خلون من المحرم سنة اثنتين ومائتين ، وقيل ان ذلك في سنة ثلاث ومائتين .

مقتل الفضل بن سهل : وفي سنة اثنتين ومائتين قتل الفضل بن سهل ذو الرياستين في حمام غيلة ، وذلك بمدينة سرخس من بلاد خراسان ، وذلك في دار المأمون ، في مسيره الى العراق فاستعظم المأمون ذلك وقتـــل قتَلته ، وسار المأمون الى العراق .

موت علي بن موسى الرضا : وقبِضَ علي بن موسى الرضا بطوس لعنب أكله وأكثر منه ، وقيل : انه كان مسموماً ؛ وذلـــك في صفر سنة ثلاث ومائتين ، وصلى عليه المأمون ، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، وقيل : سبع وأربعين سنة وستة اشهر . وكان مولده بالمدينة سنة ثـــلاث وخمسين ومائة للهجرة ، وكان المأمون زوّجَ ابنته ام حبيبة لعلي بن موسى الرضا ، فكانت احدى الأختين تحت محمد بن علي بن موسى ، والأخرى تحت أبيه علي بن موسى .

ابراهيم بن المهدي يخرج على المأمون : واضطربت بغداد في أيام إبراهيم ابن المهدي ، وثارت الرويبضة [١] ، وسموا أنفسهم المطوعة [٢] ، وهم رؤساء العامة والتوابع ، ولما قرب المأمون من مدينة السلام صلى ابراهيم بن المهدي بالناس في يوم النحر ، واختفى في يوم الثاني من النحر ، وذلك في سنة ثلاث ومائتين ، فخلعه أهل بغداد ، وكان دخول المأمون بغداد سنة أربع ومائتين ، ولباسه الخضرة ، ثم غير ذلك ، وعاد إلى لباس السواد ، وذلك حين قدم طاهر بن الحسين من الرقة اليه .

خروج بابك الخرمي : وفي سنة أربع ومائتين كان القحط العظيم ببلاد المشرق والوباء بخراسان وغيرها ، وفيها كان خروج بابك الخرمي ببلاد البدين في اصحاب جاويذان بن شهرك ، وقد قدمنا ذكرنا بلاد بابك ، وهي البدين من أرض أذربيجان والران والبيلقان فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لجبل الفتح والباب والأبواب ونهر الراس وجريانه نحو بلاد البدين .

الظفر بابراهيم : وبثّ المأمون عيونه في طلب إبراهيم بن المهدي ، وقد علم باختفائه فيها ، فظفر به ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين في زي امرأة ، ومعه امرأتان ، أخذه حارس بن أسود في الدرب المعروف بالطويل ببغداد ، فأدخل الى المأمون فقال : هيه يا إبراهيم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وليّ الثار مُحكّم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مدّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذي عفو ، كما جعل كل ذي ذنب دوني ، فان تعاقب فبحقك ، وإن تعفو فبفضلك ، قال : بل العفو يا ابراهيم ، فكبر ثم خرّ ساجداً ، فأمر المأمون فصيرت المقنعة التي كانت عليه على صدره ليرى الناس الحال التي أخذ عليها ، ثم أمر به فصير في دار الحرس أياماً ينظر الناس اليه ، ثم حول إلى أحمد بن أبي خالد ، ثم رضي عنه من بعد أن كان وكل به ، فقال إبراهيم

١) في نسخة : الرويضية . ٢) في : المطوعية .

في ذلك من كلمة له :

إن الذي قسَّمَ المكارم حازها ... من صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أهلها ... وحوى ودادك كل خير جامع
فبذلت أعظم ما يقوم بحمله ... وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو، ولم يشفع إليك بشافع

زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل : وانحدر المأمون الى فم الصلح في شعبان سنة تسع ومائتين، وأملك بخديجة ابنة الحسن بن سهل التي تسمى بوران، ونثر الحسن في ذلك الإملاك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام، وذلك أنه نــثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسكٍ فيها رقاع بأسماء ضِياعٍ وأسماء جوارٍ وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها، فيمضي الى الوكيل الذي نصب لذلك فيقول له : ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طَسُّوج كذا من رُسْتاق كذا، وجارية يقال لها فلانة الفلانية، ودابة صفتها كذا، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافِجَ المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده حتى المكارين والحمالين والملاحين وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره، فلم يكن أحـــد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون مما يطعم ولا مما تعتلفه البهائم، فلما أراد المأمون أن يصعد في دجلة منصرفاً الى مدينة السلام قال للحسن : حوائجك يا أبا محمد، قال : نعم يا أمير المؤمنين، أسألك أن تحفظ عليَّ مكاني من قلبك، فإنه لا يتهيأ لي حفظه إلا بك، فأمر المأمون بحمل خراج فارس وكور الأهواز اليه سنة؛ فقالت في ذلك الشعراء فأكثرت، وأطنبت الخطباء في ذلك وتكلمت، فمما استظرف مما قيل في ذلك من الشعر قول محمد بن حازم الباهلي :

بارك الله للحسَنْ ولبورانَ في الختَنْ
يا ابن هارون قد ظفر ت ولكن ببنت من

فلما نمي هذا الشعر الى المأمون قال : والله ما ندري خيراً أراد أم شرّاً .

اهل المأمون يحملونه على قتل ابراهيم بن المهدي : ودخل ابراهيم بن المهدي يوماً على المأمون بعد مدة من الظفر به فقال : ان هذين يحملانني على قتلك — يعني المعتصم اخاه والعباس بن المأمون — فقال : ما اشارا عليك الا بما يُشار به على مثلك ، ولكن تدَعُ ما تخاف لما ترجو ، وأنشد :

رددتَ مالي ولم تبخَل عليَّ به وقبل ردك مالي قد حقنتَ دمي
فبؤت منها وما كافيتها بيَــدٍ هما الحياتان من موت ومن عــدم
البر وطّأَ منك العذر عندك لي فيما أتيت ، ولم تعذل، ولم تــلم
وقام عذرك بي فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غــير متهم

ولابراهيم اخبار حسان ، وأشعار ملاح ، ومـــا كان من أمره في حال اختفائه في سويقة غالب ببغداد ، وتنقله من موضع الى موضع بها ، وخبره في الليلة التي قبض عليه فيها ، وقد أتينا على جميعها فيما سمينـا من كتبنا التي كتابُنا هذا تال لها ومنبه عليها .

وقد صنف يوسف بن ابراهيم الكاتب صاحب ابراهيم بن المهدي كتباً منها: كتابه في أخبار المتطببين مع الملوك في المآكل والمشارب والمـــلابس ، وغير ذلك ، وكتابه المعروف بكتاب ابراهيم بن المهدي في أنواع الأخبار ، وغير ذلك من كتبه .

من اخبار ابراهيم بن المهدي : ومن أحسن ما اختير من اخبار ابراهيم في حال تنقله واختفائه ببغداد خبره مع المزين ، وهو ان المأمون لما دخل بغداد على ما ذكرنا فيما سلف من هذا الباب من بثه العيون طالباً لابراهيم بن المهدي، وجعل لمن دل عليه جعلاً خطيراً من المال ، قال ابراهيم : فخرجت في يوم

صائف في وقت الظهر لا أدري أين أتوجه ، فصرت الى زقاق ولا منفذ له، فرأيت أسوَدَ على باب دار ، فصرت اليه وقلت له : أعندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار ؟ فقال : نعم ، وفتح بابه ، فدخلت الى بيت فيه حصير نظيف ووسادة جلد نظيفة ، ثم تركني وأغلق البـاب في وجهي ومضى ، فتوهمته قد سمع الجعالة فيّ ، وأنه خرج ليدل عليّ ، فبينا انا كذلك اذ اقبل ومعه طبق[1] عليه كل ما يحتاج اليه من خبز ولحم ، وقدر جديد وآلتها وجرّة نظيفة وكيزان نظاف ، كل ذلك جديد ، وقال لي : جعلني الله فداك ، اني حجام ، واني اعلم انك تتقذر ما اتولاه ، فشأنك بما لم تقع عليه يدي ، وكانت بي حاجة شديدة الى الطعام ، فقمت فطبخت لنفسي قدراً ما اذكر اني اكلت اطيَبَ منها ، ثم قال لي بعد ذلك : هل لك في النبيذ ؟ فقلت : ما اكره ذلك ، ففعل مثل فعله في الطعام ، وأتاني بكل شيء نظيف لم يَمَسّ شيئاً منه بيده ، ثم قال لي بعد ذلك : أتاذن لي جعلني الله فداك ان اقعد ناحية منك فآتي بنبيذ فأشرب منه سروراً بك ؟ قال : فقلت : افعل ذلك، فلما شرب ثلاثاً دخل خزانة له وأخرج منها عوداً وقال : يا سيدي ، ليس من قدري ان أسألك ان تغني ، ولكن قد وجبت عليك حرمتي ، فإن رأيت ان تشرف عبدك بأن تغنيه ، قال : فقلت : وكيف توهمت عليّ اني احسن الغناء ؟ فقال متعجباً : يا سبحان الله ! ! أنت اشهر من ان لا اعرفك ،انت ابراهيم بن المهدي الذي جعل المأمون لمن دل عليك مائة الف درهم ، قال:فلما قال لي ذلك تناولت العود، فلما هممت بالغناء قال:ياسيدي أتجعل ما تغنيه ما اقترحه عليك ؟ قلت : هات ، فاقترح ثلاثة اصوات اتقدم فيها كل من غنى ، قلت : هبك عرفتني ، هذه الأصوات من اين لك بمعرفتها ؟ قال : انا اخدم اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، وكثير ما كنت اسمعه يذكر المحسنين وما يجيدونه ، ولم اتوهم اني اسمع ذلك منك في منزلي ، فغنيته ، وأنست به ،

١) في نسخة : ومعه حمال عليه الخ .

واستظرفته فلما كان الليل خرجت من عنده ، وقد كنت حملت معي خريطة فيها دنانير ، فقلت له : خذها فاصرفها في بعض مؤنتك ، ولك عندنا مزيد ان شاء الله تعالى ، فقال : ما اعجب هذا ! ! والله عزمت على ان اعرض عليك جملة ما عندي ، وأسألك أن تتفضل بقبولها ثم أجللتك عن ذلك ، وامتنع من قبول شيء ، ومضى حتى دلني على الموضع الذي احتجت اليه ، وانصرف ، وكان آخر العهد به .

يزيد بن هارون : وفي سنة ست ومائتين ـ وذلك في خلافة المأمون ـ مات يزيد بن هارون بن راذان الواسطي ، وله تسع وثمانون سنة ، وكان مولده سنة سبع عشرة ومائة وهو مـــولى لبني سُلَيم ، وكان ابوه يخدم في مطبخ زياد بن أبيه وعبيدالله بن زياد ومصعب بن الزبير والحجاج بن يوسف ، ويزيد هذا عند اهـل الحديث من عِلْيَتِهم[1] وعظيم من عظمائهم ، وكانت وفاته بواسط العراق .

موت جماعة من اهل العلم : وفيها مات جرير بن خُزَيمة بن حازم ، وشبابة ابن سوّار المدني ، والحجاج بن محمد الأعور الفقيه ، وعبدالله بن نافع الصائغ المدني مولى لبني مخزوم ، ووهب بن جرير ، ومؤمل بن اسماعيل ، وروح بن عبادة ، وفيها مات الهيثم بن عديّ وكان يغمز عليـــه نسبه ، وفيه يقول القائل :

اذا نسبتَ عَدياً في بني ثُعَل فقدّم الدال قبل العين في النسب

قصة وفاء وايثار : وفي سنة تسع ومائتين مات الواقدي ، وهو محمد بن عمرو بن واقد مولى لبني هاشم ، وهو صاحب السير والمغازي ، وقد ضعف في الحديث ، وذكر ابن أبي الأزهر قال : حدثني ابو سهل الرازي ، عمن حدثه عن الواقدي قال : كان لي صديقان أحدهما هاشمي ، وكنا كنفس واحدة ، فنالتني ضيقة شديدة ، وحضر العيد ، فقالت امرأتي : أما نحن في أنفسنا

---

١) في نسخة : وهذا عمدة أهل الحديث في علمهم .

فنصبر على البؤس والشدة ، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطّعوا قلبي رحمة لهم ، لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم ، وهم على هذه الحال من الثياب الرثّة ، فلو احتلت بشيء تصرفه في كسوتهم ، قال : فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليّ لما حضر ، فوجه إليّ كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف درهم ، فما استقر قراري حتى كتب إليّ الصديقُ الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي ، فوجهت إليـــه الكيس بحاله ، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلي مستحيياً من امرأتي ، فلما دخلت عليها استحسنت ما كان مني ولم تعنفني عليه ، فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته ، فقـال لي : اصدُقْني عما فعلتـه فيما وجهت إليك ، فعرفته الخبر على جهته ، فقال : إنك وجهت الي وما أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك ، وكتبت الى صديقنا أسأله المواساة ، فوجه بكيسي بخاتمي قال . فتواسينا الألف ثلاثاً بعد ان أخرجنا الى المرأة قبل ذلك مائة درهم ، ونمي الخبر الى المأمون ، فدعاني ، فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار : لكل واحد ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار ، وقبض الواقدي وهو ابن سبع وسبعين سنة .

وفيها كانت وفـــاة يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ببغداد ، وصلى عليه المأمون ، وقد أتينا على خبره فيما سلف من كتبنا .

بين أزهر وأبي جعفر المنصور ، وفيها مات أزهرُ السمان ، وكان صديقاً لأبي جعفر المنصور في أيام بني أمية وكانا قد سافرا جميعاً وسمعـــا الحديث ، وكان المنصور يألفه ، ويأنس اليه ، ويكبر عنده ، فلما أفضت الخلافة اليه أشخصَ اليه من البصرة فسأله المنصور عن زوجته وبناته ، وكان يعرفهن بأسمائهن ، وأظهر بره واكرامه ، ووصله بأربعة آلاف درهم ، وأمره ان لا يقدم اليه مستميحاً ، فلما كان بعد حول صار اليه ، فقال له : ألم آمرك ان تسير إليّ مستميحاً ، فقال له : ما صرت إليك الا مسلماً ومجدداً بك عهداً ،

قال : ما أرى الأمر[١] كما ذكرت ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمره أن يصير اليه مسلّماً ولا مستميحاً ، فلما كان بعد سنة صار اليه ، فقال : إني لم أقسم عليك للأمرين اللذين نهيتني عنهما ، وإنما بلغني أن علة عرضت لأمير المؤمنين فأتيته عائداً ، فقال ما اظنك اتيت الا مستوصلا ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فلما كان بعد الحول ألح عليه بناته وزوجته ، وقلن له يا أمير المؤمنين صديقك فارجع اليه ، فقال : ويحكن ! ! ماذا اقول له وقد قلت له أتيتك مستميحاً ومسلما وعائداً ؟ ماذا اقول في هذه المرة ؟ وبمَ أحتج ؟ فأبوا على الشيخ الا الالحاح ، فخرج فأتى المنصور وقال : لم آتك مسترفداً ، ولا زائراً ولا عائداً ، وإنما جئت لسماع حديث كنا سمعناه جميعاً في بلد كذا من فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه اسم من أسماء الله تعالى مَن سأل الله به لم يرده ولم يخيب دعوته ، فقال له المنصور : لا تُرِدْهُ فإني قد جربته فليس هو بمستجاب، وذلك اني مذ جئتني اسأل الله به ان لا يردك إليّ ، وها أنت ترجع لا تنفك من قولك مسلماً او عائداً او زائراً ، ووصله بأربعة آلاف درهم ، وقال له : قد أعيتني فيك الحيلة فصر إلي متى شئت .

مقتل ابن عائشة ، وفي سنة تسع ومائتين ركب المأمون الى المطبق بالليل حتى قتل ابن عائشة ، وهو رجل من ولد العباس بن عبد المطلب ، واسمه ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام أخي ابي العباس والمنصور ، وقتل معه محمد بن ابراهيم الإفريقي وغيره ، وابن عائشة هذا اول عباسي صُلِبَ في الإسلام ، وتمثل المأمون حين قتله بقول الشاعر :

اذا النار في احجارها مستكنة ... متى ما يُهِجْها قادحٌ تتضرم

وكان رجل من ولد العباس بن علي بن ابي طالب ذو مال وثروة وعز ومنعة وفهم وبلاغة ، وهو العباس بن العباس العلوي ، بمدينة السلام ، وكان

---

١) في نسخة : ما أرى الأمر الا كما ذكرت .

المعتصم يشناه لحال كانت بينهما ، فمكن في نفس المأمون انهشانىء له ولدولته ، ما بقيت لأيامه ، فلما كان في تلك الليلة لحق العباس بالمأمون على الجسر فقال له المأمون : ما زلت تنتظرها حتى وقعت ، فقال : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين ، ولكني ذكرت قول الله عز وجل (ما كان لأهل المدينة ومَنْ حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) فحسن موقع ذلك منه ، ولم يزل يسايره حتى بلغ المطبق،فلما قتل ابن عائشة قال : يأذن أمير المؤمنين في الكلام ؟ قال : تكلم ، قال : الله الله في الدماء ، فإن الملك إذا ضَرِيَ بها لم يصبر عنها ، ولم يُبْقِ على أحد ، قال : لو سمعت هذا الكلام منك قبل أن أركب ما ركبت ولا سفكت دماً ، وأمر له بثلثمائة ألف درهم .

وقد أتينا على خبر ابن عائشة هذا وما أراد من الإيقاع بالمأمون ، وما كان من أمره في كتابنا في « أخبار الزمان » .

موت أبي عبيدة معمر بن المثنى : وفي سنة إحدى عشرة ومائتين مات أبو عبيدة معمر بن المثنى بالبصرة ، وكان يرى رأي الخوارج ، وبلغ نحواً من مائة سنة ، ولم يحضر جنازته أحد من الناس ، حتى اكترى لها من يحملها ، ولم يكن يسلم عليه[1] شريف ولا وضيع إلا تكلم فيه ، وله مصنفات حسان في أيام العرب وغيرها : منها كتاب المثالب ، ويذكر فيه أنساب العرب وفسادها ، ويرميهم بما يُسيء الناسَ ذِكْرُه[2] ، ولا يحسن وصفه ، وكان أبو نُوَاس الحسن بن هاني كثير العبث به ، وكان أبو عبيدة يقعد في مسجد البصرة إلى سارية من سَوَاريه ، فكتب أبو نواس عليها في غيبته عنها بهذين البيتين يُعَرِّضُ به :

صلى الإلهُ على لوط وشيعته ... أبا عبيدة قـل بالله آمينا
وأنت عندي بلا شك بقيتُهُمْ ... مذ احتلمت ، وقد جاوزت تسعينا

١) في نسخة : ولم يكن يسلم منه الخ. ٢) في نسخة : ويرميهم بما ليس في السياسة ذكره.

فلما جاء أبو عبيدة ليجلس في مجلسه ويستند على تلك السارية رأى ذلك فقال: هذا فعلُ الماجنِ اللواط أبي النواس، حُكّوه وإن كان فيه صلاة على نبي.

موت أبي العتاهية وشيء من أخباره: وفي هذه السنة — وهي سنة إحدى عشرة ومائتين — مات أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم، الشاعر، متنسكاً لابساً للصوف، وكان له مع الرشيد أخبار حسان: من ذلك ما قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب، ومنها أن الرشيد أمر ذات يوم بحمله إليه، وأمر أن لا يكلم في طريقه، ولا يعلم ما يراد منه، فلما صار في بعض الطريق كتب له بعض مَنْ معه في الطريق: إنما يراد قتلك، فقال أبو العتاهية من فوره:

ولعلَّ ما تخشاه ليس بكائن ... ولعل ما ترجوه سوف يكون
ولعل ما هَوَّنْتَ ليس بهيِّن ... ولعل ما شددت سوف يهون

وحج في بعض الحجج مع الرشيد، فنزل الرشيد يوماً عن راحلته، ومشى ساعة، ثم أعيا، فقال: هل لك يا أبا العتاهية أن تستند إلى هذا الميل (١)؟ فلما قعد الرشيد أقبل على أبي العتاهية وقال له: يا أبا العتاهية: حركنا، فقال:

هب الدنيا تواتيكا ... أليس الموت يأتيكا
ألا يا طالبَ الدنيا ... دع الدنيا لشانيكا
وما تصنع بالدنيا ... وظل الميل يكفيكا

ولأبي العتاهية أخبار وأشعار كثيرة حسان، قد قدمنا فيما سلف من كتبنا جملاً مما اختير من شعره وما انتخب من قوافيه، وكذلك قدمنا من ذلك لمعاً فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار خلفاء بني العباس، ومما

---

١) في نسخة: ان تستريح الى ظل هذا الميل.

استحسن من ذلك قوله :

أحْمَدُ قال لي ولم يَدْرِ ما بي : أتحب الغداة عتبة حقاً ؟
فتنفسْتُ ثم قلت : نعم حُبـاً جرى في العروق عِرْقاً فعرقا
ليتني مِتُّ فاسترحت ؛ فإني أبداً ما حييت منها ملقى
لا أراني أبقى ، ومن يَلْقَ ما لا قيتُ من لوعة الجوى ليس يبقى
فاحْتَسِبْ صحبتي ، وقل رحمة الله على صاحب لنا مات عشقا
أنا عَبْدٌ لها وإن كنت لا أر زقُ منها والحمد لله عتقا

ومما استحسن من شعره أيضاً قوله :

يا عُتْبَ ما لي ولكِ يا ليتني لم اركِ
ملكتني فانتهكي ما شئت أن تلتهكي
أبيتُ ليلي ساهراً أرعى نجوم الفلك
مفترشاً جمرَ الغضى ملتحفاً بالحسكِ

ومن قوافيه الغريبة وأشعاره المستحسنة قوله :

أخِلاي بي شَجوٌ، وليس بكم شجوُ وكل امرىء من شجو صاحبه خِلْوُ
رأيت الهوى جمرَ الغضى ، غير أنه على حَرِّه في صدر صاحبه حُلوُ
أذاب الهوى جسمي وعظمي وقوتي فلم يبقَ إلا الروح والبدن النِّضْوُ
وما من حبيبٍ نال ممن يحبه هوى صادقاً إلا يداخله زَهْوُ
وإني لنائي الطرف من غير خلتي وما لي سواها من حديثٍ ولا لهْوُ
لها دون إخواني وأهل مودتي من الود مني فضْلة ، ولها العَفْوُ

ومما انتخب من شعره واستحسنه الناس من قوله قوله :

يا لهف نفسي على الذي اجتنبت بأي جرم ترونها عَتَبَتْ
تبارك الله بئس ما صنعت بي في هواها ، وبئس ما ارتكبت (١)

---

١) في نسخة : بي من هواها .

أتيتهـا زائراً فما انتجزت وَعْديَ إذ جئتها وما احتسبت
كم من ديون والله يعلمهـا لنا عليها لم تُقضَ إذ وجبت
ما وهبته لي من فضلها عِدَةً إلا استردّت جميع مـا وهبت
فأيُّ خيـر وأيُّ منفعة لِذاتِ دَلٍّ تريق ما حلبت ؟
الله بيني وبـين ظالمـتي طلبته منها وصالهـا فأبت
ماذا عليهـا لو انهـا بعثت منهـا رسولاً إليَّ أو كتبت
رغبت في وصلها وقد زَهِدتْ عتبة في وصلنا ومـا رغبت

وكان ابو العتاهية قبيح الوجه ، مليح الحركات ، حلو الانشاد ، شديد الطرب ومن مليح شعره ايضاً قوله :

من لم يذق لصبابة طعما فلقد احَطتُ بطعمها علما
إني منحت مودتي سَكَناً فرأيته قد عدّها جُرْما
يا عُتب ما ابقيت من جسدي لحماً ، ولا ابقيت لي عظما
يا عتب ما أنا من صنيعك بي أعمى ، ولكن الهوى أعمى
إن الذي لم يدر ما كلفي ليرى على وجهي به وَسْما

وله أشعار خرج فيها عن العروض مثل قوله :

هم القاضي بيت يطرب قال القاضي لما عوتب
ما في الدنيا إلا مذنب هذا عذر القاضي واقلب

وزنه فعلن فعلن اربع مرات ، وقد قال قوم: إن العرب لم تقل على وزن هذا شعراً ، ولا ذكره الخليل ولا غيره من العروضيين .

الزيادة في العروض على الخليل : قال المسعودي : وقد زاد جماعة من الشعراء على الخليل بن أحمد في العروض : من ذلك المديد ،وهو ثلاثة أعاريض وستة ضروب عند الخليل ، وفيه عروض رابع وضربان محدثان ، فالضرب الاول من العروض الرابعة المحدثة قول الشاعر :

من لعين لا تنام دمعها سح سجام(١)

والضرب الثاني من العروض الرابعة المحدثة قول الشاعر :

يا لبكر لا تنوا ليس ذا حين ونا

وغير ذلك مما قد تكلموا فيه ، وذكروه في هذا المعنى من الزيادات مما قد أتينا على وصفه وقدمنا من ذكره في كتابنا في « أخبار الزمان » .

ابو العباس الناشيء : وقد صنف ابو العباس عبدالله بن محمد الناشيء الكاتب الأنباري على الخليل بن احمد في ذلك كتاباً ذكر فيه أنواعاً من هذا المعنى مما خرج فيه الخليل بن احمد عن تقليد العرب إلى باب التعسف والنظر ونصب العلل عن اوضاع الجدل ، كان ذلك له لازماً ، ولما اورده كاسراً ، وللناشيء اشعار كثيرة حسان: منها قصيدة واحدة نحو من اربعة آلاف بيت قافية واحدة نونية منصوبة يذكر فيها اهل الآراء والنحل والمذاهب والملل ، وأشعار كثيرة ومصنفات واسعة في انواع من العلوم ، فمما جوّد فيه قوله حين سار من العراق إلى مصر ، وبها كانت وفاته ، وذلك في سنة ثلاث وتسعين ومائتين على حسب ما قدمنا ذكره :

يا ديار الأحباب هل من مجيب عنك يشفي غليل نائي المزار ؟
ما أجابت ،ولكن الصمتُ منها فيه للسائلين طول اعتبار
إن تكن اوحشت فبعد انيس أو خلتْ منهم فبعد قرار
قد لهونا بها زماناً وعينا ووصلنا الأسحار بالأسحار
واغتبقنا على صبوح ولهو وحنين النايات والأوتار
بين ورد ونرجس وخزامى وبنفس وسوسن وبهارَ
وأقاح وكل صنف من النوْ ر الشهيّ الجنى والجلنار
فرمتنا الأيامُ أحسن ما كنا على حين غفلة واغترار

١) في نسخة : ما لعيني لا تنام .

فافترقنا من بعد طول اجتماع ونأينـــا بعد اقتراب الديار

نداء المأمون في امر معاوية وسببه : وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين نادى منادي المأمون : برئت الذمة من احد من الناس ذكر معاوية بخير او قدمه على احد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتكلم في اشياء من التلاوة انها مخلوقة ، وغير ذلك، وتنازع الناس في السبب الذي من أجله أمر بالنداء في أمر معاوية ، فقيل في ذلك أقاويل : منها أن بعض سُمّاره حدث بحديث عن مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي ، وقد ذكر هذا الخبر الزبير بن بكار في كتابه في الاخبار المعروفة بالموفقيات التي صنفهـا للموفق ، وهو ابن الزبير ، قال : سمعت المـــدائني يقول : قال مطرف بن المغيرة بن شعبة : وَفَدْتُ مع أبي المغيرة الى معاوية ، فكان أبي يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه ، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ، فرأيته مغتما ، فانتظرته ساعة ، وظننت أنـــه لشيء حدث فينا أو في عملنا ، فقلت له : ما لي أراك مغتما منذ الليلة ؟ قال : يا بني ، إني جئت من عند أخبث الناس ، قلت له : وما ذاك ؟ قال : قلت له وقد خلوت به : إنك قد بلغت منا يا أمير المؤمنين ، فـــلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فانك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله مـــا عندهم اليوم شيء تخافه ، فقال لي : هيهات هيهات !! مَلكَ أخو تيم فعدل وفعل ما فعل ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، إلا أن يقول قائل : أبو بكر ، ثم ملك أخو عَديٍّ ، فاجتهد وشمر عشر سنين ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، إلا أن يقول قائل : عمر ، ثم ملك أخونا عثمان فملك رجلٌ لم يكن أحد في مثل نسبه ، فعمل ما عمـــل وعمل به فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، وذكر ما فعلَ به ، وإن أخا هاشم يُصْرَخُ به في كل يوم خمس مرات : أشهد أن محمداً رسول الله ، فأي عمل يبقى مع هذا ؟ لا أمّ لك ؟ والله ألا دفنا دفنا ، وإن المأمون لما سمع

هـــذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ما وصفنا ، وانشئت الكتب الى الآفاق بلعنه على المنابر ، فأعظم الناسُ ذلك وأكبروه ، واضطربت العامة منه فأشير عليه بترك ذلك ، فأعرض عما كان همّ به .

وفاة أبي عاصم النبيل ، وجماعة من اهل العلم : وفي خلافة المأمون كانت وفاة أبي عاصم النبيل ، وهو الضحاك بن مخلد بن سنان الشيباني ، وذلك في سنة اثنتي عشرة ومائتين ، وفيها مات محمد بن يوسف الفاريابي ، وفي سنة خمس عشرة ومائتين — وذلك في خلافة المأمون — مات هوذة بن خليفة بن عبدالله ابن أبي بكر ، ويكنى بأبي الأشهب ، ببغداد ، وهو ابن سبعين سنة ، ودفن بباب البردان ، في الجانب الشرقي ، وفيها مات محمد بن عبد الله بن المثنى بن عبدالله بن أنس بن مالك الانصاري ، وفيها مات إسحاق بن الطباع ، بأذنـة من الثغر الشامي ، ومعاوية بن عمرو ، ويكنى بأبي عمرو ، وقبيصة بن عقبة ، ويكنى بأبي عامر ، من بني عامر بن صعصعة .

وفي سنة سبعَ عشرَة ومائتين دخل المأمون مصر ، وقتل بها عبدوس ، وكان قد تغلب عليها .

غزو الروم : وفي سنة ثمان عشرة ومائتين غزا المأمون أرض الروم ، وقد كان شرع في بناء الطوانة ، مدينة من مدنهم على فم الدرب ، ممـا يلي طرسوس ، وعمد إلى سائر حصون الروم ، ودعاهم إلى الاسلام ، وخيرهم بين الاسلام والجزية بالسيف ، وذلل النصرانية ، فأجـــابه خلق من الروم إلى الجزية .

قال المسعودي : وأخبرنا القاضي أبو محمد عبد الله بن أحمـــد بن زيد الدمشقي بدمشق ، قال : لما توجه المأمون غازياً ، ونزل البديدون ، جاءه رسول ملك الروم فقال له : إن الملك يخيرك بين أن يرُدّ عليك نفقتك التي أنفقتها في طريقك من بلدك الى هذا الموضع ، وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار ، وبين أن يعمر لك كل

بـــلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان ، وترجع عن غزاتك ، فقام المأمون ودخل خيمة[1] ، فصلى ركعتين ، واستخار الله عز وجل وخرج ، فقال للرسول : قل له ، أما قولك ترد علي نفقتي ، فاني سمعت الله تعـالى يقول في كتابنا[2] ، حاكياً عن بلقيس : (وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ، فلما جاء سليمان قال : أتمدونني بمال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون) وأما قولك : إنك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم ، فما في يدك إلا أحد رجلين : إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة ، فقد صار إلى ما أراد ، وإما رجل يطلب الدنيا ، فلا فكَّ الله أسْرَهُ ، وأما قولك : إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم ، فلو أني قلعت أقصى حجر في بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة في حال أسرها ، فقالت : واحمداه واحمداه ، عُدْ إلى صاحبك ، فليس بيني وبينه إلا السيف ، يا غلام اضرب الطبل ، فرحل ، فلم ينثن عن غزاته ، حتى فتح خمسة عشر حصناً ، وانصرف من غزاته ، فنزل على عين البديدون ، المعروفة بالقشيرة على حسب ما قدمنا في هذا الكتاب ، فأقام هنالك حتى ترجع رُسُله من الحصون ، فوقف على العين ومنبع الماء ، فأعجبه بَرْدُ مائها وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة ، فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر ، وجعل فوقه كالأزج من الخشب وورق الشجر ، وجلس تحت الكنيسة التي قد عقدت له والماء تحته ، وطرح في الماء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو في قرار الماء لصفاء الماء ، ولم يقدر أحد يدخل يده في الماء من شدة بَرْده .

علة المأمون وموته : فبينا هو كذلك إذا لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة ، فجعل لمـــن يخرجها سَبْقاً ، فبدر بعض الفراشين فأخذها وصعد ، فلما صارت على حرف العين أو على الخشب الذي عليـــه المأمون اضطربت وافلتت[3] من يـــد الفراش فوقعت في الماء كالحجر ، فنضح

---

١) في نسخة: فدخل الى خيمته. ٢) في نسخة: في كتابه العزيز. ٣) في نسخة: وانملست من يد الفراش.

من الماء على صدر المأمون ونحره وتَرْقُوَتِه فبلّت ثوبه ، ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب ، فقال المأمون : تُقلى الساعة ، ثم أخذته رعدة من ساعته ، فلم يقدر يتحرك من مكانه ، فغطي باللحف والدواويج ، وهو يرتعد كالسعفة ، ويصيح البرد البرد ، ثم حول إلى المضرب ، ودثر ، وأوقدت النيران حوله ، وهو يصيح : البرد البرد ، ثم أتي بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها ، وشغله ما هو فيه عن تناول شيء منها ، ولما اشتد به الامر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سكرات الموت ، وما الذي يدل عليه علم الطب من أمره ؟ وهل يمكن برؤه وشفاؤه ؟ فتقدم ابن ماسويه ، فأخذ إحدى يديه وبختيشوع الاخرى ، وأخذ المجسة من كلتا يديه ، فوجدا نبضه خارجاً عن الاعتدال ، مُنذراً بالفناء والانحلال ، والتزقت أيديهما ببشرته لِعَرَقٍ كان يظهر منه من سائر جسده ، كالزيت ، أو كلعاب بعض الأفاعي ، فأخبر المعتصم بذلك ، فسألهما عن ذلك ، فأنكرا معرفته ، وأنهما لم يجداه في شيء من الكتب ، وأنه دال على انحلال الجسد ، وأفاق المأمون من غشيته ، وفتح عينيه من رقدته ، فأمر بإحضار أناس من الروم ، فسألهم عن اسم الموضع والعين ، فأحضر له عدة من الأسارى والأدلة ، وقيل لهم : فسروا هذا الاسم القشيرة (١) ، فقيل له تفسيره مُدّ رجليك ، فلما سمعها اضطرب من هذا الفأل وتطيّر به ، وقال : سلوهم ما اسم الموضع بالعربية ، فقالوا : الرقة ، وكان فيما عمل من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة ، وكان المأمون كثيراً ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة فرَقاً من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وُعِد فيه فيما تقدم من مولده ، وأن فيه وفاته ، وقيل : إن اسم البديدون تفسيره مُدّ رجليك ،

١) في نسخة : ما تفسير هذا الاسم وهو القشيرة .

والله أعلم بكيفية ذلك ، فأحضر المأمون الأطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه ، فلما ثقل قال : أخرجوني أشرفُ على عسكري ، وانظر إلى رجالي ، وأتبين ملكي ، وذلك في الليل ، فأخرج فأشرف على الخيم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد أوقد من النيران ، فقال : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ، ثم رُدَّ إلى مرقده وأُجلِسَ المعتصم رَجلاً يشهده لما ثقل[1]، فرفع الرجل صوته ليقولها ، فقال له ابن ماسويه : لا تَصِحْ فوالله ما يفرق بين ربه وبين ماني في هذا الوقت ، ففتح المأمون عينيه من ساعته ، وبهما من العظم والكبر والاحمرار ما لم يُرَ مثله قط ، وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ، ورام مخاطبته ، فعجز عن ذلك ، فرمى بطرفه نحو السماء ، وقد امتلأت عيناه دموعاً ، فانطلق لسانه من ساعته ، وقال: يا من لا يموت ارحم مَنْ يموت ، وقضى من ساعته ، وذلك في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين ، وحمل إلى طرسوس فدفن بها ، على حسب ما قدمنا في أول أخباره من هذا الكتاب .

قال المسعودي: وللمأمون أخبار حسان ومَعَانٍ وسير ومجالسات وأشعار وأخلاق جميلة ، قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن ذكرها .

وفي المأمون يقول أبو سعيد المخزومي :

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ ... مون شيئاً وملكه المأنوس[2]

خلّفوه بعرصتي طرسوس ... مثل ما خلفوا أباه بطوس

وكان المأمون كثيراً ما ينشد هذه الأبيات :

ومَنْ لا يزل غرضاً للمنو ... ن يتركنه ذات يوم عميدا

فإن هن أخطأنه مرة ... فيوشك مخطئها أن يعودا

فبينا يحيد وتخطينه ... قصدن فأعجلنه أن يحيدا

---

١) في نسخة : رجلا يلقنه الشهادة لما ثقل . ٢) في نسخة : وملكه المأسوس .

ذكر
خلافة المعتصم

موجز : وبويع المعتصمُ في اليوم الذي كانت فيه وفاة المأمون على عين البديدون ، وهو يوم الخميس لثلاثَ عشرَة ليلةً بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين ، واسمه محمد بن هارون ، ويكنى أبا إسحاق ، وكان بينه وبين العباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في المجلس ، ثم انقاد العباسُ إلى بيعته ، والمعتصم يومئذ ابن ثمان وثلاثين سنة وشهرين ، وأمه يقال لها ماردة بنت شبيب ، وقيل إنه بويع سنة تسع عشرة ومائتين ، وتوفي بسُرَّ مَنْ رأى سنة سبع وعشرين ، وهو ابن ست وأربعين سنة وعشرة أشهر ، فكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ، وقبره بالجوْسَق بسُرَّ من رأى على ما ذكرنا .

ذكـــر
جمل من أخباره وسيره ، ولمع مما كان في أيامه

ابن الزيات وزير المعتصم وأحمد بن أبي دؤاد : واستوزر المعتصم محمدَ ابن عبد الملك إلى آخر أيامه ، وغلب عليه أحمد بن أبي دُؤاد ، ولم يزل محمد ابن عبد الملك في أيام المعتصم والواثق إلى أن ولي المتوكل ، وكان في نفسه عليه شيء ، فقتله ، وسنذكر لمعاً من خبر مقتله فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار المتوكل ، وإن كنا قد أتينا على ذلك ملخصاً في الكتاب الأوسط .

حب المعتصم للعمارة : وكان المعتصم يحب العمارة ، ويقول : إن فيهـــا

أموراً محمودة ، فأولها عمران الأرض التي يحيي بها العالم ، وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش ، وكان يقول بوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه.

بأس المعتصم وقوته : وكان المعتصم ذا بأس وشدة في جسمه ، وشجاعة في قلبه ، فذكر أحمد بن أبي دُؤاد — وكان به آنساً — قال : لما أنكر المعتصم نفسه وقوته دخلت عليه يوماً وعنده ابن ماسويه ، فقام المعتصم فقال لي : لا تبرح حتى أخرج إليه ، فقلت ليحيى بن ماسويه : ويحك !! إني أرى أمير المؤمنين قد حال لونه ، ونقصت قوته ، وذهبت سَوْرَته ، فكيف تراه أنت ؟ قال : هو والله زبرة من زبر الحديد، إلا أن في يديه فأساً يضرب بها تلك الزبرة ، فقلت : وكيف ذاك؟ قال : كان قبل ذلك إذا أكل السمك اتخذ له صباغاً من الخل والكراويا والكمون والسذاب والكرفس والخردل والجوز فأكله بذلك الصباغ ، يدفع أذى السمك وأضراره بالعصب ، وإذا أكل الرؤوس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها ، وكان في أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتي ، فصار اليوم إذا أنكرت عليه شيئاً خالفني ، وقال : آكل هذا على رغم أنف ابن ماسويه فما أقدر أن أصنع ، قال : وهو خلف الستر يسمع ما نحن فيه ، فقلت : ويلك يا أبا يحيى !! أدخل أصبعك في عينيه[1] ، قال : جعلت فداك ، ما أقدر أرُدُّه ولا أجترىء عليه في خلاف ، فلما فرغ من كلامه خرج علينا المعتصم ، فقال لي : ما الذي كنت فيه مع ابن ماسويه ؟ قلت : ناظرته يا أمير المؤمنين في لونك الذي أراه حائلاً ، وفي قلة طعمك الذي قد هَدّ جوارحي وأنحَلَ جسمي ، قال : فما قال لك ؟ قلت : شكا أنك كنت تقبل منه ما يشير به عليك وكنت ترى في ذلك على ما يحب ، وأنك الآن تخالفه ، قال : فما قلت له أنت ؟

١) في نسخة : أدخل أصبعك في عينه .

قال : فجعلت أصرف الكلام ، قال : فضحك وقال : هذا بعد ما دخل في عيني أو قبل ذلك ؟ قال : فارْفَضَضْتُ عَرَقاً وعلمت أنه قد سمع ما كنا فيه ، ورأى ما قد داخلني ، فقال : يغفر الله لك يا أحمد ، لقد فرحت بما ظننت أنه أحزنك إذ سمعته وعلمت أنه نوع من أنواع الانبساط والأنس .

المعتصم وعلي بن الجنيد : وكان المعتصم يأنس بعلي بن الجنيد الإسكافي ، وكان عجيب الصورة عجيب الحديث ، فيه سلامة أهل السواد[1] ، فقال المعتصم يوماً لمحمد بن حَمّاد : اذهب بالغداة إلى علي بن الجنيد ، فقل له يتهيأ حتى يزاملني ، فأتاه فقال : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تزامله ، فتهيأ لشروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم فقال علي بن الجنيد : وكيف أتهيأ ؟ أهيء لي رأساً غير رأسي ؟ أأشتري لحية غير لحيتي ! أأزيد في قامتي ! أنا متهيء وفضلة ، قال : لست تدري بعدُ ما شروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم ! فقال علي بن الجنيد : وما هي ؟ هات يا من تَدْري ، قال له ابن حماد وكان أديباً ظريفاً وكان برسم الحجاب : شرط المعادلة الإمتاع[2] بالحديث والمذاكرة والمناولة ، وأن لا يبزق ، ولا يسعل ، ولا يتنحنح ، ولا يمخط ، وألا يتقدم الرئيسَ في الركوب إشفاقاً عليه من الميل ، وأن يتقدمه في النزول ، فمتى لم يفعل المعادل هذا كان هو والمثقلة الرصاص التي تعدل بها القبة سَواءً ، وليس له أن ينام وإن نام الرئيس ، بل يأخذ نفسه بالتيقظ ، ومراعاة حال مَنْ هو معه وما هو راكبه ؛ لأنهما إذا ناما جميعاً مال جانب لا يشعر بميله كان في ذلك ما لا خفاء به ، وعلي بن الجنيد ينظر إليه ، فلما أكثر عليه في هذا الوصف والشروط قطع عليه كلامه وقال كما يقول أهل السَّواد : آمْ حرها ، اذهب له فقل له : ما يزاملك إلا مَنْ أمُّه زانية وهو كشخان ، فرجع ابن حماد ، فقال للمعتصم ما قال ، فضحك المعتصم وقال : جئني به ، فجاءه ، فقال : يا علي ، أبعث إليك تزاملني فلا تفعل ؟ فقال : إن رسولك هذا

---

(١) في نسخة : سلامة أهل السواد .
٢) في نسخة : الامتناع .

الجاهل الأزعر[1] جاءني بشروط حسّان الشاشي وخالويه الحاكي فقال : لا تبزق ، ولا تفعل كذا ، وافعل كذا ، وجعل يمطط في كلامه ، ويفرقع في صاداته ، ويشير بيديه ، ولا تسعل ، ولا تعطس ، وهذا لا يقوم لي ، ولا أقدر عليه ، فإن رضيت أن أزاملك فإن جاءني الفُسَاءُ فسوت عليكَ وضَرَطْتُ ، وإذا جاءك أنت فأده فافس واضرط ، وإلا فليس بيني وبينك عمل ، فضحك المعتصم حتى فحص برجليه وذهب به الضحك كل مذهب ، وقال : نعم زاملني على هذه الشريطة ، قال : نعم وكرامَةً ، فزاملَهُ في قبة على بغل ، فسارا ساعة ، وتوسطا البر ، فقال علي : يا أمير المؤمنين حضَر ذلك المتاعُ فما ترى ؟ قال : ذلك إليك إذا شئت ، قال : تحضر ابن حماد ، فأمر المعتصم بإحضاره ، فقال له علي: تعال حتى أسارَّكَ ، فلما دنا منه فَسَا ، وناوله كمه ، وقال : أجِدُ دبيب شيء في كمي فانظر ما هو ، فأدخل رأسه ، فشم رائحة الكنيف ، فقال : ما أرى شيئاً ، ولكني لم أعلم أن في جوف ثيابك كنيفاً ، والمعتصم قد غطّى فمه بكمه ، وقد ذهب به الضحك كل مذهب، ثم جعل يفسو فسَاء متصلاً، ثم قال لابن حماد : قلت لي لا تسعل ولا تبزق ولا تمخط ، فلم أفعل ولكني أخرَى عليك ، قال : فاتصل فساؤه والمعتصم يخرج رأسه من العمارية ، ثم قال للمعتصم : قد نضجت القدر ، وأريد أخرَى ، فقال المعتصم ورفع صوته حين كثر ذلك عليه : ويلك ! يا غلام الأرض ، الساعة أموت .

ودخل علي بن الجنيد الاسكافي يوماً على المعتصم فقال له بعد ان ضاحكه ومازَحَه : يا علي ، ما لي لا أراك ويلك ! ؟ أنسيت الصحبة وما حفِظتَ المودة ؟ فقال له حينئذ : بالغ الكلام الذي أريد أن أقوله قلته أنت ، ما أنت إلا إبليس ، فضحك ، ثم قال : لم لا تجيئني ؟ قال : آه كم أجيء فلا أصل إليك ، أنت اليوم نبيل ، فكأنك من بني مارية ، وبنو مارية اناس من

١) في نسخة : الأرعن .

اهل السواد يضرب بهم أهل السواد الامثال لكبرهم في نفوسهم ، فقال له المعتصم : هذا سندان التركي ، وأشار الى غلام على رأسه بيده مذبة ، وقال له : يا سندان ، إذا حضر علي فاعلمني وإن أعطاك رقعة فأوصلها إليّ ، وإن حمّلك رسالة فاخبرني بها ، قال : نعم يا سيدي ، وانصرف علي فأقام اياماً ثم جاء يطلب سندانا فقالوا:هو نائم ، فانصرف ثم عاد ، فقالوا :هو داخل ، ولا تصل اليه ، فانصرف وعاد ، فقالوا : هو عند أمير المؤمنين فاحتال حتى دخل عند المعتصم من جهة اخرى ، فضاحكه ساعة وعاتبه ، وقال له : يا علي ، ألك حاجة ؟ قال : نعم يا امير المؤمنين ، ان رأيت سندان التركي فاقره مني السلام ، فضحك وقال : ما حاله ؟ قال : حاله انك جعلت بيني وبينك انساناً رأيتك قبل أن أراه ، وقد اشتقت اليه ، فأسألك ان تبلغه مني السلام ، فغلب المعتصم الضحك ، وجمع بينه وبين سندان ثانية ، وأكد عليه في مراعاة أمره ، فكان لا يمنع عنه .

المعتصم وشيخ زلق حماره في الطين : وعبر المعتصم من سُر مَن رأى من الجانب الغربي – وذلك في يوم مطير ، وقد تبع ذلك ليلة مطيرة – وانفرد من اصحابه ، وإذا حمار قد زلق ورمى بما عليه من الشوك ، وهو الشوك الذي توقد به التنانير بالعراق ، وصاحبه شيخ ضعيف واقف ينتظر انساناً يمر فيعينه على حمله ، فوقف عليه ، وقال: ما لك يا شيخ ؟ قال: فديتك حماري وقع عنه هذا الحمل، وقد بقيت انتظر انساناً يعينني على حمله ، فذهب المعتصم ليخرج الحمار من الطين ، فقال الشيخ : جعلت فداك تفسد ثيابك هذه وطيبك الذي أشمه من أجل حماري هذا ؟ قال : لا عليك ، فنزل واحتمل الحمار بيد واحدة وأخرجه من الطين ، فبهت الشيخ وجعل ينظر اليه ويتعجب منه ، ويترك الشغل بحماره ثم شد عنان فرسه في وسطه وأهوى الى الشوك وهو حزمتان فحملها فوضعها على الحمار ، ثم دنا من غدير فغسل يديه واستوى على فرسه ؛ فقال الشيخ السوادي : رضي الله عنك ، وقال بالنبطية : أشقل

غرمي تاحوتكا ، وتفسير ذلك : فديتك يا شاب ، وأقبلت الخيول ، فقال لبعض خاصته : أعطِ هذا الشيخ اربعة آلاف درهم ، وكن معه حتى تجاوز به اصحاب المسالح ، وتبلغ به قريته .

وفاة جماعة من العلماء : وفي سنة تسع عشرة ومائتين كانت وفاة ابي نُعَيم الفضل بن دكين مولى آل طلحة بن عبيد الله بالكوفة ، وبشر بن غياث المريسي ، وعبدالله بن رجاء الغدّاني[1] .

وفيها ضرّب المعتصم أحمد بن حنبل ثمانية وثلاثين سوطاً ليقول بخلق القرآن .

محمد بن علي بن موسى بن جعفر : وفي هذه السنة - وهي سنة تسع عشرة ومائتين - قبض محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذلك لخمس خلون من ذي الحجة ، ودفن ببغداد في الجانب الغربي من مقابر قريش مع جده موسى بن جعفر ، وصلى عليه الواثق ، وقبض وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وقبض ابوه علي بن موسى الرضا ومحمد ابن سبع سنين وثمانية اشهر ، وقيل : غير ذلك ، وقيل : ان ام الفضل بنت المأمون لما قدمت معه من المدينة الى المعتصم سمّته ، وإنما ذكرنا من امره ما وصفنا لأن اهل الامامة اختلفوا في مقدار سنه عند وفاة أبيه ، وقد أتينا على ما قيل في ذلك في رسالة « البيان في أسماء الأئمة » وما قالت في ذلك الشيعة من القطعية .

محمد بن القاسم ، العلوي : وفي هذه السنة - وهي سنة تسع عشرة ومائتين - اخاف المعتصم محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين ابن علي بن ابي طالب رحمهم الله ، وكان بالكوفة من العبادة والزهد والورع في نهاية الوصف ، فلما خاف على نفسه هرب فصار إلى خراسان ، فتنقل من مواضع كثيرة من كورها كمرو وسرخس والطالقان ونَسا ، فكانت له هناك

(١) في نسخة : العراقي .

حروب وكوائن ، وانقاد إليه وإلى إمامته خلق كثير من الناس ، ثم حمله عبدالله بن طاهر الى المعتصم ، فحبسه في أزج اتخذه في بستان بسُر من رأى ، وقد تنوزع في محمد بن القاسم ، فمن قائل يقول : انه قتل بالسم ، ومنهم من يقول : ان ناساً من شيعته من الطالقان أتوا ذلك البستان فتأتوا[١] للخدمة فيه من غرس وزراعة ، واتخذوا سلالم من الحبال واللبود والطالقانية ونقبوا الأزج وأخرجوه فذهبوا به ، فلم يعرف له خبر الى هذه الغاية ، وقد انقاد إلى إمامته خلق كثير من الزيدية الى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — ومنهم خلق كثير يزعمون ان محمداً لم يمت ، وأنه حي يرزق ، وأنه يخرج فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً ، وأنه مهدي هذه الأمة ، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان ، وقول هؤلاء في محمد بن القاسم نحو قول رافضة الكيسانية في محمد بن الحنفية ، ونحو من قول الواقفية في موسى بن موسى بن جعفر ، وهم الممطورة ، بهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة ، وقد اتينا على وصف قولهم في كتابنا في « المقالات في اصول الديانات » ووصف قول غلاتهم من المعنوية[٢] وغيرهم من المحمدية وسائر فرق اهل الباطل ممن قال بتنقل الارواح في انواع الاشخاص من بهائم الحيوان وغيره في كتابنا المترجم بكتاب سر الحياة .

جمع المعتصم للاتراك : وكان المعتصم يحب جمع الاتراك وشراءهم من أيدي مواليهم ، فاجتمع له منهم أربعة آلاف ، فالبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وأبانهم بالزي عن سائر جنوده ، وقد كان اصطنع قوماً من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس ، فسماهم المغاربة ، واستعد[٣] رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الأشروسية ، فكثر جيشه ، وكانت

١) في نسخة : فتأتوا للخدمة فيه . ٢) في نسخة : من العلوية .

٣) في نسخة : واستنقذ .

الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها الخيولَ في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأةٍ أو شيخٍ كبير أو صبي أو ضرير ، فعزم المعتصم على النقلة منهم ،وأن ينزل في فضاء من الأرض ، فنزل البراذان على أربعة فراسخ من بغداد ، فلم يستطب هواءها ، ولا اتسع له هواؤها ، فلم يزل يتنقل ويتقرّى المواضع والأماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول،فاستطاب الموضع ، وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النَّبَطِ على النهر المعروف بالقاطول آخــذاً من دجلة ، فبنى هناك قصرا وبنى الناس وانتقلوا من مدينة السلام ، وخلت من السكان إلا اليسير، وكان فيما قاله بعض العيّارينَ في ذلك معيراً للمعتصم بانتقاله عنهم :

أيا ساكن القاطول بين الجرامقه ترکتَ ببغداد الكباشَ البطارقه

وقالت مَنْ مع المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وصلابة أرضه ، وتأذّوا بالبناء ؛ ففي ذلك يقول بعض من كان في الجيش :

قالوا لنــا إنّ بالقاطول مَشْتَانا فنحن نأمل صنع الله مـولانا
الناس يأتمرون الرأي بينهمُ والله في كل يوم مُحْدِثٌ شانا

تخطيط سامرا ؛ ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرّى المواضع ، فانتهى الى موضع سامرا ، وكان هناك للنصارى دير عاديٌّ ،فسأل بعض أهل الدير عن اسم الموضع ، فقال : يعرف بسامرا ، قال له المعتصم : وما معنى سامرا ؟ قال : نجدها في الكتب السالفة والأمم الماضية أنها مدينة سام بن نوح ، قال له المعتصم : ومن أي بلاد هي ؟ وإلام تضاف ؟ قال : من بلاد طيرهان ، واليهـا تضاف ، فنظر المعتصم الى فضاء واسع تسافر فيه الأبصار ، وهواء طيب ، وأرض صحيحة ، فاستمرأها واستطاب هواءها ، وأقام هنالك ثلاثا يتصيد في كل يوم ، فوجد نفسه تتوقُ الى الغذاء، وتطلب الزيادة على العادة الجارية ، فعلم أن ذلك لتأثير الهواء والتربة والماء ، ؛

استطاب الموضع دعا بأهل الدير فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار ، وارتاد لبناء قصره موضعاً فيهـا ، فأسس بنيانه ، وهو الموضع المعروف بالوزيرية بسُرَّ من رأى ، واليها يضاف التين الوزيري ، وهو أعذب الاتيان وأرقّها قشراً ، وأصغرها حباً ، لا يبلغه تين الشام ، ولا يلحقه تين أرجان وحلوان ، فارتفع البنيان ، وأحضر له الفَعَلة والصناع وأهل المهن من سائر الامصار ، ونقل اليها من سائر البقاع أنواع الغروس والاشجار ، فجعـل للاتراك قطائع متحيزة ، وجاورهم بالفراغنة والأشروسية وغيرهم من مدن خراسان على قدر قربهم منهم في بلادهم وأقطع أشناس التركي وأصحابه من الأتراك الموضع المعروف بكرخ سامرا ، ومن الفراغنة مَنْ أنزلهم الموضعَ المعروف بالعمري والجسر واختطت الخطط ، واقتطعت القطائع والشوارع والدروب ، وأفردَ أهلُ كل صنعة بسوق ، وكذلك التجار ، فبنى الناس ، وارتفع البناء ، وشيدت الدور والقصور ، وكـثرت العمارة ، واستنبطت المياه ، وجرت من دجلة وغيرها ، وتسامع الناس أن دار ملك قد اتخذت ، فقصدوها وأجهزوا اليها من أنواع الأمتعة وسائر ما ينتفع به الناس وغيرهم من الحيوان ، وكثر العيش ، واتسع الرزق ، وشملهم الإحسان ، وعمهم العدل ، فاتسع الخصب ، وأقبلت الأرض ، وكان بدء ما وصفنا فيما فعله المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين .

خروج بابك الخرمي : واشتد أمر بابك الخرمي ببلاد الران والبيلقان ، وكثرت غارته في تلك البلاد وسار عساكره نحو تلك الأمصـار ، ففرق الجيوش ، وهزم العساكر ، وقتل الولاة ، وأفنى الناس ، فسير إليه المعتصم الجيوش وعليها الأفشين ، وكثرت حروبه واتصلت ، وضاق بابك في بلاده حتى انفض جمعه ، وقتل رجاله ، وامتنع بالجبل المعروف بالبدين[1] من أرض الران ، وهي بلاد بابك ، وبه يعرف هذا الموضع إلى هذا الوقت ، فلمـا

---

١) في نسخة : بالبد . وفي شعر ابي تمام : البذ .

استشعر بابك ما نزل به وأشرف عليه هرب من موضعه ، وزال عن مكانه ، فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومَنْ تبعه من خواصه ، وقد تزيا بزي السفر وأهل التجارة والقوافل ، فنزل موضعاً من بلاد أرمينية من أعمال سهل ابن سنباط من بطارقة ارمينية على بعض المياه ، وبالقرب منهم راعي غنم ، فابتاعوا منه شاة ، وساموا شراء شيء من الزاد لهم ، فمضى من فَوْرِه إلى سهل بن سنباط الأرميني ، فأخبره الخبر ، وقال : هو بابك لا شك فيه ، وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله خشي أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع ، أو ينضاف إلى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار فيكثر جمعه وينضاف إليه فُلاّل عسكره ، فيرجع إلى ما كان من أمره ، فأخذ الطرق ، وكاتب البطارقة في الحصون والمواضع من بلاد أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وضمن في ذلك الرغائب ، فلما سمع سهل بن سنباط من الراعي ما أخبره به سار من فَوْرِه فيمن حضره من عدده وأصحابه حتى أتى الموضع الذي فيه بابك ، فترجَّلَ له ، ودنا منه ، وسلم عليه بالملك ، وقال له : أيها الملك ، قم إلى قصرك الذي فيه وليك وموضع يمنعك الله فيه من عدوك ، فسار معه ، الى ان أتى قلعته ، وأجلسه على سريره ، ورفع منزلته ، ووطأ له منزله ومن معه ، وقدمت المائدة ، وقعد سهل يأكل معه ، فقال له بابك ـ بجهله[1] وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع إليه ـ : أمثلك يأكل معي ؟ فقام سهل عن المائدة وقال أخطأت أيها الملك ، وأنت أحق من احتمل عبده ؛ إذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك ، وجاءه بحداد ، وقال له : مُدّ رجلك أيها الملك ، وأوثَقَه بالحديد ، فقال له بابك : أغدراً يا سهل ؟! قال : يا ابن الخبيثة إنما أنت راعي غنم وبقر ، ما أنت والتدبير للملك ونظم السياسات وتدبير الجيوش ؟! وقيد مَنْ كان معه وأرسل إلى الأفشين يخبره الخبر ، وأن

---

١) في نسخة : بعتوه وجبروته .

الرجل عنده ، فسرح إليه الأفشين أربعة آلاف فارس عليهم الحديد، وعليهم خليفة يقال له بوماده ، فتسلموا بابك ومن معه ، وأتي به إلى الافشين ومعه سهل بن سنباط ، فرفع الأفشين منزلة سهل،وخلع عليه ، وحمله ، وتوجه ، وقاد بين يديه ، وأسقط عنه الخراج ، فأطلقه،وأطلقت الطيور إلى المعتصم ، وكتب إليه بالفتح ، فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير ، وعمهم الفرح ، وأظهروا السرور ، وكتبت الكتب إلى الأمصار بالفتح وقدكان أفنى عساكر السلطان ، فسار الأفشين ببابك ، وتنقل بالعساكر ، حتى أتى سُرَّ مَنْ رأى ، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وتلقى الأفشين هرون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمسة فراسخ من سامرا ، وبعث إليه بالفيل الأشهب ، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون ، وكان فيلا عظيما قد جلل بالديباج الأحمر والأخضر وأنواع الحرير الملون ، ومعه ناقة عظيمة بُخْتية (١) قد جللت بما وصفنا ، وحمل إلى الأفشين دُرّاعة من الديباج الأحمر منسوجة بالذهب قد رُصِّعَ صدرها بأنواع الياقوت والجوهر ، ودراعة دونها ، وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة، وقد نظم على القلنسوة كثير من اللؤلؤ والجوهر ؛ وألبس بابك الدراعة الجليلة ، وألبس أخوه الأخرى ، وجعلت القلنسوة على رأس بابك ، وعلى رأس أخيه نحوها . وقُدِّمَ اليه الفيل ، وإلى أخيه الناقة ، فلما رأى صورة الفيل استعظمه وقال : ما هذه الدابة العظيمة ؟ واستحسن الدراعة ، وقال : هذه كرامة ملك عظيم جليل ، إلى أسير فقد العز ذليل ، أخطأته الأقدار ، وزالت عنه الجدود ، وتورّطته المحن ، إنها لفرحة تقتضي ترحة ، وضرب له المصاف صفين في الخيل والرجال والسلاح والحديد والرايات والبنود ، من القاطول إلى سامرا ، مدد واحد متصل غير منفصل ، وبابك على الفيل

---

١) في نسخة : نجيبة .

وأخوه وراءه على الناقة ، والفيل يخطر بين الصفين به، وبابك ينظر الى ذات اليمين وذات الشمال ، ويميز الرجال والعُدَدَ ، ويظهر الأسف والحنين على ما فاته من سفك دمائهم ، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم ، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ولم يرَ الناس مثل ذلك اليوم ، ولا مثل تلك الزينة ، ودخل الأفشين على المعتصم فرفع منزلته ، وأعلى مكانه ، وأتي ببابك فطوّفَ به بين يديه ، فقال له المعتصم ، أنت بابك ؟ فلم يجب ، وكررها عليه مراراً ، وبابك ساكت، فمال إليه الأفشين وقال : الويل لك ! أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت ؟ فقال : نعم أنا بابك ، فسجد المعتصم عند ذلك ، وأمر بقطع يديه ورجليه .

قال المسعودي : ورأيت في كتاب أخبار بغداد أنه لما وقف بابك بين يديه لم يُكلمه مَلياً ، ثم قال له : أنت بابك ؟ قال : نعم ، أنا عبدك وغلامك ، وكان اسم بابك الحسن ، واسم أخيه عبدالله ، قال : جَرّدوه ، فسلبه الخدام ما عليه من الزينة ، وقطعت يمينه ، وضرب بها وجهه ، وفعل مثل ذلك بيساره ، وثلث برجليه ، وهو يتمرغ في النطع في دمه ، وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب في أموال عظيمة قبله ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأقبل يضرب بما بقي من زنديه وجهه ، وأمر المعتصم السّياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل من القلب ليكون أطول لعذابه ، ففعل ، ثم أمر بجز لسانه[١] وصلب أطرافه مع جسده فصلب ثم حمل الرأس إلى مدينة السلام ، ونصب على الجسر ، وحمل إلى خراسان بعد ذلك، يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها ، لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره ، وعظم شأنه ، وكثرة جنوده ، وإشرافه على إزالة مُلك ، وقلب ملة وتبديلها وحمل أخوه عبد الله مع الرأس إلى مدينة السلام، ففعل به إسحاق بن إبراهيم أميرها ما فعل بأخيه بابك بسامرا ، وصلبت جثة بابك على خشبة طويلة

---

١) في نسخة : ثم أمر بجذ رأسه وضم أطرافه الى جسده .

في أقاصي سامرا ، وموضعه مشهور إلى هذه الغاية يعرف بخشبة بابك ، وإن كانت سامرا في هذا الوقت قد خلا منها ساكنها ، وبَانَ عنها قاطنها ، إلا يسيراً من الناس في بعض المواضع بها .

ولما قتل بابك وأخوه وكان من أمره ما تقدم ذكره قام في مجلس المعتصم الخطباء فتكلموا ، وقالت الشعراء : فممن قام في ذلك اليوم إبراهيم بن المهدي فقال شعراً بدلا من الخطبة ، وهو :

يا أمين الله ، إن الحمد لله كثيرا
هكذا النصر ؛ فلازا ل لك الله نصيرا
وعلى الأعداء أعطيت من الله ظهيرا
وهنيئاً لك هيئاً الله لك الفتح الخطيرا
فهو فتح لم ير الناس له فتحاً نظيرا
وجَزَى الأفشينَ عبداً لله خيراً وحُبُورًا
فلقد لاقى به بابَكُ يوماً قَمْطَريرا
ذاك مولاك الذي ألفيته تَجلُداً صبورا
لك حتى ضَرَّجَ السيف له خداً نضيرا
ضَرْبَةٌ ألقت على الدهر له في الوجه نورا

وتوج الأفشين بتاج من الذهب مرصع بالجوهر ، وإكليل ليس فيه من الجوهر إلا الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر قد شبك بالذهب ، وألبس وشاحين،وزوج المعتصم الحسن بن الأفشين بأترجة بنت أشناس ، وزفت إليه، وأقيم لها عُرْسٌ يجاوز المقدار في البهاء والجمال ، وكانت توصف بالجمال والكمال ، ولما كان من ليلة الزفاف ما عم سروره خواصّ الناس وكثيراً من عوامهم ، قال المعتصم أبياتاً يصف حسنها وجمالها واجتماعهما ، وهي :

زفت عروس إلى عروس بنت رئيس إلى رئيس

أيها كان ليت شعري أجَلّ في الصدر والنفوس
أصاحب المرهف المحلى أم ذو الوشاحين والشموس

غزو الروم زبطرة : وفي هذه السنة - وهي سنة ثلاث وعشرين ومائتين - خرج توفيل[١] ملك الروم في عساكره ومعه ملوك برجان والبرغر والصقالبة وغيرهم ممن جاورهم من ملوك الأمم حتى نزل على مدينة زِبَطْرَة من الثغر الجزري ، فافتتحها بالسيف ، وقتل الصغير والكبير وسبى وأغار على بلاد ملطية ، فضج الناس في الأمصار ، واستغاثوا في المساجد والديار ، فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم ، فأنشده قائماً قصيدةً طويلةً يذكر فيها ما نزل بمن وصفنا ويحضه على الانتصار ويحثه على الجهاد ، فمنها :

يا غارة الله قد عاينت فانتهكي هتك النساء وما منهن يرتكب[٢]
هَبِ الرجال على أجرامها قتلت ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

وإبراهيم بن المهدي أول من قال في شعره « يا غارةَ الله[٢] » .

فخرج المعتصم من فَوْره نافراً عليه دُرّاعَةٌ من الصوف بيضاء ، وقد تعمم بعمامة الغزاة ، فعسكر في غربي دجلة ، وذلك يوم الاثنين ، لليلتين خلتا من جمادى الأول ، من سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ونصبت الأعلام على الجسر ، ونودي في الأمصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين ، فسارت إليه العساكر والمطوعة من سائر الإسلام ، وجعل على مقدمته أشناس التركي ، ويتلوه محمد بن إبراهيم ، وعلى ميمنته إيتاخ التركي ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار الخياط وعلى ساقته بُغَا الكبير ويتلوه دينار بن عبد الله وعلى القلب عجيف ، وسار المعتصم من الثغور الشامية ، ودخل من درب السلامة ، ودخل الأفشين من درب الحدث ، ودخل الناس من سائر الدروب ، فلم يكن يحصي الناس العدد ، ولا يضبطون كثرة ، فمن مكثر ومقلل ، فالمكثر

١) في نسخة : توفل .
٢) في نسخة : يا غيرة الله .

يقول : خمسمائة ألف ، والمقلل يقول : مـــائتي ألف . ولقي بملك الروم الأفشين ، فحاربه فهزمه الأفشين ، وقتل أكثر بطارقته وأصحابه ، وحماه رجل من المتنصرة يقال له نصير في خلق من أصحابه ، وقد كان الأفشين قصر عن أخذ الملك في ذلك اليوم حين ولي ، وقال : هو ملك ، والملوك تُبْقِي بعضُها على بعض ، وفتح المعتصم حصوناً كثيرة ، ونزل على مدينة عمورية ، ففتحها الله على يديه ، وخرج إليه لاوي البطريق منها ، وسلَّمَها إليه ، وأسر البطريق الكبير منها ، وهو باطس ، وقتل منها ثلاثين ألفاً ، وأقام المعتصم عليها أربعة أيام يهدم ويحرق ، وأراد المسير إلى القسطنطينية ، والنزول على خليجها ، والحيلة في فتحها براً وبحراً ، فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه من أمر العباس بن المأمون ، وأن ناساً قد بايعوه ، وأنــه كاتب طاغية الروم ، فأعجل المعتصم في مسيره وحبس العباس وشيعته .

وفي هذه السنة مات العباس بن المأمون .

خروج المازيار صاحب طبرستان وموته : وفي سنة خمس وعشرين ومائتين أدخل المازيار بن قارن بن بندار هرمس ، صاحب جبال طبرستان إلى سامرا وقد كان اصطنعه المأمون ، فمضى في أيام المعتصم ، وكاثرت عساكره ، واتسعت جيوشه ، وكتب المعتصم إليه يأمره بالحضور ، فأبى ، فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر يأمره بحربه ، فسير إليه من نيسابور عمه الحسن بن الحسين بن مصعب ، فنزل مدينة السارية من بلاد طبرستان ، بعد حروب كثيرة كانت له مع المازيار ، وأتت الحسن بن الحسين عيونه بركوب محمد بن قارن ــ وهو المازيار ــ إلى الصيد في نفر يسير ، فبادره الحسن وناوشه الحرب ، فأسر وحمل إلى سامرا ، فأقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان ، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس ، وقبض على الأفشين قبل قـدوم المازيار بسامرا بيوم ، وأقر عليه كاتب له يقال له : سابور ، فضرب المازيار بسوط حتى

مات ، بعد أن شهر وصلب إلى جانب بابك ، وقد كان المازيار رغّب المعتصم في أموال كثيرة يحملها إليه إن هو مَنّ عليه بالبقاء ، فأبى قبول ذلك ، وتمثل :

إن الأسود أسود الغيل همتها   يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ومالت خشبة مازيار إلى خشبة بابك ، فتدانت أجسامهما ، وقد كان صلب في ذلك الموضع باطس بَطْريق عمورية ، وقد انحنت نحوهما خشبته ، ففي ذلك يقول أبو تمام حبيب بن أوس من كلمة له :

ولقد شفَى الأحشاء من بُرَحائها   إذ صار بابَكُ جارَ مازيّارِ
ثانيه في كبِدِ السماء ، ولم يكن   لاثنين ثانٍ إذ هما في الغار
فكأنما انحَنَيا لكيما يَطْويا   عن باطس خبراً من الأخبار

ومات الأفشين في الحبس بعد أن جمع بينه وبين مازيار ، فأقر عليه ، وأخرج الأفشين ميتاً ، فصلب بباب العامة ، وأحضرت أصنام زعموا أنها كانت حملت إليه ، فألقيت عليه ، وأضرمت النار ، فأتت على الجميع .

موت أبي دلف العجلي : وفي سنة ست وعشرين ومائتين مات أبو دُلَف القاسم بن عيسى العجلي ، وكان سيد أهله ، ورئيس عشيرته ، من عجل وغيرها من ربيعة . وكان شاعراً مجيداً وشجاعاً بطلاً ، مغنياً مصيباً ، وهو القائل :

يوماً تراني على طِمِرٍّ   ترميني الأجْبُلُ الرواسي
ويوم لهو أحثُّ كاسا   وخلف أذني قضيب آس

وذكر أن أبا دُلَفَ طعن فارساً ، فنفذت الطعنة إلى أن وصل السنان إلى فارس آخر كان من خلفه فقتلهما ، ففي ذلك يقول بكر بن النطاح من كلمة له :

قالوا : وينظم فارسين بطعنة   يوم الهياج ولا نراه كليلا
لا تعجبوا فلوَ ان طول قناته   ميل إذا نَظَمَ الفوارس ميلا

وذكر عيسى بن أبي دلف أن أخاه دلف – وبه كان يكنى أبوه أبادلف – كان ينتقص علي بن أبي طالب ، ويضع منه ومن شيعته ، وينسبهم إلى الجهل وأنه قال يوماً وهو في مجلس أبيه ولم يكن أبوه حاضراً : إنهم يزعمون أن لا ينتقص علياً أحد إلا كان لغير رشدة ، وأنتم تعلمون غيرة الأمير ، يعني أباه، وأنه لا يتهيأ الطعن على أحد من حرمه ، وأنا أبغض علياً ، قال : فما كان بأوشك من أن خرج أبو دلف ، فلما رأيناه قمنا له ، فقال : قد سمعت ما قاله دلف ، والحديث لا يكذب ، والخبر الوارد في هذا المعنى لا يختلف ، هو والله لزَنـيَة وحَيْضَة ، وذلك أني كنت عليلاً فبعثت إليّ أختي بجارية لها ، كنت بها معجباً، فلم أتمالك أن وقعت عليها وكانت حائضاً فعلقت به ، فلما ظهر حملها وهبتها لي .

عداوة أبي دلف وابنه : فبلغ من عداوة دلف هذا لأبيه ونصبه ومخالفته له لأن الغالب على أبيه التشيع والميل إلى علي أن شنع عليه بعد وفاته ، وهو ما حدث به محمد بن علي القوهستاني قال : حدثنا دُلفُ بن أبي دلف، قال : رأيت في المنام آتياً أتاني بعد موت أبي ، فقال لي : أجب الأمير ، فقمت معه ، فأدخلني داراً وحشة وعرة ، وأصعدني على درج منها ، ثم ادخلني غرفة في حيطانها أثر النار ، وفي أرضها أثر الرماد ، واذا به عُريان واضع رأسه بين ركبتيه ، فقال كالمستفهم : دلف ؟ قلت : دلف ، فأنشأ يقول :

فلو أنا إذا متنا تُركنا   لكان الموت راحة كل حي
ولكنّا إذا متنا بعثنا   ونُسأل بعده عن كل شي

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم ، وانتبهت .

موت جماعة من العلماء : وفي خلافة المعتصم – وذلك في سنة اربع

وعشرين ومائتين ــ مات جماعة من نقلة الأخبار وعلية أصحاب الحديث : منهم عمرو بن مرزوق الباهلي البصري ، وأبو النعمان حازم بن محمد بن الفضل السدوسي ، وأبو أيوب سليمان بن حرب الواشجي البصري من الأزد ، وسعيد ابن الحكم بن ابي مريم البصري ، وأحمد بن عبد الله الغُدَاني ، وسليمان الشاذكوني ، وعلي المدني .

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين مات بشر الحافي ببغداد ، وكان من بلاد مَرْوَ ، وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي بالبصرة ، وهو ابن ثلاث وتسعين سنة ، وعبد الله بن عبد الوهاب الجمحي ، وابراهيم بن يسار الرمادي وقيل : إن فيها كانت وفاة محمد بن كثير العبدي ، والصحيح أن وفاته كانت في سنة ثلاث وعشرين ومائتين .

وفاة المعتصم : قال المسعودي : وفي سنة سبع وعشرين ومائتين كانت وفاة المعتصم ، على دجلة في قصره المعروف بالخاقاني ، يوم الخميس ، لثماني عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول ، وقيل : لساعتين من ليلة الخميس ، وهو ابن ثمان وأربعين سنة ، وقيل : ست وأربعين سنة ، على ما قدمنا في صدر هذا الباب ، وكان مولده بالخلد ببغداد سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن من السنة . وهو ثامن الخلفاء ، والثامن من ولد العباس ، ومات عن ثمانية بنين ، وثمان بنات .

وللمعتصم أخبار حسان ، وما كان من أمره في فتح عمورية ، وما كان من حروبه قبل الخلافة في السفارة نحو الشام ومصر ، وغير ذلك ، وما كان منه بعد الخلافة ، وما حكى عنه من حسن السيرة واستقامة الطريقة أحمدُ ابن أبي دُؤاد القاضي ، ويعقوب بن إسحاق الكندي ، في لمع أوردها في رسالته المترجمة بسبيل الفضائل ، وقد اتينا على جميع ذلك في كتابنا في « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وقد ذكرنا في هذا لمعاً منبهة على ما سلف ، وباعثة على درس ما تقدم .

ذكر

خلافة الواثق بالله

موجز : وبويع هارون بن محمد بن هارون الواثق بالله ، ويكنى بأبي جعفر ، وأمه أم ولد رومية ، وتسمى قراطيس ، وذلك في اليوم الذي كانت فيه وفاة المعتصم ، وهو يوم الخميس لثماني عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين ، وبويع وهو ابن إحدى وثلاثين سنة وتسعة أشهر، وتوفي بسامرا وهو ابن سبع وثلاثين سنة وستة أشهر ، وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، وقيل : إنه توفي في يوم الاربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وهو ابن أربع وثلاثين سنة ، ووزيره محمد بن عبد الملك ، على حسب ما قدمنا في أيام المعتصم من هذا الكتاب ، والتواريخ متباينة في مقادير أعمارهم وأيامهم في الزيادة والنقصان .

ذكر

لمع من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

صفات الواثق : كان الواثق كثير الأكل والشرب ، واسع المعروف ، متعطفاً على أهل بيته ، متفقداً لرعيته ، وسلك في المذهب مذهب[1] أبيه وعمه من القول بالعدل .

غلب عليه اثنان : وغلب عليه أحمد بن أبي دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك

---

١) في نسخة : طريقة أبيه .

الزيات ، فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ، ولا يعتب عليهما فيا رآياه ، وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه .

أعرابي يصف الواثق وأعوانه : وذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الجاسمي ، نسبة إلى جاسم – وهي قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف بالجولان ويعرف بجاسم على أميال من الجابيـــة وبلاد نوى وهي من مراعي أيوب عليه السلام – قال : خرجت في أول أيام الواثق إلى سُر" من رأى ، فلما قربت منها لقيني أعرابي ، فأردت أن أعلم خــبر العسكر منه ، فقلت : يا أعرابي ، ممن أنت ؟ قال : من بني عامر ، قلت : وكيف علمك بعسكر أمير المؤمنين ؟ قال : قتل أرضاً عالمها ، قلت : مــا تقول في أمير المؤمنين ؟ قال : وثق بالله فكفاه ، أشجى العاصية ، وقصّم العادية ، وعدل في الرعية ، ورغب عن كل ذي جناية ، قلت : فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد ؟ قال : هَضَبة لا تُرام ، وجبل لا يضـــام ، تشحذ له المدى ، وتنصب له الحبائل ، حتى إذا قيل قـــد هلك وثب وثبة الذئب ، وختَل خَتْلة الضب ، قلت : فما تقول في محمد بن عبد الملك الزيات ؟ قال : وسع الداني شره ، ووصل إلى البعيد ضره ، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر نابٍ ولا مِخلَب ، قلت : فما تقول في عمرو بن فرج ؟ قال : ضخم نهم ، استعذب الدم ، ينصبه القوم ترساً للوغى ، قلت : فما تقول في الفضل ابن مروان ؟ قال : رجل نبش بعد ما قبر ، ليس تعد له حياة في الأحياء ، وعليه خَفْتة الموتى ، قلت : فما تقول في أبي الوزير ؟ قال : تخاله كبش الزنادقة ، أما تراه إذا أخمله[1] الخليفة سمن ورتَع ، وإذا هزه أمطر فأمرع ، قلت : فما تقول في أحمد بن الخصيب ؟ قال : ذاك أكل أكلة نهم ، فزرق زرقة بشم ، قلت : فما تقول في إبراهيم أخيه ؟ قال : أموات غير أحياء وما يشعرون أيّانَ يبعثون . قلت : فما تقول في أحـــمد بن إبراهيم ؟ قال : لله

١) في نسخة : أمله الخليفة .

دره ! أي فاعل هو ؟ وأي صابر هو ؟ اتخذ الصبر دثاراً ، والجود شعاراً وأهون عليه بهم ، قلت : فما تقول في المعلى بن أيوب ؟ قال : ذاك رجل خير ، نصيح السلطان ، عفيف اللسان ، سلم من القوم وسلموا منه ، قلت : فما تقول في إبراهيم بن رَباح ؟ قال : ذاك رجل أوثقه كرمه ، وأسلمه فضله ، وله دعاء لا يسلمه ، ورب لا يخذله ، وفوقه خليفة لا يظلمه ، قلت : فما تقول في الحسن ابنه ؟ قال : ذاك عود نُضار ، غرس في منابت الكرم ، حتى إذا اهتز حصدوه ، قلت : فما تقول في نجاح بن سلمة ؟ قال : لله دره ! أي طالب وِتْر ، ومدرك ثار ؟ يلتهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة في الأحيان جلسة تزيل نعماً ، وتحل نقماً ، قلت : يا أعرابي أين منزلك حتى آتيك ؟ قال : اللهم غفراً ما لي منزل ، أنا أشتمل النهار ، وألتحف الليل ، فحيثما أدركني الرقاد رقدت ، قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : لا أخلق وجهي بمسألتهم ، إن أعطوني لم أحمدهم ، وإن منعوني لم أذمهم ، وإني كما قال هذا الغلام الطائي :

وما أبالي وخَيْرُ القول أصدقُه حَقَنْتَ لي ماء وجهي أو حقنت دمي

قلت : فأنا قائل هذا الشعر ، قال : أئنك أنت الطائي ؟ قلت : نعم ، قال : لله أبوك ، وأنت القائل :

ما جودُ كفِّكَ إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي وقد أخلقته عوض

قلت : نعم ، قال : أنت أشعر أهل زمانك .

وفي رواية أخرى ليست في الكتاب قلت : أنشدني شيئاً من شعرك ، فأنشدني :

أقول وجنح الدجى ملبَدُ وللنَّيل في كل فج يَدُ
ونحن ضجيعان في مُجسَد فلله ما ضُمِّن المجسَدُ
فيا غدُ إن كنت بي محسناً فلا تدْنُ من ليلتي يا غـد

ويا ليلة الوصل لا تنفذني كما ليلة الهجر لا تنفد

فقلت : لله أبوك !! ورددته معي حتى لقيت ابن أبي دؤاد وحدثته بخبره فأوصله الى الواثق ، فأمر له بألف دينار ، وأخذ له من سائر الكتاب وأهل الدولة ما أغناه به ، وأغنى عقبه بعده .

وهذا الخبر فمخرجه عن أبي تمام ، فإن كان صادقاً فيما قال ، ولا أراه ، فقد أحسن الأعرابي في الوصف ، وإن كان أبو تمام هو الذي صنعه وعزاه إلى هذا الأعرابي فقد قصر في نظمه ، إذ كانت منزلته اكبر من هذا .

أبو تمام الطائي : وكانت وفاة أبي تمام بالموصل سنة ثمان وعشرين ومائتين، وكان خليعاً ماجناً في بعض أحواله ، وربما أداه ذلك الى ترك موجبات فرضه ، تماجناً لا اعتقاداً .

وحدث محمد بن يزيد المبرد ، عن الحسن بن رجاء ، قال : صار إليّ أبو تمام وأنا بفارس ، فأقام عندي مقاماً طويلاً ، ونمي إليّ من غير وجه أنه لا يصلي ، فوكلت به من يراعيه ويتفقده في أوقات الصلاة ، فوجدت الأمر على ما اتصل بي عنه ، فعاتبته على فعله ذلك ، فكان من جوابه ان قال : أتراني أنشط للشخوص إليك من مدينة السلام وأتجشم هذه الطرقات الشاقة وأكسل عن ركعات لا مئونة عليّ فيها ، لو كنت أعلم أن لمن صلاها ثواباً أو على من تركها عقاباً ، قال : فهممت والله بقتله ، ثم تخوفت أن يصرف الأمر الى غير جهته ، وهو القائل :

وأحق الأنام أن يقضيَ الدَّيـ ـنَ امرؤ كان للإله غريما

وهذا قول مباين لهذا الفعل ، والناس في أبي تمام في طرفي نقيض : متعصب له يعطيه أكثر من حقه ، ويتجاوز به في الوصف قدره ، ويرى أن شعره فوق كل شعر ، أو منحرف له معاند ، فهو ينفي عنه حسنه ، ويعيب مختاره ، ويستقبح المعاني الظريفة التي سبق إليها وتفرد بها .

وذكر عبدالله بن الحسن بن سعد ، ان المبرد قال : كنت في مجلس القاضي أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق ، وحضر جماعة سماهم ، منهم الحارثي الذي قال فيه علي بن الجهم الشامي :

لم يطلعا إلا لآبدة الحارثيُّ وكوكب الذنب

فجرى ذلك الشعر وإن كان الكلام تسلسل إلى ذكر أبي تمام وشعره ، وأن الحارثي أنشد لأبي تمام معاتبة أحسن فيها ، وأن المبرد استحيا أن يستعيد الحارثي الشعر أو يكتبه منه لأجل القاضي ، قال ابن سعد : فأعلمت المبرد أني أحفظ الشعر ، فأنشدته إياه ، فاستحسنه واستعاده مني مراراً حتى حفظه مني ، وهو :

جعلت فداك عبد الله عندي بعقب النأي عنه والبعاد

له لُمَّة من الفتيان بيض قضوا حق الصداقة والوداد

دعوتهمُ عليك وكنت ممن أناديه على النُّوَب الشداد (١)

قال : وسألته عن أبي تمام والبحتري أيهما أشعر ؟ قال : لأبي تمام استخراجات لطيفة ، ومعان ظريفة ، وجيده أجود من شعر البحتري ، ومن شعر مَنْ تقدّمه من المحدثين ، وشعر البحتري أحسن استواء من شعر أبي تمام ؛ لأن البحتري يقول القصيدة كلها ، فتكون سليمة من طعن طاعن أو عيب عائب ، وأبو تمام يقول البيت النادر ويتبعه البيت السخيف ، وما أشبهه الا بغائص البحر يخرج الدرة والمخشلبة فيجعلها في نظام واحد ، وإنما يؤتى هو وكثير من الشعراء من البخل بأشعارهم ، وإلا فلو أسقط من شعره على كثرة عدده ما أنكر منه لكان أشعر نظرائه ، فدعاني هذا القول منه الى أن قرأت عليه شعر أبي تمام ، وأسقطت سواقطه وكل ما ذُمَّ من

١) كذا في ديوان أبي تمام ، وفي الاصول : بعينه على الفقر الجياد .

شعره، وأفردت جيده، فوجدت ما يتمثل به ويجري على ألسنة العامة وكثير من الخاصة مائة وخمسين بيتاً، ولا أعرف شاعراً جاهلياً ولا إسلامياً يتمثل له بهذا المقدار من الشعر، ثم قال المبرد: وبالبحتري يُختَمُ الشعر، وأنشدني له بيتين زعم المبرد انهما لو أضيفا إلى شعر زهير لجازا فيه، وهما:

وما سفه السفيه وإن تعدّى ... بأنجعَ فيك من حلم الحليم
متى أحفظت ذا كرم تخطى ... إليك ببعض أفعال اللئيم

قال: وكان مما ذكرناه من شعر البحتري في هذا المجلس وقدّمه محمد بن يزيد على نظرائه قوله في ابني صاعد بن مخلد:

وإذا رأيت مخايل ابني صاعدٍ ... أدت اليك مخايل ابني مخلد
كالفرقدين إذا تأمل ناظر ... لم يَعْلُ موضع فرقد من فرقد

وقوله.

مَنْ شاكر عني الخليفة للذي ... أولاه من بر ومن إحسان؟
حتى لقد أفضلت من إفضاله ... وأريت نهج الجود حيث أراني
أغنتْ يداه يدي، وشرّد جوده ... بخلي، فأفقرني كما أغناني
ووثقت بالخلق الجليل معجلا ... منه، وأعطيت الذي أعطاني

وقوله:

وددت بياض السيف يوم لقيتني ... مكان بياض الشيب كان بمفرقي

وقوله:

دنوت تواضعاً وعلوت قدراً ... فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع

وقوله في الفتح بن خاقان، وقد نزل الى أسد فقتله:

حملت عليه السيف، لا عزمك انثنى ... ولا يدُك ارتدت، ولا حدُّه نبا

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً وصمّم لما لم يجد منك مهربا
وكنت متى تجمع يمينك والعلا لدى ضيغم لم تبق للسيف مضربا

وقوله :

ما زال صرف الدهر يؤيس صفقتي حتى رهنت على المشيب شبابي

وقوله في المنتصر :

وإن عليّاً لأولى بكم وأزكى يداً عندكم من عمر
وكلٌّ له فضله ، والحجو لُ يوم التراهن دون الغرر

وقوله :

تعيب الغانيات عليّ شيبي ومن لي ان امتع بالمشيب

ثم ذكر انتقاض الصلح بين عشيرته فقال :

إذا ما الجرح رمّ على فساد تبين فيه تفريط الطبيب

وقوله :

وللسّهمُ الشريد أخف عبثاً على الرامي من السهم المصيب

وقوله :

وما منع الفتحَ من خاقان نيله ولكنها الأيام تعطي وتحرم
سحاب خطاني جوده وهو مسبل وبحر عداني فيضه وهو مُفعمُ
وبدر اضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلم
أأشكو نداه بعد ان وسع الورى ومن ذا يذم الغيث إلا مذمم ؟

وذكر محمد بن ابي الأزهر قال : كان ابراهيم بن المدبر – مع محله في العلم والأدب والمعرفة – يسيء الرأي في ابي تمام ، ويحلف انه لا يحسن شيئاً قط ، فقلت له يوماً : ما تقول في قول من يقول :

غدا الشيب مختطا بفوْدي خطة سبيل الردى منها الى النفس مَهيَعُ
هو الزور يجفو، والمعاشر يجتوي، وذو الإلف يُقلى، والجديد يرقّعُ

له منظر في العين أبيض ناصع ولكنه في القلب أسود أسفعُ
ونحن نرجّيه على الكره والرضا وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع

وفيمن يقول :

فإن ترم عن عمرو تداعى به المدى فخانك حتى لم تجد فيه منزعا
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة فقطّعها ثم انثنى فتقطعا

وفيمن يقول :

شرف على أولى الزمان وانما الـ شرف المناسب ما يكون كريما

وفيمن يقول :

إذا احسن الأقوام أن يتطاولوا بلا نعمة أحسنتَ أن تتطوّلا

وفيمن يقول :

مطر لي الحياة والمال لا ألـ ـقاك إلا مستوهباً أو وهوبا
وإذا ما أردت كنت رشاءً وإذا ما أردت كنت قليبا

وفي القائل :

خشعوا لصولتك التي عودتهم كالموت يأتي ليس فيه عثار
فالمشي همس؛ والنداء اشارة، خوف انتقامك والحديث سِرارُ
أيامنا معقودة أطرافها بك ، والليالي كلها أسحار
تندى عفاتك للعفاة، ويغتدي رفقاً الى زوارك الزوار

وفيمن يقول :

اذا أوهدت ارضاً كان فيها رضاك فلا نحنّ الى رباها(١)

قال ابن ابي الازهر : فوالله لكأني اغريت ابن المدبر بأبي تمام ، حتى

---

١) في نسخة : فلا نحل الى رباها.

سبه ولعنه ، فقلت : اذا فعلت ذلك لقد حدثني المعروف بأبي عمرو بن الحسن الطوسي الراوية ان اباه وجّه به الى ابن الأعرابي يقرأ عليه أشعار هُذَيل ، قال : فمرت بنا أراجيز ، فأنشدته أرجوزة لأبي تمام ، لم أنسبها اليه ، وهي :

وعاذل عذلته في عذله ... فظن أني جاهل من جهله
ما غبن المغبون مثل عقله ... مَن لك يوماً بأخيك كله
لبست ريماني فدعني أبله ... ومثلك في كبره ونبله
وشوقة في قوله وفعله ... بذلت مدحي فيه باغي بذله
فجز حبل أملي من وصله ... من بعد ما استعبدني بمطله
ثم اغتدى معتذراً بجهله ... ذا عنق في الجهل لم يخله
يلحظني في جده وهزله ... يعجب من تعجبي من بخله
لحظ الاسير حلقات كبله ... حتى كأني جئته بمثله
يا واحداً منفرداً بعدله ... اكسبتك المال فلا تمله
ما يصنع الغمد بغير نصله ... والمدح ان لم يك عند أهله

فقال لابنه : اكتبها ، فكتبها على ظهر كتاب من كتبه ، فقال له : جعلت فداك ! إنها لأبي تمام ، فقال : خرق خرق .

وهذا من ابن المدبر قبيح مع علمه ، لأن الواجب ان لا يدفع إحسان محسن عدواً كان او صديقاً ، وأن تؤخذ الفائدة من الوضيع والرفيع ، فقد روي عن أمير المؤمنين علي انه قال : الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك . وقد ذكر عن بزرجمهر بن البختكان – وكان من حكماء الفرس ، وقد قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار ملوك ساسان وهم الفرس الثانية – أنه قال : أخذت من كل شيء أحسن ما فيه ، حتى من الكلب والهرة والخنزير والغراب ، قيل له : ما أخذت من الكلب ؟ قال :

إلفه لأهله ، وذبّه عن صاحبه. قيل : فما أخذت من الغراب ؟ قال : شدة حذره ، قيل : فمن الخنزير ؟ قال : بكوره في حوائجه ؛ قيل : فمن المعزة؟ قال : حسن نغمتها وتعلقها لأهلها عند المسألة .

ومَنْ عاب مثل هذه الاشعار التي ترتاح لها القلوب ، وتحرك بها النفوس ، وتصغي اليها الاسماع ، وتشحذ بها الاذهان ، ويعلم كل من له قريحة وفضل ومعرفة ان قائلها قد بلغ في الإجادة أبعد غاية وأقصى نهاية ، فإنما غض من نفسه وطعن على معرفته واختياره .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : الهوى إلهٌ معبود . واحتج بقوله تعالى : (أفَرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هواهُ) .

ولأبي تمام أشعار حسان ، ومعان لطاف ، واستخراجات بديعة .

وحكي عن بعض العلماء بالشعر أنه سئل عن أبي تمام ، فقال : كأنه جمع شعر العالم ، فانتخب جوهره ، وقد كان أبو تمام ألَّفَ كتاباً وسمّاه : « الحماسة » وفي الناس مَنْ يسميه كتاب « الحبية » انتخب فيه شعر الناس، ظهر بعد وفاته .

وقد صنف أبو بكر الصولي كتاباً جمع فيه اخبار ابي تمام وشعره وتصرفه في أنواع علومه ومذاهبه، واستدل الصولي على ما وصف عن أبي تمام بما يوجد من شعره ، من ذلك قوله في صفة الخمر :

جَهْنَمية الأوصاف ، إلا أنهم قد لقّبوها جوهر الأشياء

وقد رثته الشعراء بعد وفاته، والأدباء من إخوانه : منهم الحسن بن وهب الكاتب ، وكان شاعراً ظريفاً له حظ في المنثور والمنظوم ، فقال :

سقى بالموصل الجَدَثَ الغريبا سحـائِبُ ينتحبن له نحيبا
إذا أظللنه أطللن فيه شعيب المزن يتبعها شعيبا
ولَطّمت البروق له خدوداً وشقّقت الرعود له جيوبا

فإن تراب ذاك القبر يحوي حبيباً كان يدعى لي حبيبا
لبيباً شاعراً فطناً أديبــاً أصيل الرأي في الجُلّى أريبا
إذا شاهدتــه رواك فيما يسرك رقــة منه وطيبا
أبا تمــام الطــائيّ ، إنا لقينا بعدك العجب العجيبا
فقدنا منك علقــاً لا تراه نصيب له مدى الدنيا ضريبا
وكنت أخاً لنا أبدَى إلينا ضميرَ الود والنسبَ القريبا
فلما بنت كدرت الليالي قريب الدار والأقصى الغريبا
وأبدى الدهر أقبح صفحتيه ووجهاً كالحــاً جهماً قطوبا
فأحْرِ بأن يطيب الموت فيه وأحر بعيشنا أن لا يطيبا

وللحسن أشعار حسان ومعان جياد ، منها قوله :

أبت مقلتاك لفرط الحَزَنْ عليك الرُّقادَ وبرد الوَسَنْ
وحق لعينيك أن لا تناما وقلبــك مختلس مــرتهن
وبــين الجوانح داء دفــين لغمرك مستتر قد كَمَنْ
نجيّ الهموم ، وقرن الكلوم ورهي الحلوم ، وبعد الوطن
شديد النفار ، كثير العثار خليع العذار ، يجر الرسن
أفي كل يوم تطيل الوقوف تناجي الديار وتبكي الدِّمَنْ ؟
وتستخبر الدار عن أهلها وتُذْري الدموع على من ظعن
كأنــك لم تر فيما مضى من الدهر ذا صَبْوَة مفتتن
عذرتك أيام شرخ الشباب وفرعك فرع نضير الغُصُنْ
فأما وقد زال ظل الشبا ب عنك وولّى كأن لم يكن
وألبسك الشيب بعد الشباب قناع بياض كلون القطن
وصرت قَذًى في عيون الحسا ن يخنُكَ عهداً وإن لم تخن
ويَصْدِفْنَ عنك إذا رمتهن وكنت لهن زماناً سكن
فما لك عــذر وأنت امرؤ بما فيه رشدك طَبٌّ فطن

علي بن الجعد : وفي خلافة الواثق مات عليّ بن الجعد مولى بني مخزوم ، وكان من علية أصحاب الحديث وأهل النقل ، وذلك في سنة ثلاثين ومائتين.

قتيل في المحنة : وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين قَتَلَ الواثقُ أحمد بن نصر الخزاعي في المحنة على القرآن .

نديم : قال المسعودي : وكان يحضر مجلس الواثق فتى برسم الندماء وكان يقوم قائماً لصغر سنه ، ولم يكن لذلك يلحق في الجلوس بمراتب ذوي الأسنان وكان ذكياً ملفوتاً له في الإفاضة مع الجلساء في كل ما يعرض لهم الكلام فيه ، والتكلم بما يسنح ويختلج في صدره : من مثل سائر ، وبيت نادر ، وحديث ممتع ، وجواب مسرع ، قال : وكان الواثق من شدة الشهوة للطعام والنهمة فيه على الحالة المشهورة المتعالمة ، فقال لهم الواثق يوماً : ما تختارون من النُّقل ؟ فبعض قال : نبات السكر ، وبعض قال : رمان ، وبعض قال : تفاح ، وبعض قال : قصب السكر[1] ينضح بماء الورد ، وبعض أخرجته الفلسفة إلى النقيض ، فقال : ملح يغلى ، وبعض قال : صبر يمحي بمذاب النبيذ ، ويحلي على سورة الشراب ومرارة النقل ، قال : ما صنعتم شيئاً ، ولكن ما تقول أنت يا غلام ؟ قال خشكنانج مسير ؛ فوافق ذلك مراد الواثق وقرع به ما في نفسه ، وقال : أصبت وأحسنت بارك الله لـك ، وكان ذلك أول جلوسه .

محمد بن علي بن موسى : وقيـل : إن أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا عليهم الرضوان توفي في خلافة الواثق وقد بلغ من السن ما قدمناه في خلافة المعتصم من هذا الكتاب ، وقيل : إنه كتب إلى الواثق : يا أمير المؤمنين ! ليس من أحد وإن ساعدته المقادير يستخلص غضـارة عيش إلا من خلال مكروه ، ومن ترك معاجلة الدرك انتظار مؤاجلة الأشياء سلبته الأيام فرصته ، فإن شرط الزمان الآفات ، وحكم الدهر السلب .

---

(١) في نسخة : نبات السكر ينضح بماء الورد .

عبد الله بن طاهر : وفي سنة ثلاثين ومائتين — وذلك في خلافة الواثق — توفي أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين في ربيع الأول من هذه السنة ، وفيه يقول الشاعر وقت كون عبدالله بن طاهر بمصر :

يقول أناس : إنّ مصر بعيدة — وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر
وأبعد من مصر رجال تراهمُ — بحضرتنا معروفهم غير حاضر
عن الخير موتى ، ما تبالي أزرتهم — على طمع أم زرت أهل المقابر

مجلس للواثق في الفلسفة والطب : وكان الواثق بالله محباً للنظر ، مكرماً لأهله ، مبغضاً للتقليد وأهله ، محباً للاشراف على علوم الناس وآرائهم ، ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم من الشرعيين ، فحضرهم ذات يوم جماعة من الفلاسفة والمتطببين ، فجرى بحضرته أنواع من علومهم في الطبيعيات وما بعد ذلك من الإلهيات ، فقال لهم الواثق ، قد أحببت أن أعلم كيفية إدراك معرفة الطب ومأخذ أصوله ، أذلك من الحس أم من القياس والسنة ؟ أم يدرك بأوائل العقل ، أم علم ذلك وطريقه يعلم عندكم من جهة السمع كما يذهب إليه جماعة من أهل الشريعة ؟ وقد كان ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر ، وقيل : إن حنين بن إسحاق وسلمويه فيمن حضر في هذا المجلس أيضاً .

فقال منهم قائل : زعم طوائف من الأطباء وكثير من متقدميهم أن الطريق الذي يدرك به الطب هو التجربة فقط ، وحدوه بأنه علم يتكرر الحس على محسوس واحد في أحوال متغايرة ، فيوجد بالحس في آخر الأحوال كما يوجد في أولها ، والحافظ لذلك هو المجرب ، وزعموا ان التجربة ترجع إلى مبادىء أربعة هي لها أوائل ومقدمات ، وبها علت وصحت ، وإليها تنقسم التجربة ، ، فصارت بذلك أجزاء لها ، فزعموا أن قسماً من تلك الأقسام طبيعي ، وهو ما تفعله الطبيعة في الصحيح والمريض : من الرعاف ، والعرق ، والإسهال ، والقيء التي تعقب في المشاهدة منفعة أو ضرراً .

وقسماً عرضياً ، وهو ما يعرض للحيوان من الحوادث والنوازل ، وذلك كما يعرض للانسان أن يجرح أو يسقط فيخرج منه دم قليل أو كثير أو يشرب في مرضه أو صحته ماء بارداً أو شراباً فيعقب في المشاهدة منفعة أو ضرراً ، وقسماً إرادياً ، وهو ما يقع من قبل النفس الناطقة ، وذلك كمثل منام يراه الإنسان وهو أن يرى كأنه عالج مريضاً به علة مشاهدة معقولة بشيء من الأشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضه ، أو يخطر مثل ذلك بباله في حال فكره ، فيتردد ويعطب ظنه بعطبه فيجربه بأن يفعله كما يرى في منامه ، فيجده كما يرى أو يخالف ذلك ، ويفعله مراراً ، فيجده كذلك . وقسماً هو نقل ، وهو على ثلاثة أقسام : إما أن ينقل الدواء الواحد من مرض الى مرض يشبهه ، وذلك كالنقلة من ورم الحمرة الى الورم المعروف بالنَّمْلة ، وإما من عضو الى عضو يشبهه ، وذلك كالنقلة من : العضد إلى الفخذ ، وإما من دواء إلى دواء يشبهه ، كالنقلة من السفرجل الى الزعرور في علاج انطلاق البطن [1] وكل ذلك لا يعمل به عندهم إلا بالتجربة .

وذهبت طائفة اخرى منهم إلى ان الحيلة في تقريب امر صناعة الطب وتسهيلها أن ترد اشخاص من العلل ومولداتها الى الأصول الحاصرة الجامعة لها ، اذ كان لا غاية لتولدها ، وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود في الحال والوقت ، دون الأسباب المؤثرة الفاعلة التي عدمت ، ودون الازمان والأوقات والأسباب والعادات ومعرفة طبائع الأعضاء وحدودها ، والرصد والتحفظ لكل ما يكون في كل علة وجدت او لم توجد ، وبرهنوا بأن زعموا ان من المعلومات الظاهرة التي لا ريب فيها ان الضدين لا يجوز اجتماعها في حال ، وان وجود احدهما ينفي وجود الآخر في الحال لا محال ، قالوا : وليس هذا كشيء ظاهر يستدل به على كل شيء خفي ، والشيء الظاهر يحتمل الوجود ، فيختلف في الاستدلال ؛ فيكون القطع على ما يوجبه غير بين ، وهذا قول جماعة من حذاق المتطببين واهل

١) في نسخة : بفطنة .

التقدم في اليونانيين مثل تامونيس وساساليس وغيرهما ، وهم قوم يعرفون بأصحاب الطب الجبلي[١] .

قال الواثق لهم جميعاً : فأخبروني عن جمهورهم الأعظم إلا مَ يذهبون في ذلك ؟ فقالوا : الى القياس ، قال : وكيف ذلك ؟ قالوا جميعاً : زعمت هذه الطائفة ان الطريق والقانون الى معرفة الطب مأخوذ من مقدّمات أولية ، فمنها معرفة طبائع الأبدان والأعضاء وافعالها ، ومنها معرفة الأبدان في الصحة والمرض ومعرفة الأهوية واختلافها والأعمال والصنائع والعادات والأطعمة والأشربة والأسفار ومعرفة قوى الأمراض ، وقالوا : ثبت في الشاهد ان الحيوان يختلف في صورته وطباعه ، وكذلك اعضاؤه مختلفة في طباعها وصورها ، وأن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها وبالحركة والسكون والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه والأعراض النفسانية من الغم والحزن[٢] والغضب والهم ، قالوا : والغرض بالطب في تدبير الأجسام حفظ الصحة الموجودة في البدن الصحيح ، واجتلابها للعليل ، فالواجب ان يكون حفظ الصحة انما هو بمعرفة الأسباب المصححة ، فالواجب على الطبيب لا محالة من هذه المقدمات التي قد صحت إذا أراد علاج المريض النظر في طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات والأزمان والأوقات الحاضرة والأسباب ليستدل بجميع ذلك ، وهذا يا أمير المؤمنين قول أبقراط وجالينوس فيمن تقدم وتـــأخر عنهم ، قالوا : وقد اختلفت هذه الطائفة في كثير من الأغذية والأدوية ، مع اتفاقهم على ما وصفنا وذلك لاختلافهم في كيفية الاستدلال ؛ فمنهم من زعم انه يستدل على طبيعة الشيء من الأغذية والأدوية بطعمه او ريحه او لونه او قوامه او فعله او تأثيره في الجسد ، وزعموا ان الوثيقة في الاستدلال بالأجزاء اذا كانت الألوان والأرايح[٣] وسائر ما ذكرنا من افعال الطبائع الأربع ، كما أن الامتحان

---

١) في نسخة : الطب الحيلي . ٢) في نسخة : والفزع . ٣) في نسخة : والروائح .

والتبريد والتليين[١] فعل لها ، وزعمت طائفة أخرى منهم أن أصح الشهادات وأثبت القضايا في الحكم على طبيعة الدواء والغذاء بما اخذ من فعله في الجسد دون الطعم والرائحة ، وما سوى ذلك ، فان الاستدلال بما سوى الفعل والتأثير لا يقطع به ، ولا يعول في الحكم على طبيعة الدواء المفرد والمركب .

قال الواثق لحنين من بين الجماعة : ما أول آلات الغذاء من الانسان ؟ قال : أول آلات الغذاء من الانسان الفم ، وفيه الأسنان ، والأسنان اثنتان وثلاثون سناً ، منها في اللحي الأعلى ستة عشر سناً ، وفي اللحي الأسفل كذلك ، ومن ذلك أربعة في كل واحد من اللحيين عراض محددة الأطراف يسميها الأطبــاء من اليونانيين القواطع وذلك أن بهــا يقطع ما يحتاج الى قطعه من الأطعمة اللينة ، كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين ، وهي الثنايا والرَّباعيَاتُ ، وعن جنبي هذه الأربعة في كل واحد من اللحيين سنان رؤوسها حادّة وأصولها عريضة ، وهي الأنياب ، وبها يكسر كل ما يحتاج الى تكسيره من الأشياء الصلبة مما يؤكل ، وعن جنبي النابين في كل واحد من اللحيين خمس اسنان أخر عوارض خشن ، وهي الأضراس ، ويسميها اليونانيون الطواحن ، لأنها تطحن ما يحتاج الى طحنه مما يؤكل ، وكل واحد من الثنايا والرَّباعيات والأنياب له اصل واحد ، وأما الأضراس فما كان منها في اللحي الأعلى فله ثلاثة أصول ، خلا الضرسين الأقصيين، فإنه ربما كان لكل واحد منها اصول أربعة ، وما كان من الأضراس في اللحي الأسفل فلكل واحد منها أصلان ، خلا الضرسين الأقصيين ، فإنه ربما كان لكل واحد منها اصول ثلاثة ، وإنما احتيج الى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان لشدة قوة العمل بها ، وخصت العليا منها بالزيادة في الأصول لتعلقها بأعلى الفم .

قال الواثق : أحسنت فيما ذكرت من هذه الآلات ، فصنف لي كتاباً

---

١) في نسخة : والتيبيس .

تذكر فيه جميع ما يحتاج الى معرفته من ذلك ، فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد .

الواثق وحنين بن اسحاق ايضاً : وقد ذكر ان الواثق سأل حنيناً في هذا المجلس وفي غيره عن مسائل كثيرة ، وأن حنيناً أجاب عن ذلك ، وصنف في كل ذلك كتاباً ترجمه بكتاب « المسائل الطبيعية » يذكر فيه انواعاً من العلوم ، فكان مما سأل الواثق حنيناً من المسائل ، وقيل : بل أحضر له الواثق نديماً من ندمائه فكان يسأله بحضرته والواثق يسمع ويتعجب مما يورده السائل والمجيب ، إلى أن قال : فما الأشياء[1] المغيرة للهواء ؟ قال حنين : خمس ، وهي أوقات السنة ، وطلوع الكواكب وغروبها ، والرياح ، والبلدان ، والبحار .

أوقات السنة : قال السائل : فكم هي أوقات السنة ؟ قال حنين : أربع : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء ؛ فمزاج الربيع معتدل في الحرارة والرطوبة ، ومزاج الصيف حار يابس ، ومزاج الخريف بارد يابس ، ومزاج الشتاء بارد رطب .

الكواكب : قال السائل : أخبرني عن كيفية تغيير الكواكب للهواء ، قال حنين : إن الشمس متى قربت منها أو قربت هي من الشمس كان الهواء أزيد سخونة ، وبخاصة كلما كانت أعظم ، ومتى بعدت الشمس أو بعدت هي من الشمس كان الهواء أزيد برداً .

الرياح : قال السائل : أخبرني عن كيفية أعداد الرياح ، قال حنين : أربع : الشمال ، والجنوب ، والصبا ، والدبور ، فأما قوة الشمال فباردة يابسة ، وأما الجنوب فحارة رطبة ، وأما الصبا والدبور فمعتدلان ، غير أن الصبا أميل إلى الحرارة واليبس ، والدبور أميل إلى البرودة والرطوبة من الصبا .

---

١) في نسخة : كم الاسباب المغيرة للهواء .

البلدان : قال : فأخبرني عن أحوال البلدان في ذلك ؛ قال : هي أربع : الأول الارتفاع ، والثاني الانخفاض ، والثالث مجاورة الجبال والبحار ، والرابع طبيعة تربة الأرض ، والنواحي أربع ، وهي : الجنوب ، والشمال ، والمشرق ، والمغرب ، فناحية الجنوب أسخن ، وناحية الشمال أبرد ، وأما ناحيتا المشرق والمغرب فمعتدلتان ، واختلاف البلدان بارتفاعها وانخفاضها ؛ لان ارتفاعها يجعلها أبرد ، وانخفاضها يجعلها أسخن ، والبلدان تختلف بحسب مجاورة الجبال لها ؛ لأن الجبل متى كان من البلد في ناحية الجنوب جعل ذلك البلد أزيد برداً لأنه يستره من الرياح الجنوبية ، وإنما تهب فيه الريح الشمالية فقط ، ومتى كان الجبل من البلد في ناحية الشمال جعل ذلك البلدَ أسخنَ .

قال : فأخبرني عن اختلاف البلدان عند مجاورتها البحار كيف اختلفت؟ تأثير البحار في البلدان : قال حنين : إن كان البحر من البلد في ناحية الجنوب ، فإن ذلك البلد يسخن ويرطب ، وإن كان في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد .

قال السائل : فأخبرني عن البلدان كيف اختلفت بحسب طبيعة تربتها ، قال : إن كانت أرضها حجرية جعلت ذلك البلد أبرد وأخف وإن كانت تربة البلد حصبانية جعلت ذلك البلد أخف وأسخن وإن كانت طيناً جعلته أبرد وأرطب .

قال : فلم اختلف الهواء من قبل البحار ؟ قال : إذا جاورت[1] نقائع ماء أو جيفاً أو بقولاً عفنة أو غير ذلك مما يتعفن تغير هواؤها .

فلما كثر هذا الكلام من السائل والمجيب أضجر ذلك الواثق ، فقطع ذلك وأجاز كل واحد ممن حضر ، ثم أمرهم أن يخبر كل واحد منهم عما حضره في الزهد في هذا العالم الذي هو عالم الدثور والفناء والغرور فذكر كل واحد

(١) في نسخة : اذا جاورته أنقع ماء أو جيف أو بقول عفنة ـ الخ .

منهم ما سَنَحَ له من الأخبار عن زهد الفلاسفة من اليونانيين والحكماء المتقدمين كسقراط وديوجانس .

نطق الحكماء على جدث الاسكندر : قال الواثق : قد أكثرتم فيما وصفتم، وقد أحسنتم الحكاية فيما ذكرتم ، فليخبرني كل واحد عن أحسن ما سمع من نطق الحكماء الذين حضروا وفاة الإسكندر وقد جعل في التابوت[١] الأحمر .

فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ، كل ما ذكروه حسن ، وأحسن ما نطق به مَنْ حضر ذلك المشهد من الحكماء ديوجانس ، وقد قيل : إنه لبعض حكماء الهند ، فقال : إن الإسكندر أمس أنطـقُ منه اليوم ، وهو اليوم أوْعَظُ منه أمس .

وقد أخذ هذا المعنى من قول الحكيم أبو العتاهية حيث قال :

كفى حَزَناً بدفنك ثم إني نفضت تراب قبرك من يديَّا
وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حَيَّا

فاشتد بكاء الواثق ، وعلا نحيبه ، وبكى معه كل من حضر من الناس ، ثم قام من فَوْره ذلك وهو يقول :

وصروف الدهر في تقديره خلقت فيها انخفاضاً وانحدارْ
بينما المرء على إعلائها إذ هوى في هُوَّة منها فحارْ
إنما مُتعَةُ قوم ساعة وحياة المرء ثوب مستعار

قال المسعودي : وللواثق أخبار حسان مما كان في أيامه من الأحداث وما كان يجري من المباحثة في مجلسه الذي عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع والأصول ، وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب في

---

١) في نسخة : في تابوت الذهب الأحمر .

باب خلافة القاهر بالله بن المعتضد بالله جملاً من الأخبار في أخلاق الخلفاء من بني العباس لمعنى أوجب إيرادها في باب خلافة القاهر .

واعتلّ الواثق فصلى بالناس يوم النحر أحمد بن أبي دُؤاد ، وكان قاضي القُضاة ، فدعا في خطبته للواثق ، فقال : اللهم اشفه مما ابتليته ، وقد قدمنا ذكر وقت وفاته فيما سلف من أخباره في هذا الباب ، فأغنى ذلك عن إعادته .

تم الجزء الثالث بحمد الله وتوفيقه

فهرس الموضوعات

الواردة في الجزء الثـــالث من

كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي

٣ - ٢٩ ذكر خلافة معاوية بن ابي سفيان وذكر لمع من أخباره وسيره ونوادر من بعض افعاله .

مقتل حجر الكندي ٣ - عدي بن حاتم ومعاوية ٤ - بين عمرو بن عثمان واسامة عند معاوية ٥ - الحاق زياد بأبي سفيان ٦ - كتاب معاوية الى علي ١٣ - جواب علي ١٣ ، ١٤ - بين سعد ومعاوية ١٤ ، ٢٢ - بين معـــاوية وعمرو بن العاص ووردان ٢٢ - وفاة عمرو بن العاص ٢٣ - ابو ايوب الانصاري ٢٤ - المغيرة ابن شعبة ٢٤ - مـــوت زياد ٢٦ - البيعة ليزيد ٢٥

٢٩ - ٥٠ ذكر جمـــل من اخلاقه وسياسته وطرائف من عيون اخباره .

من اخلاق معاوية وعاداته ٢٩ - من دهاء معاوية ٣١ - من غفلة أهل الشام والعراق ٣٢ - متطبب في عهد الرشيد ٣٤ - من أخـــلاق العامة ٣٤ - عقيل بن ابي طالب ومعاوية ٣٦ - وصف بني صـــوحان ٣٧ - من صعصعة الى عقيل ٣٧ - بين علي ووجوه اصحابه ٣٨ - معاوية وجماعة من اصحاب علي ٤٠ - صعصعة ابن صوحان عند معاوية يصف له اهل البلاد ٤٣ - من اخبار صعصعة ٤٣ - ابو ايوب وصعصعة ٤٧ - من قول علي في ربيعة ٤٨ - معاوية وجيل بن كعب ٤٨ - معاوية عند موته ٤٩

٥٠ - ٥٣ ذكر الصحابة ومدحهم وعلي والعباس وفضلهما .

معاوية وعبد الله بن العباس ٥٠ - وصف عمر ٥١ - وصف عثمان ٥١ - وصف علي ٥١ - وصف الصحابة عامة ٥٢

٥٣ - ذكر ايام يزيد بن معاوية بن ابي سفيان .

موجز ٥٣

٥٤ - ٦٣ ذكر مقتل الحسين بن علي ابن ابي طالب ومن قتل معه من اهل بيته وشيعته .

اهل الكوفة يدعون الحسين ٥٤ - مسلم بن عقيل يتقـــدم الحسين الى الكوفة ٥٤ - ابن عباس ينصح الحسين ٥٤ ، ٥٥ - الحسين وابن الزبير ٥٥ - نصيحة ابي بكر بن هشام ٥٦ - يزيد يستعد ٥٧ - مقتل هانيء بن عروة ٥٩ - الحسين يقاتل جيش ابن زياد ٦٠

٦٣ - ٦٤ اسماء ولد علي بن ابي طالب .

اسماء ولد علي وامهاتهم ٦٣ - ذو العقب من اولاد علي ٦٤ - رثاء قتيل الطف ٦٤

٦٥ - ٧٢ ذكر لمع من اخبار يزيد وسيره ونوادر من بعض افعاله .

خروج يزيد لوفود العرب ٦٥ ـ بين يزيد وعبد الملك ٦٧ ـ فسوق يزيد وعماله ٦٧ ـ ما قيل في مقتل الحسين ٦٨ ـ اهــل المدينة وعمال يزيد ٦٨ ـ وقعة الحرة ٦٩ ـ رمي الكعبة بالمجانيق ٧١

٧٢ ـ ٩٠ ذكر أيام معاوية بن يزيد ابن معاوية ومروان بن الحكم والمختار ابن ابي عبيد وعبد الله بن الزبير .

موجز عن معاوية بن يزيد ٧٢ ـ المختار في الكوفة ٧٣ ـ مال ابن الزبير ٧٥ ـ ابن الزبير واخوه عمر ٧٥ ـ ابن الزبير وعبد الله ابن محمد بن الحنفية ٧٦ ـ بين ابن عباس وابن الزبير ٨٠ ـ بين ابن الحنفية وابن الزبير ٨٠ ـ ابن الزبير ينتقص ابن العبــاس ٨٧ ـ بين ابن الزبير والحصين بن نمير ٨٢ ـ ابن الزبير يبني الكعبة على قواعد ابراهيم ٨٣ ـ عبد الله بن زياد والخلافة ٨٤ ـ الكوفة تأبى الانقياد له ٨٤ ـ تدبير مروان بن الحكم ٨٥ ـ البيعة لمروان ٨٦ ـ لقاء مروان والضحاك بن قيس ٨٧ ، ٨٩ ـ موت مروان بن الحكم ٨٩ ـ ترجمة مروان ٨٩

٩١ ـ ذكر أيام عبد الملك بن مروان .

موجز ٩١

٩٢ ـ ١٢٤ ذكر جمــل من افعاله وسيره ولمع مما كان في ايامه ونوادر من أخباره .

منادمة الشعبي لعبد الملك ٩٢ ـ مهب الرياح ٩٢ ـ حركة للشيعة ٩٣ ـ موقعة عين الوردة ٩٤ ، ٩٦ ـ وصف القرآن لعلي كرم الله وجهه ٩٦ ـ مقتل عبيد الله بن زياد ٩٧ ـ اضطراب في كل ناحية ٩٧ ـ بــين مصعب والمختار الثقفي ومقتل المختار ٩٨ ـ وفاة عبد الله بن العباس ١٠١ ـ مقتل عمرو بن سعيد الأشدق ١٠٢ ، ١٠٩ ـ اربع رؤوس في مــكان واحد ١٠٩ ـ الناس يبايعون عبد الملك ١١٠ ـ روح بن زنباع وبشر بن مروان ١١٠ ـ الحجاج في مكة ١١٢ ـ ولاية الحجاج الحجاز ١١٥ ـ جابر بن عبدالله ١١٥ ـ محمد بن الحنفية ١١٦ ـ ملك الروم والشعبي ١١٧ ـ وصف معاوية عبد الملك ١١٧ ـ عبد الملك وعامل له قبل هدية ١١٨ ـ عبد الملك وعمرو ابن بــلال يصلح بينه وبين زوجته ١١٨ ـ الحجاج يصف الفتنة ١١٩ ـ كتاب من عبد الملك الى الحجاج لم يفهمه ١٢٠ ـ عبد الملك يحج ١٢١ ـ روح بن زنباع وعبدالملك ١٢٢ ـ عبد الملك الهمذاني وسليمان بن المنصور ١٢٤

١٢٥ ـ ١٥٦ ذكر طرف من اخبار الحجاج وخطبه ومــا كان منه في بعض افعاله .

سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء ١٢٥ ـ عبد الملك يولي المهلب قتال الخوارج ١٢٦ ـ خطبة الحجاج عند مقدمه العراق ١٢٧ ، ١٣١ ـ خروج ابن الاشعث ١٣١ ـ وقائع دير الجماجم وقتل ابن الاشعث ١٣٢ ـ من عبد الملك الى الحجــاج ١٣٣ ـ الحجاج يلتمس عددا مؤنسا ١٣٥ ، ١٣٨ ـ بعض ما اتفق عليه الخوارج وما اختلفوا فيه ١٣٨ ـ ذكر بعض الخوارج ١٣٨ ـ الحجاج وشبيب الخارجي ١٣٩ ـ ابن القرية ١٤٠ ـ ليلى الاخيلية والحجاج ١٤٠ ـ بعض عادات العرب ١٤١ ـ خطبة لعلي بن ابي طالب يعاتب اصحابه ١٤٢ ـ الحجــاج يسأل عن النعمة ١٤٢ ـ خطبة للحجاج وقد ارجف الناس بموته ١٤٢ ـ خطبة للحجاج يهدد ويتوعد ١٤٣ ـ الحجاج وعبد الله بن

هانيء ١٤٤ - الحجاج والشعبي ١٤٥ - الحجاج يريد الحج ١٤٦ - عبيد بن ابي المخارق يتولى عملا ويطلب المشورة ١٤٦ - الغضبان بن القبعثري ١٤٧ - وصف البصرة والكوفة ١٥١ - الحجاج يصف الدنيا ١٥١ - وسول المهلب الى الحجاج ١٥١ - الحجاج وجرير بن الخطفي ١٥٢ - بين الحجاج واعشى همدان ١٥٤

١٥٦ - ١٥٧ ذكر ايام الوليد بن عبد الملك .

موجز

١٥٧ - ١٧٣ ذكر لمع من اخباره وسيره وما كان من الحجاج في أيامه.

خلق الوليد وولده ١٥٧ - بناء مسجدي دمشق والمدينة ١٥٧ - بين الوليد والحجاج ١٥٨ - بين الحجاج وأم البنين ١٥٩ - موت علي بن الحسين السجاد ١٦٠ - موت عبدالملك ابن مروان ١٦٠ - موت عبيد الله بن العباس ١٦١ - عبيد الله بن العباس وبسر بن ارطاة ١٦٢ - موت عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ١٦٣ - مقتل سعيد بن جبير ١٦٤ - بين الوليد واخيه سليمان ١٦٤ - وصية عبد الملك لاولاده ١٦٦ - موت الحجاج ١٦٦ - موت عبد الله بن جعفر ١٦٧ ، ١٦٩ - كتاب من عبد الملك الى الحجاج لم يفهمه ١٦٩ - كتاب من الحجاج الى المهلب ١٦٩ - ليلى الاخيلية والحجاج ١٧٠ - ابن عم للحجاج يطلب منه ان يوليه فيمتحنه فيوليه فينجح ١٧٠ - ابن ابراهيم التيمي في سجن الحجاج ١٧١ - الحجاج يسأل ابن القرية عن النساء ١٧٢

١٧٣ - ١٨١ ايام سليمان بن عبد الملك ولمع من اخباره وسيره .

خطبته اول ما ولي الخلافة ١٧٤ - خالد القسري في مكة ١٧٤ - كان سليمان اكولاً ١٧٥ - لبس سليمان فاعجبته نفسه ١٧٦ - بين سليمان وكاتب الحجاج ١٧٧ - بين سليمان وابي حازم الاعرج ١٧٧ - بين سليمان واعرابي ١٧٨ - سليمان يصف معاوية ١٧٩ - خالد القسري في العراق ١٧٩ - سليمان على الضد من الوليد ١٨٠ - غضب سليمان على خالد القسري - بعض الكتاب ينعي سليمان ١٨١

ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ولمع من اخباره وسيره وزهده .

كيف آلت الخلافة لعمر ١٨٣ - خلق عمر ودينه ١٨٣ - بين السدي وعمر ١٨٤ - من طاوس الى عمر - بين عمر وعامله على المدينة ١٨٤ - تقدير ملك الروم لعمر ١٨٥ - وصية الاعرج - زهده بعد الخلافة - من مطرف الى عمر ١٨٦ - بين عمر وعبد له ١٨٧ - بين عمر وغلام ورد عليه في وفد الحجاز ١٨٧ - قصة جارية عند قاضي المدينة ١٨٨ - بين فتى اموي وجارية لبعض قريش ١٨٩ - عمر والخوارج ١٩٠ ، ١٩٣ - بعض شعراء الخوارج ١٩٣ - بعض علماء الخوارج ١٩٤ - رأي عمرو بن عبيد فيه ١٩٤ - الفرزدق يرثي عمر ١٩٥

١٩٥ - ٢٠٤ ذكر ايام يزيد بن عبد الملك بن مروان مع ذكر لمع من اخباره وسيره .

حبه سلامة القس ١٩٦ - يزيد وحبابة وشعر للفند الزماني ١٩٧ - موت حبابة وجزع يزيد عليها ١٩٨ - يزيد بن المهلب يخرج على يزيد بن عبد الملك ١٩٩ - صنيع يزيد في آل

المهلب ٢٠٠ - بين ابن هبيرة والشعبي وابن سيرين والحسن البصري ٢٠١ - موت جماعة من العلماء ٢٠٣ - محمد بن سيرين واخوته ٢٠٣

٢٠٥ - ٢١١ ذكر ايام هشام بن عبد الملك بن مروان مع لمع من اخباره وسيره .

اوصافه واخلاقه ٢٠٥ - استشهاد زيد بن علي ٢٠٦ - صنيع العباسيين بقبور الامويين ٢٠٧ - فريق الزيدية من الشيعة ٢٠٨ - بين هشام ورجل من اهل مصر ٢٠٩ - هشام والابرش الكلبي وجارية من جواري هشام ٢٠٩ - امثلة من بخل هشام ٢١٠ - السواس من بني امية ٢١١

٢١٢ - ٢١٩ ذكر ايام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان مع لمع من اخباره وسيره .

ظهور يحيى بن زيد ومقتله ٢١٢ - لهو الوليد وخلاعته ٢١٣ - الوليد وشراعة بن زيد ٢١٤ - من قوله في الشراب ٢١٤ - سمير الوليد يتحدث عنه ٢١٥ - ورث الوليد الخلاعة عن يزيد ابيه ٢١٥ - فعله بالمصحف . شعر له الحد فيه - نسب امه - من شواهد اليشب ٢١٦ - كان مغرى بالخيل - مراتب خيل الحلبة ٢١٧ - وفاة ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين ٢١٩

٢٢٠ - ٢٢٨ ذكر ايام يزيد وابراهيم ابني الوليد مع لمع مما كان في ايامهما.

وصف يزيد الناقص - قول المعتزلة في التوحيد - قولهم في العدل ٢٢١ - قولهم في الوعيد - قولهم في المنزلة بين المنزلتين - قولهم في الامر بالمعروف ٢٢٢ - الاختلاف في الامامة ٢٢٣ ، ٢٢٦ - ظهور مروان بن محمد (الحمار) ٢٢٦ - سبب زوال ملك الامويين ٢٢٨

٢٢٨ - ٢٣٢ ذكر السبب في العصبية بين النزارية واليمانية .

الكميت يعرض شعره على الفرزدق ٢٢٨ - الكميت يعرض شعره على ابي جعفر محمد بن علي وعلى عبد الله بن الحسن ٢٢٩ - عبدالله بن جعفر يثيب الكميت ٢٣٠ - دعبل الخزاعي يرد على الكميت ٢٣١ - كانت العصبية من دواعي زوال ملك بني امية ٢٣٢

٢٣٢ - ٢٣٤ ذكر ايام مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وهو الجعدي .

٢٣٤ - ٢٣٦ ذكر مقدار المدة من الزمان وما ملكت فيه بنو امية من الاعوام .

المدة اجمالاً ، تفصيل المدة ٢٣٤ - مدة ملك بني العباس ٢٣٥

٢٣٦ - ٢٥٠ ذكر الدولة العباسية ولمع من أخبار مروان ومقتله وجوامع من حروبه وسيره .

قول الراوندية في الخلافة ٢٣٦ - من حوار فاطمة الزهراء وابي بكر الصديق ٢٣٧ - العثمانية للجاحظ ٢٣٧ - كتب اخرى للجاحظ ٢٣٧ - نقض الشيعة لكتب الجاحظ ٢٣٨ - المعتزلة تنقض العثمانية ٢٣٨ - رأي الجريانية في الامامة ٢٣٨ - أصل ابي مسلم الخراساني ٢٣٨ - بين نصر بن سيار ومروان بن محمد الجعدي ٢٣٩ - بعض خلال واعمال مروان

ابن محمد الجعدي ٢٤٠ - نصر يكتب لابن هبيرة يستنجده ٢٤١ - دعاة الى طلب الحق بالحجاز ٢٤٢ - مروان يجهز لحرب الخوارج ٢٤٢ - خديعة مروان للقبض على ابراهيم الامام - موت نصر بن سيار ٢٤٣ - مقتل ابراهيم وجماعة معه ٢٤٤ - موقعة الزاب بين عبدالله بن علي ومروان ٢٤٥ - اهل حران ومروان ٢٤٥ - بنات مروان بين يدي صالح ابن علي ٢٤٧ - عبد الحميد بن يحيى الكاتب ٢٤٨ - مروان يعتزم الفرار الى ارض الروم فيرده اسماعيل القشيري ٢٤٩

٢٥٢ - ٢٨٠ ذكر خلافة ابي العباس عبدالله بن محمد السفاح مع ذكر جمل من اخباره وسيره .

وصية ابراهيم الامام له ٢٥٢ - مقدم السفاح الكوفة ، كيف آلت الامامة للسفاح ٢٥٤ - عامر بن اسماعيل قاتل مروان ٢٥٦ - بين السفاح وعامر بن اسماعيل ٢٥٦ - رأس مروان بين يدي السفاح ٢٥٧ - بين عبدالله بن علي واخيه داود في ولاية عهد السفاح ٢٥٩ - زواج السفاح بام سلمى بنت يعقوب ٢٦٠ - كان السفاح يحب مسامرة الرجال ٢٦٣ - السفاح وابو نخيلة ٢٦٤ - بعض عادات وسياسات السفاح ٢٦٤ - من الفضائح في مخالطة الملوك ٢٦٦ - احسن المواقع من الملوك ٢٦٧ - معاوية وابن شجرة الرهاوي ٢٦٨ - من ادب الحديث ٢٦٩ - اول وزير في الدولة العباسية ٢٧٠ - مسامرات السفاح ٢٧١ ، ٢٨٠

٢٨٢ - ٣٠٨ ذكر خلافة ابي جعفر المنصور وجمل من اخباره وسيره ولمع مما كان في ايامه .

رؤيا ام المنصور - المنصور ورفيق سفر ضرير شاعر ٢٨٢ - المنصور واهله يتحدثون عن سير بني امية ٢٨٣ - وفاة محمد بن جعفر الطالبي - المنصور يسأل عن تدبيرات هشام بن عبد الملك ٢٨٥ - المنصور ومعن بن زائدة ٢٨٦ - المنصور يقع بين يديه سهم كتب عليه شعر وظلامة ٢٨٧ - المنصور يستشير في أمر ابي مسلم ٢٨٩ - خروج عبدالله بن علي ٢٨٩ - خلاف ابي مسلم للمنصور وقتله ٢٩٠ - خطبة المنصور بعد قتل ابي مسلم ٢٩٣ - الخرمية الفرقة التي تتولى ابا مسلم ٢٩٣ - بين الخرمية وجيش المنصور ٢٩٤ - ظهور محمد بن عبدالله ابن الحسن (النفس الزكية) ٢٩٤ - تفرق اخوة محمد بن عبدالله في البلاد ٢٩٦، ٣٠١ - بين المنصور والربيع ٣٠٢ - بين المنصور وعمرو بن عبيد ٣٠٢ - موت عمرو بن عبيد ٣٠٣ - موت هشام بن عروة - موت ابي حنيفة النعمان وجماعة - مقتل عبد الله بن علي عم المنصور ٣٠٤ - وفاة المنصور ٣٠٧ - صفات المنصور ٣٠٧

٣٠٩ - ٣٢٤ ذكر خلافة محمد بن عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس مع جمل من اخباره وسيره .

المهدي وشريك القاضي - المهدي وعمرو ابن الربيع يجوعان في طريقهما للصيد ٣١٠ - وزراء المهدي ٣١٢ - خصال المهدي واعماله ٣١٢ - الخيزران وامرأة مروان بن محمد ٣١٣ - عبدالله بن عمرو بن عتبة يعزي المهدي ويهنئه - عتبة الجارية وابو العتاهية ٣١٥ - من ابي العتاهية الى المهدي ٣١٧ - محمد المهدي والشرقي ابن القطامي ٣٢٠ - المهدي ومروان بن ابي حفصة ٣٢٢ - بين المهدي وسفيان الثوري ٣٢٣ -

رؤيا المهدي قبل وفاته ٣٢٣ ـ وفاة زفر بن الهذيل وجماعة من العلماء ٣٢٣

٣٢٥ ـ ٣٣٦ ذكر خلافة موسى الهادي وجمل من اخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه .

اوصاف الهادي ـ مثل من شجاعته ـ بين الهادي وعيسى بن دأب ـ جريمة غلام سندي ٣٢٥ ـ وزراء المهدي ـ ظهور الحسين بن علي بن الحسن ٣٢٦ ـ من مراثي الحسين بن علي صاحب فخ ٣٢٨ ـ طاعة الهادي لام الخيزران ٣٢٧ ـ اخذ العباسيون ثار بني هاشم من بني مروان ٣٢٨ ـ بعض فضائل مصر وبعض اخبارها وبعض عيوبها ٣٢٩ ـ مدينة دنقلة ـ بين البصرة والكوفة ٣٣٠ ـ رغبة الهادي في خلع الرشيد من ولاية العهد ٣٣٢ ـ بين الهادي والرشيد ٣٣٤ ـ رؤيا المهدي لولديه الهادي والرشيد ٣٣١ ـ حاز الهادي سيف عمرو بن معد يكرب (الصمصامة) ٣٣٥

٣٣٦ ـ ٣٦٧ ذكر خلافة هارون الرشيد مع جمل من اخباره وسيره ولمع من ايامه .

الرشيد يستوزر يحيى بن خالد البرمكي ٣٣٧ ـ محمد بن سليمان وسوار القاضي يعترضها مجنون ٣٣٧ ـ موت شريك النخعي القاضي ٣٣٩ ـ موت مالك بن انس الامام ٣٣٩ ـ حماد بن زين ـ ابن المبارك ـ القاضي ابو يوسف ـ عبدالله بن مصعب الزبيري وموسى ابن عبدالله بن الحسن الطالبي بحضرة الرشيد ٣٤٠ ـ ظهور محمد بن جعفر ثم هربه الى المغرب ٣٤٣ ـ الرشيد يحج آخر حجة ـ موت الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني ـ يحيى بن خالد ـ سخط الرشيد على عبد الملك ابن صالح ٣٤٣ ـ ابن بختيشوع الطبيب يمنع عن الرشيد سمكة اهديت اليه ٣٤٤ ـ رؤيا الرشيد يؤمر بالتخلية عن موسى بن جعفر ٣٤٦ ـ ابراهيم بن المهدي يغني لاسود ٣٤٧ ـ بين الرشيد ومعن بن زائدة ـ بين الرشيد والكسائي ٣٤٩ ـ فرصة الرشيد لمؤدب الأمين الاحمر النحوي ٣٥١ ـ العماني عند الرشيد يحرضه على تجديد العهد للأمين ٣٥١ ـ حرص الرشيد على ولاية عهده ٣٥٢ ـ الرشيد يعلق كتاب العهد في الكعبة ٣٥٣ ـ وفاة الفضيل بن عياض ٣٥٤ ـ موت موسى بن جعفر الطالبي ـ من شعر العتابي في الرشيد ـ العتابي ينال من أبي نواس ٣٥٥ ـ أبو العتاهية وعتبه ٣٥٦ ـ اسحاق الموصلي يغني الرشيد ٣٥٩ ـ جماعة المغنين عند الرشيد ٣٦٠ ـ الرشيد يجري حلبة الخيل ٣٦٢ ـ طبق سمك يتكلف الف درهم ٣٦٣ ـ احسن الاسماء واسمجها ٣٦٣ ـ ادب مخاطبة الأمراء ٣٦٤ ـ رجل يتعرض للرشيد بقصة فيثيبه باربعة آلاف دينار ٣٦٥ ـ السكر اطيب او المشان ٣٦٥ ـ تعزية وتهنئة ٣٦٥ ـ علة الرشيد ٣٦٥ ـ شعر لابي العتاهية يبكي الرشيد ٣٦٦

٣٦٨ ـ ٣٨٧ ذكر جمل من اخبار البرامكة وما كان منهم في ايامهم .

اسماء خالد بن برمك ٣٦٨ ـ سبب نكبتهم ٣٦٨ ـ الفضل بن يحيى يتشاغل بالصيد فيزجره ابوه بامر الرشيد ٣٦٨ ـ جعفر البرمكي عند الاصمعي ٣٧٠ ـ مجلس عند يحيى بن خالد

٣٧٠ - حديث لهم عن العشق ٣٧١ - العشق وعلة وقوعه ٣٧٢ - الرشيد يزوج اخته العباسة لجعفر البرمكي ٣٧٥ ، ٣٨٠ - سلطة البرامكة ورثاء الشعر لهم ٣٨٠ ، ٣٨٧

٣٨٧ - ٤١٦ ذكر خلافة محمد الامين وجمل من اخباره وسيره ولمع مما كان في ايامه .

كيف جاء خبر الولاية - رؤيا زبيدة ايام حملت بالأمين وعند مولده وبعده ٣٨٨ - عزم الأمين على خلع اخيه ٣٨٩ - الامين ينصب مجلس غناء وهو محاصر ٣٩٢ - لهو الأمين وقت الحصار ٣٩٤ - صفات الأمين ٣٩٤ - نبوءة بخلع الأمين ٣٩٥ - عبد الملك بن صالح ابن علي ٣٩٦ - من الامين الى طاهر بن الحسين ٣٩٩ - قف على القاب قادة الجيش (الضباط) ٤٠٢ - وقعة دار الرقيق ٤٠٥ - الوقائع الحاسمة - صرامة العراة ٤٠٦ ، ٤١٦

٤١٦ - ٤٥٨ ذكر خلافة المأمون وجمل من اخباره وسيره ولمع مما كان في ايامه .

المأمون والفضل بن سهل ٤١٧ - عمرو ابن مسعدة - علي بن يوسف الرضا - المأمون وعمه ابراهيم ٤١٧ - من كلمات المأمون ٤١٩ - بين ثمامة ويحيى بن اكثم عند المأمون ٤٢٠ - وفد الكوفة والمأمون ٤٢١ - المأمون والزنادقة ومعهم طفيلي ٤٢١ - ابراهيم بن المهدي يتطفل ٤٢٣ - اسحاق الموصلي وكلثوم العتابي عند المأمون ٤٢٦ - العتابي ٤٢٧ - رجـل يرقع قصته للمأمون ٤٢٨ - المأمون وأبو العتاهية ٤٢٩ - المأمون ورجل عامي ٤٢٩ - عي المأمون عن جواب ثلاثـة ٤٣٠ - مناظرة المأمون للفقهاء ٤٣٢ - يحيى بن اكثم قاضي البصرة ٤٣٤ - وفاة الامام الشافعي ٤٣٦ - ابو داود الطيالسي وابن الكلبي ٤٣٧ - المأمون ورجل يدعي النبوة ٤٣٧ - المأمون ورجل يدعي انه ابراهيم الخليل ٤٣٨ - خروج ابي السرايا وابن طباطبا وقوم من العلويين ٤٣٨ - ظهور ابن الافطس ٤٤٠ - الظفر بابي السرايا ٤٤٠ - المأمون وعلي بن موسى الرضا ٤٤٠ - مقتل الفضل بن سهل ٤٤١ - موت علي بن موسى الرضا ٤٤١ - ابراهيم بن المهدي يخرج على المأمون ٤٤٢ - خروج بابك الخرمي ٤٤٢ - الظفر بابراهيم ٤٤٢ - زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ٤٤٣ - اهـل المأمون يحملونه على قتل ابراهيم بن المهدي ٤٤٤ - من اخبار ابراهيم بن المهدي ٤٤٤ - يزيد بن هارون ٤٤٦ - موت جماعة من اهل العلم ٤٤٦ - قصة وفـاء وايثار ٤٤٦ - بـين ازهر وأبي جعفر المنصور - موت أبي عبيدة معمر بن المثنى ٤٤٩ - موت أبي العتاهية وشيء من اخباره ٤٥٠ - الزيادة في العروض على الخليل ٤٥٢ - ابو العباس الناشيء ٤٥٣ - نداء المأمون في أمر معاوية وسبيه ٤٥٤ - وفاة ابي عاصم النبيل وجماعة من اهل العلم ٤٥٥ - غزو الروم ٤٥٥ - علة المأمون وموته ٤٥٦

٤٥٩ - ٤٧٦ ذكر خلافة المعتصم ، ذكر جمل من اخباره وسيره ، ولمع مما كان في أيامه .

موجز ، ابن الزيات وزير المعتصم وأحمد ابن أبي دؤاد ، حب المعتصم للعمارة ٤٥٩ -

بأس المعتصم وقوته ٤٦ - المعتصم وعلي بن الجنيد ٤٦١ - المعتصم وشيخ زلق حماره في الطين ٤٦٣ - وفاة جماعة من العلماء ، محمد بن علي بن موسى بن جعفر ، محمد بن القاسم (العلوي) ٤٦٤ - جمع المعتصم للأتراك ٤٦٥ - تخطيط سامرا ٤٦٦ - خروج بابك الخرمي ٤٦٧ - غزو الروم زبطرة ٤٧٢ - خروج المازيار صاحب طبرستان وموته ٤٧٣ - موت أبي دلف العجلي ٤٧٤ - عداوة ابي دلف وابنه ، موت جماعة من العلماء ٤٧٥ - وفاة المعتصم ٤٧٦

٤٧٧ - ذكر خلافة الواثق بالله وذكر لمع من أخباره وسيره ولمع مما كان في ايامه .

موجز ، صفات الواثق ، غلب عليه اثنان ٤٧٧ - اعرابي يصف الواثق واعوانه ٤٧٨ - أبو تمام الطائي ٤٨٠ - علي بن الجهم ، قتيل في المحنة ، نديم ، محمد بن علي بن موسى ٤٨٨ - عبدالله بن طاهر ، مجلس للواثق في الفلسفة والطب ٤٨٩ - الواثق وحنين بن اسحاق أيضاً ، أوقات السنة ، الكواكب ، الرياح ٤٩٣ - البلدان ، تأثير البحار في البلدان ٤٩٤ - نطق الحكماء على جدث الاسكندر ٤٩٥